

شك

مَقَامَاتُ الْحَبْرِيِّ

للمؤلف: العلامة أحمد بن عبد الرحمن القيسي الشريفي

تمتبه
محمد بن الفضل بن أحمد



المكتبة العصرية
بيروت

الجزء الثالث

شرح مقامات الحريري

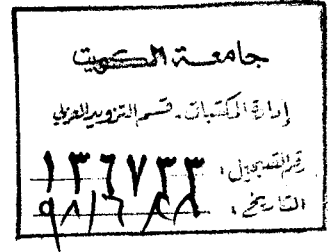
للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



الجزء الثالث



المكتبة العصرية
مستنداء بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف لايف ستايل للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العامة للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب المطبعة العامة للنشر

بكرت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلوكس SCST-1271LE

صعيدا - ص.ب. ٢٢١ - تلوكس ٢٩١٩٨LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية والعشرون وهي الرازية

حَدَّثُ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ : عُثِيتُ مُذْ أَخْكَمْتُ تَدْبِيرِي ،
وَعَرَفْتُ قَبِيلِي مِنْ دَيْرِي ، بَأَنْ أَصْفِيَ إِلَى الْعِظَاتِ ، وَأُنْفِي
الْكَلِمَ الْمُحْفِظَاتِ ، لِأَتَحَلَّى بِمَجَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَتَخَلَّى مِمَّا
يَسِمُ بِالْإِخْلَاقِ . وَمَا زِلْتُ أَخْذُ نَفْسِي بِهَذَا الْأَدَبِ ، وَأَخْذُ
بِهِ جَمْرَةَ الْغَضَبِ ؛ حَتَّى صَارَ التَّطَبُّعُ فِيهِ طَبَاعًا ، وَالتَّكَلُّفُ
لَهُ هَوًى مُطَاعًا .

عُثِيتُ ، أَيْ شَغِلْتُ . أَخْكَمْتُ : أَتَقَنْتُ . قَبِيلِي مِنْ دَيْرِي ، أَيْ مَا أَقْبَلُ
عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ وَمَا أَدْبَرُ عَنْهُ . ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : مَا يَعْرِفُ قَبِيلًا مِنْ دَيْرٍ ، أَيْ
مَا يَعْرِفُ الْإِفْهَالَ مِنَ الْأَدْبَارِ ، أَيْ مَا يَعْرِفُ مَا أَقْبَلُ بِهِ مِنَ الْقَبْلِ إِلَى الصَّدْرِ
مِمَّا أَدْبَرُ عَنْهُ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مَا يَعْرِفُ الشَّاةَ الْمُقَابِلَةَ مِنَ الْمَدَابِرَةِ ، وَالْمُقَابِلَةَ الَّتِي شَقَّ
أُذُنَهَا إِلَى قُدَامِ ، وَالْمَدَابِرَةَ الَّتِي شَقَّ أُذُنَهَا مِنْ مُؤَخَّرِهَا ، وَتَرَكَ مَاقِطَعَ مَعْلَقًا إِلَى
خَلْفِ لَا يَبِينُ .

أَصْفِي : أَمِيلُ . الْعِظَاتِ : هِيَ الْمَوَاعِظُ . الْغَى : أَتْرُكُ . الْكَلِمَ : جَمْعُ كَلِمَةٍ .
الْمُحْفِظَاتِ : الْمَغْضِبَاتِ . أَتَحَلَّى : أَتَزَيَّنُ وَأَتَصَفِّ . وَأَتَخَلَّى : أَزُولُ وَأَتَفَرِّغُ ،
وَتَخَلَّيْتُ مِنْ كَذَا : تَرَكْتُهُ . يَسِمُ : يُجْعَلُ سِمَةً . الْإِخْلَاقُ : الْعُيُوبُ وَتَمْزِيقُ الْعِرْضِ
وَأَصْلُهُ فِي الثَّوْبِ . أَخْذُ : أَسْكُنُ .

[الطبع والتطبع]

والتطبع له في الطبيعة أثر، وإن لم تذهب الطبيعة بالجملة، لأنه اتفقت العرب
والعجم على قولهم: الطبع أملك. وكان ملك من ملوك الفرس، له وزير
محبب حازم، فكان يعرف اليمن في مشورته، فهلك وقام ابنه بعده، فلم يرفع
به رأساً، فذكر له مكانته من أبيه، فقال: كان أبي يغلط فيه، وسأريكم ذلك.
فأحضره، وقال له: أيهما أغاب على الرجل؟ الأدب أو الطبيعة؟ فقال: الطبيعة
لأنها أصل والأدب فرع، وكل فرع يرجع إلى أصله. فدعا الملك بسفرة فوضعت،
وأقبلت سنانير بأيديها الشمع، فوقفت حول السفرة، فقال له: اعتبر خطأك وضعف
مذهبك، متى كان أبو هذه السنانير شماعاً؟ فقال له: أمهاني في الجواب إلى الليلة
المتعبة، فقال: لك ذلك. فخرج الوزير، وأمر غلامه أن يسوق له فارة فساقها
حيةً فربطها بخيط وعقدها في سينية. فلما راح إلى الملك وضعها في كفه، ودخل
فأحضر السفرة والسنانير ألقى لها الوزير الفارة، فاستبغت السنانير إليها، وتطاير
الشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً. فقال للملك: كيف رأيت غلبه
الطبع للأدب! قال: صدقت ورجع له ما كان عليه أبوه. وقال ذو الإصبع:
كل امرئ راجع يوماً لشيئته وأن تخلق أخلاقاً إلى حين^(١)

وقال المتنبي:

أبي خلق الدنيا حبيباً تُدِّمه فإطابي منها حبيباً تردّه^(٢) ؟
وأيسر مفعول فعلت تعيراً تكلف شيء في طباعك ضده

وقال العرجي:

بأيها المتحلي غير شيمته ومن شمائله التبديل والملق^(٣)

(١) من مفضيلته ٣١ ص ١٦٣، وفيه: « صائر ». (٢) ديوانه ٢: ١٩.

(٣) ديوانه ٣٣، وفيه: « ومن شمائله الإقتصار ».

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه^(١) إِنَّ التَّخَلَّقُ يَأْتِي دُونَهُ الْخَلْقُ
وقال المتنبي أيضاً :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل^(٢)
وقال الشريف :

هيهات لا تتكلفن لي الهوى فضح التطبّع شيمة المطبوع^(٣)
وقال ابن طاهر الأندلسي :

تقل الطباع من الإنسان ممتنع صعب إذا رامه من ليس من أربه
يريد شيئاً وتأباه طباعه والطبّع أملك للإنسان من أدبه
فيريد أنه راض نفسه على اتباع الخير وبعد الشر ، حتى انقادت له إلى ما يريد ،
والتطبّع استعمال غير مافى طبعك ، والتكلف استعمال ما لا تقدر عليه إلا بمشقة .

فَلَمَّا حَلَّتْ بِالرَّيِّ ، وَقَدْ حَلَّتْ حَبَا النَّمَى ، وَعَرَفْتُ
الْحَيَّ مِنَ اللَّيِّ ، رَأَيْتُ بِهَا ذَاتَ بُكْرَةٍ ، زُمْرَةٍ فِي إِثْرِ زُمْرَةٍ ،
وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ انْتِشَارَ الْجَرَادِ ، وَمُسْتَنْثُونَ اسْتِنَانِ الْجِيَادِ ،
وَمُتَوَاصِفُونَ وَاعِظًا يَقْصِدُونَهُ ، وَيُجِلُّونَ ابْنَ سَمْعُونَ دُونَهُ .

[الرّى]

قوله : « فلما حلت بالرّى » :

الرّى : أرض على جادة خراسان ، واسم مدينة الرّى المهدية ، سميت

(١) في الديوان : « ارجع إلى الحق إما كنت فاعله » .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٢ .

(٣) ديوانه ١ : ٤٩٦ .

بهذا الاسم ، لأنّ المهدي تولّاها في خلافة المنصور لما توجه إلى خراسان
لحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، وبها ولد الرشيد ، والمهدي أقام بها
عدة سنين ، فشيّد بناءها وأتقنه ، وأرضع نساء الوجوه من أهلها الرشيد . وأهل
الريّ أخلّط من العرب ، والعجم قليل فيها . وافتتحها قرط بن كعب الأنصاريّ
في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويشرب أهلها من عيون كثيرة وأودية
عظيمة ، وبها وادٍ عظيم يأتي من بلاد الديلم يقال له نهر عيسى ، ولكثرة مياه
البلد كثرت ثماره وجنّاته وأشجاره ، وله رساتيق ^(١) وأقاليم . ونسب إليها
الرازيّ ، وهو من شاذّ النسب .

وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم : ما يقيمك بأرض الفراعنة والجبابرة !
مرّ إلى خراسان ، أرض الفضة والعقيان ، والجواري الحسن .

* * *

وتقدّم الحبا . والنبيّ : الضلال ، والعرب تقول : ما يعرف الحيّ من اللىّ ،
والخوّم من اللوّ ، تقوله لمن تستجهله وتنفي عنه الفطنة ، وتصريفها أنّ الحيّ مصدر
حويت الشيء حزته وجمعه ، ولويت الرجل : مطلته ومنعته حقّه لوّاً وليّاً وليّانا ،
فالحيّ مدح واللىّ ذم ، فكأنّه إذا قال : عرفت الحيّ من اللىّ ، إنما قال : عرفت
الخير من الشرّ ، وما يضرّ مما ينفع ، وعرفت الحيّ من اللىّ . وقبيليّ من ديريّ ،
إنما يستعملان في النبيّ . وتجوز أبو محمد في استعمالهما في الإيجاب حيث كان
أصلاً للنبيّ .

الزّمرة : الجماعة ، وتقول : فلان إثر فلان أي خلفه وقريباً منه ، كأنّه
يتبع أثره إذا رفع هذا قدمه وضع الآخر قدمه في الموضع . منتشرون : متفرقون .
مستقنون : جارون . متواصفون : يصفه بعضهم لبعض .

* * *

(١) الرساتيق : القرى ، واحده رستان ، معرب

[ابن سمعون]

ابن سمعون : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن ^(١) عيسى بن إسماعيل المعروف بابن سمعون، الواعظ . وكان وخيدَ عصره وفريد دهره في الإخبار عما هجس في الأفكار ، ولياً من الأولياء الأخيار ، كلامه في الوعظ نافع ، ونصحه في القلوب ناجع ، ومجاله في تصاريف الكلام على الخواطر رَحْب واسع . وكان يقال : له الشيخ المنطق ^(٢) بالحكمة .

وحدث أبو الطاهر محمد بن عليّ العلاف قال : حضرت ابن سمعون يوماً وهو في مجلس الوعظ على كرسيه ، وكان أبو الفتح القوَّاس جالساً إلى جنب الكرسي ، فغشيته النعاس فنام ، فأمسك أبو الحسن عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في نومك ؟ فقال نعم ، فقال أبو الحسن : لذلك أمسكت عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عن الكلام الذي كنت فيه ^(٣) .

وذكر أبو عليّ الهاشمي ، قال : حكى لي مولى ^(٤) الطائع لله تعالى ، قال : أمرني الطائع أن أوجه إلى ابن سمعون فأحضره دار الخلافة ، ورأيت الطائع على صفة من الغضب - وكان يُتَقَيُّ في تلك الحال ، لأنه كان ذا حدة - فبعثت إلى ابن سمعون وأنا مشغول القلب لأجله ، فلما حضر ، أعلمت الطائع حضوره - فجلس مجلسه ، وأذن له في الدخول فسلم عليه ^(٥) بالخلافة ، ثم أخذ في وعظه فأول ما ابتدأ به أن قال : روى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ... وذكر خبراً ، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ حتى بكى الطائع وسمع شقيقه ، وابتل منديله بين يديه بدموعه ، فأمسك ابن سمعون حينئذ ، ودفع إلى درجاً فيه طيب

(١) المنتظم : « ابن عنبس » .

(٢) المنتظم : « الزاطق بالحكمة » .

(٣) المنتظم ٧ : ١٩٩ .

(٤) المنتظم : « دجى مولى الطائع » .

(٥) المنتظم : « فسذل وسلم بالخلافة » .

وغيره ، فدفعته إليه وانصرف . وعدت إلى الطائع ، وقلت : يامولاي ، رأيتك على صفة من الغضب على ابن سمعون ، ثم انتقلت عنها عند حضوره ، فالسبب ؟ فقال : رُفِعَ إلى أنه ينتقص علياً رضى الله عنه ، وأحببت أن أتيقن ذلك ، فإن صح منه قلته ، فلمّا حضر بين يديّ افتتح كلامه بذكره ^(١) والصلاة عليه ، وأعاد في ذلك وأبدى ، وقد كان له مندوحة في الرواية عن غيره وترك الابتداء به ، فعملت أنه وفقى ^(٢) لما تزول به عنه الظنّة ، وتبرأ ساحته عندي ، ولعله كوشف ^(٣) بذلك .

وله كتاب المجالس وهو كلّه أحاديث متصلة الأسانيد .

ومن كلامه أن القلب بمنزلة المرأة فإذا أصابها لطمخة عولجت بالزيت ، فإذا زادت زيد فيها من حتات الآجر ، فإذا زادت جليّت بالحديد ، فإذا زادت على ذلك حتى ركبها الصدا لم يكن لها بدّ من عرضها على النار حتى يتم جلاؤها .

توفى ابن سمعون في ذى القعدة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، ودفن بداره بشارع العباسي ، فلم يزل هناك حتى نقل يوم الخميس الحادى عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ودفن بباب حرب ببغداد . وقيل : إن أكفانه لم تكن بليت بعد .

* * *

فلم يتكأذنى لاستماع المواعظ ، واختيار الواعظ ؛ أن أقاصي اللاعظ ، وأختل الضاعظ . فأصحبت أصحاب المطوعة ، وانخرطت في سلك الجماعة ؛ حتى أفضينا إلى ناد جمع الأمير والمأمور ، وحشد النبى والمعمور ، وفي وسط هالته ، ووسط أهله ، شيع قد تقوس واقعنس ،

(١) المنتظم : « يذكر على » .

(٢) المنتظم : « وقف » .

(٣) الخبر في المنتظم : ٧ : ١٩٩ ، وانظر بقية أخباره هناك .

وَتَقْلَنْسَ وَتَطَّاسَ ؛ وَهُوَ يَصْدَعُ بَوْعُظَ يَشْفِي الصُّدُورَ ،
وَيُلِينُ الصُّخُورَ ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ، وَقَدْ افْتَتَنْتُ بِهِ الْعُقُولَ :

. . .

قوله: يتكأء ذنى ، أى يشقّ على . أقاصى : أباعد . اللاغط : الصائح بكلام
لا يفهم ، والضابط : الذى إذا زاحمك ضغطك لحائط أو غيره حتى ينقطع نفسك ،
يريد أنه لم يمنعه ما أصابه من السبّ والصياح به والضغط واللكر من مزاحمة
الناس حتى قرب من الواعظ .

وبين هذا قوله فى الحسين: «ولم أزل أنقل فى المراكز، وأغضى للأكز والواكر» .
أحسبت : انتقدت . المطوعة : المتقادين المطاوعين . والانخراط : دخول
الإنسان فى الأمر بغير علم . وتقدّم السلك .

أفضينا : وصلنا ، وأراد أن هذا المجلس جمع العامة والأمير، ومن له ذكر رفيع
وشهرة . ومن هو مجهول مخمول . وأراد بالهالة حلقة الناس ، وبالأهالة أشراف
الناس والعلماء . وحرك السين من «وسط» ، مع الهالة لأنها دارة وساحة ، العرب تقول :
فلان جلس وسط الدار واحتجم وسط الرأس بالتحريك ، وسكن مع الأهلة لأنه
أراد معنى بين ، والعرب تقول : جلس وسط القوم ، فحملوه على بين ، لما حلّ
محلّها وكان فى معناها ، ولا يجوز جلس بين الدار ، فهذا لا يقال جلس وسطها بالتسكين .
تقوس : انحنى . اقعنسس : تقبّض واحدودب . والقعس : دخول الظهر
 وخروج الصدر ، والحدّاب ضده وبينه الراجز بقوله .

* أقمس يمشى مشية التقاعس *

تقْلَنْسَ : لبس القلنسوة . تطّلس : لبس الطيلسان وهو كساء أخضر يلبسه
الخواص . يصدع : يشقّ .

* * *

ابن آدم ، ما أغراك بما يغرك ، وأضرأك بما يضرك ،
 وألجأك بما يطغيك ، وأبهجك بمن يطريك . متغنى بما
 يعنك ، وتهمل ما يعينك ، وتترع في قوس تعديك ،
 وترتدى الحرص الذي يردك ؛ لا بالكفاف تقتنع ،
 ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظاات تستمع ، ولا بالوعيد
 ترتدع . دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط
 العشواء ، وهماك أن تدأب في الأحتراث ، وتجمع الثراث
 للوراث ؛ يعجبك التكاثر بما لديك ؛ ولا تذكر ما بين
 يديك ، وتسعى أبداً لغاريك ، ولا تبالى ألك أم عليك .
 أظن أن ستترك سدى ، وألا تحاسب غداً ؛ أم تحسب أن
 الموت يقبل الرشا ، أو يميز بين الأسد والرشا . كلا والله
 لن يدفع المنون ، مال ولا بنون ؛ ولا يفع أهل القبور ؛
 سوى العمل المبرور . فطوبى لمن سمع ووعى ؛ وحقق
 ما دعى ؛ ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفاز من
 ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف
 يرى . ثم أنشد إنشاداً وجلاً ، بصوت زجل :

. . .

قوله : « ما أغراك » ما أكثر لصوقك . يغرك : يدلك على الغرر . أضرأك : أشد
 ملازمتك . ألجأك : أشد حبك .

يطغيك : يردك طاغياً متجاوزاً قدرك . أبهجك : أشد سرورك . يطريك :

يمدحك في وجهك، والنفس ميالة كثيرة الانخداع بمن يعظم شأنها ويشئ عليها،
فرارة ممن يحقرها ويذمها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «احْثُوا التراب في وجوه
المداحين» تذليلهم بذلك حيث أكسبوا غيرهم عزة النفس والكبر. قال الشاعر:

وخدعته بخديعة لما أبى والحرّ يُخدعُ بالكلام الطيب

تعنى: تشتغل. يفتيك: يتعبك. تنزع: ترمى. تمدّيك: ظلمك الحرص:
أسوأ الطمع. يرديك: يهلكك.

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان جائعان أرسلا
في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتربت الساعة ولا يزاد الناس إلا حرصاً
على الدنيا ولا تزداد منهم إلا بعداً».

وقال محمود الوراق :

كم إلى كم أنت للحرص وللآمال عبد
ليس يحمدي الحرص والسعي إذا لم يك جد
ما لما قدره الله من الأمر مرّد

وفي كتاب للهند: لا ينبغي للمتمس من عيشه إلا الكفاف الذي يدفع به
الحاجة عن نفسه، وما سوى ذلك فإنما هو زيادة في عمه.

وقالت الحكماء : أقل الدنيا يكفى ، وأكثرها لا يكفى .

وقال أبو ذؤيب :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ ^(١)
وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه لابنه : يا بُنَيَّ ، إِذَا طَلَبْتَ الْغِنَى فَاطْلُبْهُ
بِالْقَنَاعَةِ ، فَإِنَّهَا مَالٌ لَا يَنْفَدُ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ فَإِنَّمَا هُوَ فَقْرٌ حَاضِرٌ . وَعَلَيْكَ بِالْيَأْسِ
فَإِنَّكَ لَمْ تَيَأْسَ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا أَغْنَاكَ اللَّهُ عَنْهُ .

وقال : الغنى من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس .

قال ابن أبي حازم رحمه الله تعالى :

اسْتَغْنِ بِاللَّهِ لَا تَضْرَعْ إِلَى النَّاسِ واقنع بئاسٍ فإن العزَّ في اليأسِ
واسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ الْغِنَى مَنْ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ
ومن دعاء عمر رضى الله عنه : اللهم ، لَا تُكْثِرْ لِي مِنَ الدُّنْيَا فَاطْغَى ، وَلَا
تَقْلِلْ لِي مِنْهَا فَانْسَى ، فَإِنَّهُ مَا قَلَّ وَكُنَى ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى .

وقالوا : ثمرة القناعة الراحة ، وثمره الحرص التعب .

وقالوا : لا غنى إلا غنى النفس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عِنْدَكَ مَا يَكْفِيكَ وَأَنْتَ تَطْلُبُ
مَا يَطْفِيكَ ! لَا بَقِيلُ تَقْنَعُ ، وَلَا بَكْثِيرُ تَشْبَعُ . يَا بَنَ آدَمَ ، إِذَا أَصْبَحْتَ آمِنًا فِي سِرْبِكَ
مَعَانِي فِي بَدَنِكَ ، عِنْدَكَ قُوَّةٌ يَوْمُكَ فَعَلِ الدُّنْيَا الْعَفَاءَ » .

وقيل لأبي حازم : مامألك ؟ فقال : مالان : الغنى بما فى أيدى ، واليأس مما فى
أيدى الناس

وقيل لآخر : ما مألك ؟ فقال : التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن .

ومما قيل من الشعر فى معنى ما تقدّم ، قال محمود الوراق :

يا عائب الفقر ألا تزدرج عيبُ الغنى أ كبرُ لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنك تعصى الله تبغى الغنى وليس تعصى الله كي تفتقر

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدّا
فإنّ صلاح المرء يرجع ككلّه فساداً إذا الإنسان جاز به الحدّا

وقال البحتري :

إذا ما كان عندى قوت يومٍ طرحتَ الهمّ عني يا سعيدُ
ولم تخظر هموم غدٍ بيالى لأنّ غداً له رزق جديدٌ

وقال ابن طباطبا:

إنّ في نيل المنيّ وشكّ الردى وقياس القصد ضدّ السرفِ
كسراج دهنه غمرٌ له فإذا غرقته فيه طُفي

ونال آخر :

وإذا نبا بى منزل جاوزته واعتضت منه غيره لى منزلاً
وإذا غلا شيء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

• • •

قوله : « ولا بالوعيد ترتدع » أى لا تكفّ عن غيئك ولا ضلالتك
بما تخوف به من أهوال الآخرة . دأبك ، أى عادتك . الأهواء : جمع هوى ،
وهو ما تحبّه النفس وتميل إليه . تحبط : تمشى على عماية . العشواء : الناة التى
لا تبصر . تدأب : تداوم . الاحتراث : الكسب . التراث : المال الموروث .

[نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا]

وفي معناه أنه وجد على حائط مكتوبا : ابن آدم غافص^(١) الفرصة عند إمكانها ،
وكل الأمور إلى وليها ، ولا تحلّ في قلبك همّ يوم لم يأت إن يكن من أجلك ،
يأتك الله برزقك فيه ، ولا تجعل سميك في طلب المال أسوة المغرورين ، فربّ
جامع لبعل حليته . واعلم أن تقتير المرء على نفسه توفير منه على غيره ، فالسعيد
من اتعظ بهذه الكلمات . قال بدیع الزمان :

أيا جامع المال من حله يبيت ويصبح في ظله
سيؤخذ منك غداً كله وتُسأل من بعد عن كله
وله أيضاً :

يا حريصاً على الغنى قاعداً بالمرصد
لست في سعيك الذي خضت فيه بقاصد
إن دنياك هذه لست فيها بخالد
بعد هذا فإتما أنت ساع لقاعد

وقال سابق البربري :

فحتى متى تلهو بمنزل باطل كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع مالا تأكل الدهر دائماً كأنك في الدنيا لغيرك خازن
وقال رجال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن فلاناً جمع مالا ، قال :
فهل جمع له أياما ! أخذه الشاعر فقال :

أرفه يعيش فتى يغدو على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسُه والوجه منه جديد ليس يخلفه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تهـرتـه
المال عندك مخزون لو ارثه ما المال مالك إلا حين تنفقه

(١) في اللسان : غافص الرجل مفاععة ، أخذه على غرة

قوله : « التكاثر » أى كثرة المال، تقول : تكاثر المال تكاثراً : جاز الحدّ فى السكثرة .

أبو سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أمسى وأصبح وهمه الدينار والدرهم تكاثراً حشر مع اليهود والنصارى ، والذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

تسمى لغاريك : تجهد فى كسبك لتدرك شهوة بطنك وفرجك ، وهما الفاران ، قيل : هما الفرج والفم . وقيل : الحنكان : الأعلى والأسفل ؛ وأخذ اللفظ من قول الشاعر :

ألم تر أن الدهر يومٌ وليلة وأن الفتى يسعى لغاريه دائباً

قوله سدّى ، أى مهمل مسيّب . الرّشا بالضم : جمع رشوة وهى العطية تدفع بها مضرّة من يتدر عليك . الرّشا ، بالفتح : الغزال . كلاً : زجر . المنون : هى المتية ، المبرور . المتقبل . وعى : حفظ الوصية . ما ادعى ، أى ما ادعاه من أنه قبل الوصية . وحقته : داوم عليه بعمله . ارعوى : رجع وتاب . ما سعى ، أى ما عمل وتعب فيه . الفائز : الظافر بحاجته . وجل : خائف . زجل : شديد ، وزجل الصوت زجلاً : ارتفع وأيضاً طرب .

وقال أبو العتاهية فيما تقدّم من ذكر الموت :

بين عيني كلّ حين علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح

وقال البديع :

إنما الدنيا غرود ولن أصفى نصيح

ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيحُ
نحن لا هون وآجا لُ المنايا لا تريحُ

لَعَمْرُكَ مَا تُغْنِي الْمَغْنَى وَلَا الْغِنَى
إِذَا سَكَنَ الْمُثْرَى الثَّرَى وَثَوَى بِهِ
فَجَدُّ فِي مَرَاضِي اللَّهِ بِالْمَالِ رَاضِيًا
بِمَا تَقْتَنِي مِنْ أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ
وَبَادِرُ بِهِ صَرْفَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
بِمُخْلَبِهِ الْأَشْفَى يَقُولُ وَنَابِهِ
وَلَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخُثُونَ وَمَكْرَهُ
فَكَمْ خَامِلٍ أَخْنَى عَلَيْهِ وَنَابِهِ
وِعَاصٍ هَوَى النَّفْسِ الَّذِي مَا أَطَاعَهُ
أَخُو ضَلَّةٍ إِلَّا هَوَى مِنْ عِقَابِهِ
وَحَافِظٌ عَلَى تَقْوَى الْإِلَهِ وَخَوْفِهِ
لَسْتَجُوبَ مِمَّا يُتَّقَى مِنْ عِقَابِهِ
وَلَا تَلَهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابْنِكَ
بِدَمْعٍ يُضَاهِي الْمُنَى حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثَلُ لَعْنِكَ الْجَمَامِ وَوَقْعُهُ
وَرَوْعَةُ مَلَقَاهُ وَمَطْعَمُ صَابِهِ

وإنَّ قَصَارَى مَنَزِلِ الْحَيِّ حُفْرَةٌ
 سَنَزِلُهَا مُسْتَنَزِلًا عَنْ قَبَائِهِ
 فَوَاهَا لِعَبْدٍ سَاءَهُ سُوءُ فِعْلِهِ
 وَأُبْدَى التَّلَافِي قَبْلَ إِغْلَاقِ بَابِهِ

* * *

قوله : لعمرك ، العمر البقاء ، فأقسم به كأنه قال : وحق بقائك الكريم على
 الحبيب إلى .

المغاني : المنازل الشريفة . المثرى : الكثير المال . الثرى : التراب الندى ،
 وأثرى صار له كثير من المال كالثرى فى كثرته . ثوى : أقام . جُدْ : تكرم
 بمالك . تفتنى : تكتسب ، أى لاتنفع المنازل الرفيعة البناء ولا المال الكثير إذا
 آل الحال إلى الموت . بادر : سابق . صرَف : تقلب .

الأشقى : المعوج . يقول : يهلك . نابه : ضره . الخئون : الكثير الخيانة .
 النابه والنبيه ، من النباهة وهى الجلالة والرفعة ، والحامل ضده ، وأخنى على :
 أخذ مالى . ضلة ، أى ضلالة ، وهوى : سقط . عقابه الأول جباله ، والثانى عذابه .
 تله : تشتغل . يضاهاى : يشابه . الوبيل : أ كثر المطر . حال مصابه ، أى حال
 وقوعه ، والمصاب : مصدر صاب يصوب صوباً ومصاباً . الحمام : الموت . روعة :
 فزع صاحبه حين يلقاه . صابه : مره ، والصاب شجر مرّ . وقصارى : آخرونهاية ،
 كأنه قصر عندها أى جلس فلم يجاوزها . واهاً : عجباً . التلافي : التدارك لمافات .
 إغلاق باب ، أى موته .

[ملك الموت]

وفى روعة ملاقاه يحكى أن إبراهيم عليه السلام ، قال ملك الموت : هل تستطيع
 (٢ - مقامات الحريري - ج ٣)

أن تُرَيِّنِي صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ، قال : لا تستطيع ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعْرِضْ عَنِّي ، ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومن منخريره لهب النار والدخان . ففُشِيَ على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد إلى صورته : فقال إبراهيم : لو لم يكن للفاجر عند موته إلا صورتك لكان حسبه .

وفي مطعم صابه ، يحكى أن إبراهيم عليه السلام قال له الله تعالى : كيف وجدت الموت يا خليلي ؟ قال : كسُفود جُمِل في صوف رطب ، قال : أما إننا هوناً عليك . وقال لموسى عليه السلام : كيف وجدت الموت ؟ قال كعصفور يقلى على المقل ، لا يموت فيستريح ، ولا يطير فينجو . وفي رواية : كشاة تُسلخ من جلدها وهي حية .

وقال كعب الأحبار لعمر رضى الله عنهما ، وقد سأله أن يحدثه عن الموت ، قال : الموت يا أمير المؤمنين كغصن كثير الشوك ، أدخل جوف رجل ، فأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ الفصن ما أخذ ، وأبقى ما أبقى .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند موته يقول : «إن للموت لسكرات ، اللهم هون على سكرات الموت»

وقالت عائشة رضى الله عنها : «لأغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذى رأيته من موته صلى الله عليه وسلم» .

فهذه حال أحبابه فكيف بمن غمر في بحار المعاصي ! اللهم غفوك

وشعر المقامة مزدوج القوافي ، وعارضه الزاهد بن عمران فقال :

مالى وللدنيا وعلى بها غرارة خداعة مالى

تفرنى حتى إذا مُكِّنْتُ تَعَبْتُ في نفسى وفى مالى
هَمْتُ بها حبا فقد أفسدت ما كان من صالح أعمالى
أعمى الهوى قلبى وُحْبَى، لها رأس خطاياى وأعمالى
تبكى على الفائت من حظها عيني بقسكاب وإهمالى
يارب زهّدنى فى حها ولا تؤاخذنى بإهمالى

وله فى مثله :

ارغب عن الدنيا وأوصافها مشوبة جاءتك أوصافيه
قتل أولى الألباب من فعلها فاصنع إلى نصحي وأوصافيه
ما بالغنى يفتّر ذو فطنة كلاً ولا يفتّر بالعافيه
كم من غنى قد عاد قهراً وكم عافيه قد أصبحت عافيه
وله أيضاً :

ما الزهد يا قوم - فلا تمهلوا - بلبس أسمالٍ وأخلاقٍ
لكنه لبس ثياب التقى فى حسن آدابٍ وأخلاقٍ
وله أيضاً :

خليلى لا يغررك منى ظاهرى ومهما سألت الله فاسأله لى صفحا
فلو كنت ذا علم - كعلمى بباطنى لأضربت عن ذكرى أياذى النهى صفحا
ولكن أرى الله الجليل بفضله فلم يفش لى سرّاً ولم يُبدل صفحا
وقال بعض الزهاد لصاحبه : إني أحبك فى الله ، فقال له : لو علمت منى
ما أعلم من نفسى لأبفضتنى فى الله .

وله أيضاً :

تحفظ بدنيك لا تبذله ولا تلغ عرصتك عِرْضاً كلياً

وعدُّ عن الذنب لاتأْتِه وبادر بإصلاح مامنك ليما
فأنت ابن عمران موسى المبيء ولست ابن عمران موسى الكليما

وقال غيره :

لا تأمن الدهر الخثو ن وخف بوادر بعثته
فالموت سهم مرسل والعمر قدر مسافته

* * *

قال : فظلل القوم بينَ عِبرةٍ يذرونها ، وتوبةٍ يُظهرونها ؛
حتى كادت الشمسُ تزولُ ، والفريضةُ تعول . فلمّا خشعتِ
الأصوات ، والتأمّ الإنصاتُ ، واستكنّت العبراتُ والعباراتُ ؛
استصرخ مستصرخٌ بالأمير الحاضر ، وجعلَ يجأُّ إليه من عامله
الجائر ، والأميرُ صاغٍ إلى خصمه ، لاهٍ عن كشفِ ظلمه .
فلما يئسَ من رَوْحه ، استنهض الواعظَ لنصحه ؛ فنهضَ نهضةً
الشَّهير ، وأنشدَ مُعرّضاً بالأمير .

* * *

قوله : «عبرة يذرونها» ، أي دمة يصبّونها . وتعول ، تزيد وتضيق ، يريد يضيق
وقتها ، ويدخل عليها وقت غير هافت رجع صلاتين . خشعت : ذلت . التأمّ الإنصات :
اتصل السكوت . استكنّت العبرات والعبارات ، أي سكن البكاء والكلام .
استصرخ مستصرخ ، أي استغاث مستغيث . يجأُّ : يصيح . يريد أن رجلاً تشكى
للأمير من عامل له ولأه عليهم ، فجاء ، فقال الأمير مع الوالي ، وترك المشتكى .
وقوله : صاغ ، أي مائل . ولاه ، أي تارك ومشتغل . يئس : قطع رجاءه . رَوْحه :

نصرته وعدله الذي يريح المشتكى ، والروح الفرح والسرور . استنهض : سأله
الهوض لينصح الأمير .

عائشة رضى الله عنها : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان
ذا صلة لأخيه المسلم إلى السلطان في مبلغ برّ ، وتيسير عسير ، أعانه الله على إجازة
الصرط : يوم دحض الأقدام » .
الشّمير : الماضي في أموره : معرّضا : من التعريض وهو أن تخاطب غيره وأنت تريده .

عجبا لراج أن ينال ولاية
يسدى ويلحم في المظالم والغا
ما إن يبالي حين يتبع الهوى
يا ويحه لو كان يؤقن أنه
أو لو تبين ما ندامة من صغا
فانقذ لمن أضحي الزمام بكفه
وارع المرار إذا دعاك لرغيه
واحمل أذاه ولو أمضك مسه
فليضحكك الدهر منه إذا نبا
ولينزان به الشّمات إذا بدا
وكتأوين له إذا ما خدّم

حتى إذا ما نال بُغيته بُغى
في وردها طوراً وطوراً مُرلغا
فيها أّصلح دينه أم أوتغا
ما حالة ألاّ تحول ، لما طنى
سَمعا إلى إفك الوشاة لما صغا
وتغاض إن ألغى الرّعاية أو لغا
ورد الأجاج إذا حماك السيغا
وأسال غزب الدّمع منك وأفرغا
عنه وشبّ لكفّده نار الوغى
مُتخلّيا من شغلِه مُتفرّغا
أضحي على ترّب الهوان مُمرّغا

نال بغيته ، أى أدرك ما طلب . بنى : جار وظلم . يسدى ويلحم ، أى
تصرف في المظالم طولاً وعرضاً ، ومقبلاً ومدبراً . والسدى : خيوط الثوب طولاً ،

واللحمة خيوطه عرضاً : والفأ : شارباً . وردّها : ماؤها . مولعاً : مستقيماً غيره ، ويريد أنه يباشر الظلم بنفسه تارة ، ويؤليه غيره أخرى . أوتغ : أفسد وأهلك .
ياويحه ، قال الأزهرى رحمه الله تعالى : وينح كلمة رحمة ، وويل كلمة عذاب ، والفرق بين ويح وويل أن ويح يقال لمن وقع في بليته : يُرَحَّم ويدعى له بالتخلص منها . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك » ، فجزعت فقال لى : « يا حميراء ، إن ويح كلمة رحمة فلا تجزعى منها ولكن اجزعى من الويل » .

يوقن : يحقق . تحول تنغير . طغى : ارتفع وجاز الحدّ في الجور . صغى : مال . إفك . كذب . الوشاة : جمع واش ، وقد تقدم . انقد : أطلع ، يقول : من أصبح حاكك فاتبعه وأطع له . تغاض : تغافل : ألقى : ترك . الرعاية : المحافظة للحقوق . لغا : أخطأ وقال قبيحا ، ثم قال : إن حَمَلَك على الذل فاحتمله ، وكتبى برعى المرارعه . ردّ الأجاج : اشرب الماء المترو والمالح . حماك السّيغا : منعك العذب السهل للشرب . أمضك : أحرقت وصيّرك مهموماً ، والمضّ التوجع من قول أو جرح . مشه : وقعه بجسمك . والغرب : فيض الدمع ، والغرب : الدلو .

* * *

هذا أهـ ولَسَوْفَ يُوقَفُ مَوْقِفًا فِيهِ يُرَى رَبُّ الْفَصَاحَةِ أَثْمًا
وَلِيَحْشُرَنَّ أَذْلًا مِنْ فُقْعِ الْفَلَا وَيَحَاسِبَنَّ عَلَى النَّقِصَةِ وَالشَّغَا
وَيُوَاخِذَنَّ بِمَا اجْتَنَى وَمَنْ اجْتَبَى وَيُطَالِبَنَّ بِمَا أَحْتَسَى وَبِمَا ارْتَفَى
وَيُنَاقِشَنَّ عَلَى الدَّقَائِقِ مِثْلَ مَا قَدْ كَانَ يَصْنَعُ بِالْوَرَى بَلْ أَبْلَغَا
حَتَّى يَعْضَّ عَلَى الْوَلَايَةِ كَفَّهُ وَيُوذُّ لَوْ لَمْ يَنْغِرْ مِنْهَا مَا بَنَى

...

هذا له ، إشارة إلى ذل العزل . الأثغ : الأخرس المحبوس اللسان ، وهو أيضاً الذى يُبدل الباء والراء غيناً . وربّها : صاحبها . والفقع ضرب من الكمأة من وطئه كسره لضعفه ، وهو الفُقّاع ، وبه يضرب المثل ، فيقال : أذلّ من فقع بقرقر .

الشفا : الزيادة . اجتنى : جمع أموال الناس وضبطها لنفسه . اجتبى : اختار ، يريد أنه يطالب بما أخذ من الدنيا ويحاسب على الوالى الذى اختاره وولاه .
احتسى : شرب الحسوة من اللبن بعد الحسوة . ارتقى : شرب الرغوة ، أى يؤاخذ بالقليل والكثير والظاهر والباطن . يناقش : يبحث عليه ويخرج ماعنده .
أبلغ : أزيد . ينبغ : يدرك ويطلب .

[ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة]

ونذكر هنا فصلا من الآداب يحتوى على الولاية والعزل والتشكى من الولاة، حسبما تضمن هذا الموضوع فى المقامة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستحرصون على الإمارة ، وتكون حسرة وندامة ، فنعمت المرزعة ، وبئست الفاطمة » .

أراد عمر رضى الله عنه أن يستعمل رجلا فبدر الرجل يطلب العمل فقال : قد كنّا أردنا لذلك ، ولكن من طلب هذا العمل لم يُعن عليه .

ولقى عمر رضى الله عنه أبا هريرة رضى الله عنه فقال : ألا تعمل ؟ فقال : ما أريد العمل ، قال : قد طلبه من هو خير منك ، يوسف الصديق عليه السلام قال : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

قال المغيرة بن شعبه : أحب الإمرة لثلاث : لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ولستر خاص الأشياء . وأكرهها لثلاث : لروعة البريد ، وذلل العزل ، وشماتة الأعداء

وقال أمير لأعرابي : قل الحق وإلا أوجعتك ضرباً ، قال : وأنت فاعمل به ، فوالله لما وعدك الله على تركه أعظم مما توعدتني به .

وذكر أهل السطار عند أعرابي ، فقال أما والله إن اعتزوا في الدنيا بالجور لقد ذلوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضوا بقليل ، فإن عوضاً من كثير باقٍ ، وإنما تنزل القدم حيث لا ينفع الندم .

تظلم رجل للمأمون من عاملٍ له ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ماترك لنا فضة إلا فضتها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا ماشية إلا مشى بها ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقة إلا علقه ، ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا جليلاً إلا أجله ، ولا دقيقاً إلا دقه . فمجب المأمون من فصاحته ، وقضى حاجته .

تحطبة بن حميد : إني لواقف^(١) على رأس المأمون يوماً ، وقد جلس للمظالم ، فكان آخر من دخل عليه وتقدم إليه امرأة وقد همَّ بالقيام ، عليها أهبة السفر وثياب رثة . فوقفت بين يديه ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكرم ، فقال يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمى في حاجتك ، فقالت :

ياخير منتصفٍ يُرجى له الرشدُ ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ الملكِ أرملةً عداً عليهما فلم يُترك لها سببُ^(٢)
وابتزّ مني ضياعي بعد منعتيها ظلماً وفرّق مني الأهل والولدُ
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه فقال :

في دون ماقلتِ زال الصبرُ والجلدُ عني وأقرح مني القلبُ والكبدُ
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي واحضري الخصم في الوقت الذي أعدي
والجلس السبت أن يقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلسُ الأحدُ

(١) الخبر في العقد ١ : ٣٣ ، نهاية الأرب ٦ : ٢٧٦

(٢) السبد في الأصل : الشعر ، يكنى به عن الغنم ، ويسكنى بالغنم عن الشيء القليل .

فجلس يوم الأحد ، فكانت أوّل من تقدم إليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت : واقف على رأسك ، وأشارت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد بن أبي خالد ، خذ بيده فأجلسه معها للخصومة . ففعل . فجلس ، فجعل كلامها يعلو كلامه . فقال لها : أحمد يا أمة الله ، أنت بين يدي أمير المؤمنين وتكلمين الأمير ، فاخفضي من صوتك ، فقال له المأمون : دعها يا أحمد فالحق أنطقها والباطل أخرسه . ثم قضى لها بردّ ضاعها وظلم العباس^(١) . وأمر لها بنفقة وبكتاب إلى عامل بلدها أن يحسن معاونتها .

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فرخان شاه يقيه على في وزارته ، فلما صُرف رهبني ، فلما لقينى سلم علىّ فدنوت منه وقلت له : والله لقد كنت أقنع بإيمانك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، والحمد لله على ما آلت إليه حالتك ، فأن أخطأت فيك النعمة فلقد أصابت فيك النعمة ، وإن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، والله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهننا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حقّ المنعم . فتبيل له : يا أبا عبد الله ، لقد أبلغت في السب ، فما كان الذنب ؟ فقال : سألته حاجة أقلّ من قيمته ، فردّني عنها بأقبح من صورته .

وقال ابن الرومي في أبي الصقر ، وكان قد مدحه فلم يرفع به رأساً :
 فلئن نُكِبَتْ لَطالما نُكِبَتْ بك همة لجأت إلى سَنَدِكَ
 لو تسجد الأيام ماسجدة إلا ليوم فت في عَضْدِكَ
 يا نعمة ولت غضارتُها ما كان أقبح حسنّها بيدك
 فلقد غدت برّداً على كبدي لما غدت حرّاً على كبديك

وقال فيه :

خَفَضَ أبا الصقر فكم طائرٍ خَرَّ صريعاً بعد تحليقٍ

(١) في العقد : « فظلم العباس اظلمه لها » .

زُوجْتَ نَعَى لَمْ تَكُنْ كَفَوْهَا فَصَانَهَا اللَّهُ بِتَطْلِقِ
لَا قَدَسْتُ نَعَى تَسْرِبَلْتَهَا كَمْ حُجَّةٍ فِيهَا لَزْدِيقِ
وقال فيه قبل النكبة:

غدا يعلو الجيادَ وكان يعلو إذا ما استفره السبت الطرّاقا
أعنتها الشّسوع فإن عراها خفاء الكدّ أنعلها طرّاقا
فزوّج بعد فقر منه نَعَى أَرَانِي اللَّهُ صُبْحَهَا طَلّاقا
ومن غرائب التسمكاتب في العزل ، ما كتب به أحمد بن مهران إلى معزول:
بلغني أعزك الله انصرافك عن عمالك ، فسررت بذلك ، ولم أستفظعه لعلني بأن
قدرك أجلّ وأعلى من أن يرفعك عمل تتولاه ، أو يضعك عزل عنه ، والله لو لم
تختار الانصراف ، وترد الانعزال ، لكان في لطف تدبيرك ، وثقوب رويّتك ،
وحسن تأتيتك ، ماتزيل به السبب الداعي إلى عزّلك والباعث على صرفك ، ونحن
إلى أن نهنتك بهذا الحال ، أولى بنا من أن نعزّيك ؛ إذ أردت الصرف فأوتيته ،
وأحببت الاعترال فأعطيته ، فبارك الله لك في منقلبك وهنّاك النعم بدوامها ،
ورزقك الشكر الموجب المزيّد لك فيها .

كان^(١) أبو شراعة لا يسأل ابن المدبر حاجة إلا قضاها ، ولا يشفع لأحد إلا شفّعه ،
فلما عزل إبراهيم بن المدبر عن البصرة شيّعه الناس ، فردّهم حتى لم يبق إلا
أبو شراعة ، فقال يا أباشراعة ، غاية كلّ مودّع الفراق . فانصرف راشدا مكلّوا
من غير قلى والله ولا ملل . وأمر له بعشرة آلاف درهم . فعاقه أبو شراعة وبكى
وأطال ، ثم قال وهو أحسن ما قيل في التهينة بالعزل :

يا أبا إسحق سِرْ في دَعَةٍ وامض مكلّوا فما منك خلف
ليت شعري أى أرض أجذبت فأريحت بك من جهد العَجَف
نزل اللطف من الله بهمم وخُرمناك بذنب قد سَكَف

(١) الخبر والشعر في الأغاني ١٩ : ١٢٤ - ساسي

إِنَّمَا أَنْتَ رَبِّيعُ بَاكِرٌ حَيْمًا صَرَفَهُ اللَّهُ أَنْصَرَفَ

وَمِنْ مَلَحَ هَذَا الْبَابِ أَنَّ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ قَلَّدَ ابْنَ حُجَّاجٍ عَمَلًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يَوْمَ
الْخَمِيسِ، وَتَبِعَهُ كِتَابُ عَزْلِهِ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَقَالَ فِيهِ :

يَا مَنْ إِذَا نَظَرَ الْهَلَا لُ إِلَى مُحَاسِنِهِ سَجَدَ
وَإِذَا رَأَتْهُ الشَّمْسُ كَا دَتَ أَنْ تَمُوتَ مِنَ الْحَسَدِ
يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعَثَنِي وَصَرَفَنِي يَوْمَ الْأَحَدِ
وَالنَّاسُ قَدْ غَنَوْا عَنِّي لَمَّا خَرَجْتَ مِنَ الْبَلَدِ
مَا قَامَ عَمْرُو فِي الْوَلَايَةِ قَائِمًا حَتَّى قَعَدَ

* * *

ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا الْمَتَوَشِّحُ بِالْوَلَايَةِ ، الْمَتَرَشِّحُ لِلرَّعَايَةِ ؛ دَعِ
الْإِدْلَالَ بِدَوْلَتِكَ ، وَالْاِغْتِرَارَ بِصَوْلَتِكَ ؛ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ رِيحُ قُلُوبٍ ،
وَالْإِمْرَةَ بَرْقُ خُلُوبٍ . وَإِنْ أَسْعَدَ الرَّعَاةَ ، مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ ،
وَأَشْقَاهُمْ فِي الدَّارَيْنِ مَنْ سَاءَتْ رَعَايَتُهُ ؛ فَلَا تَكُ مِمَّنْ يَذُرُ الْآخِرَةَ
وَيُلْغِيهَا ، وَيُحِبُّ الْعَاجِلَةَ وَيَبْتَغِيهَا ، وَيَظْلِمُ الرَّعِيَّةَ وَيُؤْذِيهَا ؛ وَإِذَا
تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ؛ فَوَاللَّهِ مَا يَفْعَلُ الدِّيَانَ ، وَلَا تُهْمَلُ
يَا إِنْسَانَ ، وَلَا تُلْغَى الْإِسَاءَةُ وَلَا الْإِحْسَانُ ؛ بَلْ سَيُوضَعُ لَكَ الْمِيزَانُ ،
وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ .

قَالَ : فَوَجَّهَ الْوَالِي لِمَا سَمِعَ ، وَامْتَقَعَ لَوْنَهُ وَانْتَقَعَ ، وَجَعَلَ يَتَأَفَّفُ
مِنَ الْإِمْرَةِ ، وَيُرْدِفُ الزَّفَرَةَ .

[مما قيل في اللغ من الشعر]

وذكر اللغ، وللشعراء في اللغ ما يستحسن، قال ابن شهيد:

مرض الجفون ولثغة في المنطق شيان جراً عشق من لم يعشق^(١)
ينبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من خر عينيه سقى
لا ينش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهرق^(٢)
وأحسن ما في وصفه قول الرمادي:

لا الرأ تطمع في الوصال ولا أنا المجر يجمعنا فنحن سواء
فإذا خلوت كتبها في راحتي فبكيت منتجباً أنا والراء
أخذه أبو القاسم بن العريف، فقال:

أيها الألف الذي شفت قلبي جُدْ بحرف ولو نطقت بسبي
هجرك الرأ مثل هجري سواء فكلانا معذب دون ذنب
فإذا شئت أن أرى لي مثالا في غرامى خططت راء بجني

* * *

قوله: «المتوشح» أي المحترم. والمترشح: المهني* للرعاية أي لحفظ الناس. الاغترار
الانخداع، صولتك: عزك وقهرك، يقال: صال الرجل على قرنه، والفعل على إبله،
أي قهر وعلا، والفعل أيضاً عض، وربما همز فعل الفعل. قلب، أي متقلب.
خلب: خادع لأماء فيه، يريد أن الولاية تنقل من إنسان إلى آخر. تلغى: تهمل.
العاجلة. الدنيا لأن خيرها معجل. تولى: صار والياً. سعى: مشى مسرعاً.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ وَلِيَ مَرْءٍ
أَمْرًا مَتَى شَيْئًا فَحَسَنْتْ مَسِيرَتُهُ رَزَقَ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَإِذَا بَسَطَ يَدَهُ لَهُم بِالْعُرْوَةِ

(١) ديوانه ١٣٢، وفيه: «سبيان» ،

(٢) المهرق: الصحيفة

رزق المحبة منهم ، وإذا أنصف الضعيف من القوى قوى الله سلطانه وإذا عدل مدّ في عمره: «وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . «آفة الدين ولالة السوء، وأيمتوا وإلى شيئاً من أمور المسلمين فلم ينصح لهم ، ولم يجتهد كنصيحته وجهده لنفسه، كتبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن من أخذ من هذه وهذه»

الديان : المجازى وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه يجزى العباد على أعمالهم .

وقال الألبيري :

كل امرئ فيما يدين يدانُ سبحان من لم يخل منه مكانُ^(١)
 ياعامر الدنيا ليسلكنها وما هى بالتي يبقى بها سكانُ
 تنفى وتبقى الأرض بعدك مثل ما يبقى المناخ وترحلُ الركبانُ
 أسرّ في الدنيا بكلّ زيادة وزيادتي فيها هى نقصانُ

تهمل تترك هملًا . وجَم : سكت غاضبًا وامتنع وانتمتع : تغير وذهب الدم من وجهه ، ويقال في معناها : انتفع وامتنع .

يتأفف : يقول : أف أف ، وذلك فعل النادم للمهموم . الزفرة : النفخة من الهم .

* * *

ثم عمَدَ إِلَى الشَّاكِي فَأَشْكَاهُ ، وَإِلَى الْمَشْكُومِ مِنْهُ فَأَشْجَاهُ ،
 وَالطِّفَ الْوَاعِظَ وَحِبَّاهُ ، وَاسْتَدْعَى مِنْهُ أَنْ يَنْشَأَهُ ، فَانْقَلَبَ عَنْهُ
 الْمَظْلُومُ مَنْصُورًا ، وَالظَّالِمُ مَحْضُورًا ، وَبَرَزَ الْوَاعِظُ يَتَهَادَى بَيْنَ

رُقُفَّتْهُ، وَيَتَبَاهَى بِفُوزِ صَفَقَتِهِ . وَاعْتَقِبَتْهُ أَخْطُو مُتَقَاصِرَا ، وَأَرِيهِ لَمَحًا
بَاصِرًا . فَلَمَّا اسْتَشَفَّ مَا أَخْفِيهِ ، وَفِطْنِ لَتَقَلَّبِ طَرَفِي فِيهِ ، قَالَ :
خَيْرُ دَلِيلَيْكَ مَنْ أُرْشِدَ ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنِّي وَأَنْشَدَ :

أَنَا الَّذِي تَعْرِفُهُ يَا حَارِثُ حَدِثْ مُلُوكَ فَكَيْهَ مُنَافِثُ
أُطْرِبُ مَا لَا تُطْرِبُ الْمَثَالِثُ طُورًا أَخُو جِدٍّ ، وَطُورًا عَابِثُ
مَا غَيَّرْتَنِي بِعَمْدِكَ بِالْحَوَادِثُ وَلَا التَّحَى عَوْدِي خَطْبُ كَارِثُ
وَلَا فَرَى حَدِّي نَابُ فَارِثُ بَلْ مِخْلَبِي بِكُلِّ صَيْدٍ صَابِثُ
وَكُلِّ سَرَحٍ فِيهِ ذَنْبِي عَائِثُ حَتَّى كَأَنِّي لِلْأَنَامِ وَارِثُ
* سَامَهُمْ وَحَامَهُمْ وَيَافِثُ *

* * *

أَشْكَاهُ : أَنْصَفَهُ وَرَفَعَ عَنْهُ شَكْوَاهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّ الرَّمْضَاءِ فَلَمْ يُشْكِنَا . أَيْ لَمْ يَزَلْ شَكُونَا ، أَيْ شَكُوا إِلَيْهِ مَا
يَصِيبُ أَقْدَامَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَسَأَلُوهُ تَأْخِيرَهَا إِلَى الْإِبْرَادِ ، فَلَمْ
يَجِبْهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَنْشَدَ يَعْقُوبُ :

* وَنَشْتَكِي لَوْ أَنَّهَا تُشْكِنَا *

* * *

وَالْمَشْكُو إِلَيْهِ الْوَالِي الَّذِي اسْتَكَى إِلَيْهِ . أَشْجَاهُ : آذَاهُ وَأَبْكَاهُ . أَلْطَفَ : بَرَّهَ
وَأَكْرَمَهُ . حَبَاهُ : أَعْطَاهُ الْحَبَاءَ . يَفْشَاهُ : يَزُورُهُ . مُحْصُورًا . مُحْبُوسًا . يَتَهَادَى :
يَمْشِي مُتَشَاوِلًا مَشَى الْوَقَارَ . يَتَعَاضَمُ . بِفُوزِ صَفَقَتِهِ ، بِظَفْرِ قَصْتِهِ مَعَ الْوَالِي ،
وَفَازَ فُوزًا : ظَفَرَ بِخَيْرِ دُنْيَاهُ وَأَخْرَاهُ ، وَأَصْلُ الصَّفَقَةِ فِي الْبَيْعِ هُوَ أَنْ تَضْرِبَ بِيَدِكَ
عَلَى يَدِ مَبَايِعِكَ . اعْتَقِبَتْهُ : مَشَيْتَ خَلْفَهُ ، كَأَنَّكَ تَطَأُ بِصَدُورِ قَدَمَيْكَ مَوَاطِيَّ عَقْبِيهِ :
أَخْطُو مُتَقَاصِرًا ، أَيْ أَمْشِي مُسْتَخْفِيًا مُتَشَبِّهًا بِالْقَصَارِ . لِحَا بَاصِرًا ، أَيْ نَظْرًا شَدِيدًا .

استشفّ : استقصى . فطن : تنبّه وشعر . أرشد : دلّ ، يقول : إذا كان لك دليلان ،
فغيرها من هذالك الطريق ، فلما رآه ينظر وتشكك فيه . قال : خير دليلك من
دلك على . اقترب : قرب .

حدث ملوك ، أى محدّثهم بما يطربون . فكه : طيب الحديث ، والفكه
المزاح الحسن الخلق ، وفكه فكها وفكاهة : طابت نفسه وكثر ضحكها ، قال الشاعر :
فكه إلى جنب الخوان إذا غدت نكباء تقطع ثابت الأطناب^(١)
أبو عبيدة : رجل فكه : يأكل الفاكهة ، وفاكه : عنده فاكهة .
وقال الشاعر أيضاً :

فكه العشي إذا تأوّب رحله صيف الشتاء مسامح باليسر
أى يأكل الفاكهة وقرىء « فاكهين وفكهين » : قال الفراء رحمه الله تعالى :
معناها واحد أى معجبين بما آتاهم ربهم ، كقطع وطامع ، وفكه وتفكه إذا تعجّب
ومنه : « فظلم تفكّهون^(٢) » ، وقيل : معناه تندمون .

قوله : منافث ، أى محادث . الثالث : من أوتار العود . طوراً : حيناً .
عابث : لاعب . الحوادث : ما يحدثه الدهر من خير أو شر . التحي : قشر .
خطب كارث : أمر ثقيل صعب . فرى : قطع . نابى : ضرمى . فارث : مفعّت
للكبدة ، قال الشاعر :

هوى من صخرة صلد فقرث تحتها كبده

وفرثت الكرش : أخرجت ما فيها من الزبل . ضابث : قابض عليه . السرح :
المواشى تغدو راعية فى السرح وتروح منه . عاث : مفسد آكل لها .

* * *

(١) اللسان - فكه ، من غير نسبة

(٢) سورة الواقعة ٦٥ .

[ذكر سام وحام ويافث]

وسام وحام ويافث ، أولاد نوح عليه الصلاة والسلام ، وفيهم نزلت: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الْبَاقِينَ﴾^(١). وبذلك جاءت الأخبار، وهم لأمٍّ واحدة. وأصاب حام امرأته في السفينة . فدعا نوح عليه السلام أن يغيّر الله نطقه ، فجاءت بالسودان .

وذكر أهل التوراة أن نوحاً عليه السلام شرب وانقشى وتعزّى ، فأبصر حام عورته ، فاطّلع عليه أخواه ، فأخذوا رداءه فألقياه على عواتقهما ، ومشيا على أعقابهما ، فوارياه ، فعلم نوح عليه السلام بذلك ، فقال: ملعون كنعان بن حام ، عبد العبيد يكون لأخويه ، ومبارك سام ، ويكثر الله يافث^(٢)

وفي تفسير التّفاش أن نوحاً لما أهبط من السفينة، نام فبدت عورته فنظر إليها حام فضحك ، ولم يغيّر عليه يافث ونظر ذلك سام ، فزجره وغطّى عورة أبيه، فلما استيقظ أخبره ، فدعا نوح ابنه حاماً فقال: يا بنيّ غيّر الله ماء صلبك، فلا تلد إلا السودان . وقال ليافث: جعل الله ذريتك عبيداً لأولاد سام ، وقال لسام: جعل الله منك الأنبياء والصالحين والملوك . فكان سام القيمّ بعد أبيه في الأرض ، ونزل وسطها ، نزل الحرم إلى اليمن إلى الشام . ومن ولده الأنبياء كلهم عربيهاء وعجميهاء. ومن ولده عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ويعرب وجرهم ، وهم العرب العاربة، لأن العربيّة لسانهم التي جبلوا عليها، ويقولون لبني إسماعيل العرب المتعربة ، لأنهم إنما تسكلموا بها حين سكنوا بين أظهرهم ، ومن العماليق الجبابرة بالشّام والفرعنة بمصر .

سعيد بن المسيّب : سام ولده العرب وفارس والروم وفي كلّ خير ، وأما يافث فمن ولده الصقالبة وبرجان والأسبان والترك والخزر وبأجوج ومأجوج . ابن المسيّب : وليس في واحد من هؤلاء خير .

(١) سورة الصافات آية ٧٧ .

(٢) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

وأما حام فمن ولده السند والهند وأجناس السودان كلها مثل كوش والزنج والزغاوة والحبشة والزط والقبط بن كنعان بن حام ، والخلاف كثير .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له : تالله إنك لأبو زيد ، ولقد قتت لله ولا عمرو بن عبيد . فمش هشاشة الكريم إذا أم ، وقال : اسمع يا بن أم ؛ ثم أنشأ يقول :

عليك بالصّدق ولو أنّه أحرقت الصّدق بنار الوعيد
وابغِ رضا الله ، فأعجب الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد
ثم إنه ودّع أخدانه ، وانطلق يسحب أردانه . فطلبناه من بعد
بالرى ، واستشرنا خبره من مدارج الطى ؛ فما فينا من عرف قراره ،
ولا درى أى الجراد عاره .

* * *

[أخبار عمرو بن عبيد الزاهد]

قوله : «ولا عمرو بن عبيد» ، هو الزاهد الذى كان يسكن بالبصرة ويجالس الحسن البصرى ؛ حتى حفظ عنه شيئاً كثيراً من علومه ، واشتهر فضله بصحبته ، وكان له سمت وإظهار زهد .

ورآه الحسن يوماً فقال : هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدث . ثم أعزله ونهى عنه ، فقال بالزل ودعا إليه ، وترك مذهب أهل السنة ، واعتزل الحسن البصرى ، ونُسبت إليه المعتزلة .

فأما قيامه الذى ذكره فهو دخوله على المنصور فى جماعة من أهل العلم ، فاستشارهم فى أمر ، فكلهم أشار عليه بمراده إلا عمرأ فإنه لم يصحبهم ونصحه ، فقال : يا أمير المؤمنين (٣ - شرح مقامات الحريرى ٣)

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَوْ كَانَ بَاقِيًا لِأَحَدٍ قَبْلَكَ لِمَا وَصَلْتُكَ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمِذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، قَالَ : فَبَكَى الْمَنْصُورُ حَتَّى بَلَ ثَوْبُهُ ، فَقَالَ الرَّبِيعُ : يَا عَمْرُو ، نَحْمَتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عَمْرُو : إِنَّ هَذَا - يَعْنِي الرَّبِيعَ - صَحْبُكَ عَشْرِينَ سَنَةً ، مَا نَصَحْتُكَ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَمَا عَمِلَ وَزَرَاؤُكَ شَيْءً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : فَمَاذَا أَصْنَعُ ؟ هَذَا خَاتَمِي فِي يَدِكَ ، نَخْذُهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ، فَاكْفُونِي . فَقَالَ عَمْرُو : ادْعُنَا بَعْدَ ذَلِكَ تَسْمَحُ أَنْفُسُنَا بِعَوْنِكَ ، يَبَابُكَ أَلْفُ مَظْلَمَةٍ ، ارْجُدْ مِنْهَا وَاحِدَةً حَتَّى نَعْلَمَ أَنَّكَ صَادِقٌ .

وَيُرَوَّى أَنَّهُ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَعْنَى بِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ : أَرْفَعُ عِلْمَ الْحَقِّ يَقْبَعُكَ أَهْلُهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : مَا حَاجَتُكَ يَا أَبَا عَثْمَانَ ؟ فَقَالَ لَهُ : تَأْمُرُ بِرَفْعِ هَذَا الطِّيلَسَانِ عَنِّي ، فَرُفِعَ . وَكَانَ أَمْرُ الْمَنْصُورِ أَنْ يَطْرَحَ عَلَيْهِ عِنْدَ دُخُولِهِ . فَقَالَ لَهُ : لَا تَدْعُ إِتْيَانَنَا ، قَالَ : نَعَمْ ، لَا يَضْمَنِي وَإِيَّاكَ بَلَدٌ إِلَّا أَتَيْتُكَ ، وَإِنْ بَدَتْ لِي حَاجَةٌ إِلَيْكَ سَأَلْتُكَ ، وَلَكِنْ لَا تَعْطِنِي حَتَّى أَسْأَلَكَ ، وَلَا تَدْعُنِي حَتَّى آتِيكَ ، قَالَ : إِذَا لَا تَأْتِينَا أَبَدًا ، فَلَمَّا وَلَّوْا لِلْخُرُوجِ ، أَتَبِعَهُمُ الْمَنْصُورُ بِصَرِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

كَلِّمَ يَمْشِي رُوَيْدُكُمْ كَلِّمَ حَابِلُ صَيْدُكُمْ

* غَيْرُ عَمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ *

وَكَانَ جَدُّهُ بَابُ مَنْ سَبَى فَارِسَ ، وَكَانَ أَبُوهُ عُبَيْدُ بْنُ بَابِ نَسَاجَا ، ثُمَّ تَحَوَّلَ خِصَارٌ لِلْحَجَّاجِ شُرْطِيًّا بِالْبَصْرَةِ . وَكَانَ فَظًّا غَلِيظًا خَسِيصًا ، وَبَلَغَهُ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ابْنَهُ قَالُوا : هَذَا خَيْرُ النَّاسِ ، ابْنُ شَرِّ النَّاسِ ، فَقَالَ : صَدَقُوا ، أَنَا كَأَزْرٍ وَابْنِي كِبْرَاهِيمٌ .

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْفَضْلِ : بَيْنَمَا أَنَا وَاقِفٌ إِلَى جَنْبِ عُمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ بِيَابِ الْمَنْصُورِ ، إِذْ طَلَعَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ عَلَى حِمَارٍ ، فَزَلَّ وَنَحَّى الْبَسَاطَ بِرِجْلِهِ ، وَجَلَسَ دُونَهُ ، فَقَالَ لِي عُمَارَةُ : لَا تَزَالُ بَصَرْتُكُمْ تَرْمِينَا بِأَحْمَقٍ ، فَمَا فَصَلَ كَلَامَهُ

من فيه حتى خرج الربيع ، وهو يقول : أين أبو عثمان عمرو بن عبيد ؟ فوالله ما دلّ على نفسه حتى أرشده إليه . فأتكأه يده ، ثم قال : أجب أمير المؤمنين جعلني الله فداك ! فرّ متوكئاً عليه ، فقلت لعمارة الذي استحمقه : قد دُعِيَ وتركنا ، فقال : كثيراً ما يكون مثل هذا ، فأطال اللبث ، ثم خرج الربيع ، وعمرو متوكئاً عليه ، وهو يقول : يا غلام ، حمار أبي عثمان . فما برح حتى أقرّه على سرجه وضمّ إليه ثوبه ، واستودعه الله عز وجل . فأقبل عمارة على الربيع ، فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل فعلاً لو فعلتموه بولّي عهدكم لكتم قد قضيته حقه . قال : فما غاب والله عنك مما فعله أمير المؤمنين أكثر وأعجب . قال : فإن اتّسع لك الحديث فحدثنا ، فقال : ما هو إلا أن سمع أمير المؤمنين بمكانه ، فما أمهل حتى أمر بمجلس فقرش لبودا ، ثم انتقل هو والمهدى إليه ، وعلى المهدى سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلّم بالخلافة ، فرد عليه ، وما زال يدينه حتى أتكأه فخذه وتحفّ ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله ؛ يستمهم رجلاً رجلاً وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان عِظْنِي ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر ، فبكى المنصور رحمه الله تعالى بكاء شديداً ، وكأنه لم يسمع تلك الآية الشريفة إلا تلك الساعة ، فقال : زدني ، قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد مَنْ كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإني أحذرك ليلة تتمخّص صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشدّ من بكائه الأوّل حتى رجع جنباه ، فقال له سليمان بن مالك : رفقاً بأمر المؤمنين لقد أتعبته في هذا اليوم ، فقال له عمرو : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أباك ! وماذا خفت على أمير المؤمنين أن بكى

من خشية الله تعالى . قال : فأنت والله الصادق البرّ ، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك ، فقال : لا حاجة لي بها ، قال : والله لتأخذتها ، قال : والله لا آخذها ، فقال له المهديّ : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فأقبل على المنصور فقال : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابني محمد ، وهو وليّ عهد المؤمنين ، فقال : والله لقد سمّيته اسماً ما استحقتّه عمله ، وألبسته لبوساً ما هو من لبوس الأبرار ، ولقد ملكته أمراً ، أمتّع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثمّ النفث إلى المهديّة وقال : يا بن أخي ، إذا حلف أبوك حلف عمك ، لأنّ أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثمّ قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ما هي ؟ قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، قال : إذاً لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني ، ثمّ استحفظه الله عز وجل وودّعه ، وانصرف . فلما وليّ أتبعه المنصور بصره وهو يقول :

* كلّمك يمشي رُوَيْدُ *

الآيات

وقال إسماعيل بن مسلمة أخو القعنبّيّ : رأيت الحسين بن أبي جعفر بعبادان في المنام ، فقال لي : يعقوب ويونس بن أبي عبيد في الجنّة ، فقلت : فعمر بن عبيد ، فقال : في النار ، ثمّ رأيت في الليلة الثانية والثالثة كذلك ، فقلت له في الليلة الثالثة : فعمر بن عبيد ؟ فقال : في النار ، كم أقول لك !

* * *

قوله : « هس » أي فرح . أمّ : قصِد . الوعيد : التهديد . أغبي الوري : أجهل الناس به ، قال المنصور : والله ما عزّ ذو باطل ، ولو طلع في جبينه القمر ، ولا ذلّ ذو حق ولو أصفق العالم عليه .

وفي معنى قوله : « وابن رضا الله ... » البيت . أنّ ابن هبيرة شاور الحسن

البصريّ ، فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك ، فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتها خفت سخط الله ، وإن لم أنفذها خفت على دمي . فقال الحسن : يا بن هبيرة ، خف الله في يزيد ، ولا تحف يزيد في الله ، فإن الله مانعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله . يا بن هبيرة ، لا طاعة لخلق في معصية الخالق . فاعرض كتاب يزيد على كتاب الله سبحانه وتعالى ، فما وافقه فننّفه ، وما خالفه فلا تنفذه . فقال : صدقتني ورب الكعبة .

وساور معاوية الأحنف في استخلاف يزيد ، فسكت ، فقال : مالك لا تقول ؟ فقال : إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبتناك أسخطنا الله عز وجل ، فسخطك أهون علينا من سخط الله تعالى . قال : صدقت .

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنه من يلتبس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن يلتبس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس .

وكتبت إليه عائشة رضي الله تعالى عنها : أمّا بعد فإنه من يعمل بسخط الله تعالى يصير حامدُهُ من الناس ذامًّا له . والسلام .

قوله : « أخذانه » أصحابه . ويسحب أردانه : يجرّ أذياله . استشرنا : طلبنا أن ينشر لنا . والمدرجة : الورقة تكتب فيها الرسالة ، ويدرج فيها الكتاب ، وأضافها إلى الطيّ لأنّها تطوى على ما فيها من الكتاب ، فكأنه قال مما أدرج في الورق من الكتاب وطوى عليه ، يريد أنه أرسل فيه الرسائل إلى البلاد ، فلم يعرف له موضع قرّ فيه وثبت . عاره : ذهب به وأتلفه .

ويكنون بالجراد عن الناس ، فكأنه قال : ما يدري أيّ الناس ذهب به . ويقال : عارت عينه ، صارت عوراء ، ووعرتها أنا : فقأتها ؛ فكأنه ذهب كما تذهب العين وهذا بضعف . والله أعلم بالصواب .

المقامة الثانية والعشرون وهي الفراتية

حكى الحارث بن همام قال : أَوَيْتُ فِي بَعْضِ الْفُرَاتِ ، إِلَى
سِقْيِ الْفُرَاتِ ، فَلَقِيتُ بِهَا كُتَّابًا أَبْرَعَ مِنْ بَنِي الْفُرَاتِ ، وَأَعَذِبَ
أَخْلَاقًا مِنَ الْمَاءِ الْفُرَاتِ . فَأَطَفْتُ بِهِمْ لِتَهْدِيهِمْ ، لَا لَذَهَبِهِمْ ، وَكَأَثَرِهِمْ
لَأَدَبِهِمْ ، لَا لِمَادِيهِمْ . فَجَالَسْتُ مِنْهُمْ أَضْرَابَ قَعْقَاعِ بْنِ شَوْرٍ ،
وَوَصَلْتُ بِهِمْ إِلَى الْكُورِ بَعْدَ الْكُورِ ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ أَشْرَكُونِي فِي
الْمَرْبَعِ وَالْمَرْتَعِ ، وَأَحْلُونِي مَحَلَّ الْأَنْمَلَةِ مِنَ الْإِصْبَعِ . وَاتَّخَذُونِي
ابْنَ أَنْسِهِمْ عِنْدَ الْوِلَايَةِ وَالْأَزْلِ ، وَخَازَنَ بَرِّهِمْ فِي الْجِدِّ
وَالْهَزْلِ .

...

أَوَيْتُ ، أَيْ مَلْتُ وَانضَمَمْتُ . الْفُرَاتُ : جَمْعُ فُتْرَةٍ ، وَهِيَ الْهَدَنَةُ وَالسُّكُونُ ؛
فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَشَيْتُ فِي بَعْضِ السِّنِينَ الْأَمْنَةِ . وَالْفُتْرَةُ أَيْضًا : ضَعْفُ الْأَعْضَاءِ ،
وَالْفُتْرَةُ أَيْضًا مَا بَيْنَ نَبِيٍّ وَنَبِيٍّ .

* * *

[سِقْيِ الْفُرَاتِ]

وسقى الفرات بلاد يسقيها الفرات ، والفرات نهر يشق بلاد الروم وبلاد
العراق ، ويقع في البحر الحبشي ، وجريانه خمسمائة فرسخ .
وقال الرّشاشي : ابتداء الفرات وفوّهته من قَالِيَقْلَا من بلاد إرمينية ،

ثم يسير إلى منبج من كور قنسرين إلى ميميساط ، ثم إلى مكلطية ، ثم إلى كيسوم من أرض الرقة ، ثم إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة وكور الفرات ، ثم إلى الأنبار ، ثم إلى الكوفة ، ويلتقى مع الدجلة ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابها إلى البحر ، وجريانها من الشمال إلى الجنوب .

وقال شيخنا ابن جبير : هذا ^(١) النهر كاسمه فرات ، وهو من أعذب المياه وأخفها ، وهو نهر كبير زخار ، تصعد فيه السفن وتنحدر . وأما سقيه في أحواز بغداد فمبين لك قدره . فذكر أنه عاينه في طريقه من الكوفة إلى بغداد ، وأنه رحل مع أمير الحاج من الكوفة يوم السبت .

قال : ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات ، ورحلنا من ذلك الموقع ، وبقنا ليلة الأحد سلك محرم بقرية من الحلة ، ثم جئناها يوم الأحد . وهي مدينة عتيقة الموضع ، مستطيلة متصلة بالفرات من جانبها الشرقي ، وهي على شاطئها ، ويمتد بطولها . ولها أسواق حافلة جامعة للعراق ، قوية العمارة وديارها بين حدائق النخيل ، وألفيناً بها جسراً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط ، أمر الأمير ^(٢) بعقدها اهتماماً بالحاج ، فعبرناها ، ونزلنا على الفرات على فرسخ من البلد ، والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط وعماير تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق هذه البسائط أغصان من [١٠٠] ^(٣) الفرات تسقيها ، فلعين في هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاداً بنسباً وانفساح .

ومن مدينة الحلة يسلسل الحاج أرسالاً وأفواجا ، لا يرجع المتأخر على المتقدم ، فحيثما شاءوا نزلوا ، ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد لا تكاد تمشي ميلاً إلا ونجد قنطرة على نهر متفرع عن

(١) رحلة ابن جبير ١٩٢ وما بعدها يتصرف (٢) ابن جبير : « الخليفة » .

الفرات ، فلوزاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعةً ، لتراكموا وقوعاً بعضاً على بعض .
فرحلنا من الحلة ضحوة يوم الاثنين أوّل يوم من صفر ، ونزلنا بعصره
بقرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة المساحة ، متدفقة فيها جداول
الماء ، وارفة الظلال بشجرات القواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، بها قنطرة
محدودة تصعد إليها وتنحدر عنها على فرع من فروع الفرات ، فُعرفت
القرية بها .

ثم رحلنا عنها بسحر الثلاثاء ، ونزلنا ضحوة بالفراش ؛ قرية كثيرة العمارة
يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر ، والقرى من الحلة إلى بغداد على
صفة الفراش في الحسن والاتساع .

ثم رحلنا منها ونزلنا عشى النهار بزيران^(١) ، وهي قرية من أجمل قرى
الأرض وأحسنها منظرًا ، وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطًا ، وأكثرها بساتين
ورياحين وحدائق من نخيل ، ولها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من
شرفها أن دجلة تسقى شريقيّها والفرات يسقى غربيّها ، وهي كالعروس بينهما .
ومن شرفها أن يازأها إيوان كسرى ، وهو بناء عالٍ في الهواء على
مقدار الميل منها وأمامها يدير مدائنه . واجتازنا سحرًا على المدائن ، فعانينا من
طولها وآثاعها مرأى عجيبيًا .

ونزلنا قافلين بصرصر ، وهي أخت زيربان حسنا ، يمرّ بجانبها القبلي نهر
متفرع من الفرات وهي من القرى التي تملأ النفوس حسنا وجمالًا ، لها أسواق
حفيلة ، وجامع وجسر معقود على مراكب من الشطّ إلى الشطّ وهي من بغداد
على ثلاثة فراسخ ، ورحلنا منها قبل الظهر ؛ وجئنا بغداد قبل العصر ، على بساتين
وبساط يقصر الوصف عنها ، فمن أراد أن يعرف قدر سقى الفرات فليقف على
هذا الفصل الذي ذكرناه .

(١) في الأصول : « زيربان » ، وصوابه من ابن جبير ومجمع البلدان

وقوله : « كتابا أبرع من بنى الفرات » ، أى أحذق وأزيد فضيلة .

[ذكر بنى الفرات]

والفرات رجل من عجل كان له أبناء مشاهير بالكتابة والحذاقة والبراعة ،
وتقلد الوزارة ، قال فى بعضهم صالح بن سوسى رحمه الله :

آل الفرات ندام على الفرات يزيده
وأنت فضلك فيهم وعليك منه شهود

وقال ابن المعتز فى على بن محمد بن الفرات :

أبا حسنٍ ثبَّتْ فى الأمر وطائى وأدركتني فى المعضلات الهزاهن^(١)
وألْبَسْتَنِي درعا على حصينة فنأديت صرف الدهر : هل من مبارز !
وقال على بن بسام :

وقفت شهـ وراً للوزير أعدّها فلم تمنه نحوى الحقوق السوائف
فلا هو يرعانى رعاية مثله ولا أنا أستحي الوقوف وآنف

وكان موسى بن الفرات عاملاً لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر بن المتوكل ،
واستوزر المقتدر أبا الحسن على بن محمد بن الفرات ثلاث مرات ، يعزله ثم يرده .
وقُتِلَ المقتدر وأبو الفتح الفضل بن جعفر^(٢) بن الفرات وزيره .

وتولّى بعض دواوين المقتدر أبو طالب بن جعفر بن الفرات والحسن بن
أبى الحسين بن الفرات . فكان محل آل الفرات ، الوزارة والكتابة والبراعة
والحذاقة .

وحكى أن بعض الأدباء جوّز بحضرة الوزر أبى الحسن بن الفرات أن

(١) ديوانه ١١٩٤

(٢) فى الفخرى ٢٤٣ : « أبو الفضل جعفر الفرات » .

السين تقام مقام الصادق في كلّ موضع فقال له الوزير: أتقرأ: ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صّاح من آبائهم﴾ ، أو «ومن سلاح ؟» فنجعل الرجل واقطع .

ومثل هذا الدائرة أن النضر بن شميل مرض ، فدخل عليه قوم يهودونه ، فقال له رجل منهم : يكنى أباصالح : مسح الله ما بك ، فقال له : لا تقتل مسح بالسين ولكن بالصاد بمعنى أذهب ، وهو كلام العرب . فقال أبو صالح : إن السين تبديل من الصاد كالعصا والسرّاط وصقر وسقر ، فقال له النضر : فأنت إذا أبو صالح ! فنجعل الرجل .

قوله : « أعذب من الماء الفرات » أي أحلى ، والماء الفرات : العذب الحلو .
أطفت : أي أملت ونزلت . تهذّبهم : نظرفهم وتخلصهم من عيوب الجفاء .
كاثرتهم : صاحبهم فكثرت عددهم بي . مآذهم : طعامهم . أضراب : أمثال .

* * *

[القعقاع بن شور]

القعقاع بن شور ، قال الميرد : هو رجل سيد من عبد الله بن دارم ، وكان إذا جالسه جالس فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيبا في ماله ، وأعانته على عدوّه ، وشفع له في حاجته ، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرًا له ؛ حتى شهر بذلك .

قال الفنجديهيّ : هو القعقاع بن شور بن عمرو بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل الشيباني ، وهو من الأجواد والأسخياء ، يضرب به المثل في حسن المجالسة والمعاشرة وإتيان الجاليس بالشيء النفيس .
قال أبو عبيد : وكان من جساء معاوية ، فأهدى إلى معاوية هدايا يوم المهرجان فيها جامات ذهب وفضة ، فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام ذهب ، وفي القوم أعرابيّ إلى جنب القعقاع ، فدفع إليه لجام فأخذه الأعرابيّ ونهض ينشد :

وكنـت جـليس قـعقاع بن شـورٍ ولا يشقـى بقـعقاع جـليس^(١)
ضحـوك السن إن نطقوا بـخيرٍ وعند الشرِّ مطراق عبوسُ

[أشعار في وصف المجلس]

ومما يستحسن في البر بالمجلس قول صاعد اللغوي :

لى من سرّ بنى العباس خـلّ وجـليسُ
شهد المجد عليه أنه العلق النفيسُ
فإذا جالسته لم تدر من منّا المجلس
وقال كـشاجم :

جـليس لى أخوتـةٍ كأنّ حديثه حبره^(٢)
يسرك حسن ظاهره وتحمـد منه مختبره
ويستر عيبَ صاحبه ويستر أنه سـتره
وقال آخر :

جـليس لى له أدب رعاية مثله تجبُ
لو انتقـدت خلائـقه تـهـرج عنـدها الذهب
وقال آخر :

لى صديق غلطت بل لى مولىً من لئلى بأن يكون صديق
تتلاقى التقاءً روح بروح بضروب التقبيل والتعنيق
ليس فى الأرض من يميز منا عاشقاً فى اللقاء من معشوقٍ
أين ما وصف به القعقاع من قول والبة المشهور :

قلت لندمانى على خلوة أذن كذا رأسك من راسياً^(٣)

(١) الكامل للبـرد ١ : ١٧٧ ، ثمار القلوب ١٢٨

(٢) دبوابة ٧١

(٣) مختار الأغاني ٨ : ٣١٠

ونم على وجهك لى ساعة إنى امرؤ أنسكح جُلّاسيا
والبة بن الحباب شيخ الحسن بن هانى أدّبه صغيراً، فتخلّق بخلقته. وقال الحسن:
وجليس كانّ فى وجنتيه كلُّ شىء تسمو إليه النفوس^(١)
قد أصبنا منه فتستغفر الله كثيراً وقد يصاب الجليسُ

[الحور والكور]

قوله : الكور والحور ، أى الزيادة والنقصان، وكلام العرب : نعوذ بالله
من الحور بعد الكور ، أى من النقصان بعد الزيادة ، قلب اللفظ على مراده ،
وهو من كور العمامة ، وهو استعارة من نقض الأمر ، كنقض العمامة بعد
كورها وهو شدّها ، وكار عمامته : شدّها على رأسه وجمعها وحاربها فنقضها
وأفسدها .

وأمر الحجاج رجلا على جيش ، ثم بعثه مرة أخرى تحت لواء أمير آخر ، فقال:
هذا الحور بعد الكور ، قتال له الحجاج : وما الحور بعد الكور؟ قال : النقصان
بعد الزيادة ، فعلى هذا أكثر أهل اللغة .

وقيل معناها : نعوذ بالله من الخروج عن الجماعة بعد كوننا فى الكور ، وهو
الاجتماع ، من كار عمامته جمعها فى رأسه . وحارها : أفسدها .

ويروى : « بعد الكون » ، من قولهم : حار بعد ما كان ، أى كان على حالة
جميلة فرجع عنها . وقيل : معناه نعوذ بك من خروجنا عن الجماعة بعد الكون
على الاستقامة ، فحذف للعلم به .

* * *

فى المرتع والمربع ، يعنى المأكل والمنزل ، والمرتع الاتساع فى الأكل الكثير
والشرب ، والمربع : المنزل فى الربيع ، من ربت فى الموضع أقمت فيه . الأئمة .

(١) ديوان أبى نواس ١٩٦ وفيه : « كل حسن » .

طرف الأصبع أى عظموه ورفعوه فوق رؤوسهم .
 ابن أنسهم ، أى الذى يأنسون به . عند الولاية والعزل ، أى زمن العمل
 والعطل . خازن : كاتم وحابس .

* * *

فَاتَّفَقَ أَنْ نُدْبُوا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، لاسْتِقْرَاءِ مَزَارِعِ
 الرُّزْدَاقَاتِ ، فَاخْتَارُوا مِنَ الْجَوَارِي الْمُنْشآتِ ، جَارِيَةً حَالِكَةً الشَّيْآتِ ،
 تَحْسَبُهَا جَارِيَةً وَهِيَ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، وَتَنْسَابُ فِي الْحَبَابِ كَالْحُبَابِ .
 ثُمَّ دَعَوْنِي إِلَى الْمُرَاقَقَةِ ، فَلَبَّيْتُ بِلِسَانِ الْمَوَاقِقَةِ .

. . .

نُذِبُوا ، أى دعوا . استقراء ، أى تتبع . الرزداقات : العمالات والأنظار ،
 وأراد أنهم خرجوا عمالا على الزرع ، وكل موضع أوقرية انفصل عن المدينة
 بعمله فهو رزداق ورستاق ومخلاف وكورة ، فالرزداق بخراسان وهو فارسى
 عربى ، والمخلاف اليمن ، والكورة لغيرهما من الأرضين .

الجوارى : السفن . المنشآت : المصنوعات . حالكة الشيات : مسودة
 اللون ، والشية فى الفرس لون يخالف لونه كالغرة والتججيل وغير ذلك ، فأراد أن
 موضع البياض فى غير السفينة هو منها أسود فهى كلها سوداء جامدة : ساكنة .

[فى وصف السفن]

وركب السَّلامَى دجلة فى زورق ، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال :

وميدانٍ تجولُ به خيولٌ تقود لدرّاعين ولا تقادُ^(١)

(١) يتيمة الدهر . ٢٠ : ٣٦٥ .

ركبت به إلى اللذات طِرْفًا له جسمٌ وليس له فؤادُ
جَرَى فحسبت أن الأرض وجهٌ ودجلة ناظر وهو السَّوادُ

وقال القاضي التنوخيّ يصف دجلة في الظلام : والقمر يلمع عليها ، وينتظم في سلك أبيات السَّلاميّ رحمه الله تعالى :

أَحْسِنُ بدجله والدَّجَى متصوَّبٌ والبدر في أفق السماء مغرَّبٌ^(١)
فكأنها فيه بساطٌ أزرقٌ وكأنه فيها طراز مُذهَّبٌ

وقال منصور بن كَيْغَلغ :
﴿

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرها من فوق دجلة قبل أن يتغيَّبا^(٢)
رالبدر ينجح للأفول^(٣) كأنه قد سلّ فوق الماء سيفاً مُذهَّباً

وتسميته للسفينة جارية ، لجريانها على الماء ، قال تعالى في السفن العظام :
﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾^(٤) .

ولبعضهم :

يا من تأهَّبَ مزمعا لِرَواحٍ متيمماً بفدادٍ غير ملاح
في بطن جاريةٍ كفتك بسيرها رَقْلان كل شناعة وشناح
فكأنها والماء ينطح صدرها والخيزرانة في يد الملاح
جَوْنٌ من العتبان يبتدر الدَّجَى يهوى بصوت واصطفاقٍ جناح

الشَّنَاح : الجمل التام الخلق .

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأصطول :

(٢) يتيمة الدهر ١ : ٧٥

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧٥

(٤) سورة الشورى ٣٢

(٣) في اليتيمة : « الغروب » .

يا حسنَهَا يوماً شهدتُ زِفَافَهَا بنت الفضاء إلى الخليج الأزرق^(١)
 من كلِّ لابسَةِ الشَّبابِ مُلَاءَةً حسب اقتدار الصَّانع المتأنِّق
 ومجاذفٍ تحكى أراقمَ رَبْوَةٍ نزلت لتكرع في غدير مُتَأَنِّق
 والماء في شَكْلِ الهَوَاءِ فلا تَرى في شَكْلِهَا إلَّا جوارحَ تلتقي
 ولا بن حريق :

وكأنما سكن الأراقمُ جوفها من عهد نوح صاحب الطوفان^(٢)
 فإذا رَأَى الماءَ يطفح نضنضت من كلِّ خَزَقٍ حَيَّةٌ بلسان

* * *

قوله : ينساب ، أى تمشى بسلاسة . الحجاب : طرائق الماء . والحجاب ،
 بالضم : الحية . وتشبيهه المشى السهل بحجاب الماء أفشى وأعرف من تشبيهه بمشى
 الحية ، وتشبيهه بمشى الحية قد استعمل ، وهو متمكن فى المعنى ، وبه وقع التشبيه
 هنا فى المقامة ، وقال امرؤ القيس فى تشبيهه بحجاب الماء :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حال^(٣)
 وقال ابن الرومى :

فصفت ذلك من قولى إلى قمرٍ يلهو بمكتحلٍ طوراً وَنَحْتَضِبِ
 جرت تدافع من وشي لها حسن تدافع الماء فى وشي من الحَبَبِ
 وقال عمر بن أبى ربيعة فى مشى الحية :

فلما قدت الصوت منهم وأطفئت مصابيحُ شُبَّتْ بالعشاء وأنور^(٤)
 وغاب قُمَيْرٌ كنت أرجو غيوبه وَرُوحٌ رُغِيَانٌ وهومٌ سُمُرُ
 وخَفَضَ عَنِ الصوتِ أقبلت مشية الـ حُبَابِ وركنى خيفة القوم أزورُ

(١) نفع الطيب ٤ : ٦٠

(٢) نفع الطيب ٤ : ٥٧ ، وفيه : « خشية الطوفان » .

(٣) ديوانه ٢١

(٤) ديوانه ٦٦

ثبت في الكتب الصحاح ضم الحاء وقول الإعرابي :
 من المتصدّيات لغير سوء تسيل إذا مشت نَسِيلَ الحُبابِ
 يروى بالفتح والضم . وابن الإفيلي يَأْبَى إلا الضم .
 وقال أبو القاسم بن هاني * فجمع بين التشبيهين :
 قامت تَمِيسُ كما تدافع جَدُولُ وانساب أَيْمٌ في نقًا يَتَهَيَّلُ^(١)
 وأنت تُزَجِّي رَدْفَها بقوامها فتأطر الأعلى ومالج الأسفلُ
 وقال آخر ورفع الاحتمال :

لما دنا الليل بأرواقه ولاحت الجوزاء والمرزُمُ
 أقبلت والوطء خفيف كما ينساب في مكمنه الأرقمُ
 وما أحسن قول ابن شهيد في معناه^(٢) :

ولما تمكّن^(٣) من سُكْرِه ونام ونامت عيون العَسَسِ
 دنوتُ إليه على رِقْبَةٍ دنوّ محبٍّ دَرَى ما التمسُ
 أدبٌ إليه ديب الكرى وأسمو إليه سموّ النَّفْسِ
 أقبل منه بياض الظلي وأرشف منه اللَّمَى واللَّعَسُ

* * *

فأما تورّكنا على المطيّة الدهماء ، وتبطّنا الوليّة الماشية
 على الماء ، أَلْفَيْنَا بها شيخًا عليه سَحَقُ سِرْبَال ، وسِبُّ بال ،
 فعافت الجماعة محضره ، وعَنَفَتْ مَنْ أحضره ، وَهَمَّتْ يابرازه

(١) ديوانه ١١٠

(٢) ديوانه ١٢٠ ، نفع الطيب ٣ : ١٩٠ ، الذخيرة قسم ١ مجلد ١ : ٢٤٥

(٣) الذخيرة والنفع .

من السفينة ، لولا ما ثاب إليها من السكينة ؛ فلما لمس منا
استثقال ظلّه ، واستبراد طلّه ، تعرّض للمناقشة فصمّت ، وحمدل
بعد أن عطس فما شمت .

* * *

قوله : المطية الدهاء ، هي السفينة السوداء . وتورّ كناها : قعدنا عليها
متكئين . وتبطنا : دخلنا بطنها . الولية : المطيعة . وأوهم اتول الناس : فلان وليّ
يمشى على الماء ، فلما كانت مطيعة لخدامها ماشية على الماء سماها وليّة . ألفينا :
وجدنا . سحق مر بال ، أى قميص خالق . والسبب : الحمار . فيريد أن عليه منزرا
أو خماراً بالياً ، والمئزر كالحمار للمرأة . عافت : كرهت . عتفت : لامت وأغلظت
له القول ، والعنف ضدّ الرفق . ثاب : رجع .

قال القراء رحمه الله تعالى : معنى السكينة الطمأنينة .

أبو عبيدة : هي فعيلة من السكون . وتشبه حالة أبي زيد هنا في إهاتته أولاً
وإكرامه آخرأ حالة مَعْبِد في دخول السفينة ، وقد تقدّمت في الثامنة عشرة .
لمح : رأى . والظلّ ، يوصف بالثقل مبالغة في ثقل صاحبه ، يقال للمستثقل :
ظلك علىّ ثقیل ، أى أخف ما يمكن أن يوجد منك الظلّ السريع الانتقال يثقل
علينا ، فيصوّر شخصك أى منزلته من الثقل ، وإنما يتصور ثقل الظل حقيقة إذا
أخذ عليك إنسان عين الشمس في زمن البرد أو ضوءها وأنت تنظر ما يدقّ .

[ذكر الثقل]

ومما قيل في ثقیل :

أنت يا هذا ثقیلٌ وثقیلٌ وثقیلٌ

أنت في المنظر إنسا نٌ وفي الخبر فيلٌ

(٤ - شرح مقامات الحريري - ٢)

لو تعرضت لظليلٍ فسَدَ الظلّ الظليلُ
وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيلٌ يُنشد :
فما الفيل تحمله مَيِّتًا بأثقلَ من بعض جالسيّا
وذكر ثقيلًا كان يجلس إلى جانبه ، فقال : والله إني لأبغض شقي الذي
يليه مني .
وكان حماد بن سلمة إذا أرى من يستثقله قرأ : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب
إنا مؤمنون ﴾ ^(١) .
عائشة رضى الله عنها : نزلت آية في الثقلاء : ﴿ فإذا طمعت فانتشروا
ولا مستأنسين لحديث ﴾ ^(٢) .
الشعبي : من فاتته ركعتا الفجر فليعلن الثقلاء .
وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى ثقيلًا قال : اللهم اغفر له وأرخنا منه .
قيل لجالينوس : لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل ؟ قال : لأن
ثقله على القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه .
وقال طيب للحجاج : إياك ومجالسة الثقلاء ، فإننا نجد في الطب أن مجالستهم
تُحْمِي الروح .
وقال حكيم لآخر : لا تصحبن ثقيلًا ، فمن يصحبه فإنما يعذب روحه .
وقيل : سخنة العين النظر إلى الثقلاء .
وكان بعضهم إذا رأى ثقيلًا غشي عليه . وكان آخر إذا رأى ثقيلًا
تغص عينيه .
وكان بعض الظرفاء إذا رأى ثقيلًا قال : قد جاءكم الجبل ، فإن جلس عندهم
قال : قد وقع عليكم .

وسمع الأعمش كلام ثقیل فقال : مَنْ هذا الذى يتكلم وقابى يتألم .
قال رجل لخالد بن صفوان : أتستثقل فلانا ؟ قال : أوّه كدت والله أن
تصدع قابى بذكره ، والله هو أثقل من شراب الترنجيبيل بماء التين فى أيام
الحكاك بعقب النخمة وأوان الحمامة .

سلمّ ثقیل على بعض الظرفاء فقال : وعليك السلام شهراً .
قعد ثقیل عند ظريف ، فسئِلَ عن ذلك ، فقال : كانت نفسى قد شمتحت
على فأردت أن أهينها بذلك .

وقال رجل لفلان هاشمى : يا بغيض ، فشكاه إلى أبيه ، فقال : قد علمتُ أنك
بغيض ، فكرهت أن أقوله لك حتى يكون بغيضك بإسنادك .

وسئِلَ إنسان له ثلاث بنين ثقلاء : أىّ بنيك أثقل ؟ فقال : ليس بعد الكبير
أثقل من الصغير إلا الأوسط .

كان أبو العتاهية يقول لابنه محمد : أنت والله يا محمد ثقیل الظلّ ، مظلم
الهواء ، جامد النسيم ، بارد حامض منتن .

قال سهل بن هارون : مَنْ ثَقَّلَ عليك نفسه ، وغمك سؤاله ، فأعيره أذنًا
صماء ، وعينًا عمياء .
وأشددوا :

مشتملٌ بالبُغْضِ لا تَنَنِّى إليه لحظًا مقلّة الرامق^(١)
يظلّ فى مجلسنا قاعدًا أثقل من واشٍ على عاشقٍ

وقال بعضهم :

يا مَنْ تبرّمت الدنيا بطلعتيه كما تبرّمت الأجفان بالسَّهْدِ^(٢)
إنى لأذكّره حينًا فأحسبه من ثقله جالسًا منى على كبرى

(١) زهر الإدا ب ٤٤٢ هـ ، وورد البيت محرفًا فى الأصول والصواب : أثبته من زهر
الأدا ب . (٢) المحاسن والمساوى ٢ : ٢٧٧

ولبعضهم :

نظر العين نحوه - علم الله - يُعرضُ
فإذا ما أردتُمُ أن تروه فقمضوا
لا تصبكم ملّة وللمّتات تعرضُ

وقال بعضهم :

شخصك في مقلة النديم - أوحش من نحسة النجوم -
يا رجلا وجهه علينا أثقل من مينة اللثيم -
إني لأرجو بها أقاسى منك خلاصى من الجحيم -

وقال بعضهم أيضاً :

ولى خلتان على هامتي - جلوسهما مثل حدّ الوتد -
ثقيلان لم يعرفا حفة - فهذا الضدّاع وذاك الرمد -

والأشعار فى التقلّاء كثيرة وفى كتب الآداب مشهورة ، فلنقتصر على هذه النبذة .

[ما جاء فى البارد]

قوله : استبراد طله . الطلّ : أضعف المطر ، وهو الرذاذ ، وأكثر نزوله ساكناً بغير ربح ، ولا برّد فى الغالب يكون معه ، فكنتى هنا بالطلّ عن كلامه القليل ، وإنه عندهم بارد الحديث ، وإن كان ما جاء منه ثقيل مؤذٍ .

وقد جاء فى ذلك :

ولو مازج النار فى حرّها - حديثك أطفأ منها الالهب -
وقال آخر فى شعر الصولى :
دارى دبلا خيش ولكنتى - عقدت من خيشى طاقين -

دار متى ما اشتد بي حرها أنشدت للصولي يفتين
وكلامه :

ويوم كتنور الطهارة سجرته على أنه منه أحر وأوقد
ظلات به عند المبرد جالساً فازلت في ألفاظه أنبرد

لقي برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد في يوم ثلج بالجر ، فقال له : أنت
المبرد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ؛ اعبر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا .
وقال كشاجم رحمه الله تعالى :

غناء مديح بأرض الحجاز يطيب وأما بمحص فلا
لبرد الغناء وبرد الهواء فإن جما خفت أن يقتلا

قوله : تعرّض ، أى تهبأ . المنافة : الكلام معهم . ضمت : سكّت .
ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موقع
حديث الرجل من القوم كوقعه من قلوبهم » .

حمدل : قال الحمد لله . ماشمت : ما أدخل عليه السرور بقولهم : يرحمك الله تعالى .
ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع بها عنه سبعون داء أهونها الجذام » .

[ماجاء في تسميت العاطس]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله ، والذي
يشمت : يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله ، ويصالح بالكم » .

وبما يستظرف من حديث العطاس أن صوفيّا في بلدنا كان حافظاً للشعر ،
فلا يعرض في مجلسه معنى إلا وينشد عليه شعراً ، فاتفق أن عطس رجل بمحضره ،
فشتمه الحاضرون ، فدعا لهم ، فرأى الصوفي أن تسميته قطع إنشاده بما لا يشاكله

من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً في البر . فأصبح للطلبة راعياً أن ينظم له هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن محمد :

يا عماطساً يرحمك الله إنْ أعلنتَ بالحمد على عَطَسَتِكَ
ادع لنا ربَّكَ يغفر لنا وأخلص النية في دعوتِكَ
وقل له يا سيدي رغبتى حضور هذا الجمع في حضرَتِكَ
وأنت يا ربَّ النداء والندى بارك ربَّ الناس في ليلتك
فإن يكنْ منك لنا دعوة فأنت محمود على عَوَدَتِكَ

وهذا الوزير الشريف إنما يصرف شعره في أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان .

وكتب إلى يستهديني كتاب العقد :

أيامنْ غدا سلكا بجيد معارفه ومَنْ لفظه زهر أنيق لقاطفه
محبُّكَ أضحى عاطل الجيد فلتجدْ بعقد على لُبِّـاته وسوِّلفه
وتوعكْ في بعض الأعياد فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما هموا بالانصراف أنشدتم ارتجالاً :

لله درّ عصاة أجمادٍ شرف النداء بقصدهم والنادى
لما أشاروا بالسَّلام وأربَعُوا أنشدتهم وصدقت في الإنشادِ
في العيد عدم وهو يوم عروبة يا فرحتي بثلاثة الأعيادِ

* * *

فأخردَ ينظرُ فيما آلت حاله إليه ، وينتظرُ نُصرةَ المبعيِّ عليه . وجلنا نحنُ في شُجونٍ ، من جدِّ ومُجُونٍ ؛ إلى أن اعترضَ :
: كُرُّ الكتابَيْنِ وفضلِهما ، وتبيانِ أفضليهما ، فقال قائل : إن كُتِبَ

الإنشاء أنبلُ الكتاب ؛ ومالَ مائلٌ إلى تفضيل الحِساب . واحتدَّ الحِجاج ، وامتدَّ اللِّجاج ؛ حتَّى إذا لم يَبْقَ لِلْجِدَالِ مَطْرَحٌ ، ولا لِلِمِرَاءِ مَسْرَحٌ ؛ قال الشيخ : لَقَدْ أَكْثَرْتُمْ ياقَوْمُ اللَّغَطَ ، وَأَثَرْتُمْ الصَّوَابَ وَالْغَلَطَ ، وَإِنَّ جَلِيَّةَ الْحُكْمِ عِنْدِي ، فَارْتَضُوا بِنَقْدِي ، وَلَا تَسْتَفْتُوا أَحَدًا بَعْدِي .

* * *

قوله : أخرد ، أى سكت ذلاً ، وىروى : خرد ، أى سكت حياء واستتر ، تقول : أخردت وخردت من حرّ الشمس . أى استترت ، وأقرد من لفظ القرد أو القراد ، وأخرد من لفظ الخريدة . ألت : رجعت . المبعى عليه ، أى المظلوم ، وأراد أن ينظر النصرة على أعدائه ، من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعِثْ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ جُلْنَا : تصرّفنا . شجون : ضروب من الكلام ، ومنه : الحديث شجون ، أى فنون ، ومشتبك بعضه ببعض . وفى الحديث : « الرحم شجنة من الله » ، معناه القرابة مشتبك بعضها ببعض ، كاشتباك العروق . اعترض : تصلّب وظهر . الإنشاء : الكتابة . وكتبة الإنشاء هم كتبة بين يدي السلطان وهم المترسلون . أنبل : أعظم قدرا . والحِساب : كتبة الزمام

احتدَّ : اشتدَّ والحِجاج : الحاجة^(١) واللِّجاج : ركوب الرجل على الباطل ، مطرح : موضع يطرح فيه . المراء ، قد تقدّم . آثرتم : فضلتهم . جليّة : بيان . نقدى : تمييزى .

* * *

(١) ط : جمع جعة ، والوجه ما فى ا .

اعلموا أنَّ صناعةَ الإنشاءِ أرفعُ ، وصناعةَ الحسابِ أنفعُ ،
 وقلمُ المكاتبةِ خاطبُ ، وقلمُ المحاسبةِ خاطبُ ، وأساطيرُ البلاغةِ تُنسخُ
 لتُدرَسَ ، ودساتيرُ الحساباتِ تُنسخُ وتُدرَسُ . والمنشئُ جهينةُ
 الأخبارِ ، وحقيقةُ الأسرارِ ، ونجىُّ المظماءِ ، وكبيرُ الندماءِ ، وقلمه
 لسانُ الدولةِ ، وفارسُ الجولةِ ، ولقمانُ الحكمةِ ، وترجمانُ الهمّةِ .
 وهوَ البشيرُ والتّذيرُ ، والشفيعُ والسّفيرُ . به تُستخلصُ
 الصّياصِ ، وتملكُ النّواصِ ، ويُقتادُ العاصِ ، ويُستدنى القاصِ ،
 وصاحبُه برئٌ من التّبعاتِ ، آمِنٌ كئيدُ الشعاةِ ، مُقرّظٌ بينَ
 الجماعاتِ ، غيرُ مُعرّضٍ لنظمِ الجماعاتِ .

* * *

قوله : خاطبُ ، أى جامع للكلام . خاطب : جامع للحطب ، يريد أن
 المنشئ . كالحطّيب يختار من الكلام النفيس فيسرقه ، ولا يبالي كاتب الحساب
 بما كتب ، ويكون خاطب بمعنى مجمع للمال . أساطير : أحاديث ، وهى جمع
 أسطار ، وأسطار : جمع سطر . وقيل : الأساطير : جمع أسطورة وإسطارة .
 دساتير : أزمة . تدرس : تمحى أو تُترك حتى تتغير .

[أصل المثل : عند جهينة الخبر اليقين]

جهينة الأخبار ، أى العارف بها . واختلفوا فى المثل ، قال الأصمعى رحمه
 الله تعالى : جُهينة بالجيم والفاء .

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : حُفينة ، بجاء غير معجمة .

وقال ابن الكلبي : جُهينة بالجيم والماء ، وهو الصحيح .

وأصله أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خَرَجَ يطلبُ فُرْصَةً فاجتمع
 برجل من جُهينة يقال له الأخنس بن كعب، فنزلا في بعض منازلهما . وتعاقدا
 ألا يلتقيا أحداً إلا ساءلأه، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه، فلقيا رجلاً، فسلباه كلَّ
 مامعه فقال لهما : هل لكما أن تردّا علىّ بعض ما أخذتما مني وأدلكما على
 مغنم ؟ فقالا : نعم، قال : هذا رجل لخمىّ قدم من بعض الملوك بمغنم كثير، وهو
 خلفي في موضع كذا، فردّا عليه بعض ماله، وطلبا اللخمىّ، فوجداه نازلاً
 في ظل شجرة وقدّامه طعامه وشرابه، فحياه وحيّاها، وعرض عليهما الطعام،
 فنزلا وأكلا، وشربا مع اللخمىّ . ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فلما رجع
 أبصر سيف صاحبه مسلولاً، واللخمىّ يتشحّط في دمه، فسلّ سيفه، وقال :
 ويحك ! قتلت رجلاً قد تحرّمتنا بطعامه وشرابه ! فقال : اقم يا أبا جهينة، فلهذا
 وشبهه خرجنا . ثم إن الجهتي شغل صاحبه بشيء، ثم وثب عليه فقتله، وأخذ
 متاعه ومتاع اللخمىّ . ثم انصرف إلى قومه راجعاً بماله، وكانت لخصين أخت
 تسمّى صخرة، فكانت تبكيه في المواسم وتسال عنه فلا تجد من يخبرها بخبره،
 فقال الأخنس حين أبصرها :

وكم من فارس لا تزدريه	إذا شَخَصَتْ لرؤيته العيون ^(١)
علوتُ بياض مفرقه بعَضِبِ	فأضحى في القلاة له سكون
يذلّ له العزيز وكلّ ليثٍ	من العقبان مسكنه العرينُ
فأضحت عرسه ولها عليه	بعيد هدوء رقدتها أنينُ
كصخرة إذ تسائل في مراحٍ	وفي ^(٢) جرم وعلمهما ظنونُ
نسائل عن حصين كلّ ركب	وعند جُهينة الخير اليقينُ
فمن يك سائلاً عنه فعندى	لسائله الحديث المستبينُ
مراح وجَرَم : قبيلتان .	

(١) قبله في الميداني ٢ : ٤

وكم من ضيفم وردٍ هم-وسٍ

(٢) الميداني : « وأغار » .

حقيقية : وعاء . نجى : متكلم . الندماء : الجلساء على الخمر ، يريد أن أصحابه أعيان وأشرف . النذير : الخوف . السفير : الرسول بين القوم . تستخلص : تملك وتحصل . الصياعى : الحصون . النواصى : الرؤوس ، وأصل الناصية شعر مقدم الرأس . القاصى : البعيد . التبعات : المطالبات . السعاة : جمع ساعٍ ، وهو جاني الصدقة . مقرّظ : مدوح . نظم الجماعات : تجميعا الحساب ، والجماع : الأخلاط وضروب من الناس ، والجماع : كل شيء انض بعضه إلى بعض وتجمع ؛ أراد أن كاتب التراسيل قدأمن من مكر عمال الزكوار الذين يسرقون مال الرعية والسلطان ولا يعرض لأن يؤلف ما افترق من الخراج حتى يصير جماعات .

فَلَمَّا انْتَهَى فِي الْفَصْلِ ، * * * إِلَى هَذَا الْفَصْلِ ، لَحَظَ مِنْ لَمَحَاتِ الْقَوْمِ أَنَّهُ أَزْدَرَعَ حُبًّا وَبُغْضًا ، وَأَرْضَى بَعْضًا وَأَحْفَظَ بَعْضًا . فَعَقَّبَ كَلَامَهُ بِأَن قَالَ : إِلَّا أَنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةَ الْإِنشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ، وَقَلَمَ الْحَاسِبِ ضَابِطٌ ، وَقَلَمَ الْمُنْشِئِ خَاطِبٌ . وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْظِيفِ الْمَعَامِلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ طَوَامِيرِ السَّجَلَاتِ ، بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ تَبَاسٌ ، إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمْلَأُ الْأَكْيَاسَ ، وَالتَّلَاوَةُ تَفْرِغُ الرَّاسَ ، وَخَرَاجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاظِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ الْمَدَارِجِ يُعْنِي النَّاظِرَ .

* * *

الفصل ، أى القضاء والحكم ، وأراد أنه فصل في القضاء بين الصنفين من الكتاب . إلى هذا الفصل ، أى إلى هذا الحد . والفرق ، فالأول من فصل الحاكم بين الخصمين فصلا : قضى ، والثانى من فصلت بين الشئتين فصلا وفصولا : فرقت ، يريد أنه فصل بين الكلام المتقدم والكلام المستأنف ، وأراد أنه ازدرع في

قلوب كَتَبَةِ الإنشاء حَبَّه لمدحه لهم ، وفي قلوب كتبة الحساب بغضه لما قصر بهم ، فأخذ يستأنف مدحهم .

أحفظ : أغضب . عَقِب : أتبع ، وأراد بالتحقيق أن صنعة الحساب برهانية محققة . والتلفيق : ضمّ شيء لطيف إلى مثله ، ولفقت الشيء تلفيقاً ضمنت بعض أجزائه إلى بعض . ضابط : محقق ، والضبط الأخذ بشدة ، ورجل ضابط للشيء ، إذا قوَّى عليه فلم يُفَلِّت منه . خابط : مغرّر ، وخبط : مشى على غير هداية . الإتاوة : الخراج والجباية إلى بيت المال . توظيف : تقسيط . ووظف على الناس الغرم : قسّطه عليهم ، والوظيفة : نصيبك الذي تغرمه . المعاملات : أنواع من علم الحساب ، وأصلها مصدر عاملت الرجل معاملة إذا وافقته على بيع أو كراء أو إجازة أو غير ذلك مما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . تلاوة : قراءة . طوامير السجلات : بطائق الترسيل ، والطومار : الكتاب . بون : بعد . يعتوره : يتداوله ويقصده . التباس : شك . الأكياس : أوعية الدراهم . والإتاوة : رشوة العمال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال رشوة . تعرّغ الرأس : تهوَّسه بكثرة الدروس والسهر . الأوارج : أزمة الخراج . وقيل : صنف من الخراج . الناظر : العامل فيها ، وأورجها ، إذا تولى عملها والقيام بها . المدرج : الرسائل ، سميت بذلك لأنها تُدرَج ، أى تطوى على مافيه ، واستخراجها : تتبع معانيها بجودة النظر ودرس ألفاظها . يعنى : يتعب . الناظر : سواد العين ، يريد أن كاتب الزمام في راحة وهو يعمل على أكياسه بالدراهم . وكاتب الرسالة متعب قليل المال .

ثمَّ إنَّ الحِسْبَةَ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ، وَالثَّقَلَةُ الْأَثْبَاتُ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتُ ، وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِنْصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْقَانِعُ فِي الْإِخْلَافِ ، وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّوَانِ ، وَقِسْطُ الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيَّمُونَ عَلَى الْعُمَمَالِ ،

وإليه المآبُ في السَّلم والهَرَج ، وعليه المدارُ في الدَّخْلِ والخَرْج ، وبه مناطُ الضَّرِّ والنَّفْع ، وفي يده رِباطُ الإعطاء والمنع .

ولولا قلم الحِسَاب ، لأودت ثَمَرَةُ الاكِتِسَاب ، ولاتَّصَلَ التَّغَابُنُ إلى يومِ الحِسَابِ . وَلَكَّانَ نِظَامُ المعامِلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظُّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، وَجِيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ، وَسَيْفُ التَّظَالِمِ مَسْلُولًا . على أَنَّ بِرَاعَ الإنشاءِ مَتَقَوِّلٌ ، وَبِرَاعَ الحِسَابِ مَتَأَوِّلٌ . والمحاسبُ مُنَاقِشٌ ، والمُنَشِئُ أَبُو بَرَأَقِشٍ ، وَلَكَلِمِهِمَا حُمَةٌ حِينَ يَرُقُّ ، إلى أَنَّ يُبْلَقَ وَيُرُقُّ ، وإِعْنَاتٌ فِيمَا يُنْشَأُ ، حَتَّى يُنْشَى وَيُرْشَى ؛ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

* * *

النَّقْلَةُ : الأَثْبَات ، أَيْ هُمْ عَلَى يَقِينٍ وَثَبَاتٍ فِيمَا يَنْتَقِلُونَ . السَّفَرَةُ . الكُتْبَةُ . الثَّقَات : الأَمْنَاء . أَعْلَامُ الْإِنْصَافِ ، يَرِيدُ الْمَشَاهِيرَ بِإِنْصَافِ السُّلْطَانِ مِنَ النَّاسِ وَالنَّاسِ مِنْهُ ، وَتَقُولُ : أَنْصَفْتُ الرَّجُلَ : أَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ ، وَانْتَصَفْتُ مِنْهُ : أَخَذْتُ حَقَّكَ . وَالْمَقَانِع : الَّذِينَ يُقْنَعُ بِفَعْلِهِمْ ، أَيْ يَرْضَى . وَالْإِخْلَاف : جَوْدَةُ الزَّرْعِ ، تَقُولُ : أَخْلَفَ الزَّرْعُ ؛ إِذَا طَابَ ؛ وَرَدَّ عَلَى أَصْحَابِهِ أَضْعَافَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهِ . الْمُسْتَوْفَى : رَأْسُ الْمَشَارِبِ . قُطْب : أَصْل . وَقُطِبَ الْقَوْمُ سَيِّدُهُمُ الَّذِي يَدْبِرُ أَمْرَهُمْ وَيُدِيرُونَهُ عَلَى رَأْيِهِ ، بِمَنْزِلَةِ قُطْبِ الرَّحَى الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ . الدِّيُون : دَارُ كِتَابِ الْخَرَاجِ ، وَهُوَ فَارْسِيٌّ مُعَرَّبٌ . قِسْطَاس : مِيزَانٌ ؛ يَرِيدُ أَنَّهُ مِيزَانُ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْتَدِلُ بِهِ . الْمُهَيِّمِن : الشَّاهِدُ . الْمَأْب : الرَّجُوعُ . السَّلمُ وَالْهَرَج : الصِّلَحُ وَالْحَرْبُ . الْإِدَار : الْمَعْوَلُ ، أَيْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ فِي إِدَارَةِ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الْمَالِ مِنْ رِعْيَتِهِ ، وَمَا يَخْرُجُ عَنْهُ مِنْ لَوَازِمِ الْأَجْنَادِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفُلَانٌ كَثِيرُ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ،

إذا كثر ما يدخل عليه من الفوائد وما يخرج عنه من الإفناق .

مناط : تعلق . أودت : هلكت . نظام : خيط . مطلولا ، هدرأ أى باطلا
لاحق فيه . التناصف : أخذ الحق وإعطاؤه ، واستعمار له عنقاً ، وجملة مغلولا ؛
أى محبوسا بغل . النظام : ضد التناصف . يراع : أقلام . متقول : منحول
ما يقوله . متأول : مدبر ؛ يريد أن الملك يلقي للكتاب مقصده ، فيحسن
الكتاب الألفاظ ويرتب الفقر ، فيزيد في كتابته ألفاظاً على ما حد له بالضرورة ،
فتلك الزيادات ضرب من التقول وهو أن يقول على الرجل ما لم يقل ، وكتاب
الحساب لا يحتاج إلى تقول . مناقش : مباحث . أبو براقش ؛ أى يأتى بأنواع
مختلفة ، وأبو براقش : طائر فيه ألوان شتى ، مشتق من البرقشة ، وهى النقش
والرقم ، يقال : برقشت الثوب . وأنشد سيبويه وعزاه أبو عمرو بن العلاء
لبعض بنى أسد :

إن يبعثوا أو يحسنوا أو يمدروا لا يجفوا
يغدوا عليك مرجليهم كأنهم لم يفعلوا
كأبى براقش كل حين لونه يتحيل

وأبو براقش وأبو قلمون ، كنية للرجل الكثير اللون ، القليل الارتباط ،
وأصل أبى قلمون كنية لثياب إبريسم تنسج بمصر والروم ، تملون للعيون ألواناً
شتى . وفى البديعية :

أنا أبو قلمون فى كل لون أكون

حمة بالتخفيف : سم وشر . يرقى : يصعد فى منزله ، ويرتفع فى أصابع الكتاب .
حين يكتب به . يرقى : إشارة للرشوة لأنها تسكن شره ، كما تسكن الرقية الوجع ،

إعنات : مشقة . يُنَشَى : يكتب . يُغَشَى : يقصد ويدخل عليه .

[حائِك الكلام]

هذه المقامة بناها أبو محمد على حكاية حائِك الكلام المشهور، لأنهم حقروه أولاً في السفينة ثم عظموه آخرًا بعد الاختبار .

(١) ونذكر الحكاية وإن طالت لموافقتها المقامة : حدث عمرو بن مسعدة (٢) أن المعتصم لما رجع من الثغر ، وصار بناحية الرقة قال لى : ما زلت تسألنى فى الرخجى (٣) حتى وليته الأهواز، وقعد فى سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ، ولم يوجه إلينا بدرهم واحد ، أخرج إليّ من ساعتك ، واحلف ألاّ تقيم ببغداد إلّا يوماً واحداً ، فحلفت له، وقلت فى نفسى : أبعد الوزارة أصير مستحقاً لعامل خراج ! ولم أجد بداً من طاعته . فخرجت إلى بغداد، ففرش لى زورق، وغشّى بالسّالخ (٤)، فلما صرت عند دير هزّ قل (٥) ، وإذا رجل يصيح : يا ملاح ، رجلٌ منقطع ، فقلت للملاح : قرب إلى الشطّ، فقال : هذا شحاذ ، وإن قعد معك ، آذاك فأمرت الغلمان فأدخلوه فى كوئل (٦) الزورق ، فلما حضر الغداء دعوته فأكل أكل جائع ، إلّا أنه نظيف ، فلما رُفِع الطعام ، أردت أن يستعمل معى ما يستعمل العوام مع الخاصة ؛ أن يقوم فيغسل يده فى ناحية ، فلم يفعل ، فغمره الغلمان فلم يفعل ، فقلت : يا هذا ، ما صناعتك ؟ فقال : حائِك ، فقلت فى نفسى : هذه شرّة من الأولى ، ثم قال لى : جُعِلت فداك ! سألتنى عن صناعتى فأخبرتُك ، فما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أعظم ، فكهرت ذكر الوزارة فقلت : كاتب .

(١) العقد ٤ : ١٧٥ .

(٢) كذا فى الأصول والمعروف أن عمرو بن مسعدة توفى سنة ٢١٧ فى حياة المأمون .

(٣) الرخجى . منسوب إلى رخج ، من نواحي كابل ، وهو عمرو بن فرج . كان من أعيان الكتاب فى أيام المأمون .

(٤) السّالخ الجلد .

(٥) دير هرقل : بين البصرة وعسكر مكرم (باقوت) .

(٦) الكوئل . مؤخر السفينة أو سكانها .

فقال : الكاتب على خمسة أصناف : كاتب رسائل ويحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والتهاني والتعازي والصدور وجمالاً من الإعراب . وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والتسييط والحساب . وكاتب جند ، يحتاج إلى أن يعرف شِيَاتِ الخيل وحُلَى الناس . وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يَعْرِف الجراح والقصاص والديّات ، وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يعرف الفقه والوثائق وما يتعلق بذلك ، فأيهم أنت أعزك الله تعالى ؟

قلت : كاتب رسائل ، قال : فأخبرني ؛ إن كان لك صديق تكتب له في الحبوب والمكروه^(٢) ، فزوّجت أمه ، كيف تكتب إليه؟ تهنيه أو تعزّيه؟ قلت : والله لأدري ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزّيه؟ قلت : والله لأدري ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزّيه ؟ قلت : والله لأدري . قال : فلست بكاتب رسائل : فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج ، قال : فما تقول وقد ولّك السلطان عملاً ، فجاء قوم يتظاهمون من بعض عمالك ، فأردت أن تُنصفهم ، وكنت تحب العدل وتؤثر حسن الأحدثة ، وكان لأحدهم قراح^(١) فأردت مساحته ؟ قلت : أضرب العطوف في العمود . قال : إذن تنظّم الرجل ، قلت : فأمسح العمود على حدة ، والعطوف على حدة ، قال : إذن تنظّم الناس ، قلت : والله فما أدري ؟ قال : فلست بكاتب خراج ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب جند . فقال : فما تقول في رجلين اسم كل واحد منهما أحمد ، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع السفلى ، كيف تكتب عليهما؟ قلت : أكتب أحمد الأعلم وأحمد الأعلم . قال : وكيف ورزق هذا مائة درهم ورزق الآخر ألف درهم ، فيقبض هذا على دعوة هذا ، فنظّم صاحب الألف ، قلت : والله ما أدري ! قال : فلست بكاتب جند ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب قاض .

قال : فما تقول في رجل توفّي وخلف زوجة ورّية ، وللزوجة بنت وللرّية^(٣)

(١) القراح : المزرعة ليس فيها بناء ولا شجر .

(٢) بعدها في العقد : « وجميع الأسباب » . (٣) السرية : المبلوكة يتسراها صاحبها .

ابن ، فتنازعتا فيه ، فقالت كل واحدة منهما هذا ابني وقالت واحدة هذا ابني ، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضى ! قلت : والله ما أدرى ؟ قال : فلست بكاتب قاض ، قال : فأيتهم أنت ؟ قلت : كاتب شرطة .

قال : فما تقول فى رجل وثب على رجل ، فشجّه شجّة^(١) موضحة ، فوثب عليه المشجوج فشجّه شجّة مأمومة^(٢) ، قلت : لأعلم ، وقد سألت ففسّر لى ما ذكرت قال : أما الرجل الذى تزوّجت أمه ، فتكتب إليه : أما بعد فإن أحكام الله تعالى تجرى بغير محابّ الخلقين ، والله يختار للمخلوق ، فخير الله لك فى قبضها إليه ، فإن القبر كرم لها ، والسلام .

قال : وأما التراح فتضرب واحداً فى واحد فى مساحة العظوف ، فتمّ بابه . قال : وأما المقطوع العليا فتكتب عليه أحد الأعم ، زمال المقطوع السفلى أحد الأشرم ، وأما المرأتان فيوزن لبيهما ، فأيتهما . أنا أخفّ فهى صاحبة البنت . وفى الموضحة خمس من الإبل ، وفى المأمومة ثمانية وعشرون .

قلت : فما نزع بك إلى هنا ؟ قال : ابن عم لى كان عاملاً على ناحية فخرجت إليه فلقيته معزولاً ، فخرجت إلى بعض النواحي اضطرب فى المعاش ، قلت : أليس قد ذكرت أنك حائك ! قال : أنا أحوك الكلام ، ولست بحائك الثياب . فلما بلغنا الأهواز أمرتُ الحجام فأخفى من شعره ، وأدخل الحمام ، فكسوته من ثيابى ، وكلمت الرخجى فيه فى الأهواز فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معى .

فقال لى المعتصم : ما كان من خبرك فى طريقك ؟ فأخبرته خبرى ، ثم خبر الرجل ، فقال : هذا لا يُستغنى عنه ، فلائى شىء يصالح ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالمساحة والهندسة ، فولاه البناء ، فكنت ألقاه فى الموكب النبيل فينزل عن دابّته فأمنعه ، فيقول : يا سبجان الله ! إنما هذه

(١) الموضحة من الشجاج : التى بلغت العظم .

(٢) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الوأس .

نعمتك ، وبك أفدتها .

ومثل إيهامه هنا أنه حائك إيهام أبي زيد في التاسعة أنه نظام .

* * *

قال الحارث بن همام : فلما أمتع الأسماع ، بما راق وراع ،
استنسبناه فاستتراب ، وأبى الانتساب ، ولو وجد منساباً لأنساب .
فحصلت من لبسه على غمة ؛ حتى أدكرت بعد أمة . فقلت : والذي
سخر الفلك الدوار ، والفلك السيار ، إني لأجد ريح أبي زيد ، وإن
كنت أعده ذارواً وأيد .

فتبسم صاحكاً من قولي ، وقال : أنا هو على استحالة حالي
وحولي ؛ فقلت لأصحابي : هذا الذي لا يفري فريته ، ولا يباري
عبقريته . فخطبوا منه الود ، ويدلوا له الوجد ؛ فرغب عن الألفة ،
ولم يرغب في التحفة ، وقال : أما بعد أن سحقتكم حق ، لأجل سحقي ،
وكسفتكم بالي ، لإخلاق سربالي ، فما أراكم إلا بالعين السخينة ،
ولا لكم مني إلا صخرة السفينة .

...

قوله : « أمتع الأسماع » أى متع الآذان ولذذها ، ومنه يقال في الكتابة :
أبقاك الله وأمتع بك ، ومعناه : أطل الله عمره ، من الممتع وهو الطويل عند العرب ،
ومنه متع النهار ، أى علا ، وقال الأنصارى .

وها لأيام الصبا وزمانه لو كان أمتع بالمقام قليلا !
وتبلاء الكتاب يكتبون بها إلى الأنبياء والأدنياء ، ولا يكتبون بها إلى
الأكفاء والأعلون .

* * *

(٥ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

[طرف وملح بين الأدباء والشعراء]

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر كتاباً في صدره :
وأمتع بك ، فكتب إليه ابن طاهر : ^(١)

أَحْلَتَ عَمَّا عَهَدْتَ مِنْ أَدَبِكَ أَمْ نَلْتَ مَا كُنَّا قَتَمْتَ فِي كِتَابِكَ
أَمْ قَدْ تَرَى أَنَّ فِي مَلَاظِفَةِ الْإِخْوَانِ نَقَصًا عَلَيْكَ فِي أَدَبِكَ
إِنَّ جَفَا كِتَابِ ذِي مَقَّةٍ يَكُونُ فِي صَدْرِهِ : وَأَمْتَعْ بِكَ
أَتَمَبْتَ كَفَيْكَ فِي مَخَاطِبَتِي حَسْبُكَ مِمَّا لَقِيتَ مِنْ تَعْبِكَ

فأجابه ابن الزيات :

كَيْفَ أَخُونِ الْإِخْوَانَ يَا أُمْلِي وَكُلَّ شَيْءٍ أَنَالَ مِنْ سَبَبِكَ
إِنْ يَكُ جَهْلُ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِي فَعَدُّ بَفَضْلٍ عَلَيَّ مِنْ حَسْبِكَ
أَنْكَرْتَ شَيْئًا وَلَسْتَ فَاعِلُهُ وَلَنْ تَرَاهُ يُحْطُّ فِي كِتَابِكَ
فَاعْفُ فَدَنُكَ الْنَفُوسَ عَنْ رَجُلٍ يَعِيشُ حَتَّى الْمَمَاتِ فِي أَدَبِكَ

ومن ملح أجوبة ابن الزيات أن الحسن بن وهب مرض فلم يعده ، ولا
تعرف خبره ، فكتب إليه الحسن :

أَيُّ هَذَا الْوَزِيرِ أَيْدِكَ اللَّهُ وَأَبْقَاكَ لِي زَمَانًا طَوِيلًا
أَجِيلًا تَرَاهُ يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مَسْ لَكِيمًا أَرَاهُ أَيْضًا جَمِيلًا
إِنِّي قَدْ أَقَمْتُ عَشْرًا عَلِيلًا مَا تَرَى مَرْسَلًا إِلَى رَسُولًا
إِنْ يَكُنْ يُوَجِّبُ التَّعْهِدَ فِي الصَّحْبَةِ مَنَّا عَلَيَّ مِنْكَ طَوِيلًا
فَهُوَ أَوْلَى بِاسْتِدِّ النَّاسِ بِرَّاءٍ وَافْتِقَادًا لِمَنْ يَكُونُ عَلِيلًا

(١) العقد ٤ : ١٨٢ ، أدب الكتاب ١٦٢ .

فأجابه ابن الزيات :

دفع الله عنك نائبة الله ر وحاشاك أن تكون عيلاً
أشهد الله ما علمت وماذا لك من العذر جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمت فلا رمتك خولاً لكان عندى قليلاً
فاجعلن لى وإلى التعلق بالعذر ر سبيلاً إن لم أجد لى سبيلاً
فقدماً ما جاد بالصّفتح والعفو و وما سامح الخليل خليلاً

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له يعاتبه على ترك عيادته :

يا جافياً ترك السؤال بعبدہ
اعتلّ عبدك من تشكى رأسه
فحبست رسلك عن تعهد عاتى
وعلمت منك تمادياً فى جنوتى
نفسى فذاؤك من ملول قاطع
سئناً وأردفها بيوم سابع
وقطعت من سبب الوصال مطامعى
فرجعت فى عفوى كأحسن راجع

فأجابه الآخر :

لا والذى قسم الجلال بفضلہ
ما إن علمت بعلّة لك سيدى
وإذا أتنك رسالتى فقرأتها
فجباك منه بالضياء اللامع
إلا بخطك فى القريض البارع
فأقبل فديتك من مقر خاضع

وكان^(١) الحسن بن وهب يتعشق غلاماً لأبى تمام رومياً، وكان أبو تمام يتعشق
غلاماً للحسن خزريّاً، فرآه أبو تمام يعبث بغلامه، فقال : والله لئن أعنقت فى
الروم لأركضن إلى الخزر، وما أشبهك إلّا بدادود وأشبّه^(٢) نفسى بخصمه، فقال
الحسن : لو كان هذا منظوماً خفناه، والمنثور عارض للاحقيقة له، فقال أبو تمام :

(١) الخبر والشعر فى كتاب أخبار أبى تمام للصولى ١٩٤ .

(٢) أخبار أبى تمام : « وأشبهنى » .

أبَا عَلَى لَصَرْفِ الدَّهْرِ وَالْغَيْرِ وَلِلْحَوَادِثِ وَالْأَيَّامِ وَالْعَبْرِ
أَذْكَرَ تَنِي أَمْرَ دَاوُدَ وَكُنْتُ فَتْنِي مَصْرُفِ الْقَلْبِ فِي الْأَهْوَاءِ وَالذِّكْرِ
أَعْنَدُكَ الشَّمْسُ لَمْ يَحْطَ الْمَغِيبُ بِهَا وَأَنْتَ مُضْطَرِبُ الْأَحْشَاءِ بِالْقَمْرِ
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَتْرَكَ السَّيْرَ الْحَثِيثَ إِلَى جَاذِرِ الرُّومِ أَعْنَقْنَا إِلَى الْخَزَرِ

(١) وكان الحسن يكتب لابن الزيات ، فلما وقف على ما بينهما من أمر الغلامين ، تقدّم إلى بعض ولده ، وكانوا يجلسون عند ابن وهب أن يُعلموه ما يدور بينهما ، فعزم غلام أبي تمام على الحجامة ، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك ، ويسأله توجيه نبذ مطبوخ فوجه إليه مائة دنّ ومائة دينار وخلاعة وبخورا وكتب إليه :

لَيْتَ شَعْرِي يَا أَمْلَحَ النَّاسِ عِنْدِي هَلْ تَدَاوَيْتَ بِالْحِجَامَةِ بَعْدِي ! (٢)
دَفَعَ اللَّهُ عَنْكَ لِي كُلَّ سُوءٍ بَاكِرٍ رَائِحٍ وَإِنْ خُنْتُ عَهْدِي
قَدْ كَتَمْتُ الْهُوَى بِمَبْلَغِ جَهْدِي فَبَدَا مِنْهُ غَيْرُ مَا كُنْتُ أَبْدِي
وَخَلَعْتُ الْعِذَارَ فَلْيَعْلَمْ النَّاسُ مِنْ بَأَنِّي إِلَيْكَ أَصْنِي بَوْدِي
وَلْيَقُولُوا بِمَا أَحْبَبُوا إِذَا كُنْتُ تَوْصُولًا وَلَمْ تَرْعِنِي بِصَدِّ
مَنْ عَذِيرِي مِنْ مَقْتَلِيكَ وَمَنْ إِذْ رَاقَ وَجْهِ (٣) مِنْ تَحْتِ حِمْرَةِ حَدِّ

ووضع الرقعة تحت مصلاه ، وأعلم ابن الزيات خبرها ، فأرسل في الحين ، وشغله بشيء ، ووجه من جاءه بها . فلما قرأها كتب فيها على لسان أبي تمام :

لَيْتَ شَعْرِي عَنْ لَيْتَ شَعْرِكَ هَذَا أَهْزَلِ تَقُولُهُ أَمْ بِجِدِّ
فَلَنْ كُنْتُ فِي الْمَقَالِ مُحَقًّا يَا بَنَ وَهْبٍ لَقَدْ تَطَرَّفْتُ بِعَدِي
وَتَشَبَّهْتُ بِي وَكُنْتُ أَرَى أَنَّي أَنَا الْعَاشِقُ الْمَتِّيمُ وَحَدِي
إِنْ مَوْلَايَ عَبْدٌ غَيْرِي وَلَوْلَا شَوْمُ جَدِّي لَكَانَ مَوْلَايَ عَبْدِي

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٦٨ ، وأخبار أبي تمام للصولي ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) الصولي : « ثغر » .

ثم قال : ضعوا الرقعة مكانها ، فلما قرأها الحسن قال : إنا لله إنا فضحنا عند الوزير . وأعلم أبا تمام ، فتلقياه قتالا : إنا جعلنا هذين الغلامين سبياً لتكاتبنا بالأشعار ، فقال لهما : ومن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله عليهما أشد .

محمد بن إسحق : قلت لأبي تمام : غلامك أطوع للحسن من غلامه لك ، قال : إني أعطى غلامه قبلاً وقلاً ، ويعطى غلامى ثياباً ومالا ، وقال أبو تمام في غلامه :

يا عمرو قل للقمَرِ الطالع اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكرى فيك من حاملٍ لرقعة مفكوكة الطابع
ما أنت إلا رشا جوذرٌ حلّ بمغنى أسدٍ جائع

قوله : راق ، أى أعجب . راع : أفزع لأفراط حسنه . استسبناه : سألناه عن نفسه ، وهذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم « إذا جاء الرجلُ الرجل ، فليسأله عن اسمه واسم أبيه ومن هو ، فإن ذلك أوصل لثمودة » . استراب : دخلته الريبة . منسابا : موضعاً يدخل فيه . لبسه : تخليطه . وغمة القلب : ما يعطيه من الشك أو الهم ، فأراد أنه لبس عليه فلم يعرفه .

اذكرت ، أى ذكرت . أمة : حين . الفلك : مدار النجوم . والفلك السيار ، أى السفينة السريعة . والفلك لفظ يقع للواحد والجمع . أعده : أعرفه . رواء : فتوة وحسن هيئة . أيد : قوة . استحالة : تغير . الحول : القوة ، وأيضا الحيلة . ولو خاطبه ابن همام بشعر لكان للشرىف الرضى فى جوابه للصابى ، وقد شكّا إليه الهرم والجلوس فى الحفّة وامتناعه من التصرف ، فقال :

لئن رام قبضاً من بنائك حادثٌ لقد عاضنا منك انبساطِ جنان^(١)

(١) ديوان الشريف الرضى ٩٤٤ .

وإن أقدمتُك النائبات فطالما مَرَى موقراً من مجدك الملوآن
وإن هدمتُ منك الخطوب بمرها فثمَّ لسان للمناقب بان
قوله : « لا يُفَرِّى فَرِيَّة » ، أى لا يقطع قطعاً ولا يعمل عمله ، قال الحوافزان :
وما ارتعشت كفى ولا طاش ضربها إذا طرحوا بالفارس المتهلل
ولكنها إذ ذاك تفرى فريها وتقرع رأس الفارس المتقلل

يُبَارَى عبقرية : يجارى جنيته ، ولفظ الحريرى كله منتزع من الحديث الصحيح
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فيما يرى النائم كائى على بئر وأرى
جميع الناس ، فجاء أبو بكر فنزل ذنوباً أو ذنوبين . وفيه ضعف ، والله يغفر له .
ثم جاء عمر رضى الله عنه فاستحالت بيده غرباً ، فلم أر عبقرى من الرجال يفري
فريه ، حتى ضرب الناس بأعطانهم » . يقال رجل عبقرى ، أى كامل قوى ،
والعبقرى أيضاً الحسن من كل شئ . الوجْد : المال . رَغِبَ عن الآفة ، أى
تباعده عن الصعبة . ولم يرغب فى التحفة ، أى لم يطمع فى العطية ، أى لم يقبل
عطيتهم ولا صحبتهم . سَحَقْتُمْ : تقضم وغيرتم . سحقى : ثوبى البالى .
وكسفتم بالى : تنقصتم حالى وغيرتموها . سربالى : قميصى . السخينة : الساخطة
الحارة الدمع .

* * *

ثم أنشد :

اسمع أخى وصية من ناصح
لا تعجلن بقضية مبتوتة
وقف القضية فيه حتى تجتلي
وبين خلب برقه من صدقه
فهنالك إن تر ما يشين فواره
ما شاب محض النصح منه بنشه
فى مدح من لم تبله أو خدشه
وصفيه فى حالى رضاه وبطشه
للسائمين ، ووبله من طشه
كرماً وإن تر ما يرين فأنشه

وَمَنْ اسْتَحَقَّ الْإِرْتِقَاءَ فِرْقَهُ
وَأَعْلَمَ أَنَّ التَّبَرَّ فِي عِرْقِ الثَّرَى
وَفَضِيلَةُ الدِّينَارِ يَظْهَرُ سِرُّهَا
وَمِنَ الْغَبَاوَةِ أَنْ تُعْظَمَ جَاهِلًا
أَوْ أَنْ تُهَيَّنَ مَهْذَبًا فِي نَفْسِهِ
وَلَكِنْ أَخِي طَرِيقُ هَيْنَ لِفَضْلِهِ
وَإِذَا الْفَتَى لَمْ يَنْشَ عَارًا لَمْ تَكُنْ
مَا إِنْ يَضُرَّ الْعُضْبَ كَوْنُ قِرَابِهِ
وَمَنْ اسْتَحْطَّ مُخْطَئُهُ فِي حَشِهِ
خَافَ إِلَى أَنْ يُسْتَشَارَ بِنَبْشِهِ
مِنْ حَكَمِهِ لَا مِنْ مَلَا حَةِ نَقْشِهِ
لِصْقَالِ مَلْبِسِهِ وَرَوْتِ رَقْشِهِ
لِدُرُوسِ بَزَّتِهِ وَرَثَةِ فُرْشِهِ
وَمَفُوفِ الْبُرْدَيْنِ عَيْبَ لَفْحِهِ
أَسْمَالُهُ إِلَّا مَرَاقِيَ عَرْشِهِ
خَلَقًا وَلَا الْبَازِيَ حَقَارَةَ عُشِّهِ

* * *

شاب : أى خاط ، ونَحْضُهُ : خالصة . وَغَشَهُ : عيبه وفساده .

وللزاهد بن عمران فى النصيحة :

اسمع أخى نصيحتى
لا تعرضنَّ إلى الشها
تسلم من أن تُغزى لزو
والنُضج من أصل الديانة
دَّة والوساطة والأمانة
رٍ أو فضولٍ أو خِيَانَةٍ

وقال آخر فيمن لا يقبل النصيحة :

إذا ما هُدِيتَ امرأً مخطئاً
ولم تُلْفِهْ سامعاً قابلاً
أضلَّ السبيلَ إلى قصده
فحسَّنْ له المشى فى ضده

وقوله : « لا تعجلن » ، وما بعده من قول الشاعر :

لا تمدحن امرأً حتى تجربه
ولا تذمَّنه من غير تجرب

ولابن عمران أيضاً :

تحرّ سبيل القصد في الناس وانتكنْ على حذر منهم ولا تُسيْ الظنّاً
ولا تمدحنّ مَنْ لم تجرّب ولا تنقل على غير علم ذاك من ذاكمُ أسنّى
فما كلّ مَنْ يرضيك ظاهر حاله لدى الخبر محموداً وقد يُحمدُ الأدنّى
القضية : الحكم . مبتوتة : مقطوعة . تَبْلُهُ : تجربّه . خدشه : عيبه وإذايته ،
تجتلى : تنظر . بطشه : صواته عند الغضب ، يقول : لا تحكم بشيء على أحدٍ
حتى تجربّه في الشدة والرخاء . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :
إن فلانا لرجلٌ صدقٌ ، قال : أسافرت معه ؟ قال لا ، قال : فهل كانت بينك وبينه
خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنته على شيء ؟ قال لا . قال : فأنت الذى لا علم
لك به ، وإنما أراك رأيته يرفعُ رأسه ويخفّضه في المسجد . يبين : يظهر . خُلب
كاذب . الشائمين : الناظرين إلى البرق . وبله : مطره الكثير . طشه : مطره
القليل . يشين : يعيب . وارِه : استره . كرمًا ، أى تكرمًا منك عليه . أفشه :
حدث به وانشره . الارتقاء : الترفيع . رقه : ارفعه . استحطّ : اتضع . حُشه :
كثيفه وهو المستراح . التبر : الذهب قبل السبك . يستخرج : ينبش .
البحث عليه . الغباوة : الجهالة . رونق رقصه : حسن زينته . مهذبًا : مخلصًا .
دروس : إخلاق . بزّته : لبّسته . رثّة : ضعف . طمرين : ثوبين خلقين .
هيب : حيف . منوّف : مزين . لفحشه : لتبجح كلامه . يَفْش عارًا : يدخله .
أسماله : ثيابه البالية . مراقى : سلام ومدارج . عرشه : سريرته ومنزلته . العضب :
السيف . قرابه : جفنه .

ومما ينتظم في هذا السلك أن النجّاد العدويّ دخل على معاوية في عبادة
فاحتقره ، فقال : يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك ، إنّما يكلمك مَنْ فيها ،
ثم تسكّم فلأسمعه بيانًا ، ثم خرج ولم يسأله شيئًا ، فقال معاوية : ما رأيتُ رجلًا
أبحر أولًا ، ولا أجلّ آخرًا منه .

وقال بعضهم :

لانى وإن كنت أثوابى ملققةً ليست بخزٍّ ولا من نسج كتمانٍ
فإن فى المجد همتاى وفى لغى فصاحةً ، ولسانى غيرُ لحانٍ

وقال آخر :

هل ينفعنك بعد شيبك فى الهوى توقير مكتسبٍ ولُبس ثياب
هيهات ما فخر المهند فى الوغى بحلى غمدٍ فوقه وقِرابٍ

وقال الخابزرزى :

لا تنظرن إلى أثوابٍ مغترب نأى الحلّ بعيد الأهل والدَّارِ
وانظر إليه إذا ما قام فى ملاً بمنطقٍ لذوى الألباب سَحَّارِ

وقال المعرى :

وإن كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمدهُ والحائلُ^(١)

وقال أبو هيفان :

لعمري لئن بيعت فى دار غربةٍ ثيابي إن ضاقت على الدأ كلُّ
فما أنا إلا السيف أخلق جفنه له حاية من نفسه وهو عاطلُ

وقال لبيد :

أصبحت مثل السيف أخلق جفنه تقادم عهد القين والسيف قاطعُ^(٢)

وقال النمرى :

فإن تك أثوابى تمرّ قن عن بلّى فأنى كنصل السيف فى خلق الغمدِ
كان بالسكوفة رجل يعرف بأبى ذؤيب ، وكان متصدّاً للشعراء ، فدخل مجلسه
محمد بن حازم الباهلى ، وعليه ثياب رثة ، وهم يتكلمون فى معانى الشعر ، فسأله
ابن حازم عن بيت للطرماح ، فردّ أبو ذؤيب جواباً محالاً ، وهو فى ذلك

(١) سقط الزند ٥٢٦ . والحائل : جمع حالة السيف .

(٢) ديوانه ١٧١ .

كالمزدرى لابن حازم ، فوثب مغضباً فقليل له : ماذا فتحت على نفسك الشر؟ أتدري من احتقرت؟ قال : لا قيل : هو أخبث الناس لساناً ، وأهجهم ، هذا ابن حازم ، فوثب حافياً حتى لقيه وحاف أنه لم يعرفه واستقاله فأقاله ، وقال :

أخطأ على ورد غير جوابي وزرى على وقال غير صواب
وسكت من دجب لذاك فزادني فيما كرهت بظنه المرتاب
وقضى على بظاهر من كسوة لم يدري ما اشتملت عليه ثيابي
من عفة وتكبر وتجمل وتجلى لمصيبة وعتاب
لكنه رجعت عليه ندامة لما يسب وحاف مض عتابي
فأقلته لما أقر بذنبه ليس الكريم على الكريم بناب

وكان ابن حازم ساقط الهمة ، يرضيه اليسير على انطباعه في شعره .

وقال حماد بن يحيى : قال لى ابن حازم يوماً : ما بقي على شيء من اللذات إلا بيع السنابير : فقلت له : ويحك ! وأى في ذلك من اللذة ؟ قال : يعجبني أن تنجى العجوز الرعناء تخاصمني ، وتقول : هذا سنورى مرق ، فأخاصمها ، فقتلتمنى ، فأشتمها وأغيطها ثم أنشد :

صل خمره بخمار وصل خماراً بخمر
وحذ نصيبك من ذا وذا إلى حيث تدرى

فقلت : إلى أين ويحك ! فقال : إلى النار يا أحمق .

* * *

ثم ما عثم أن استوقف الملاح ، وصعد من السفينة وساح ،
فندم كل منّا على ما قرط في ذاته ، وأغضى جفنه على قذاته ،

وتعاهدنا على ألا نحتقر شخصاً لثأته بُزده ، وألاً نذرى
سيفاً مخبوءاً فى غمده .

* * *

قواه «ما عثم» ، أى ما أبطأ ولا تأخر ، ويقال : عثم القرى ، إذا تأخر ، وأعثم
حاجته : أخرها ، ومنه صلاة العتمة لتأخر وقتها . استوقف الملاح : أمر خادم
السفينة بالوقوف . صعد : ارتقى وارتفع . ساح : ذهب فى الأرض . فى ذاته ،
أى فى نفسه . أغضى جفنه : سدّ عينه . قذاته : عاره وعيبه الذى تلقى به السروجى
عند الدخول فى السفينة . والقذاة : ما يسقط فى العين فيوجعها . نذرى : نحتمر .
لرثأته بُزده : لإخلاق ثوبه . الله تعالى الموفق .

المقامة الثالثة والعشرون وهي الشعرية

حكى الحارث بن همام ، قال : نبأني مالف الوطن ، في شرح
الزمن ؛ لخطب خشي ، وخوف غشي ؛ فأرقت كأس الكرى ،
ونصصت ركاب السرى ، وجبت في سيري وعورا لم تدمها
الخطا ، ولا اهتدت إليها القطا ؛ حتى وردت حبي الخلافة ،
والحرم العاصم من المخافة ، فسروا إيجاس الروع واستشعاره ،
وتسربلت لباس الأمن وشعاره . وقصرت همي على لذة أجتنيها ،
وملحة أجتليها . فبرزت يوما إلى الحريم لأروض طرفي ،
وأجبل في طرقة طرفي ؛ فإذا فرسان متتالون ، ورجال متثالون ،
وشيخ طويل اللسان ، قصير الطيلسان ، قد لبب فتى جديد
الشباب ، خلق الجلباب ؛ فركضت في إثر النظارة ؛ حتى
وافينا باب الإمارة ، وهناك صاحب المعونة متربعا في دسسته ، ومروعا
بسمته .

. . .

قوله « نبأني » أي قلق ولم يوافقني . الوطن : المنزل . ومالفة . موضع
الاجتماع به والتأليف فيه .

شرح : أول ، أراد في أول زمانه وشبابه . خطب : أمر مخوف . خشي :
خيف . وغشي : نزل وغطى .

أرقت : هزقت ، وجعل للكرى وهو النوم كأسا مجازا ، وكني بهرقها عن

إزالة النوم عن عينه . تَصَصَّتْ : رفعت وحرَّكت ركاب السرى : إبل السير .
جُبَّتْ : قطعت . وعوراً : طُرُقاً صعبة . تَدَمَّيْهَا : تسهَّيْهَا وتليَّيْهَا . الخطأ هنا :
الأقدام ، وقوائم الحيوان . والقطا : طائر وقد تقدم . وهدايتها : فيما زعموا أنها
ترك فراخها بالصحراء ، وتذهب عند طلوع الشمس لطلب الماء من مسيرة عشرين
ليلة فما دونها ، فَبَرْدَنَهُ ضِجْوَةً يومهنَّ فيجملن الماء لفراخهنَّ فينهلنَّ ثم يرجعن
بعد الزوال إلى تلك المسافة ، فيشربن ويأتين فراخهنَّ في عِشْيَةٍ يومهنَّ فيستيننَّ
عللاً بعد نَهْلٍ ، ولا يخطئن مواضع فراخهنَّ ، فيقال لذلك : أهدى من القطا ،
قال الشاعر^(١) :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سُبُلَ المكارم ضَلَّتْ
ولو أن بُرْغوثاً على ظهر قملة رَأَتْهُ تَمِيمٌ يوم زحفٍ لَوَلَّتْ
وقال حميد بن ثور :

كما اتصَلْتُ كدراء تسقى فراخها بِعَزْدَةٍ رِفْهًا والمياه سُوب^(٢)
فجاءت وَمَسْقَاهَا الذي وردت به إلى الصدر مشدود العِصَامِ كَثِيبٌ^(٣)
تبادر أطفالاً مساكينَ دونها فَلَا لَا تَغْطَاهُ الرقابُ رَغِيبُ
وصفن لها غوثاً بأرض تنوفةٍ فما هي إِلَّا نَهْلَةٌ وتَوْبُ

قوله : «حى الخلافة» ، هي بغداد . الحرم : موضع الأمن . العاصم : المانع .
سروت : أزلت . إيجاس الروع : إحساس الفزع والخوف . واستشعاره ،
استفعال من شعرت بالشيء . تسربلت : لبست سِرْبَالاً . قصرت هي : حبست
همتي وأرادتى . مُلَاحَظُهُ : طُرْفُهُ وشيء عجب . أجتليها : أنظرها . الحريم : موضع
متسع حول قصر الملك يجتمع فيه أجناده وغيرهم . أروض : أعلم وأسوس .
طُرْفِي : فرسى . أجيل : أمشى . متتالون : متتابعون . متثالون : منصوبون لكثرة

(١) هو الطرماح ، كما في العقد : ٢٩١ وعيون الأخبار ١ : ٣٩١ .

(٢) ديوانه ٥٣ وكدراء من صفة القطاة ، والقطا الكدري : نوع من القطا غير الألوان

رقش الظهور . وعردة هضبة . والرفه : أقصر الوردو والشعوب : البيدة .

(٣) ثمرت ، مرت جادة ، وتنوب : ترجع إلى الماء مرة بعد مرة .

جزيهم . الطيَّاسان : ثوب خَزَّ أخضر . لَبَّبَ : جعل في عنقه ثوباً وقاده به ، وأخذ بتلايبيه وهي أطوق ثوبه ، والتلايب مأخوذة من اللَّبَّة وهي وسط الصدر .
جديد الشباب ، أى فتى السن ، وتقدم الجلاباب .

ركضت في أثر النظارة ، أى خلف الناظرين لما يفعل به ، ومن شأن الفوغاء والعامَّة إذا رأوا محبوباً أو مضروباً أن يتبعوه ويتكاثروا عليه . ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم يتبعون رجلاً مُريباً ، فقال : لامرئاً بهذه الوجوه التى لا تُرى إلَّا عند الشرِّ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما اجتمعوا قطَّ إلَّا ضَرُّوا ولا تفرقوا إلَّا نفعوا . قيل له : قد علمنا ضَرَّ اجتماعهم . فما نفع افتراقهم ؛ قال : يذهب الحُجَّام إلى دكانه ، والحدَّاد إلى كياره ، وكلُّ صانع إلى صنعتِه . وقال دعبل :

ما أكرَّه الناس لابلٍ ما أقامهمُ والله يعلم أنى لم أُقلِّ فنَدَا^(١)
إنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لأرى أحداً

ومرَّ على بن الجهم بمبرسم ، والناس قد تجمعوا حوله ، وحلقوا به ، فلما رآهم المبرسم أخذ بعنان فرسه وأنشأ يقول :

لا تحفلن بمعرسهم — معج الذين تراهمُ
فبحق من أبلى بهم نفسى ومن عافهمُ
لو قيس مولاهم بهم كانوا إذا مولاهمُ

ثم نظر حوله ، فرأى غلاماً جميل الوجه ، حسن اللبسة ، فهجم عليه وشقَّ ثيابه وهو يقول :

هذا السعيد لديهمُ قد صار بي أشقامُ

وافينا : وصلنا . صاحب المعونة : والى الجنابات ، وقال الرستمى : وَلِىَ فُلَانِ
المعونة ، أى ولى العون ، أى ولّاه السلطان عونه على حفظ المدينة ولفظها مفعولة
وهى بتأويل المصدر بمنزلة قولهم : ماله معقول ، أى عقل ولا مجلود أى جلد .
مروّعاً بسمته ، أى مفزعاً بهيبته ووقاره .

* * *

فقال له الشيخُ : أَعَزَّ اللهُ الْوَالِيَّ ، وَجَعَلَ كَعْبُهُ الْعَالِي ،
إِنِّي كَفَلْتُ هَذَا الْعَلَامَ فَطِيماً ، وَرَبِّيَّتُهُ يَتِيماً ؛ ثُمَّ لَمْ آلهَ تَعْلِيماً .
فَلَمَّا مَهَرَ وَبَهَرَ ، جَرَّدَ سَيْفَ الْعُدُوَانِ وَشَهَرَ ، وَلَمْ أَخْلُهُ
يَلْتَوِي عَلَى وَيَتَقَحَّحْ ، حِينَ يَرْتَوِي مِنِّي وَيَلْتَقِحْ . فقال له
الفتى : عَلَامَ عَثَرْتُ مِنِّي ؛ حَتَّى تَنْشَرَ هَذَا الْخَزَى عَنِّي ، فَوَاللهِ
مَا سَتَرْتُ وَجْهَ بَرِّكَ ، وَلَا هَتَكْتُ حِجَابَ سِتْرِكَ ، وَلَا شَقَقْتُ
عَصَا أَمْرِكَ ، وَلَا أَلْفَيْتُ تِلَاوَةَ شُكْرِكَ .

فقال له الشيخُ : وَيْلَكَ وَأَيُّ رَبِّبٍ أَخْزَى مِنْ رَبِّبِكَ ، وَهَلْ
عَيَّبُ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ ، وَقَدْ ادَّعَيْتَ سِحْرِي وَاسْتَلْحَقْتُهُ ،
وَأَتَحَلَّتْ شِعْرِي وَاسْتَرْقَتْهُ ، وَاسْتَرَاقُ الشَّعْرَ عِنْدَ الشَّعْرَاءِ ،
أَفْطَعُ مِنْ سَرِقَةِ الْبَيْضَاءِ وَالصَّفَرَاءِ ، وَغَيْرُهُمْ عَلَى بَنَاتِ الْأَفْكَارِ ،
كَغَيْرَتِهِمْ عَلَى الْبَنَاتِ الْأَبْكَارِ . فقال الْوَالِيُّ لِلشَّيْخِ : وَهَلْ حِينَ
سَرَقَ سَلَخَ ، أَمْ مَسَخَ أَمْ نَسَخَ !

* * *

جعل كعبه العالى ، أى جعل أسفل شيء منه يغلو أرفع شيء فى غيره .
كفله : ضمته وقت بمؤنته .

أبوهريرة رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين — وهو يشير بإصبعيه — وخير بيت فى المسامين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرها يتيم يساء إليه » .

أبو أسامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا الله ، كانت له بكل شعرة مرّت عليها يد حسنة ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وإيّاها فى الجنة كهاتين — وفرق بين إصبعيه » .
فطيم : أى صغيراً كما منع الرضاع . لم آله : أى لم أقصر فى تعليمه . مهر : ظهر وصار ماهراً أى حاذقاً . بهرّ : غلب أمثاله . العدوان : الظلم . يلتوى : ينعطف ، لضرى وهو من فعل الحية إذا أتبعها الرجل التوت عليه لتلسه . يتفتح : يسقط حياؤه . يلتفتح : يشرب لبن لثقتى ، واللثقة : الناقة ذات اللبن . عثرت : اطلعت . الخزى : العار والشر ، والخزى : الهوان . هتكت : خرقت . حجاب سترك ، أى ثوب طاعتك . ولاشقت عصا أمرك ، أى ماخالفت حكمك ، وشقّ فلان العصا : خرج عن الأمر مخالفاً . وشقّ عصا المسلمين : فرق جماعتهم ، والأصل فى العصا الائتلاف والاجتماع ، ومنه قولهم للمطمن : ألقى العصا ، وقيل شقّ العصا : صار منها فى شقّ وخرج عن الجماعة ، وفسر قوله تعالى : ﴿ شاقوا الله ورسوله ﴾ بالمباينة ، لأن من صار فى شقّ عن شقّ صاحبه فقد باينه ، وقيل : معنى شقّ العصا ذهب إلى شقها أى كسرها ، فجئى بالشقّ الذى هو من صفة العصا : وفى ضمنه المجاهرة بالخروج عن الجماعة قال الشماخ :

تصدّع شعب الحىّ وانشقت العصا كذاك النوى بين الخليط شقوق^(١)

ألفيت : تركت . تلاوة : قراءة ، والريب : الريبة والتهمة : أخزى : أضرّ ،

وأكثر هواناً . أفحش : أقبح . ادّعيته : نسبته لنفسك وليس لك . سحرى : بديع كلامى . استأحقته : ألحقته بنفسك . انتحلت : ادّعت . أفظع : أمرّ . البيضاء والصفراء : الفضة والذهب . بنات الأفكار ، هى الأشعار . ساخ : أخذ المعنى . مسخ : قلب الكلام وغيره . نسخ : نقله بعينه .

والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه ، وهى النسخ والمسخ والرسخ والفسخ ؛ فالفسخ عندهم أن يحول الأدنى إلى الأعلى ، والمسخ أن يحول الأعلى من الحيوان إلى الأدنى ، والرسخ رد الحيوان جاداً ، والفسخ أن يتلاشى فلا يكون شيئاً ، وقال شاعرهم :

تعوّذُ بالإله من المسوخ وسله أن تكون من النُسخ^(١)
لقد خاب الذى أضحى وأمسى يُنقلُ فى فسوخٍ أو رسوخٍ

وقال المعرى :

وقال بأحكام التناسخ معشرٌ غلّوا فأجازوا الفسخ فى ذاك والرسوخ^(٢)

[السرقات الشعرية وأنواعها]

وتقسيم الحريرى السرقة فى قوله : ساخ ومسخ ونسخ ، يدخل تحت أحكام السرقات التى عدّها أبو محمد الحسين بن على بن وكيع رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بالمنصف فى الدلالات على سرقات المتنبي ، فإنه جعلها عشرين وجهاً عشرة أوجه يُغفر فى سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته .

الأول منها استيفاء اللفظ الطويل فى الموزن القصير ، كقول ظرفة :

أرى قبر نحامٍ بخيلٍ بماله كقبر غوىٍّ فى البطالة مفسدٍ^(٣)

(١) من ثلاثة أبيات فى شرح اللزوميات ١ : ٢٢٤ من غير نسبة .

(٢) اللزوميات ٢٢٥ (٣) ديوانه ٥٢ والنحام : الحريرى على المال

(٦ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

اختصره ابن الزبيري ، فقال :

والعطيات خِساس بينهم وسواء قبر مثير ومُقل^(١)

ففضل صدر بيته وجاء بيت طرفه في عجز بيت أقصر منه بمعنى لائح
ولفظ واضح .

الثاني : نقل اللفظ الرذل إلى الرشيح الجزل ، كقول العباس بن الأحنف :

زعموا لي أنها بانت تُحمَّم ابتلى الله بهذا من زعم^(٢)
اشتكت أكل ما كانت كما يُكسِفُ البدر إذ ما قيل تمَّ

فهذا معنى لطيف أخذه ابن المعتز فقال :

طوى عارضُ الحمى سنَّاهُ فعالاً وألبس ثوباً للِسقام هُزالاً
كذا البدرُ محتومٌ عليه إذا انتهى إلى غايةٍ في الحسنِ عادِ هِلالاً

الثالث : ما قبح مبناه دون معناه إلى ما حسن مبناه ومعناه ، كقول أبي نواس :

يُحَّ صوتُ المالِ مما منك يدعو أو يصيح^(٣)
ما لهذا آخذٌ فو ق يديه من يصيح

معناه صحيح ولفظه قبيح ، أخذه مسلم فقال :

تظلم المال والأعداء من يده لازال للمال والأعداء ظلاماً^(٤)

فجود الصنعة وجمع بين تظلمين كريمين ، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال
والأعداء ، وكل ذلك مليح جزل نقل عن ضعيف المبنى .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس ثناء بعد ما كان هجاء ، كقول البلاذري :

قد يرفع المرء اللثيم حجابهُ ضمةً ودون الرُف منه حجابُ

(١) المؤلف والمختلف للامدني ١٣٣ (٢) ديوانه ٢٥٢ ، ديوان المعاني ٢ : ١٦٥

(٣) ديوانه ٧٠ (٤) ديوانه ٦٤

معكوسه :

ملك أغرّ محجّبُ معروفه لا يُحجّبُ

الخامس : استخراج معنى من معنى احتذى عليه وإن فارق ما قصد إليه ،
كقول أبي نواس في الخمر :

لا ينزل الليل حيث حلتْ فدهرُ شرايها نهارُ^(١)

احتذاه البحترى وفارق مقصده ، فجعله في محبوب ، فقال :

غاب دجاها وأيّ ليل يدجو علينا وأنت بدر

السادس : توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناها متفق ، كقول
أبي تمام :

لأمرٍ عليهم أن تتمّ صدورُهُ وليس عليهم أن تتمّ عواقبُهُ^(٢)

أخذه من قول الأعرابي ، أنشده الأصمعي رحمه الله تعالى :

فكان على الفتى الإقدام فيها وليس عليه ما جتِ المنونُ

فجرد لفظه من أخذ منه ، وهو في معناه متفق معه ؛ وهذا من أدل الأقسام
على فطنة الشاعر .

السابع ، في توليد معان مستحسنات في ألفاظ مختلفات ، وهذا من أشدّ باب
وأقلّه وجوداً ، وإنما قلّ لأنّه من أحق ما استعمل فيه الشاعر فطنته ؛ كقول
أبي نواس :

واسقنيها من كميت تدعُ الليلَ نهاراً^(٣)

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤٤

(٣) ديوانه ٢٧٤

ثم قال أيضاً :

لا ينزل الليل حيث حلت فدهرُ شرابها نهار^(١)

ثم قال أيضاً :

قال ابغني المصباح قلت له اتئد حسبي وحسبك ضوءها مصباحا^(٢)

فكل هذه معانٍ متقاربات وألفاظ متشابهات ، مولّد بعضها من بعض .

الثامن : مساواة الإخذ المأخوذ منه في الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام ، وإن كان الأول أحقّ به لأنه ابتدع ، والثاني اتّبع ، من ذلك قول العكوك في فرس :

مطرّد يرتجّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريح فاضطرب

فذكر ارتجاجه ، ولم يذكر سكونه ، فأخذه ابن المعتز فقال :

فكانه موجّ يذوب إذا أطلّته ، فإذا حبست جحد

فجمع بين الصفتين .

التاسع : مماثلة السارق المسروق بزيادته في المعنى ما هو من تمامه ؛ كقول أبي حيّة :

فألقت قناعاً دونه الشمس واتّقت بأحسن موصولين : كفّ ومقصم .

أخذه من قول النابغة :

سقط النّصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليد^(٣)

فلم يزد النابغة على اتّقتها باليد ، وزاد عليه أبو حيّة بقوله : « دونه الشمس » . وخبر عن المتقى بأحسن خبر فاستحقّه .

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) ديوانه ٢٥٦

(٣) ديوانه ٣٠

العاشر : رُجِحَانَ السَّارِقِ عَلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ بِزِيَادَةِ لَفْظٍ عَلَى لَفْظٍ مَنْ أَخَذَ عَنْهُ ، كَقَوْلِ حَسَّانَ :

يُغَشُّونَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(١)

وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

إِلَى يَدِ حَانَ لَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ عَلَى وَلَا يَخْشُونَ طَوْلَ ثَوَائِي
وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَعْنِيِّينَ .

وَالسَّرَقَاتُ الْمَحْمُودَةُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصَرَ .

[السَّرَقَاتُ الْمَذْمُومَةُ]

وَنَزِيكُ وَجْهِ السَّرَقَاتِ الْمَذْمُومَةِ ، وَهِيَ كَالْمَحْمُودَةِ عَشْرَةَ أَقْسَامٍ :

الأول : نَقْلُ اللَّفْظِ الْقَصِيرِ إِلَى الطَّوِيلِ الْكَثِيرِ ، كَقَوْلِ سَالِمِ الْخَاسِرِ :

أَقْبَلْنَا فِي رَأْدِ الضَّحَى بِنَا يَسْتَرْنَ وَجْهَ الشَّمْسِ بِالشَّمْسِ

أَخَذَهُ الثَّانِي فَقَالَ :

وَإِذَا الْغَزَالَةُ فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ وَبَدَأَ النَّهَارُ لَوْقَتَهُ يَتَرَحَّلُ

أَبَدَتْ لَعَيْنَ الشَّمْسِ عَيْنًا مِثْلَهَا تَلْقَى السَّمَاءَ بِمِثْلِ مَا تَسْتَقْبِلُ

الْمَعْنَى صَحِيحٌ وَالْكَلَامُ مَلِيحٌ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ تَطْوِيلٌ تَضْيِيقٌ ، وَالْبَيْتَانِ جَمِيعًا نَصْفُ بَيْتِ سَالِمٍ .

الثاني : نَقْلُ الرَّشِيقِ الْجَزْلِ إِلَى الْمُسْتَظْعَفِ الرَّذْلِ ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ :

كَأَنَّ لَيْلِي صَبِيرٌ غَادِيَةٌ أَوْ دُؤْمِيَّةٌ زَيْدَتْ بِهَا الْبَيْعُ

أخذه أبو العتاهية فقال :

كَأَنَّ عَتَابَةَ مِنْ حُسْنِهَا دُمِيَّةٌ قَسٍ فَتَنَتْ قَسَهَا

فتصر لفظه عن الفصاحة ، ومعناه عن الرجاحة .

الثالث : نقل ما حَسُنَ معناه ومبناه إلى ما قبح مبناه ومعناه ، كقول امرئ

القيس :

أَلَمْ تَرَ يَا نِي كُنْهَ — أَجِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبِ^(١)

فأتى بما لا يعلم وجوده في الشر من وجود طيب ممن لم يمس طيباً ، وجاء بيت في مراده ، حسن النظام مستوفى التمام ، أخذه كثيراً ، فقال :

فَمَارَوْضَةٌ بِالْحَسَنِ صَيِّبُهُ الثَّرَى يَمِجُّ النَّدى جَنَجَتْهَا وَعَرَّارُهَا^(٢)
بَاطِيبَ مَنْ أَرْدَانِ عِزَّةٍ مُوهِنًا إِذَا أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبَ نَارُهَا

فطول وحسن ، وقصر غاية التقصير ، وأخبر أنها إذا تطيّبت كالروضة في طيبها ، وذلك مما لا يعدم في أقل البشر تنظيفاً .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس هجاء بعد أن كان ثناء ، كقول أبي نواس رحمه الله تعالى :

فَهُوَ بِالْمَالِ جَوَادٌ وَهُوَ بِالْعِرْضِ شَجِيحٌ^(٣)

عكسه ابن الرومي فقال :

مَا شِئْتُ مِنْ مَالٍ حَمِيٍّ يَا وِي إِلَى عِرْضٍ مُبَاحٍ

(٢) الكامل للمبرد ٣: ١١٥

(١) ديوانه ١

(٣) ديوانه ٧٠

الخامس : نقل ما حسنت أوزافه وقوافيه إلى ما قبج وثقل على لسان راويه،
كقول مسلم رحمه الله تعالى :

أَمَّا الْهَجَاءُ فَدَقَّ عَرْضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلٌ^(١)
فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقٌ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلٌ
أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ :

قَالَ لِي النَّاصِحُونَ وَهُوَ مِتَالٌ ذَمٌّ مِنْ كَانَ جَاهِلًا إِطْرَاهُ^(٢)
صَدَقُوا فِي الْهَيْجَاءِ رَفْعًا أَقْوَا مِ طَعَامٍ فَلَيْسَ عِنْدِي هَيْجَاءُ
فَبَيْنَ الْكَلَامِينَ فَرَقَ بَعِيدٌ .

الثامن :^(٣) نقل العذب من القوافي إلى المستكره الجافي ، كقول أبي نواس :
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّتِي الْبَرَاءَ فِي السَّقَمِ^(٤)

فهذا الكلام أتم بهاء من قول مسلم :
تَجْرَى مَحَبَّتُهُمَا فِي قَلْبٍ عَاشِقُهَا جَرَى الْمَعَاذَةِ فِي أَعْضَاءٍ مَنْتَكَسِ^(٥)

التاسع : نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد إلى تقصير وإفساد ، كقول القائل :
وَلَقَدْ أَرْوَحَ إِلَى النِّجَارِ مَرَجَلًا مَدَى بَمَالَى لِيْنَا أَعْيَادِي

وإنما له جيد واحد ، وهذا وإن جاز عند بعض العرب ، فهو عند الآخرين
غير حميد ولا سديد .

(١) ديوانه ٤ : ٣٠١ (طبع المعارف)

(١) ديوانه ٣٣٤

(٣) قوله : « الثامن » ، سقط السادس والسابع من جميع الأصول .

(٥) ملحق ديوانه ٤٢٥

(٤) الوساطة ٥٦

العاشر : أخذ اللفظ والمعنى وهو أقبح السرقات وأدناها وأوضعها
وقدأكثر الشعراء ذم السرقة والسارق ، وأول من ذم ذلك طرفة حينئذ قال :
ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيتُ وشرَّ الناس من سرقا^(١)
وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتجالي القوا في بَمد المشيبِ ، كفي ذاك عارا^(٢)
ومن سرقة اللفظ والمعنى ، ما يحكى عن أبي المعافى أنه لما مدح أبا العباس محمد
ابن إبراهيم الإمام بتوله :

إليك بمدحتي يا خير أبنا رسول الله من تاد النساء
ستأتيك المدائح من رجالٍ وما كفَّ أصابعها سواء
فأخذه آخر وغيره بأن وضع الرجال موضع النساء ، وغير عجز البيت
الآخر فقال :

* كما اختلفت إلى العَرَضِ النِّبَالُ *

فاستعدى عليه أبا المعالي صالح بن إسماعيل ، وهو على شُرطة محمد بن إبراهيم
بالمدينة ، فقال :

ما سارقُ الشعر فيه ومُصمُّ صاحبه إلا كسارق بيتٍ دونه غَاقُ
بل سارق البيت أخفى حين يسرقه والبيت يستره من ظلمة غَسَقُ
من جيّد الشعر أن يخفى لسارقه وجيّد الشعر قد سارت به الرقُ

فقال صالح : فما تحب أن أفعل به ؟ فقال : تحلفه عند منبر النبي صلى الله
عليه وسلم ألا ينشد هذا الشعر إلا لي .

(١) ديوانه ٢١٦ (٢) ديوانه ٥٣

وكان محمد بن زهير يشرب ، فإذا سكر لا يفريق إلا بإنشاد الشعر ، فأمر يوماً جبار بن محمد الكاتب أن ينشده ، فأنشده أبياتاً لأبي نواس أدعى أنه قائلها وهي :

صاح مالي وللرسوم القفسارِ ولنفتِ المطى والأكوارِ
شغلتنى المدام والقصف عنها وسماع الغناء والمزمارِ

ومضى في الشعر ، وأبو نواس قاعد ، فوثب وتعلق به قدام محمد بن زهير ، وأنشأ يقول :

أعدني يا محمد بن زهير يا عذاب اللصوص والذعارِ
يسرق السارقون ليلاً وهذا يسرق الشعر جهرة بالنهارِ
صار شعري قطيعة لجبارِ أفهذا لقملة الأشعار !
قل له فليغير على شعر حما دأخى الفتك أو على بشارِ

وسرق محمد بن يزيد الأموي شعراً لحبيب ، فقال حبيب :

مَنْ بنو مجدلٍ مَنْ ابنُ الحباب مَنْ بنو تغلبٍ غداة الكلابِ^(١)
مَنْ طفيلٌ وعامرٌ ومن الحارثُ أو مَنْ عتيبة بن شهابِ
إنما الضيفم المصور أبو الأشبال جبار كل جيش وغابِ
مَنْ عدتْ خيله على سرح شعري وهو للحن رانع في كتابي
غارة أسخنت عيون المعاني واستباح محارم الآدابِ
لو ترى منطقي أسيراً ولا صبحت أسيراً لعبرة وانتحابِ

(٢) ديوانه ٤ : ٣٠٨ (طبع دار المعارف) وفيه « من بنو عامر »

يا عذارى الأشعار صرتن من بعدى سبائا مُتَبَعْنَ في الأعرابِ
 طال رهبي إليك يارب يارب و رغبتي إليك فاحفظ ثيابي
 وعارض أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة البحترى ، فاستعار
 من ألفاظها ومعانيها ما أوجب أن قال البحترى :

ما الدهر مستنفذ ولا عجبُهُ تسومنا الخسفَ كله نُوبُهُ (١)
 نال الرضا مَدَحٌ وممدَحٌ فقل لهذا الأمير ما غضبُهُ
 أجلى نصوص البلاد يطردُهُ وظلّ لصّ القريض ينتهبُهُ
 ارددْ علينا الذى استعرتَ وقل قولك يُعرفُ لغالبِ غلبُهُ

واستعدى ابن الرومى العلاء بن عيسى على البحترى ، فقال :

قل للعلاء بن عيسى والذى نضلت به الدواهي نصول الآل في رجب (٢)
 أيسرقُ البحترى الناسَ شعرَهُمُ جهرًا وأنت نكال اللصّ ذى الرّيبِ
 وتارة يترزُ الأرواحَ منطقهُ فالتوم ما بين مقتول ومغتصبِ
 نكّلُهُ إن أناسًا قبله ركبُوا بدون ما قد أناه باسقَ الخشبِ
 إذا أجاد فأوجب قطعَ مقولِهِ فقد دها شعراء الناس بالحربِ
 وإن أساء فأوجب قتله قودًا بمن أमत إذا أبقى على السلبِ
 يسىء عفاً فإن أكثدت وسائله أجاد لصًا شديد البأس والكلبِ
 حتى يغير على الموتى فيسلبُهُمُ حرّ الكلام بجيش غير ذى الجبِ

(١) ديوانه ١ : ٢٠٧

(٢) ديوانه ابن الرومى ٤١٤ (نشرة شريف سليم) مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات

وقال فيه ابن الحاجب :

والفتى البحترى يسرق ما قا ل ابن أوسٍ في المدح والتشبيب
كل بيت له يجود معنا • فعناه لابن أوسٍ حبيب

ولابن الحاجب أيضاً :

هل إلى محنة تحبر مَنْ فا ضلنا في القريض والمفضول
محنة تفضح الاصوص وتقضى بالذى فيهم قضى التنزيل
سارق المال تقطع الكف منه واللسان السروق منها بديل
ليسود الذى يحق له السو ددمننا ويرذل المرذول

وبلغ صاحب بن عبّاد أن بعضهم سرق شعره ، فقال أبلغوه عني ^(١) :

سرت شعري وغيرى يضم فيه ويخدع
فسوف أجزيك صفعاً يكل ^(٢) رأساً وأخدع
فسارق المال يُقطع وسارق الشعر يُضعف

فاتخذ السارق لذلك جملاً وهرب من الترى .

وبين السرى الموصلى والخالدين مستظرفات في هذه السرقات ، اشتهرت في كتب الآداب ، فلنلمّ ببعض ما قال السرى فيهما وفيه . يقول الثعالبي : السرى وما أدراك ما السرى ، صاحب الشعر الجامع بين عقود الدرّ ، والنافث في عقد السخر ؛ ولله درّه ! ما أعذب بحره ، وأصفى قطره ، وأعجب أمره ! وقد أخرجت

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٧

(٢) اليتيمة « يكبد »

من شعره ما يكتب على جبهة الدهر ، ويعلق في كعبة الظرف ^(١) . وكتب
منه محاسن ومأجاً ، وبدائع وطرفاً ، كأنها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض ،
وأجنحة الطواويس وسواف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات
الحدق الملاح .

قال يتظلم إلى سلامة بن فهم من الخالدين :

تحيف شعري يا بن فهم مصالت	عليه فقد أعدمته منه وقد أثرى ^(٢)
وفي كل يوم للغبين غارة	ترقع ألفاظي المحجلة الغرا
إذا عن لي معنى تضاحك لفظه	كما ضاحك النوار في روضه الغدرا
غريب كفنشر الرّوض لما تبسمت	مخائله للفكر أودعته سطرأ
فوجه من الفتيان يمسح وجهه	وصدر من الآقوام يسكنه الصّدرا
تناوله مثر من الجهل معدم	من العلم معذور متى خلع العذرا
لأطفأتما تلك النجوم بأسرها	وأدنستما تلك المطارف والأزرا
فويحكما هلاً بشطير قنعتما	وأبقيتما لي في محاسنه الشّطرا ^(٣)

وقال يخاطب أبا الخطاب ^(٤) ، وقد سمع أن الخالدين يرجعان إلى بغداد ^(٥) :

بكرت عليك معرة ^(٦) الأعراب	فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب ^(٧)
ورد العراق ربيعة بن مكدم	وعتيبة بن الحاث بن شهاب

(١) اليتيمة : « الفكر » .

(٢) اليتيمة ٢ : ١٢٥ - تحيف : اغتصب . والمصالت : اللص .

(٣) اليتيمة : « شطرا »

(٤) في اليتيمة ٢ : ١٢٨ : « المفضل بن ثابت الضبي » .

(٥) بعده في اليتيمة ، « وذلك في أيام المهلب الوزير »

(٦) اليتيمة « مغيرة »

(٧) اليتيمة ٢ ، ٢٨

أفعدنا شكّ بأنهما هما
 جلبا إليك الشعر من أوطانه
 شنا على الآداب أقبح غارة
 فحذار من حركات صلي^(١) غارة
 تركت غرائب منطقي في غربة
 أعزز على بأن أرى أشلاءها
 جرحى وما ضربت بحدّ مهتدي
 إن عزّ موجود الكلام عليهما
 كم حاولا أمرى فطال عليهما
 في الفتك لافي صحة الأنساب
 جلب التجار طرائف الأجلاب
 جرحت قلوب محاسن الآداب
 وحذار من فنكات ليثي غاب
 مسببة لا تهتدي لإياب
 تدمى بظفر للعدو وناب
 أسرى وما حلت على الأتقاب
 فأنا الذي وقف الكلام يباب
 أن يدركا لإثمار تراي

والقصيدة^(٢) طويلة جمعت منها ما وافق الغرض ، وسنلمّ بشيء منها في
 الثالثة والثلاثين بعون الله تعالى .

وقال يتظلم منهما لأبي البركات :

يا أكرم الناس إلا أن تعدّ أبا
 أشكو إليك حليفي غارة شهرا
 ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرّم
 سلا عليه سيوف البغي مصلته
 وأرخصاه فظل العطر متهما^(٥)
 فات الكرام بآيات وآثار^(٣)
 سيف العقوق على ديباج أشعاري^(٤)
 لمزقه بأنياب وأظفار
 في جحفل من شذيع الظلم جزار
 ليهما يشتري من غير عطار

(١) اليتيمة « صلي قفرة »

(٢) انظرها كاملة في اليتيمة ٢ ، ١٢٨

(٣) اليتيمة ٢ ، ١٢٦

(٤) اليتيمة ، « سيف الشقاق »

(٥) اليتيمة ، « ممتنأ »

إِنْ قَدَّادِكَ بَدَرٍ فَهُوَ مِنْ نَحْيٍ^(١) أَوْ خَتَّمَكَ فَيَا قُوتِي وَأَحْجَارِي
كَأَنَّهُ جَنَّةٌ رَاقَتْ حَدَائِقَهَا بَيْنَ الْغَبِيِّينَ فِي نَارٍ وَإِعْصَارِ
عَارٍ مِنَ النِّسْبِ الْوَضَاحِ مُنْتَسِبٍ فِي الْخَالِدِينَ بَيْنَ الْحَزَى وَالْعَارِ

وَشَتَّانَ بَيْنَ قَوَا السَّرَى فِي أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي عَثْمَانَ ابْنِي هِشَامِ الْخَالِدِينَ ،
وَبَيْنَ قَوْلِ الثَّعَالِبِي فِيهِمَا^(٢) حِينَ قَالَ : إِنَّ هَذِينَ لِسَاحِرَانَ ، يُغْرِبَانِ فِيمَا يَجْلِبَانِ ،
وَيُبْدِعَانِ فِيمَا يَصْنَعَانِ ، وَكَانَ مَا يَجْمَعُهُمَا مِنْ أَخَوَةِ الْأَدَبِ مِثْلَ مَا يَنْظُمُهُمَا مِنْ
أَخَوَةِ النِّسْبِ ، وَلَهُمَا فِي الْمَوَاقِفَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ يَحْيَتَانِ بِرُوحٍ وَاحِدَةٍ ، وَيَشْتَرِكَانِ فِي
قَوْلِ الشَّعْرِ وَبِنْفَرْدَانِ ، وَلَا يَكَادَانِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ يَفْتَرِقَانِ ، وَكَانَا فِي
التَّسَاوَى ، كَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ :

رَضِيعُ لِبَانٍ شَرِيكِي عِنَانٍ عَتِيقِي رَهَانٍ حَلِيقِي صَفَاءٍ

بَلْ ، كَمَا قَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

كَأَلْفَةِ قَسَدِينَ إِذَا تَأَمَّلْتَ نَاطِرٌ لَمْ يَفْعَلْ مُوَضِعَ فَرْقَدٍ عَنْ فَرْقَدٍ

بَلْ كَمَا قَالَ الصَّابِي :

أَرَى الشَّاعِرَيْنِ الْخَالِدَيْنِ كَشَرَا قَصَائِدَ يَفْنَى الدَّعْرُ وَهِيَ تَحُلُّدُ
جَوَاهِرَ مِنْ أَبْكَارِ لَفْظٍ وَعُؤُونِهِ يَقْصُرُ عَنْهَا رَاجِزٌ وَمَقْصِدُ
تَنَازَعِ قَوْمٍ فِيهِمَا وَتَنَاقُضُوا وَمَرَّ جِدَالٍ بَيْنَهُمْ يَبْتَرِدُ
فَطَائِفَةٌ قَالَتْ سَعِيدٌ مُقَدَّمٌ وَطَائِفَةٌ قَالَتْ لَهُمْ بَلْ مُحَمَّدُ

(١) الْيَتِيمَةُ « مِنْ الْجَحِي »

(٢) الْيَتِيمَةُ ٢ : ١٦٥

وصاروا إلى حكمي فأصاحت بينهم
 هما الاجتماع الفضل زوج^(١) مؤلف
 وما قلت إلّا بالتي هي أرشد
 ومعناها من حيث ألفت مفرد
 كذا فرقدا الظماء لما تشاكلا
 علّا أشكلاّ ذاك أم ذاك أجد
 فزوجهما ما مثله في اتفاقه
 وفردهما بين الكواكب أسعد
 فقاموا على صلح وقال جميعهم
 رضينا وسأوى فرقدا الأرض فرقدا

وأفاضل الشأم والعراق ، بعضهم يفضل السرى عليهما ، وبعضهم يفضلهما .
 فهذا كله فصل في السرقات مستظرف ، احتوى على فوائد من علم الأدب ،
 وهي عشرون وجهاً والعشرون وجهاً في السرقة جلبتها من كتاب الوكيعي
 على اختصار .

فقال : والذي جعل الشعر ديوان العرب ، وثُرُجَمَانِ الأدب ،
 ما أحدث سِوَى أَنْ بَتَرَ شَمْلَ شَرْحِهِ ، وأغار على ثلثي سَرْحِهِ .
 فقال له : أنشدنا أبياتك بِرُمْتِهَا ؛ لِيَتَّضِحَ ما اختاره مِنْ جملتها ؛
 فأنشد :

يا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّيَّةِ إِنَّهَا
 دَارُ مَتَى مَا أَصْحَكْتُ فِي يَوْمِهَا
 شَرَكُ الرَّدَى وَقَرَارَةُ الْأَكْدَارِ
 أَبْكَتْ غَدًا بُعْدًا لَهَا مِنْ دَارِ
 وَإِذَا أَظَلَّ سَحَابُهَا لَمْ يَنْتَفِعْ
 مِنْهُ صَدَى لِحَامِهِ الْعَرَّارِ
 غَارَتْهَا مَا تَنْقِضِي وَأَسِيرُهَا
 لَا يُفْتَدَى بِجَلَالَةِ الْأَخْطَارِ
 كَمْ مُزْدِهِ بَغْرُورُهَا حَتَّى بَدَا
 مَتَمَرِّدًا مُتَجَاوِزَ الْمَقْدَارِ

(١) كذا في الأصول ، وما أثبتته من البيمة .

قَدَبْتُ لَهُ ظَهَرَ الْمَجَنِّ وَأَوَّلَعْتُ فِيهِ الْمُدَى وَنَزْتُ لِأَخْذِ الشَّارِ
فَارْبَأُ بِعُمُرِكَ أَنْ يَمُرَّ مُضِيْعًا فِيهَا سُدَى مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَظْهَارِ
وَاقْطَعْ عِلَاقَ حُبِّهَا وَطِلَابِهَا تَلَقَّ الْهُدَى وَرِفَاهَةَ الْأَسْرَارِ
وَارْقُبْ إِذَا مَا سَأَلَمْتُ مِنْ كَيْدِهَا

حَزَبَ الْعِدَا وَتَوَثَّبَ الْقَدَارِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ خُطُوبَهَا تَفْجَأُ وَلَوْ طَالَ الْمُدَى وَوَنَتْ سُرَى الْأَقْدَارِ
.....

قوله: «والذى جعل الشعر ديوان العرب»، أى كتاباً تدون فيه أخبارهم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الشعر جزل من كلام العرب به يعطى السائل ويكظم الغيظ وبه يؤتى القوم فى ناديتهم». وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من الشعر لحكمة» رواه ابن عمر رضى الله عنه قال: تعلموا الشعر فإن فيه محاسن تبتغى ومساوى تُنتقى. وحكمة للحكماء ويدل على مكارم الأخلاق.

قونه: «يا خاطب الدنيا الدنية»، أى التى لا خير فيها. شرك: مصائد. الردى: الهلاك. قرارة: موضع يستقر فيه الماء. الأكدار: ما يتكدر به الماء الصافى.

أظَلّ: دنا وقرب. يفتقع: يرتوى. صدى: عشاء. جهامه: سحابه الذى لا ماء فيه. القترار: الخداع. تنقضى: تنقطع وتتم، أراد أن الدنيا تُهلك من فيها، فكفى بالأسير عن ذلك وأسير الموت لا يفدى. الجلائل: جمع جليلة وهى الشيء الرفيع، وتقدمت الأخطار. مزده: مُعْجَب. غرورها: خداعها. متمرداً: متجاوزاً الحد فى الفساد.

الجنّ: التّرس . أولفت : جعلتها تلغ الدم . المدى ، جمع مُدْيَة : السكين .
نزت : وثبت عليه . الثّار : طلب الدم ، وأراد أنها لما بسطت الأرزاق للإنسان
فأعجب بها ، وركب رأسه في الفساد تحوّلت عليه ، وسقت سيّئها من دمه ، والعرب
تقول : قلبت له ظهر المَجْنّ ، أى غيّرت له حاله ، وهو مثل يضرب للمحاربة بعد
المسألة ، وأصله في الحرب ، لأن الرجل إذا صالح صاحبه جعل بطن مِجَنَّهُ مما يلي
صاحبه المصالح ، فإذا حاربه قلب له ظهره للقتال . ومن جواب رسالة المهلب إلى
الحجاج : وزعمت أني إن لم ألقهم في موضع كذا أسرع إلى صدر الرمح ، فلو فعلتُ
لقلبْتُ إليك ظهر الجن ، ثم إذا كانت الواقعة ، فهذا يبيّن ما ذكرناه .

اربأ بعمرک ، أى ارفع عنها نفسك واحتفظ فيها بعمرک ، وتقول : ربأتُ القومَ
أى صرت لهم ريثة ، وهو الحارس لهم ، والربأ : الموضع المشرف الذى يقعد فيه
الناظر ، فعنى اربأ بنفسك : أى ارتفع بموضع ممتنع واحترس فيه لتنجو . سُدَى :
مهملاً . استظهار : استعداد ، وقد استظهرت بالشئ فظهرت به وأظهرته إذا جعلته
خلف ظهرک حماية ووقاية ، والظهير المعاون . والعلائق : كل ما يعلق القلب بحب
الدنيا . والرفاهة : الخفض والعيش الهنىء . الأمرار : البواطن ، يريد أن سرّ
الإنسان وخطره إذا قطع علائق الدنيا كان مترقهاً خالى السر والبال . ارقب :
احرس . سالت : صاحت . كَيْدَها : مكرها . الغدار : الذى يؤمّنك فإذا أمنتَه
خانك . وتوثبه : تهَيّؤه للوثب عليك . خُطوبها : أمورها ونوازله . تفجأ :
تأتى على غفلة . ونت : فترت : والسرى : مشى الليل . الأقدار : ما يقدره الله على
العبد من خير أو شر ، فيقول : إذا أمنتك الدنيا من مكرها ، فلا تأمنها فخطوبها
تأتى على غفلة بعد أمد طويل ، وضمّن هذا الشعر وصايا في التحذير من الدنيا .

* * *

[ذكر التحذير من الدنيا وغرورها]

ونسوق هنا من النظم والنثر ما ينتظم في سالك ما نظم ، قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

(٧ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

وقال: « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ومن أخذها بغير حقها كان كالأكل الذي لا يشبع » .

وقيل لعليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب ؛ من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حزن .

وقال ابنه محمد بن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .
وقيل لبعض الحكماء : صف لنا الدنيا ، فقال : أملٌ بين يديك وأجلٌ مطلقٌ عليك ، وشيطانٌ فتانٌ ، وأمانيّ جرّارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتزجرها فتخيب .

وقيل لآخر : صف لنا الدنيا ، فقال : ناقضة للعزيمة ، مرتجعة للعطية ، كل من فيها يجرى إلى مالا يدرى .

وقال هارون الرشيد : لو قيل للدنيا : صفي نفسك ، ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق^(١)
وقال آخر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنحّ عن خطبتها تسلم^(٢)
إن الذي تخطب غدارة قريبة العرس من المأتم-
وقال أبو العرب الصقلی :

ولا يفرك منها حسن بُردٍ له علّمان من علم الذّهابِ
فأوله رجاء من سرابٍ وآخره رداء من ترابٍ

(١) ديوانه ١٩٢

(٢) العقد ٣ : ١٧٤ من غير نسبة .

وقال أبو العتاهية ،

أصبحت الدنيا لنا فتنّةً والحمد لله على ذاك^(١)
قد أجمع الناس على ذمّها وما أرى منهم لها تاركا
وله أيضاً :

هي الدنيا إذا كملت وتمّ سرورها خذلت^(٢)
وتفعل في الذين بقوا كما فيمن مضى ففعلت
وقال المتنبي :

أبدًا تستردّ ما تهبّ الدّنـ يا فياليت جودها كان بخلا^(٣)
وهي معشوقة على الغدر لا تحـ فظ عهدها ولا تتمّ وصلّا
كلّ دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تحلى
شيم الغانيات فيها فلا أد رى لذا أنث اسمها الناس أم لا
وله أيضاً :

فدى الدار أخون من مؤمس وأخدع من كفة الحابل^(٤)
تفاني الرجال على حبّها وما يحصلون على طائل
وقال المعري :

وجدنا أذى الدنيا للذيذا كأنما جنى النحل أصناف الشفاء الذي نجى^(٥)
على أم دفر غصبة الله إنها لأجدر أنثى أن تحون وأن تُخني^(٦)

(١) ديوانه ١٨٦ -

(٢) العقد ٣ : ١٧٤

(٣) ديوانه ٣ : ١٣١ .

(٤) ديوانه ٣ : ٣٣ .

(٥) سقط الزند ٩١٩ . وجنى النحل ، هو العسل .

(٦) أم دفر ، كنية الدنيا . والدفر : التتن . وأخنى عليه الدهر : أهلكه .

كعب دُجاها فرعُها ونهارها
كانَ بنِها يولدون ومالها
محيًا لها قاهت له الشمسُ بالحسن^(١)
حليلٌ فتخشى العار إن سمحت يابن^(٢)
وقال ابن عبدربه :

ألا إنما الدنيا غضارة أيككة
هي الدار ما الآمال إلا فجائع
إذا اخضر منها جانبٌ جفَّ جانب^(٣)
عليها ولا اللذات إلا مصائب
فلا تكتحل عينك فيها بعبرة
على ذاهبٍ منها فإنك ذاهب
وقال أبو العتاهية :

رضيت بذى الدنيا ككل مكائره
ألم ترها ترقيه حتى إذا سما
ملحٌ على الدنيا وكل مفاخر^(٤)
فرت حلقه منها بشفرة جازر
وقال أبو بكر البلوى :

إن الذى أصبح لا والد
قد مات من قبلها آدم
له على الأرض ولا والد
فأى نفس بعده خالدة
إن جئت أرضاً أهلها كلهم
عورٌ فغمض عينك الواحدة
وقال ابن عمران :

أفّ لدنيا قد شغفنا بها
فتانةٌ تخدع طلابها
جهلاً وعقل للهوى متبع
فلا تكن تمن بها ينخدع
أضغك أحلام إذا حُصّت
أو كوميض البرق منها لمع

(١) شبه الدنيا بالكعب ؛ وهى الفتاة التى تكعب نديها .

(٢) قال البطانيوسى فى شرح هذا البيت : الوأد : وضع التراب على الميت وتركه ؛ شبه الدنيا فى إهلاكها لأبنائها بامرأة زانية تخشى الفضيحة إذا ظهر لها ولد ، فهى تدفنه لتعظم أثره والحليل الزوج .

(٣) العقد لابن عبدربه ١ : ١٧٥ .

(٤) العقد ٣ : ١٧٤ .

وقال ابن قاضي ميلة :

لديناك نورٌ ولكنه ظلام يحارُّ به المبصرُ
فإن عشت فيها على أنها كما قيل قنطرة تُعبُرُ
فلا تعمرونَ بها منزلاً فإن الحراب لما تُغيرُ
ولا تذخرنَ خلاف التقى ففنى ويبقى الذى تذخرُ

ابن عمران : واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسه في بعض طباعه ،
وإن الدنيا جانست الإنسان في بعض طبائمه فأحبها بكله .

وقال :

نُراع لذكر الموت في حال ذِكرِهِ وتعترض الدنيا فلهو وتلعبُ^(١)
ونحن بنو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها وما كنت منه فهو شيء محببُ

وقال إبراهيم بن أدهم :

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ^(٢)
فطوبى لعبدٍ آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وهذا مثل قول أعرابيٍّ وقد قيل له : كيف أنت في دينك ؟ فقال : أخرقه
بالمعاصي ، ولا أرقعه بالاستغفار .

وللاشمى التطلّي :

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا أن سوف تقتلهم لذاتهم بدداً^(٣)
قل للمحدث عن لقمان أو لبدا لم يترك الدهر لقماناً ولا لبدا
وللذى همم البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر في الثرى أحداً
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه يرجو غدا وعسى ألا يعيش غداً

(٢) العقد ٣ : ١٧٦ .

(١) العقد ٣ : ١٧٦ .

(٣) ديوانه ٢٧ .

تأمل هذه المقاطع فإنها تضمنت حكماً وآداباً وكل قطعة منها ، لها تعلق بشعر
الحريري إما باللفظ أو بالمعنى .

* * *

فقال الوالي : ثمّ ماذا ، صنع هذا ؟ فقال : أقدمَ للؤمة في
الجزء ، على أيّياتي السُداسيّة الأجزاء ، خذف منها جُزأين ، ونقصَ
من أوزانها وزَينين ؛ حتّى صارَ الرُزءُ فيها رُزأين . فقال له : يَين
ما أخذ ، ومن أين ، فلذ ؟ فقال : أرعني سمعك ، وأخلِ للتفهم عني
ذرْعك ؛ حتّى تتبين كيف أصلت على ، وتقدرَ قدرَ اجترامِهِ إلى ؛
ثم أنشد ، وأنفاسه تتصعد :

ياخاطب الدنيا الدتية إنها شركُ الردي
دارٌ متى ما أضحكك في يومها أبكتُ غداً
وإذا أطلَّ سحابها لم ينتفع منه صدّي
غاراتها ما تنقضي وأسيرها لا يفتدي
كم مُزده بغرورها حتّى بدا مُتمرّداً
قلبتُ له ظهر المجنّ وأولنت فيه المدي
فاربأ بعمرِكَ أن يمُرَّ مضيماً فيها سدى
واقطع علائق حبّها وطلايها تلق الهدى
وارقب إذا ماسألت من كيدِها حربَ العدا
واعلم بأنّ خطوبها تفجأ ولو طال المدي

فالتفتَ الوالي إلى العُلام وقال : تَبَّأَ لَكَ مِنْ خَرِيَجٍ مَارِقٍ ،
وَتَلْمِذٍ سَارِقٍ ! فقال الفَتَى : برئت من الأدب وبنيه ، ولحقتُ بِمَنْ
يَنَاقِيهِ ، ويقوِّضُ مَبَانِيهِ ؛ إن كانتْ أَيَّاتُهُ نَمَتْ إلى عِلْمِي ، قبل أن
أَلْفَتُ نَظْمِي ؛ وإنما اتَّقَ تَوَارِدُ الْخَاطِرِ ، كما قَدْ يَقَعُ الْحَافِرُ عَلَى
الْحَافِرِ .

* * *

قوله : أقدم أى تقدم . لؤمه فى الجزاء ، يريد أنه جازاه على ما فعل معه
من الخير مجازاةً لئيمٍ ، فسرق شعره . السادسة الأجزاء ، لأن عروضها من السكامل ،
وأجزاؤها متفاعلة ست مرات : الرّزء : المصاب . فَلَذَ : قطع . أُرْعِنَى سمعك :
أى اسمع منى . ذَرَعَكَ : بالك وقلبك . أَصَلَتْ : جرد سيفه . تتصعد : تتطلع إلى
فوق . الْخِرَّابُجُ : الذى خرّجه معلمه ، وفلان خرّيجك ، أى الذى خرج بهذيبك
وتعليمك . مَارِقٌ : خارج عن الطاعة . وتلميذ : طالب متعلم . برئتُ : زُلتُ
وانفصلت . يَنَاقِيهِ : يعاديه . يقوِّضُ : يَهْدِمُ . نَمَتْ : انصلت . ونميت الحديث
أسندته . أَلْفَتُ نظمى : جمعت شعري .

توارد الخواطر : تواطؤ الأذهان ، أى وقع لذهن الفتى من الكلام ما وقع
لذهن الشيخ ، مثل الحافر الذى وقع على الحافر .

وهذا الكلام يُعزَى لأبى الطيب المتنبى ، وسئل عن اتفاقات الخواطر ، فقال :
الشعر مَيِّدَانُ ، والشعراء فرسان ، فربما اتفق توارد الخواطر ، كما قد يقع الحافر
على الحافر .

قال الأصمعى رحمه الله تعالى : قلت عمرو بن العلاء : أَرَأَيْتَ الشاعرين يتفقان
فى المعنى ويتواردان فى اللفظ لم يلق أحدهما صاحبه ، ولا سمع شعره ؟ فقال لى :
تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها .

[نبذ في توارد الخواطر]

ومن مشهور ذلك ما وقع في القصيدتين البائيتين لامرئ القيس وعلقمة ، وكذلك اتفاقه مع طرفة في قوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أُمِّي وتَجَمَّلُ^(١)
وقال امرؤ القيس^(٢) : وتَجَمَّلُ .

ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم .

لو أنها عرضت لأشمتَ راهبٍ عبدَ الإلهِ صرورةً متعبِّدٍ
وقال النابغة^(٣) : « صرورة متعبد » :
وقال :

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولهمَّ من تاموره يتنزل
وقال النابغة :

لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ونخاله رشداً وإن لم يرشداً^(٤)
تاموره : صومعته .

ومن ذلك ما حكى أبو علي أنه خرج جرير والفرزدق مردفين إلى هشام
ابن عبد الملك ، فنزل جرير يبول ، فتلفت الناقة فضر بها الفرزدق وقال :

إلامَ تلتفتين وأنت تحي وخيرُ الناس كلهم أُمَامِي^(٥)

(١) من المعلقة ؛ ديوانه ٣٠ .

(٢) من فوله في ديوانه ص ٩ .

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أُمِّي وتَجَمَّلُ
(٣) من فوله في ديوانه ٣١ .

لو أنها عرضت لأشمتَ راهبٍ عبدَ الإلهِ صرورةً متعبِّدٍ
وانظر الشعر والشعراء ١١٤ .

(٥) الأغاني ٩ : ١٦٩ .

(٤) ديوانه ٣٢ .

مَتَى تَرَدَى الرَّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنْ التَّهْجِيرِ وَالذَّبَرِ الدَّوَامِي ^(١)
 ثُمَّ قَالَ : الْآنَ يَجِيءُ جَرِيرٌ ، فَأَنْشُدْهُ الْبَيْتَيْنِ فَيَرَدَّ عَلَيَّ :

تَلَفْتُ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ إِلَى الْكَبِيرِينَ وَالْقَاسِ الْكَهْمَامِ ^(٢)
 مَتَى تَأْتِ الرِّصَافَةُ تَخْزَنُ فِيهَا كَخَزَائِكَ فِي اللِّوَاسِمِ كُلِّ عَامٍ

قال : فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : مَا يُضْحِكُكَ يَا أَبَا فِرَاسٍ ؟
 فَأَنْشُدْهُ الْبَيْتَيْنِ ، فقال جرير : تلفت أنها البيتين .. كما قال الفرزدق سواء ، فقال :
 وَاللَّهِ لَقَدْ قُلْتَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فقال جرير : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ شَيْطَانَنَا وَاحِدَ .

ومر ^(٣) رجل بالفرزدق بالمرْبَدِّ فقال : مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ الْيَامَةِ ،
 قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ أَحْدَثَ ابْنُ الْمِرَاغَةِ ؟ فَأَنْشُدْهُ :

* هَاجَ الْهُوَى لِفُؤَادِكَ الْمَهْتَاجِ *

فقال الفرزدق :

* فَانْظُرْ بِتَوْضُوحٍ بِأَكْرَ الْأَحْدَاجِ *

فقال الرجل :

* هَذَا هَوَى شَغَفَ الْفُؤَادِ مَبْرَحٌ *

فقال الفرزدق :

* وَنَوَى تَقَاذِفَ غَيْرِ ذَاتِ خِلَاجٍ ^(٤) *

فقال الرجل :

* إِنَّ الْغَرَابَ بِمَا كَرِهْتَ لَمَوْلَعٌ *

(١) التهجير : المشي في الهاجرة . والدبر : فرحة في الدابة .

(٢) ديوانه ٥٠٢

(٣) ديوانه ٨٩ ، بدائع البدائيه ٦٣ ، والأحداج : جمع حدج ؛ وهو من مراكب النساء .

(٤) الخلاج : الشك .

فقال الفرزدق :

* بنوى الأحبة دائم التشحاج *

فقال الرجل: هكذا والله قال: أفسمعتها من غيري؟ قال: لا ولكن هكذا ينبغي أن يقال، فقال: أما علمت أن شيطاننا واحد.

ودخل الفرزدق على امرأة من عَقِيل فحدثها، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه، فدخل فأقبلت عليه تحدّثه، وتركت الفرزدق، فغاضه ذلك، وقال للفتى: أتصارعنى؟ قال: ذلك إليك فقام الفرزدق فلم يلبث أن أخذه الفتى مثل الكرة فصرعه، وجلس على صدره، فضرط الفرزدق، فوثب الفتى عنه وقال: هذا مقام العائذ بك، والله ما أردتُ ما جرى، فقال: والله ما بى ذلك، ولكن كأتى بآبن المراغة جرير قد بلغه الخبر، فقال:

جلستَ إلى ليلَى لتحظى بِقُربِها فخانك دَهرٌ لا يزال خُنون
فلو كنتَ ذا حزمٍ شددتَ وكاءها كما شدَّ خرَقاً بالدلاص قيون
فلما بلغ الخبر جريراً قال البيتين .

وأمر^(١) سليمان بن عبد الملك الفرزدق أن يضرب رقاب أمرى فاستعفاه، فلم يفعل، وأعطاه سيفاً لا يقطع، فضرب به عنق رومى فنبأ السيف، فضحك سليمان ومن حوله، فجلس وهو يقول:

أيعجبُ النَّاسُ أنْ أضْحَكَ سَيِّدُهُمْ خليفةَ اللهِ بَسْتَسْقَى به المطرُ
لم يذبُ سَيْفِي عن رُغْبٍ ولا دَهِشٍ عن الأسيرِ ولكنْ آخرَ القَدَرِ

ثم قال: ما إن يعاب فرس إذا كبا، ولا يعاب صارم إذا نبا، ثم جلس.

(١) الخبر في تاريخ الطبرى ٦: ٤٧٥، ٥٤٨، الأغاني ١٥، ٣٤٣.

وهو يقول : كَأَنِّي بَابِنِ الْمِرَاغَةِ قَدْ بَلَغَهُ الْخَبْرُ فَقَالَ :

بَسِيفٍ أَبِي رَعْوَانَ سَيْفٍ مَجَاشِعٍ ضَرَبْتُ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمٍ
ضَرَبْتُ بِهِ عِنْدَ الْإِمَاءِ فَأَرَعِشْتُ يَدَاكَ وَقَالُوا مَحْدَثٌ غَيْرُ صَارِمٍ
ثُمَّ قَالَ : كَأَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَابِنِ الثَّقَيْنِ قَدْ أَجَابَنِي فَقَالَ :

وَلَا تَقْتُلِ الْأَسْرَى وَلَكِنْ تَفَكِّهْهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
فَأَخْبَرَ الْفَرَزْدَقُ الْقِصَّةَ ، فَقَالَ :

كَذَلِكَ سَيْوْفُ الْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَايُهَا وَتَقْطَعُ أَحْيَانًا مَنَاطَ التَّمَاثِمِ
وَلَا تَقْتُلِ الْأَسْرَى وَلَكِنْ تَفَكِّهْهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
وَهَلْ ضَرْبَةُ الرُّوحَى جَاعِلَةٌ لَكُمْ أَبَا عَنْ كَلْبِيٍّ أَوْ أَبَا مِثْلِ دَارِمٍ

فهذا إن صح من أعجب اتفاق الخواطر .

وقال الأقيشر :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْعَتِيقِ وَهَانَ عَلَى مَأْثُورِ الْفُسُوقِ (١)
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةِ اللَّيْلِ إِلَى قِرَانِ النَّغْمِ بِالْوَتْرِ الْخَفُوقِ
وَمُسْمَعَةً إِذَا مَا شَتَّتْ غَنَّتْ مَتَى نَزَلَ الْأَحْبَبَةُ بِالْعَقِيقِ
تَمَتَّعَ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى وَصَلَ بِعُرَا الصُّبُوحِ عُرَا الْغُبُوقِ

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْجُمُوحِ وَهَانَ عَلَى مَأْثُورِ الْقَبِيحِ (٢)
وَجَدْتُ أَلَدَّ عَارِيَةِ اللَّيْلِ إِلَى قِرَانِ النَّغْمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ

(١) الوساطة ١٩١ ، ١٩٢ ، قال : وأنا أرتاب بأبيات الأقيشر ، فإنها لا تشبه شعره .
ولم أرها في ديوانه . وانظر سرقات أبي نواس لمهلل . بن يعقوب ٨٣ .
(٢) ديوانه ٢٥٧ .

ومسمةً إذا ما شئت غنّت متى كان الخيام بذى طلوح
تمتّع من شباب ليس يَبْقَى وصل بُعْراً الغبوق عُرّاً الصُّبوح
ومن ذلك مانسب السرى للخالدي فيما قدّمناه من سرقة شعره، قال السرى^(١) :

وكان كأس مدامها لما ارتدت بحبابها
توريد وجنتها إذا ملاح تحت نقابها
وقال أبو بكر الخالدي :

فكان الكأس لما ضحكت تحت الحجاب^(٢)
وجنةُ سحراء لاحت لك من تحت النقاب

وقال السرى في وصف جام فيه فالودج :

بأنحر مبيضّ الزجاج كأنه رداء عروسٍ مشربٍ بخَلْقٍ^(٣)
له في الحشا برد الوصال وطيبه وإن كان تلقّاه بلون حريقٍ
كانّ بياض اللوز في جنباته كواكبٍ درّ في سماءٍ عقيقٍ

وقال أبو بكر الخالدي :

مُدّاماً كان الكفّ من طيبٍ نشرها وصُفرتها قد خلّقت بخَلْقٍ^(٤)

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ وقبله هناك ،

إذا شئت أن تجتاح حقاً بباطلٍ وتفرق خصماً كان غير غريقٍ
فسائل أبا بكرٍ تجد منه سالكا إلى ظلمات الظلم كل طريقٍ
ولاطفه بالشهد المخلّق وجهه وإن كان بالإلطف غير حقيقٍ
(٤) يتيمة الدهر ٢ ، ١٦٣ وقبله .

ألا فاسقني والليل قد غاب نوره لغيبة بدرٍ في الغمام غريقٍ
وقد فضح الظلماء برق كأنه فؤاد مشوقٍ مولعٍ بخقوقٍ

نُعَايِنَهَا نَوْرًا عَلاَهُ تَجَسَّدُ وَنَشْرِبُهَا نَارًا بَغِيرَ حَرِيقِ
كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ فِي جَنَابَاتِهَا كَوَاكِبُ لَاحَتْ فِي سَمَاءِ دَقِيقِ
وَقَالَ السَّرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

رَأْتُ شَيْبًا يُصَاحِبُنِي فَصَدَّتْ وَكَانَ جَزَاؤُهُ مِنْهَا الْعُبُوسَا^(١)
وَقَالَتْ إِذْ رَأَتْ لِلْمُشْطِ فِيهِ سَوَادًا لَا يَشَاءُ كُلَّهُ نَفِيسَا
تَلَقَّ الْعَاجَ مِنْهُ بِمَشْطِ عَاجٍ وَدَعِ لِلْآبَنُوسِ الْآبَنُوسَا
وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ أَيْضًا :

وَقَفْتَنِي مَا بَيْنَ هَجْرٍ وَبُوسٍ وَاتَّشَتَ بَعْدَ ضِحْكَةٍ بَعْبُوسٍ^(٢)
وَرَأْتَنِي مَشْطَتَ عَاجًا بِعَاجٍ وَهِيَ الْآبَنُوسُ بِالْآبَنُوسِ
وَهَذَا إِمَّا تَوَارَدَ أَوْ تَسَابَقَ ، وَالتَّسَابُقُ أَشْبَهُ بِهِمْ .

* * *

قَالَ : فَكَأَنَّ الْوَالِيَّ جَوَّزَ صَدَقَ زَعْمَهُ ، فَندَمَ عَلَى بَادِرَةِ ذَمِّهِ ؛
فَظَلَّ يَفْكَرُ فِيْمَا يَكْشِفُ لَهُ عَنْ الْحَقَائِقِ ، وَيُعَيِّرُ بِهِ الْفَائِقَ مِنَ
الْمَائِقِ ، فَلَمْ يَرِ إِلَّا أَخْذَهَا بِالْمُنَاضِلَةِ ، وَلَزَّهَا فِي قَرْنِ الْمُسَاجِلَةِ .
فَقَالَ لَهُمَا : إِنَّ أَرْدَتَا افْتِضَاحَ الْعَاطِلِ ، وَاتِّضَاحَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ ،
فَتَرَسَلَا فِي النَّظْمِ وَتَبَارَيَا ، وَتَجَاوَلَا فِي حَلْبَةِ الْإِجَازَةِ وَتَجَارَيَا ؛
كَيْهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ يَدِنَا ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ يَدِنَا ؛ فَقَالَا لَهُ بِلِسَانٍ
وَاحِدٍ ، وَجَوَابًا مُتَوَارِدًا : قَدْ رَضِينَا بِسَبْرِكَ ، فَرَنَا بِأَمْرِكَ .

فَقَالَ : إِنِّي مُوَلِّعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ بِالتَّجْنِيسِ ، وَأُرَاهَا كَالرَّئِيسِ :

(١) دَبَوَانُهُ ١٥٥ .

(٢) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ٢ : ١٨٢ .

فانظماً الآن عشرة أبيات تلحمانها بوشيه، وترصّعناها بحليهِ، وضمناها
شرح حالي مع ألفٍ لي بديع الصّفة، ألّمي الشّفه، مَليحَ التثني،
كثير التّيه والتجني، مُغرّي بتناسي العهد، وإطالة الصدّ، واختلاف
الوعد؛ وأنا له كالعبد.

* * *

قوله : زعمه ، الزعم قول معه اعتقاد . بادرة : سابقة وهي الكلمة الرديئة
تبدّر من المتكلم . الفائقي : الفاضل ، وفاق الناس ، فضاهم وعلاهم بقول أو علم .
المائق : الأحق الضعيف التدبير . المناضلة : المراماة . لزها : ضمهما وشدهما .
فَرَن : جبل يقرن بين الشيتين .

[المساجلة ومثل منها]

المساجلة : أن يستقي ساقيان فيخرج كلّ واحد منهما من الماء مثل ما يخرج
الآخر ، فأتيهما نكل فقد غلب ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يَسَاجِلُ مَا جَدَا يَمْلَأُ الدُّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(١)
وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةَ مِنْ بَيْتِ الْعَرَبِ

ومرّ الفرزدق بالفضل ، وهو يستقي وينشد البيتين ، فشمر ثيابه عن نفسه ،
وقال : أنا أساجلك ، ثقةً بنسبه ، ف قيل له : هذا الفضل بن العباس ، فردّ ثيابه
وقال : ما يساجله إلا مَنْ نَصَّ أيرأبيه . ثم صارت المساجلة يقصدها قصد المفاخرة ،
وأراد هنا بالمناضلة والمساجلة ، أن يقول هذا بيتنا ، وهذا بيتنا حتى يُعلم لمن الغلب .
وأكثر ما جرت به العادة فيها بأنصاف الأبيات كما شهر في قصة امرئ القيس

(١) البيت الأول في اللسان — سجل ، ونسبه للفضل بن عباس بن عتبة .

والتوهم حين قال امرؤ القيس :

* أحرار تَرَى بُرَّ يَقَاهِبُ وَهَنَا *

فقال التوهم :

* كَنَارِ جُجُوسٍ تَسْتَعِرُّ اسْتِعَارًا ^(١) *

ثم مضيا على القطعة بالأ نضاف حتى كملت ، وهي مشهورة .

قال أبو العيناء : وقف على غلام يسألني ما أحسبه بلغ الحلم ولا قاربه
وخرج غلام لي أسود قد اغتسل ، وهو يرعد ، وكان خبيثاً ، فأومأت إلى
الأسود فقلت :

* كَأَنَّهُ ذُئْبٌ غَضِيٌّ أَزَلُّ *

فقال الغلام :

* بَاتَ النَّدَى يَضْرِبُهُ وَالطَّلُّ *

فوصلته بدارهم وانصرف .

واجتاز ابن أبي الخصال من بلده شقورة بأبدة ، وهو صبي صغير يطلب
الأدب ، فأضافه بها القاضي ابن مالك ، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطف
لهم منها عنقوداً أسود ، فقال القاضي :

* انْظُرْ إِلَيْهِ فِي الْعَصَا *

فقال ابن أبي الخصال :

* كَرَأْسِ زَنْجِيٍّ عَصَا *

فعلما أنه سيكون له شأن في البيان .

ومثل ذلك ما حدثني به الشيخ الفقيه أبو الحسين بن زرقون عن أبيه
أبي عبد الله أن أبا بكر بن المجل وأبا بكر بن الملاح الشبلين ، كانا متواخين

(١) ديوان امرئ القيس ١٤٧ .

متصافَيْن ، وكان لهما ابنان قد برعا في الطلب ، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب ، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء ، فركب ابن المبجل في سَحَرٍ من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على هجاء ابن الملاح ، ويقول له : قطعت ما بيني وما بين صَفِيِّ أَبِي بكر يا قذاعك في ابنه ، فقال له ابنه : إنه بدَأني ، والباديء أظلم ، وإنما يجب أن يُلْحَى مَنْ بالشرّ تقدّم ، فمذره أبوه ؛ فبينما هما على ذلك إذ أقبل على وادٍ تنقّ فيه ضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

١ * تَنَقَّ ضَفَادِعِ الْوَادِي *

فقال ابنه :

* بصوتٍ غير معتاد *

فقال الشيخ :

* كَأَنَّ تَقِيْقَ مَقْوَلَهَا *

فقال ابنه :

* بنو الملاح في النادى *

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

* وتصمت مثل صَمَتِهِمْ *

فقال ابنه :

* إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى زَادٍ *

فقال أبو بكر :

* وَلَا غَوْثَ الْمُهَوِّفِ *

فقال ابنه :

* وَلَا غَيْثَ الْمُرْتَادِ *

والإجازة بالآيات بكاملها كثيرة مشهورة .
وحكى الماوردي أن الناس تذاكروا حفظ السرّ بمجلس عبدالله بن طاهر ،
قال عبد الله :

ومستودعي سرّاً تضمّنتُ ستره فأودعته من مستقرّ الحشى قَبْرًا (١)
قال ابنه عبيد الله ، وهو صبي :

وما السرّ في قلبي كثاوي بحفرة لأنني أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكنني أخفيه حتى كأنه من الدهر يوماً ما أخطتُ به خُبْرًا
وحكى الفقيه أبو الحسن أن أباه حدثه أن الأديب أبا الطاهر بن أبي ركب (٢) ،
حضر عنده بسبّطة بقرية شنان في عقب شعبان لاستقبال رمضان ، فأكل مع
من حضر ضروباً من الأطعمة والألوان ، قال أبو الطاهر رحمه الله تعالى
لأبي عبد الله بن زرقون أجز :

حدثت لشعبان المبارك شبعة تسهّل عني الجوع في رمضان
قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى :

كما سجد الصبّ المتيمّ زورة أطلق لها الهجران طولَ زمان
قال أبو الطاهر :

دَعَوْهَا بشعبانية فلو أنهم دَعَوْهَا بشعبانية لكفاني (٣)
وحدثني أيضاً أن أباه شيخنا الفقيه أبا عبد الله المذكور قدّم مع صهره
أبي الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر الحجاز ، وهو مضطرب الأمواج ،
قال له أبو الحسن : أجز :

وملنظم الغوارب موجّة بوارح في مناكبها غيوم

(١) الشعر والخبر في كتاب أدب الدنيا والدين ٢٨ برواية مخالفة .

(٢) كذا ضبط في نفع الطيب ، يفتح الراء وسكون الكاف .

(٣) الخبر في تحفة القادم ٣٣ ، ونفع الطيب ٤ : ٣٢٣ .

(٨ — شرح مقامات الحريري ج ٢)

فقال أبو عبد الله :

تَمْنَعُ لا تَعُومُ بِهِ سَفِينٌ وَلَوْ حَدَقْتَ بِهِ الزَّهْرَ النُّجُومُ

* * *

قوله: «افتضح العاطل» أى شهرة الفارغ من قول الشعر . تراسلا : تجاريا، والتراسل فى الغناء والنشيد، أن يتجاذب الصوت المغنيان، والتراسل فى الخيل، أن ترسل فرسين فى الطلق (١).

تباريا : تجاريا . ونجاولا : تصرفا . والحلبة يأتى ذكرها فى المقامة ، وأراد تجاريا فى الشعر كما يتجارى خيل الحلبة فى الميدان ، سبرك : قياسك وتجربتك لنا . متوارد : متسابق متتابع . والتجنيس : أن تكون الألفاظ متناسبة والمعانى متباعدة . تلحمانها : تنسججها . وشيه : رقه . ترصعناها : تزيناها ، وكل ما خرزته أو عقدته فهو مرصع . إلف : معشوق يؤلف ويؤنس به . بديع : غريب . ألقى : أسمر ، وألقى أن تتعق حمرة الشفة حتى تضرب إلى السواد . التثنى : الانعطاف . التيه : الإعجاب والاحتقار بغيره . التجنى : ادعاء الجناية على عاشقه ، وذلك أن المعشوق يحسب كل ما يفعله عاشقه ذنباً عليه وجناية ليتوصل بذلك إلى هجره ، ثم سقى الصد والإعراض تجنياً . مفرى : مولع . والتناسى : استعمال النسيان . أراد أنه بعد عاشقه بالزيارة وغيرها فإذا ذكر بها قال : نسيته . والصد : الإعراض .

* * *

قال : فبرز الشيخ مجلياً ، وتلاه الفتى مُصَلِّياً ؛ وتجاريا بيتاً فيتاً على هذا النَّسَقِ ، إلى أن كمل نظم الأبيات واتَّسَقَ ، وهى :

وأحوى حوى رقى برقة ثغره وغادرنى إلف الشهاد بغد ره
تصدى لقتلى بالصدود وإننى لنى أسره مذك حاز قلبى بأسره

(١) الطلق : الشوط فى جري الخيل .

أَصَدَّقُ مِنْهُ الزُّورَ خَوْفَازِوَرَارِهِ وَأَرْضَى اسْتِمَاعَ الْهَجْرِ خَشْيَةَ هَجْرِهِ
 وَأَسْتَعْذِبُ التَّعْذِيبَ مِنْهُ وَكَلَّمَا أَجَدَّ عَذَابِي جَدَّ بِي حُبُّ بَرِّهِ
 تَنَاسَى ذِمَامِي وَالتَّنَاسَى مَذْمَمَةُ وَأَحْفَظَ قَلْبِي وَهُوَ حَافِظُ سِرِّهِ
 ، أَعْجَبَ مَا فِيهِ التَّبَاهِي بِعُجْبِهِ وَأَكْبَرُهُ عَنْ أَنْ أَفُوهَ بِكِبَرِهِ
 لَهُ مِنِّي الْمَدْحُ الَّذِي طَابَ نَشْرُهُ وَلِي مِنْهُ طِيُّ الْوَدِّ مِنْ بَعْدِ نَشْرِهِ
 وَلَوْ كَانَ عَدْلًا مَا تَجَنَّنِي وَقَدْ جَنَى عَلَيَّ وَغَيْرِي يَجْتَنِي رَشْفَ ثَغْرِهِ
 وَلَوْلَا تَنْثِيهِ ثَنَيْتُ أُعْنَتِي بَدَارًا إِلَى مَنْ أَجْتَلِي نُورَ بَدْرِهِ
 وَإِنِّي عَلَى تَصْرِيفِ أَمْرِي وَأَمْرِهِ أَرَى الْمَرَّ حُلُولًا فِي انْقِيَادِي لِأَمْرِهِ

* * *

على هذا النسق ، أى على هذا التتابع والانضمام . اتسق : انضم واجتمع .
 ونسقت الشيء بالشيء ضممته إليه . أحوى : أسمر الشفة ، وألحوة : حمرة تضرب إلى
 السواد ، يقال : شفة حواء حمراء . رقي ، أى ملكى ، والرق الملك ، ورق الرجل
 رِقًا : صار عبداً . برقة لفظه : بحلاوة كلامه . غادرني إلف السهاد : تركني صاحب
 سهر . بقدرة : بقلّة وفائه . تصدّى : تعرّض . أمره : حبسه . بأسره : بجملته .
 والزور : الكذب . ازوراره : انقباضه، والهجر : الفحش . أستمذّب : أستطيب .
 أجدّ عذابي : جدّد عذابي . جدّ : زاد واجتهد . برّه : إكرامه ، يريد متى
 زادني عذاباً وهجراناً زدت فيه حبّاً وبرّاً . ذِمَامِي : عهدي . مذمّة : عيب .
 أحفظ : أغضب . التباهى : التفاخر . أكبره : أعظمه وأراه كبيراً . أفوه :
 أنطق . نشره : تحرك راحته . رشف ثغره : تقبيل أسنانه . ثنيت : عطفت .
 أعنّيتي : جمع عنان . أجتلى : أنظر . نور بدره : حسن وجهه ، يقول : لولا حسن
 تنثيه لتركته وملت إلى غيره . ثم قال : وإني على ما يلقياني به من الهجر والجفاء ،

وألقاه به من البر والصفاء ، ليرجع عندي المرء من أفعاله دلوأ في اتبأى لما يُحِب
ويأمر به . وقد أنشدوا في ذلك :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءٍ لقد سررتنى أنى خطرت بياك^(١)
وقال في مثله :

وأهنتنى فأهنتُ نفسى صاغراً ما من يهون عليك ممن يكرم^(٢)
فهذا غاية الانقياد لمرعاة مراد الحبيب .

وقال الشاعر :

ولقد منحتكم المودة محضةً وكتمت ما اشتعلت عليه ضلوه
جازيتموني بالوصال قطيعةً شتان بين صنيعكم وصنيعي
فإذا أتيتك زائراً متشوقاً قصر الطريق وطال عند رُجوعي

وفي معنى قوله : « له مئى المدح » يقول ابن رشيقي ، وزاد معنى مستظرفاً :
أراك اتهمت أخاك الثقةً وعندك مقت وعندي مِقَّة^(٣)
وأئني عليك وقد سؤتني كما طيب العود من أحرقة

وقال ابن زيدون :

بني جهورٍ أحرقتُمُ بجفائكم جناني فما بال المدائح تعبق^(٤)
تعدوني كالغبر الندى إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرقه
وهما وإن تواردا على هذا المعنى ، فإنما أخذهما من قول حبيب :

(١) ديوان الحماسة - بشرح الرافعي ٢ : ١٠٦

(٢) العقد ٥ ، ٣٧٥ من أبيات نسبها لأبي الشيب .

(٣) قتله في التنف ٥١

(٤) ديوانه ٥٩٠

لمولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العود^(١)

* * *

ونذكر هنا جملة من الشعر الرائق المستظرف الفائق ، تنسحب على أو صاف
الغلام المذكور ، وتعلق بشعر الحريري من جهة التجنيس ، أو من جهة الانقياد
للمحبيب وإن جفا وصد .

ونبدأ بذكر حكاية أبي إسحاق الحصري لتعلقها بما انبت عليه المقامة من
توارد الخواطر .

كان أبو إسحاق يختلف إلى بعض مشيخة القيروان ، وكان الشيخ كلفا بالمذربين
وهو القائل :

ومعذرين كأن نبتَ حدودهم أقلامُ مسك تستمدّ خلوقاً
قرنوا البنفسج بالشقيق ونظّموا تحت الزبرجد لؤلؤا وعقيقاً
فهم الذين إذا خلّى رآهم وجدّ الهوى بهم إليه طريقاً
وكان يختلف إليه غلام من أعيان أشراف القيروان ، وكان به كلفاً ، فبينما
هو عنده والحصري قد أخذ في الحديث إذ أقبل الغلام وهو يقول :

في صورةٍ كملت فخلت بأنّها بدرُ السماءِ لِسْتَةٍ وثمانِ
يعشى العيون ضياؤها فكانتْها شمس الضحى تَعشى بها العينانِ

فقال الشيخ : يا حصري ، ما تقول فيمن هام بهذا التند ، وصبا لهذا الخلد ؟ فقال
الحصري : الهيمان والله بهذا غاية الظرف ، لا سيما إذا شام كافورة خذه ذلك
المسك الفتيت ، وهجم على صبحه ذلك الليل البهيم ، والله ما خلت سواده في
بياضه إلا بياض الإيمان في سواد الكفر ، أو غيبها في ضوء الفجر . فقال للحصري :

صِفْهُ ، فقال : مَنْ مَلَكَ رِقَّ الْقَوْلِ حَتَّى انْقَادَ لَهُ صَعَابُهُ ، فَذَلَّ لَهُ جُودُهُ حَتَّى سَطَعَ
لَهُ شَهَابُهُ ، أَقْعَدُ مَنْى فِي ذَلِكَ ، فقال : صِفْهُ ، فَإِنِّي مَعْمَلٌ فِي ذَلِكَ فَكْرِي . فَأُطْرَقَ
سَاعَةٌ ، فَقَالَ الْحَصْرِيُّ :

أورد قلبي الرّدى لأم عذارٍ بدا
أسود كالكفر في أبيض مثل الهدى

فقال له الشيخ : أراك أطلعت على ضميري ، أو خضت بين جوانحي ، فقال
له الحصري : ولم ذاك ؟ قال : لأنني قلت :

حَرَكَ قَلْبِي فَطَارَ صَوْلَجٌ لَامَ الْعِذَارِ
أَسْوَدُ كَاللَّيْلِ فِي أَيْضَ مِثْلِ النَّهَارِ

فهذه غاية في بابه .

وقال السري :

بلائي الحبّ فيك بما بلّاني
أبيت الليل مرتقباً أناحي
ويشهد لي على الأرق الثريّا
ستصرف طاعتي عمّن نهاني
ولم أجهل نصيحتّه ولكن
فيا ولم العواذل خلّ عني
فشأنى أن تفيض غروبُ شاني^(١)
بصدق الوجد كاذبة الأمانِي
ويعلم ما أقامني الفرقدان^(٢)
دموع فيك تلحّي من لحاني
جنون الحب أحلّي في جناني
ويا كف الغرام خذي عناني

وهذا مما يأخذ بجوامع القلوب ، ويحتوي على النودين من المعنى المطلوب .

(١) ديوانه ٢٦٨ : من قصيدة يمدح بها أبا الهيثماء بن سعيد بن حمد الله ، ويعاتبه على جفوة
لحقته منه ، وقد نالته علة وجراحات في بعض أسفاره .

(٢) الديوان : « ويعلم — ما أجن »

وقال السَّلامى :

ما ضنَّ عنك بموجود ولا بَحَلَا أوزُّ ما عنده للنَّفْسِ التى بَدَلَا^(١)
يحكى المطايا حنيناً والهجير جَوَى والعُزْنُ دمعاً وأطلال الديار بِلى
وقال أيضاً :

مُنيت بمن إذا منيت أفضت منأى إلى بنفسج عارضيه^(٢)
وفاضت رحمة لى حين ولَّى مدامع كارتبي وكاتبه
وله فى غلام بدوى :

تعلَّته بدوى لِّلسان والوجه والرَّيَّ ثَبَّتَ الجَنَانِ^(٣)
أعانق مَنْ قدَّه صَعْدَةً ترى اللحظ منها مكان السَّنَانِ
أدار اللثام على خدِّه فأهدى الشقيق إلى الأقحوانِ
ومسك ذوائبه سائل على آس ديباجه الخسروانى
أحيَّيه بالورد والياسمين فيصبو إلى الشَّيخ والأَيُّهقانِ^(٤)

وله فى غلام غزَّيَّ رام :

قرَّ من الأتراك تحسب أنه الـخوذ الحصان على أقبِّ حصان^(٥)
يرمى بلحظَّيه القلوب وسهمه فعجبت كيف تشابه السهمان
بطل حائله كعارضه وحا جبَّه الأزعج كقوسه المرَّنانِ^(٦)
حيَّيته فدنا فأطمار راحتي قبالا فليت فى مكان بناني

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١

(٤) الأيهقان : عشب يطول وله وردة حمراء وورقه عريض (٥) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٥

(٦) القوس المرَّنان ، سميت بذلك لرنين صوتها .

والشريف الرضى :

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى
أأسأت بالمشتاق حين ملكته
وتركتنى ظمآن أرشف غلتي
قلبي وطرفى منك هذا فى حى
كم ليلة جرّعته فى طولها
تفلى أنامله البتراب تعللاً
أبكى ويبسم والدجى ما بيننا
قمرٌ إذا استعجلته (٢) بعتابه
لو حيث يُستمع السرار وقفما
أعزّز على إذا امتلأت من الكرى
ألم الهوى من قلبى المضدوع (١)
وجزيت فرط نزاعه بنزوع
أسفى على ذاك اللعى المنوع
قيظ وهذا فى رياض ربيع
مَضَض الملام وموَلم التقريع
وأنا ملئ فى سنى القُروع
حتى أضاء بغيره ودُموعى
لبس الغروب فلم يعد لطلوع
لعجبنا من عزّه وخضوعى
أنى أيت بلبلة المسوع

والوزير ابن المغربى :

دَفِنَ بمصر وبالعراق طيبه
ماناله إلا الذى هو أهله
لزم السهاد تحيرا وتلدداً
زعم الفراق دعا به فأجابه
يُضنيه طولُ بعباده ويذيبه
إذ غاب عن بلد وفيه حبيب
وتأسفاً إذ أوبقته ذنوبه
ونعم دعاه فلا أراه يحببه

وله أيضاً :

ولقد أراه فى الغدير يشقه من جانبيه
والماء مثل السيف وهو فرنده فى صفحتيه
صبغت بياض النيل حمرة وردة فى وجنتيه

(٢) الديوان : « استعجلته » .

(١) ديوانه ١ : ٤٩٧ .

ولابن الزقاق :

تَمْنَيْتُ مَنْ أَهْوَى بِهِ وَهُوَ قَاتِلِي
قَسَا فَرَمَانِي عَنْ قَسَى حَوَاجِي
أَذَلَّنَا دِمَاءَ فِي هَوَاهُ وَأَدْمَعًا
فَمَا بَرَحَ الشَّوْقُ الْمَبْرَحُ سَامِيَا
فَنَظَرُهُ وَالْتَفَرُّ مِنْهُ وَدَرْفُهُ
لشَمْسِ الضَّحَى وَالِدَّرِّ وَالْمِسْكِ نَفْحَةُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

وَمَهْفَهِ نَبْتِ الشَّقِيقِ بِخَدِّهِ
مَاءُ الشَّبِيهِ وَالْجَمَالِ أَرْقُ مِنْ
يُخَيِّ الْأَنَامِ بِلَمَحَةٍ مِنْ وَضْلِهِ
إِنْ كُنْتَ أَهْدَيْتَ الْفَوَادِلَ فَقُلْ

وقال أيضاً :

أَرْقَ نَسِيمَ الصَّبَا عَرْفُهُ
وَمَرَّ بِنَا يَتَهَادَى وَقَدْ
وَمَدَّ لِمَسْمِهِ رَاحَةً
أَشَارَ لِتَقْيِيلِهَا فِي السَّلَامِ

ولإدريس بن اليماني :

وَذِي لَعَسٍ لِلْأَفْحَوَانِ ثَنَائِهِ
وَلِلسَّوْسَنِ الرِّيَانِ صَفْحَةُ خَدِّهِ
وَاللَّوْرِدِ خَدَّاهُ وَاللَّاسِ صُدُغَاهُ^(١)
وَاللَّظْيِ عَيْنَاهُ وَالْمِسْكِ رَبْلُهُ

(٢) ديوانه ٢٩٢

(٤) اللس : سواد مستحسن في الشفة .

(١) ديوانه ٢٨٣

(٣) ديوانه ٢٠٢

فريد جمالٍ تمّ لي توأم الهوى به ولـكلّ العاشقين فرداهُ
ولبعض أصحابنا :

كُفّ عني اللامَ يا مَنْ يلوّمُ إنّ لوم الشجى في الحبّ لوّمُ
جلّ همى بأن أهيم حياتي صغرت همّة امرئ لا يهيمُ
أبدا أطلبُ الغرام مجسداً فكأنّى إلى الغرام غريمُ
إنّ ربّما رمت برامة قلبي مُقلّتاهُ حبّى له لا يريمُ
صحّ حبّى واعتلّ جسمى فحسبى أنّ كلّى إلى هواهُ سقيمُ

وكلّ ما تضمنت هذه الجملة مع قطعة الحريرى من التذلل والخضوع إلى
الحبيب، فهو حكم الباب، والجمع عليه عند ذوى الألباب، إلا قوله : « وغيرى
يحتنى رشف ثفره » ، فإن أكثر أهل هذا الشأن يابون أن يكون الحبيب بين
عاشقين، وينسبون محبة إلى حساسة الهمة، ويعتدون بها على الحبيب من أكبر التهمة،
قال امرؤ القيس :

إنى بحبّلك واصلّ حبّلى وبريش نبّلك رائش نبّلى^(١)
مالم أجذك على هدى أثرٍ يقرّو مقصّك قائف قبلى^(٢)

يقول : أنا أديم من مواصلك مالم أجِدْ غيرى يتبعك طمعاً فى مواصلك .
وقال أبو ذؤيب :

تريدن كما تجمعينى وخالداً وهل يُجمع السيفان ويحك فى غدٍ^(٣)
فهذا قد أبى الشراكة على التساوى ، فكيف الإقامة على الجور الذى .

(١) ديوانه ٢٣٩

(٢) يقرّو: يتبع ، والقائف : الذى يقفو الأثر . (٣) ديوان الهذليين ١ : ٢٥٩

ذكر الحريري . وقد قدّمنا في العاشرة للمولدين فنّا غير هذا ، على أن المحبوب إذا كان حسن الخلق حسن القبول زاد في أبهة جماله ، كما أن الجفاء في المحبوب والخلق الذمّيم يطمس نور حسنه وينقص من كاله ، وأنشدوا :

أيا حسناً أشرت قبائحُ فعله عليه كما أزرى الكسوفُ على البدرِ

وقال عبد الصمد المصري :

فلو زُيّن الحسنُ من وجهه بهجر الصدود ووصل الوصالِ
لَمْ وَلَـكُنَّ ما إن أرى جميل الحيا جميل الفعالي

وقال آخر :

صَحّا عن حُبِّك القلبُ المشوقُ فما يصبو إليك ولا يتوقُ
جفاؤك كان عنك لنا عزاء وقد يُسلي عن الولد العقوقُ
فهذه جملة كافة .

[أنواع البلاغة في صناعة الشعر]

ونرجع إلى ذكر أنواع البلاغة في صناعة الشعر التي سمّاها المحدثون صنعة البديع ، والشعراء يتفاضلون في سياقها والاقتدار عليها ، وهي في أشعار العرب موجودة ، وفي الشعر المولّد أكثر . وأنا آتى منها بما للناظر فيه كفاية بعون الله سبحانه وتعالى ، ونبدأ منها بالتجنيس الذي أولع به الحاكم في المقامة .

التجنيس

هو اتفاق اللفظ أو أكثره واختلاف الحكم ، قال أبو بكر حازم بن حازم :
التجنيس أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام ، وهو من أضيّق أنواع البديع ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾ ^(١) ، ﴿ وأقم وجهك للدين القيم ﴾ ^(٢) .

(١) الروم ٤٣

(٢) سورة النحل ٤٤

وفي الحديث «عُصِيَّةُ عصت الله ورسوله، وغِفَارُ غفر الله لها، وأَسْلَمَ سلمها الله، والظلم ظلمات يوم القيامة» .

وقال خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار : هشمك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب إذا أقبلت ، وتغلقها إذا أدبرت .

والتجنيس أنواع ، فنه تجنيس اللفظ وهو ما تقدم ، ومنه تجنيس الخط وهو ما يصح تصحيفه ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(١) .

وفي حديث سعد بن أبي وقاص : لما أسلمت راغمتني أمي ، فهي مرة تلقاني بالبشر ، ومرة تلقاني بالبُسر .

البحترى : من سعادة جدك ، وقوفك عند حدك .

وفي رسالة : عاد إلى المساحة والحاسنة ، بعد المشاخرة والحاشنة . وقال البحتري :

ولم يكن المغتر بالله إذ مرى ليعجز والمعتز بالله طالبه ^(٢)

وقال البحتري أيضا :

وحالاً كريش النسر مهما رأيت جناحاً لشهم عاد ريشاً على سهم ^(٣)

ومنه تجنيس السمع كقوله تعالى ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(٤)

ومن رسالة : لم يكن لأمره مضيقاً ، ولا لسره مديعاً .

الbstى : من لم يكن لك نسبياً ، فلا ترج منه نصيباً . ومن لم يكن لك صدره

بالحاجات فسيحاً ، فلا تسمع له بها لساناً فصيحاً . وقال :

أبوك كريم غير أنك سابق مداه فلا ضيم عليك ولا ذم ^(٥)

(١) سورة الكهف ١٠٤ (٢) ديوانه ٢١٥

(٣) ديوانه ٢٦٥٩ ، نقلاً عن الشريشي (٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) ديوانه ٢٨٧

فلا يعجبنّ الناس مما أقوله وأقضى به فالغيث يقدمه الغيم
وقال المعري رحمه الله تعالى :

أعوذُ بالله من قومٍ إذا سمعوا خيراً أسرّوه أو شراً أذاعوه ^(١)

وخالد بن سنان ليس ينقصه من قدره الكون في حيّ أضعوه

ومنه تجنيس المضارعة ، فمنه من رسالة : أنا به بين احتفاء واحتفال ، وبين
ذكر مطرٍ مطرب . وثناء مغرٍ مغرب .

وقال أبو تمام :

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تطول بأسيافٍ قواضٍ قواضبٍ ^(٢)

وقال المعري : من اتقى الله فهو السالم الساري .

وقال ابن عمار :

إذا ركبوا فانظروه أول طاعنٍ وإن نزلوا فانظروه آخر طاعمٍ

وباب التجنيس فاق الناس فيه حبيب ، والناس له تبع ، كما انفرد بحسن
القطع في آخر قصائده ، فلا يكاد الشاعر الماهر يزيد بيتاً في آخر قصائده في الغالب .
كما انفرد الحسن بحسن الابتداء فله ابتداءات لا يحارى فيها ، كما انفرد ابن المعتز
بجودة التشبيه يكاد على كثرته في شعره ألا يسقط له تشبيه واحد ، كما انفرد
المتنبي بلطف التخلص من التفرّز إلى المدح . ومن تجنيس حبيب قوله :

عداك حرّ الثغور المستضامة عن برد الثغور ومن سلسالها الحصب ^(٣)

السلسال العذب والحصب : الجارى على الحصباء ؛ شبه الريق به ، ففي هذا

(١) لزوم ما لا يلزم ٢ : ٣٩٨ ، ٣٩٩ (٢) ديوانه ٤٢ (٣) ديوانه ١٠

البيت من صنع البديع التجنيس والطباق والتتيم والترديد والتبليغ، وتأتى هذه الأنواع فى هذا الفصل ، وحبيب أكثر الناس استعمالا لصنع البديع، ومن شعره يُتعلَّم . وقال أيضا :

كم نيل تحت سناها من سنا قرٍ وتحت عارضها من عارض شنب^(١)
وقال أيضا :

يامن تدمى عينه! تلك الدمى فيه ويقمر لي——لة الإقمار
أخذه البحرى فقال :

جافى المضاجع لا ينفك فى لجبٍ يكاد يُقمرُ من لألائه القمر^(٢)
وأشد أبو على الفارسى فى نوادره لأبى الغول الطهوى يصف سحابا :^(٣)
وقرى كلّ قرية كان يقرو ها قرى لا يحفّ منه القرى

وفى المقامات من التجنيس كثير، وفى هذا الشرح منه ما يُستظرف ويستبدع،
فمما يستحسن منه قول السرى يمدح سيف الدولة :

أغرّتك الشّهاب أم النهارُ وراحتك السحاب أم البحار^(٤)
خلقت منية ومنى فأضحت تمور بك البسيطة أو تمارُ
تحلّى الدين أو تحمى حماه فنت عليه سور أو سوارُ
سيوفك من شكاة الثغر برء ولكن للعدى فيها بوارُ
وكفأك الغمام الجود يسرى وفى أحشائه ماء ونارُ

(٢) ديوانه ٩٥٨

(١) ديوانه ١١

(٣) مع آخر فى الصناعتين ٣٣٥ (الأولى — حلى) منسوبان لأبى غمر (٤) ديوانه ١٠٥

فِيمَنِي مِنْ سَجِيَّتِهَا الْمَنَايَا وَيُسْمِرِي مَنْ عَطِيتَهَا الْيَسَارَ
 وَمَنْ الشَّعْرَ الَّذِي جُمِعَ إِلَى التَّجْنِيسِ حَسَنَ التَّقْسِيمِ وَالطَّبَاقِ جَوَابَ الصَّابِي
 أَبَا أَحْمَدَ الشَّيرَازِي ، مَنْ شَعْرٍ يَشْتَكِي لَهُ نَقْرَسًا أَصَابَهُ وَأَوَّلَهُ :
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو ضَعْفِي شَفِّئْ وَكَمْ قَبْلَهُ مِنْ ضَعْفِي قَدْ شَفَانِي
 فَاجَابَهُ الصَّابِي :

عَنَانِي مِنْ الِهِمِّ مَا قَدْ عَنَانِي فَأَعْطَيْتُ صَرَفَ اللَّيَالِي عِنَانِي^(١)
 أَلِفْتُ الدَّمُوعَ وَعَفْتُ الْهَجُوعَ فَعَيْنَايَ عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ
 لَسَقَمَ الْحُحْ عَلَى سَيِّدِي بِهِ قَدْ غَفَرْتُ ذُنُوبَ الزَّمَانِ
 وَكَيْفَ سَطَا بِهِمَا وَاسْتَطَا لَ وَأَرْضُ بَسَاطَتِهِمَا التَّيْرَانِ
 وَهَلَّا تَجَاوَزَهُ قَاصِدًا إِلَى عَصْبَةِ عُصْبَتِ بِالْهَوَانِ
 إِذَا مَاسَعَى لَطْلَابُ الْعِلَا فَكَلَّ أَوَانِ هَمْ فِي تَوَانِ
 أَتَنَّى بِالْأَمْسِ أَيْيَاتِهِ تَعَلَّ رُوحِي بِرُوحِ الْجَنَانِ
 كَبُرْدُ الشَّبَابِ وَبَرْدُ الشَّرَا بَ وَطَلَّ الْأَمَانُ وَكَيْلُ الْأَمَانِ
 وَعَهْدُ الصَّبَا وَنَسِيمُ الصَّبَا وَصَفَوْ الزَّمَانَ وَرَجَعَ الْقِيَانِ
 أَجَبْتُ عَنِ الشَّعْرِ مُسْتَرْسَلًا بِطَبْعِ شَجَاعِ وَقَلْبِ جَبَانِ
 وَلَوْلَا سَكُونِي إِلَى فَضْلِهِ قَبَضْتُ بِنَانِي بِقَبْضِ اللِّسَانِ

وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيُّ :

إِنَّ أَسْيَافَنَا الْعَضَابَ الدَّوَامِي صَيَّرَتْ مَلَكَنَا قَرِينَ الدَّوَامِ^(٢)
 بِاقْتِسَامِ الْأَمْوَالِ مِنْ وَقْتِ سَامٍ وَاقْتِحَامِ الْأَمْوَالِ مِنْ وَقْتِ حَامٍ

(١) الْيَتِيمَةُ ٢ : ٣٠٣ ، وَنَسَمَهَا إِلَى الصَّاحِبِ

(٢) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ٤ : ١٣٨ مَفْسُوبَةٌ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ الْمُؤَمَّلِ .

التشبيه

وقد أوردنا في هذا الكتاب منه كل غريب . والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به لونا ، ومنها تشبيهه به صوتا ، ومنها تشبيهه به حركة ومرعة ، فالأول كقوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(١)
أَجْمَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالشَّعْرِ كَأَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَالْأَصْمَعَى ، أَنْ أَحْسَنَ التَّشْبِيهِ
مَائِقًا بِلِ بَهْ تَشْبِيهِانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْ أَحَدًا لَمْ يَقْتُلْ ذَلِكَ كَمِيَّتِ امْرِئِ الْقَيْسِ ،
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ . وَقَالَ بَشَّارٌ : مَا زِلْتُ مَذْ سَمِعْتُ قَوْلَهُ : كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ أَرَادَ
نَفْسِي أَنْ أَشْبِهَ شَيْئَيْنِ شَيْئَيْنِ وَلَا أُسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ قُلْتُ :
كَأَنَّ مَثَارَ النَّفْعِ فَوْقَ رِءُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلِ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ^(٢)
وَيَا بَعْدَ مَا بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ عَلَى أَنْ بَيْتَ بَشَّارٍ غَرِيبٌ ، وَلَا أَحْفَظُ لِلْبَيْتَيْنِ ثَالِثًا ،
إِلَّا أَنْ بَشَّارًا قَدْ قَالَ أَيْضًا :

مَنْ كُلِّ مَشْتَهَرٍ فِي كَفِّ مَشْتَهَرٍ كَأَنَّ غَرَّتَهُ وَالسَّيْفُ نَجْمَانِ
وَأَمَّا تَشْبِيهِ الْمَعْنَى فَكَتَشْبِيهِ الشَّجَاعِ بِالْأَسَدِ وَالْجَمِيلِ بِالْقَمَرِ ، وَكَقَوْلِهِ :
وَكَالسَّيْفِ إِنْ لَا يَنْتَهَ لَانِ مَتْنَهُ وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَنَتَهُ خَشِنَانِ^(٣)
وَاللُّونُ كَقَوْلِ ابْنِ هَرَمَةَ :
وَلَيْلٍ كَسَرِ بَالِ الْغَرَابِ ادَّرَعْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا أَخَتَّ الْيَمَانِيَّ أَجْدَلِ^(٤)

(١) ديوانه ٣٨

(٢) ديوانه (المختار) ١

(٣) العكبري ٣ : ٢٠١ ونسبه لأبي الشيمس .

(٤) كذا في ديوانه ١٦٦ ، وفي الأصول : « كَمَا أَخَتَّ الْيَمَانِيَّ » .

والصوت كقول النابغة :

* له صَرِيف صَرِيف القعو بالمسَدِ *^(١)

والحركة والسرعة ، كقول امرئ القيس :

* كَجُلُودِ صَخَرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ *^(٢)

وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشيء المشبه معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قوى التشبيه ، وتأكد الصدق فيه ، وأصدق التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مشبهًا به صورة ومعنى ، كقول امرئ القيس :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنَّجُومُ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقَالٍ^(٣)

فتشبيه النجوم بالمصابيح لفرط ضيائها صحيح ، وتشبيه المصابيح بالنجوم صحيح ، وربما أشبه الشيء صورة ، وخالفه معنى . وقد تقدّم ذكر ذلك في الثانية ، وربما قاربه وداناه وشابهه مجازاً لاحقيقة .

وأدوات التشبيه كأن والكاف ومثل ، وتسقط الكاف مع المصدر فيشبه بالمصدر ، وقد يشبه بقولهم : تخاله وتحسبه ، فما كان منه صادقاً قيل فيه « كأنه » أو كذا ، وما قارب الصدق قيل فيه : تراه أو تخاله ؛ فإذا حققت

(١) ديوانه ١٨ ، صدره :

* ومَقْدُوفَةٌ بِدَخِيسٍ النَّحْضُ بِأَزْهَالِهَا *

المَقْدُوفَةُ : المرمية . والدَخِيسُ : اللحم . والنَحْضُ : اللحم المَكْتَنَزُ ، والبَازِلُ : السن من الأبل . والصَرِيفُ : الصباح من النشاط والقعو : ما يضم البكرة . والمسد : الحبل .

(٢) ديوانه ١٩ ، صدره :

* مِكَتَرٍ مِقْتَرٍ مُقْبِلٍ مُذْبِرٍ مَعَا *

(٣) ديوانه ٣١ .

(٩ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

هذا الفصل انكشفت لك أسرار التشبيه ، وقد تقدّم نوع من التشبيه في الثانية ، وسيأتى في الأربعين تشبيهات الغريب العقم في حكاية الأصمعى .

الاستعارة

هى من العارية لأنّ الشاعر يُعير المعنى ألفاظاً غير لفظه الموضوع له ، وهى على ثلاثة أوجه : أحدهما يستعيره الشاعر من الألفاظ على سبيل التمثيل وتتميم المعانى ، وهذا الضرب يعدّ في البديع ومحاسن الشعر ، وهو كثير فى كلامهم ، وعليه انبنى كتاب المقامات ، فقولما يوجد بيت يخلو منه ، وما جاء منه فى القرآن سماه بعضهم مجازاً وأباه بعضهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذلّ من الرّحمة ﴾ ^(١) ، ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ^(٢) وقال النّبى صلى الله عليه وسلم : « دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء » .

وقال امرؤ القيس :

* وليلٍ كمّوج البحر أرخى سُدُولَه * ^(٣)

وقال علقمة وهو بديع :

* والصبح بالكوكب الدرّى منحور ^(٤) *

وقال زهير فى الحرب :

* ضروس تُهرّ الناس أنباها عُضْل ^(٥) *

(٢) سورة مريم

(١) سورة الاسراء آية ٢٤

(٣) ديوانه ١٨ وعجزه :

* على بأنواع الهموم لِيَبْتَلِي

(٤) ديوانه ١٣٧ ، وصدره :

أوودتها وصدور العيس مُسْنَفَة

(٥) ديوانه ١٠٣ وصدره :

إذا لَحِثَتْ حربٌ عُوان مُضِرَّةٌ

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالةً فجدك حولى ولومك قارح^(١)

وقال الحسن :

فى مجاسٍ ضحك الشرور به عن ناجذيه وحلّت الخمرُ

وقال العباس بن الأحنف :

قد سحبَ الناس أذيالَ الحديث بنا وفترقَ الناس فينا قولهم فرقا^(٢)
فكاذب قد رمى بالظنّ غيركم وصادق ليس يذرى أنه صدقا

الثانى: أن ينتحل الشاعر قولاً لغيره فيدخله في شعره ، وهذا هو الاجتلاب الذى نفاه جرير عن نفسه بقوله :

ألم تعلم مسرّحى القوافى فلا عيّاً بهنّ ولا اجتلابا^(٣)
الثالث : أنه يستعير الشاعر ألفاظاً كان غنياً عنها ، والمعنى غير مفتقر إليها ، ويسمى الحشو والاستعانة ، ويحسن بقدر ما يتحمل من القوائد ويقبح إذا فرغ منها .

الإشارة

قال قدامة : الإشارة هى اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة باللمحة الدالة ، ولم يأت أحد منها بمثل قول زهير :

(١) الصناعتين ٢٩٣ . والحولى : ما أتى عليه الحول . والقارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من البعير ، ولا يزل إلا إذا طعن فى التاسعة .

(٢) ديوانه ١٩٩

(٣) ديوانه ٦٢

وإني لو لقيتك فاجتمة منا لكان لكل منكرة كفاء^(١)

وقال امرؤ القيس :

على هينكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جرّمي غير كزّ ولا وان^(٢)

فتأمل ما شتمت عليه لفظة « أفانين » مما لوعدّ كان كثيراً ، وما اقترن به من جميع أصناف الجودة طوعاً من غير طلب ولا مسألة ، ثم نفى عنه الكزازة والوني ، وهما أكبر عيوب الخليل .

والإشارة من غرائب الشعر ومُلحه ولا يأتي بها إلا شاعر مبرز ، وتسمى اللحمة الدالة ، وأصلها الاختصار ، وهي أنواع ، فمنها الوحي ، كقول جاهلي في يزيد ابن الصّعق :

تركت الركاب لأربابها وألزمت نفسي على ابن الصّوق^(٣)

جعلت يدي وشاحاً له وبعض الفوارس لا تُعتنق

فقوله : « جعلت يدي وشاحاً له » إشارة بديعية دالة على الاعتناق بغير لفظة .

الإيماء

ومنها الإيماء ، فمن ملحه قول قيس بن ذريح :

أقول إذا نفسي من الوجد أضعدت لها زفرةً تعادني هي ما هيأ^(٤)

وقول كثير :

تجافيت عني حين لالي حيلةً وغادرت ما غادرت بين الجوانح^(٥)

فقوله : « غادرت ما غادرت » إيماء مليح .

(٢) ديوانه ٩١

(١) ديوانه ٨١

(٣) الصناعتين ٣٦٧ من غير نسبة (٤) ديوانه ١٦٠

(٥) ديوانه ٥٢٥ .

التلويح

ومنها : التلويح ، ومن أجوده قول النابغة في طول الليل :
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجومَ بآيبٍ^(١)
فالذي يرعى النجوم هنا الصبح ، أقامه مقام الراعى ، يندو فتذهب الإبل
والماشية ، فتلويحه هذا عجب في الجودة ، ومنه قول الجنون :
لقد كنت أعلو حُبَّ ليلي فلم يزل بيَ النقض والإبرامُ حتى علانياً^(٢)
فلوَّح بالصحة والسكمان ، ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجبياً .

التعريض

ومنها التعريض ، كقول عمرو بن معد يكرب :
فلو أن قومي أنطقَتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(٣)
أى لو أن قومي صدقوا في القتال وطمنوا برماحهم أعداءهم لنطقتُ بمدحهم ،
ولكنهم صرفوها عن أعدائهم منهزمين ، فكانها أجرت لسانى ، أى شقته كما
يُجرُّ لسان الفصيل ، فكانها أسكتتني . فهذا تعريض بنوب عن التصريح ، وأخذ
أبو بكر بن دريد فقال :

يا بني مالك عقلتُ لسانى كيف يجرى المقيّد المعقول^(٤)
إن سلكتم إلى الأفعال سبيلاً وضعت لى إلى المقال سبيلاً

(١) ديوانه ٢

(٢) ديوانه ٢٩٤

(٣) الأصمعيات ١٢٢

(٤) ديوانه ١٠٢

ومن التعريض قوله :

بنى عمنا لاتذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء النمرير القوافيا^(١)

ومنه قول حميد بن ثور ، وقد تقدّم :

أرّبى بصرى قد خاننى بعد صحتة وحسبك داء أن تصح ونسأما^(٢)

التفخيم

ومنها: التفخيم ، كقول الغنوى :

أخى ما أخى لا فاحشٍ عند بيته ولا ورعٍ عند اللقاء هيوب^(٣)

ونحو هذا حكاية الأعرابي فى نوادر أبى على حين سئل : أله بنون ؟ فقال :

نعم ، وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجبة ؛ فلما ذكر أسماءهم قال : جهم وما جهم ، غشمشم وما غشمشم ، عشب وما عشب^(٤) .

ومن هذا التفخيم ما يجرى على انتهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : ﴿ الحاقة

ما الحاقة ﴾ و ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ وهو كثير فى كلام العرب .

ومما جاء فى الإشارة على معنى التشبيه قول الأعرابي يصف لبناً ممذوقاً :

* جاؤا بمذقٍ هل رأيت الذنب قط^(٥) *

فأشار إلى تشبيه لونه إذا غلب عليه المذق بلون الذنب كما صرح به الآخر

حين قال :

فيشربه مذقاً ويسقى عياله سحاباً كأقرب الثعالب أوزقاً^(٦)

(١) من أبيات فى البيان والتبيين ٢ : ١٨٦ ، ونسبها لسويد المرائد الحارثى ٢٠ : (٢) ديوانه ٧

(٣) هو كعب بن سعد الغنوى من قصيدة له فى الأصبعيات ٩٥ والورع : الجبان

(٤) العشب : الأسد الشديد

(٥) الخزانة ١ : ١٧٦ ، وقبله

* حتى إذا كاد الظلام يختلط *

(٦) اللسان — مذق من غير نسبة . والمذق : اللبن المخلوط بالماء .

المطابقة

أبو الفرج علي بن الحسين ، قلت لأبي الحسن علي بن سليمان الأخفش -
وكان أعلم مَنْ شاهدته بالشعر: طائفة وهم الأكثرون تزعم أن الطباق ذكر
الشيء وضده ، فيجمعهما اللفظ لا المعنى ، وطائفة تقول : هو اشتراك المعنيين
في لفظ واحد ، مثل قول زياد الأعجم :

وَنُبِّئْتَهُمْ بِسَنَنْصِرُونَ بِكَاهِلٍ وَلَاؤُمُ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنَامٌ^(١)

فكاهل قبيلة وكاهل للعضو ، فقال : من ذا الذي يقول هذا ؟ قلت :
قدامة وغيره ، فقال : هذا يا بني هو التجنيس ، ومن ادعى أنه طباق فقد ادعى
خلاقاً على الخليل والأصمعي ، قلت : أفكنا يعرفان هذا ! فقال : سبحان الله ،
وهل غيرهما في علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه ! قلت : فأنشدني أحسن طباق
للعرب ، فقال : قول عبد الله الزبير الأسدي :

فَرَدَّ شَعُورَهُنَّ السَّوَدَ بِيضًا وَرَدَّ وَجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سَوْدًا^(٢)
وقال أبو الفرج : وأنا أقول أن أحسن بيت قيل فيه :

للسود في السود آثار تركنَ بها . لمعا من البيض يثنى أعين البيض
يعنى أن الليالي بمرورهن تبيض سواد الشعر .

قال أبو حاتم : سألت الأصمعي عن صنعة الشعر ، فذكر في بعض قوله
المطابقة ، وقال : أصلها وَضَعَ الرجل في موضع اليد ، قلت : أنشدني أحسن ما قالت
العرب في ذلك فقال : قول زهير :

كَيْثَ بَعَثَ يَصْطَادُ الرِّجَالُ إِذَا مَا كَذَبَ الْيَثَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا^(٣)

(٢) الصنائع ٣٢١

(١) الصنائع ٣١٦

(٤) ديوانه ٥٤

وقيل : المطابقة أن يأتي الشاعر بلفظتين مختلفتين في المعنى واللفظ في بيت واحد أو في كلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾^(١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار : « إِنْكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » .

وقال عليّ رضي الله عنه : من رضى عن نفسه كثر مَنْ يَتَسَخَّطُ عَلَيْهِ .
وقال : أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه .
وقال الحسن : كَثْرَةُ النَّظَرِ إِلَى الْبَاطِلِ تَذْهَبُ بِمَعْرُوفِ الْحَقِّ .

وقال الفرزدق :

لَنْ إِلَهَ بِنَى كَلِيبٍ إِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ لَجَارٍ^(٢)
يَسْتَقِظُونَ إِلَى نَهْيِ حَمِيرٍ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ
وقال حبيب :

يَرَى الْعَالَمُ الْمَادُومَ بِالزَّأْرِ أَرِيَّةً يَمَانِيَّةً وَالْأَرِيَّ بِالضَّيْمِ عُلْمًا^(٣)

التقسيم

ومنها التقسيم . قال أبو الحسن عليّ بن هارون بن علي بن حماد بن إسحاق الموصلي : هو أن يستقصى الشاعر تفصيل ما ابتدأ به فيستوفيّه ، فلا يغادر قسماً يقتضيه إلا أوردّه ، وإلى هذا كان يذهب أهلنا ، وأحسن ما قيل في ذلك قول زهير :
يَطْعَمُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَمُوا ضَارِبٌ حَتَّى إِذَا مَاضَ رُبَا اعْتَفَقًا^(٤)
وقول عنتزة :

(٢) الصناعتين ٣٢٢ ، نهاية الأرب ٧ : ١٠١

(٤) ديوانه ٥٤

(١) سورة البقرة ١٧٦ .

(٣) ديوانه ٢٩٤

إن يلحقوا كُرُزْ وإن يستاحموا أشدد وإن يُرَمَوْا بضنك أنزل^(١)
أبو العيناء : أجمع علماء الشعر أن أحسن تقسيم أتى به متقدم قول عمر
ابن أبي ربيعة :

سَهْمٌ إِلَى نَعْمٍ فَلَا الشَّمْلَ جَامِعٌ وَلَا الْحَبْلُ مُوَصُولٌ وَلَا أَنْتَ نَصِيرٌ^(٢)
وَلَا قَرَبَ نَعِيمٍ إِنْ دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ وَلَا بَعْدَهَا يُسْلِي وَلَا أَنْتَ مُقْصِرٌ
المبرد : لم أسمع أحسن من تقسيم لقيس بن ذريح ، وهو :
وقد كان فيها للأمانة موضعٌ وللكف مرتاد وللعين منظرٌ^(٣)

وقد تقدم في شرح الثانية بيت المتنبي في التقسيم وهو : بدت قرا ... البيت .
ونسج على منواله الزاهر فقال :

سَقَرْنَ بُدُورًا وَانْتَقَبْنَ أَهْلَةً وَمِسْنَ غُصُونًا وَالتَفَتْنَ جَاذِرًا
وَأَطْلَعْنَ فِي الْأَجْيَادِ بِالْدَرِّ أَنْجَمًا جَعَلْنَ لِحَبَابِ الْقُلُوبِ ضُرَاثِرًا

وقال الناشئ :

رَأَيْتَ عَلَى أَكْوَارِنَا كُلِّ مَاجِدٍ يَرَى كُلَّ مَا يَفِي مِنَ الْمَالِ مَفْنَمًا
نَدُومَ أَسِيَافًا وَنَمْلُو قَوَاضِيَا وَنَنْقُضُ عِقْبَانًا وَنَطْلُعُ أَنْجَمًا
وقال السَّلامِيُّ :

مَاضِنٌ عَنْكَ بِمَوْجُودٍ وَلَا بَخِلًا أَعَزُّ مَا عِنْدَهُ النَّفْسُ الَّتِي هَذَا^(٤)
يَحْكِي الْمَطَايَا حَنِينًا وَالْهَجِيرَ جَوَى وَلِزْنِ دِمَا وَأُطْلَالِ الدِّيَارِ بَلَى
والتقسيم في الشعر كثير .

(١) ديوانه ٦٥

(٢) ديوانه ٩٢

(٣) ديوانه ٨٧ ، وفيه : « وللقب »

(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

التسليم

قال عليّ بن هارون : هذا لقب نحن اخترعناه ، وصفة الشعر المستهم أن يسبق المستمع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها راويه ، حتى لو سَمِعَ الشطر الأوّل استخرج الآخر قبل أن يسمعه ، وأحسن ما قيل في ذلك قول جندب أخت عمرو ذي الكلب ترى أخاها :

فأقسمتُ يا عمرو لو نَبَّهاك إِذَا نَبَّها مِنْكَ دَاءٌ غُضَّالاً^(١)
 إِذَا نَبَّها لَيْثٌ عَرِيْسَةٌ مُفَيْتَا مُفَيْدَا نفوساً ومالاً
 وخَرْقٍ تجاوزتْ مَجْهولَةً بوجناء حَرْفٍ تشكَّى الكَلالاً
 فكنتَ النهار به شَمْسَهُمْ وكنتَ دجى اللَّيل فيه الهلالا
 قال الخاتمي : فانظر إلى ديباجة هذا الكلام ، ما أصفها ، وإلى تقسيماته مأوفاها ، وانظر إلى قوله : مفيتا مفيداً ، ووصفها إياه بالشمس بالنهار والهلال بالليل ، تجد المطيع الممتنع القريب البعيد .

التسليم

هو أن يذكر الشاعر معنى فلا يترك شيئاً يتم ويتكامل الإحسان معه فيه إلا أتى به ، وأحسن ما قيل في ذلك قول طرفه :
 فسَقَى دِيارَكَ غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الرِّبيعِ ودِيمةٌ نَهْيى^(٢)
 فقد تم الإحسان في المعنى الذي ذهب إليه بقوله : «غير مفسدها» ، ويتلوه قول خليفة بن نافع العنزي :

(١) الصناعتين ١٤٢ ، العمدة ٢ : ٢٦ ، نهاية الأرب ٧ : ١٤٢ ، أمالي المرتضى ٢ : ٢٤٣
 (٢) ديوانه ١٤٦

رجال إذا لم يقبل الحق منهم يعطوه عادوا بالشيوف القواطع
فالمنعنى تم بقوله « يعطوه » ، ولولاه كان ناقصاً .

وقال حبيب :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ الْفَوَاةَ وَبَاطِلَ أُنَى تَجَسُّمٍ فِي رُوحِ السَّيِّدِ ^(١)
قَمَّ الْإِحْسَانَ فِي الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ « وَبَاطِلَ » ، وَالسَّيِّدَ الْحَمِيرَى لَهُ فِي الشَّيْعَةِ
مَذْهَبَ رَدَى ، وَالْفَوَاةَ هُنَا الْقَائِلُونَ بِالتَّنَاسُخِ . يَقُولُ : لِإِفْرَاطِ حُبِّهِمْ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ ،
تَوَقَّعَ الْفَوَاةَ أَنْ رُوحَ السَّيِّدِ تَجَسُّمُ فِي ، وَتَوْثُّمُهُمْ بَاطِلٌ .

الترديد

هو تعليق الشاعر لفظة في البيت بمعنى ، ثم يرددها فيه بعينها ويعلمتها بمعنى
آخر ، وأكثر ما يستعمله المحدثون ، وأجمعوا أن أبا حنيفة النميري سبق
إلى الإحسان جميع من تقدّمه وتأخّر عنه في قوله :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لِبَسَنِ الْبَلَى تَمَّا لِبَسَنِ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا انْقَضَى لِلْمَرْءِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمِلُ التَّقَاضِيَا

ابتدأ بالمصرع الأول فأحسن الابتداء ، وردّد في المصراع الثاني فأحسن
في التردد ، ثم ابتدئ في البيت الثاني ما ليس لأحد مثله .

أبو تمام : لا أعلم أحدا أحسن صنعة في التردد من زهير في قوله :

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خَلْقًا ^(٢)

الختامي : وأحسن الخليع الباهلي في التردد بقوله :

لَقَدْ مَلَأْتُ عَيْنِي بِمَحْسَنِ مُحَاسِنٍ مَلَأَنَ فُؤَادِي لَوْعَةً وَهُمُومًا

(١) ديوانه ١١٤ .

(٢) ديوانه ٥٣ .

التجريد

وهو أن يجرد الشاعر موصوفه من صفته ، ويسند لها لأجنبي في الظاهر ، وهو يريد الأول في المعنى ، مثل قول الأعشى :

ياخيرَ مَنْ يركب المطىّ ولا يشرب كأساً بكفٍّ مِنْ بَحِلٍّ^(١)
فظاهره أنه لا يشرب كأساً بكفٍّ رجل ينسب إلى البخل وإنما يشربها بكف
كريم ، وذلك الكريم هو المدوح في المعنى ، فجرده في الظاهر ، وهو يريد
بكفٍّ بخيل من نفسه . وأبو عليّ الفارسي اختار لهذه الصنعة اسم التجريد ، ومنه
قول طرفة :

جازتَ البیدَ إلى أرحُلنا آخرَ الليلِ ببيعفورٍ حَذِرٍ^(٢)
يعنى ببيعفور حذر ، من نفسها . وقال الأخطل :

رَبِيعٌ حَيًّا ما يستقلّ بحمله سثوم ولا مُسْتَنْكَشِ البحرِ ناضِبُهُ^(٣)
أى ما يستقل بحمله سثوم من نفسه ، أى ليس بملول ، وقال النابغة .

لم يَحْرُمُوا حسنَ الغداءِ وأَمَهُمْ طَفَحَتْ عَلَيْكَ بَنَاتِي مَذْكَارٍ^(٤)
ومما يتعلق بنوع من التجريد قول امرئ القيس : « على لاحب لا يهتدى
بمناره » . فظاهره أن المنار الذي يهتدى به إلى الطريق لا يهتدى به . وهو في المعنى
قد جرد الطريق من المنار ، وإنما أراد : ليس به منار أصلاً ، فليس ثمّ اهتداء ، فنفي
المسبب الذي هو الاهتداء ، وأثبت السبب الذي هو المنار في اللفظ ، واتكل على
قوة دلالة المعنى ، وأن مراده نفي سبب الهداية الذي هو المنار فتفتى الهداية ، ومثله
قول النابغة :

يَحْفَهُ جَانِبَا نَيْقٍ وَيُتْبَعُهُ مِثْلَ الزَّجَاجَةِ لَمْ تَكْهَلْ مِنَ الرَّمْدِ^(٥)

(٢) ديوانه ١٨

(١) ديوانه ٢٢٥

(٣) ديوانه ٢١٩ . مستنكش البحر ، أى لا ينزع ولا يستفرغ ماؤه .

(٥) ديوانه ٣٤

(٤) ديوانه ٣٧

أى ليس بهارمد فنتحتاج إلى كحل .

وقال الراجز :

* ولم يقلب أرضها البيطارُ *

وقال الله عز وجل ﴿ ولم يكن له ولي من الدل ﴾^(١) وهو كثير في الكلام .

التبيع

وهو أن يريد الشاعر معنى فلا يأتي باللفظ الدال عليه ، بل بلفظ تابع له ، فإذا قال التابع أبان عن المتبوع ، وأبدع ما في ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :
بَعِيدَة مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِلنَّوْفِلِ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ
ذهب إلى طول العنق ، فلم يذكره بلفظ خاص به أتى بمعنى دلّ به على طوله ،
وهو قوله : « بعيدة مهوى القرط » . ومثله قول الآخر :

نَعَلَقَ فِي مِثْلِ السَّوَارَى سَيُوفُنَا وَمَا يَنْهَاهَا وَالْكَفَّ مَهْوَى نَفَائِفِ
فأراد نعلق سيوفنا في أعناق مثل السوارى في الطول والاعتدال ، وما بين
العنق والكف طول كثير ، فكنى عن طول القامة بغير لفظه الخاص به ، وأبدع
ما في التبيع قول امرئ القيس :

* تَوَمَّ الضَّحَى لَمْ تَنْتَهَقْ عَنْ تَفَضُّلِ *

فدلّ على ترفها ، وأن لها مَنْ يكفيها المؤنة باللفظ التابع لذلك .

التبليغ

وسماه قوم الإيغال ، وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما قبل
انتهائه إلى القافية ، ثم يبلغ القافية بزيادة مفيدة تزيد معنى البيت براعة .

(١) سورة الإسراء ١١١ .

قيل للأصمعي رحمه الله تعالى : مَنْ أَسْعَرُ النَّاسَ ؟ قال : مَنْ يَأْتِي إِلَى
اللفظ الخسيس فيجعله بلفظ حسنا أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها
أفاد بها معنى ، مثل قول ذي الرمة :

أظن الذي يُجْدِي عليك سؤالها دموعًا كتبديد الجمان المفصل^(١)
فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال : المفصل فزاد شيئًا .
ومن التبليغ قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحِلْنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبِ^(٢)
فقد أتى على التشبيه قبل القافية ، وزاد بقوله : « الذي لم يثقب » بلوغًا إلى
الغاية القصوى في الجودة ، وكذلك قوله :

إِذَا مَا جَرَى شَاوِيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيْزَ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثَابِ^(٣)
فمرّت بأثاب زيادة على التشبيه التام ، والأثاب شجر يكون للريح في أغصانه
حفيف شديد ، فأفادت الزيادة في التشبيه معنى بديعًا . وقال زهير :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمْ^(٤)
وسمى أصحاب البديع هذه الزيادة في آخر البيت الإيغال والتبليغ ، وفي حشوه
المبالغة والتميم .

التصدير

هو أن يبدأ الشاعر بكلمة في البيت ثم يعيدها في عجزه ، أو في النصف منه ،
ثم يردّها في النصف الآخر عنه ، فإذا نظم الشعر على هذه الصنعة أمكن استخراج

(١) ديوانه ٥٠١ وفيه : « كتبدير » (٢) ديوانه ٧٣ . والجزع : الحرز

(٣) ديوانه ٤٩

(٤) ديوانه ١٢ . والقنا : شجر ثمره حب أحمر وفيه نقطة سوداء . والعين : الصوف .

قوافيه قبل أن يطرق أسمع مستمعيه ، وأحسن ما فيه قول عامر بن الطفيل :
وَكُنْتُ سَنَامًا فِي فِزَارَةِ تَامَكَا وَفِي كُلِّ قَوْمٍ ذُرْوَةٌ وَسَنَامٌ^(١)
التامك : الشديد ، وقال الآخر^(٢) :

سريع إلى ابن العمّ بلطم وجهه وليس إلى داعي الندى سريع
وقال آخر :

جَهْلٌ إِذَا أَرَى التَّحَلُّمَ بِالْفَتَى حَلِيمٌ إِذَا لَمْ يَزِرْ بِالْحَسْبِ الْجَهْلُ
والتصدير والترديد المتقدم يسميه كثير من البلغاء ردّ الإعجاز إلى المصدر .

الاستثناء

قل إن أول من بدأ به النابغة ، وأحسن كل الإحسان في قوله :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بَهَنَ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
وهذا كقول الجعدى :

فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْنَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيًا^(٤)
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَيَّ أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
ويستحسن قول أبي هفان :

فَإِنْ تَسَالَى عَنَّا فَتَحْنُ حُلَى الْعَلَا بَنِي دَارِمٍ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الْمَنَاكِبِ^(٥)
وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَتَنَا أَضَرَّ بَنَا وَالْبَأْسُ فِي كُلِّ جَانِبٍ
فَأَفْنَى الرَّدَى أَعْمَارُنَا غَيْرَ ظَالِمٍ وَأَفْنَى النَّدَى أَمْوَالُنَا غَيْرَ غَائِبٍ
ويسمى هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(١) ديوانه ١٢٦ .

(٢) هو المغيرة بن عبد الله المعروف بالأفيشر والبيت في تحرير التحجير ١١٦

(٣) ديوانه ٦

(٤) ديوانه ١٧٣

الالتفات

إسحاق الموصلي قال : قال لي الأصمعي رحمه الله تعالى: أتعرف التفات جرير؟
قلت: لا ، فأنشدني :

أُنسى إذ تودّعني سُدَيْمي بيطن بشامةٍ سَقَى البَشَامُ^(١)
ألا تراهُ مقبلاً على شعره ، ثم التفّت إلى البَشَامِ فدعاه !

الاعتراض

ويسمى الالتفات ، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ، فيعدل عنه
آخذاً في غيره قبل أن يتم الأول ، ثم يعود إليه فيتمه ، فيكون فيما عدل إليه مبالغة
في الأول وزيادة في حسنه .

قال ابن المعتز : الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى مخاطبة ، وعن
المخاطبة إلى الإخبار ، ومن أحسن ما في قول ذلك قول النابغة :

ألا زعمتُ بنو عبس بآني - ألا كذبت - كبير السنّ فإن

وقبل : بل قول كثير :

لَوْنَا الباخلين وأنتِ منهم رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ العَطَايَا^(٢)
فقوله : « ألا كذبت » وقوله : « وأنت منهم » اعتراض بين أول
الكلام وآخره ، وفيه زيادة حسنة ، ويستحسن قول الآخر :
فإني إن أفنك يفتك مِنِّي فلا يسبق به عِلْق نفيس

(١) ديوانه ٥١٢

(٢) ملحقي ديوانه ٥٠٧ ، وفيه : « المطالا »

فقوله : « فلا تسبق به » اعتراض لطيف في معناه وموضعه، ويسمى هذا أيضاً وما تقدم من قول طرفة الحشو المفيد .

ومنه قول الأخطل :

وأقسمَ المجد حَقًّا لا يخالِفهم حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعرُ^(١)
 فقوله : « حقًّا » حشو أفاد معنى حسناً ، وكذلك قول امرئ القيس :
 كأنَّ عيونَ ألوحشٍ حولِ خبائنا وأرجلنا الجزع الذي لم يُثَقِّبِ^(٢)
 فحول خبائنا وأرجلنا لوسط لكان التشبيه تاماً والوزن ناقصاً ، فأورده
 حشواً ، وفيه زيادة بارعة رائعة ، وهى الإخبار عن كثرة الصيد والتمدح بأنه
 مرزوق في صيده ، وما أحسن قول ابن المعتز رحمه الله تعالى :

وخيل طواها السَّيْرُ حتَّى كأنها أنايب سُمرٍ من قنا الخطَّ ذبَلِ^(٣)
 صَبَّنا عليها ظالمينَ سيَّاطنا فطارت بها أيدٍ خفاف وأرجلُ
 فوقع « ظالمين » أحسن موقع لأنه نفى بذلك عنها هجنة البطء ، وأخذه من
 قول أعرابي :

وعوذ قليل الذنب عاودتُ ضربه إذا هاج شوقي من مَعَاهِدِها ذكُرُ
 وقلت له ذلِّفاء وينحك سببت لك الضرب، فاصبر إن عادتك الصَّبْرُ
 فحسنته ابن المعتز ما شاء . وأما الحشو القبيح ، فكقول أوس بن حجر :
 وهمُ لَمَلٌّ للمال أولاد عِلَّةٍ وإن كان محضاً في العمومة مُخَوِّلاً^(٤)
 فذكره للمال مع قوله : « مقل » حشواً فائده فيه ، وكذلك قول المهذلي^(٥)
 رحمه الله :

(١) ديوانه ١١٢ .
 (٢) نهاية الأرب ١١ : ٥٩ ، ديوان الماعز ٢ : ١٠٧ .
 (٣) ديوانه ٩١ .
 (٤) هو أبو العيال الهذلي .

(٥) - شرح مقامات الحريري ج ٣ -

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب^(١)
 فذكر الرأس مع الصداع حشولا فائدة فيه ، وأهجن منه قول الأعشى :
 فرميت غفلة قلبه عن شأنه فأصبت حبة قلبها وطحالها^(٢)
 فسكريره ذكر القلب لافائدة فيه ، وهجنه بذكر «طحالها» . ودون هذا
 قول ديك الجن :

فتنفست فى البيت إذ مزجت بالماء واستلت سنا الذهب^(٣)
 كتنفس الريحان مازجه ما ورد جور ناصر الشعب
 فذكر الماء مع المزج حشولا فائدة فيه ، وأخذ من قول أبى نواس :
 سلبوا قناع انطين عن رمق حى الحياة مشارف الخنف^(٤)
 فتنفست فى البيت إذ مزجت كتنفس الريحان فى الأنف
 فلم يذكر أبو نواس الماء مع المزج ، وذكره ديك الجن فقصر عنه ، وزاد
 الحسن عليه بذكر الأنف حسناً . وذكر ديك الجن ماء الورد مع الريحان ولم يذكره
 الحسن ، لأن ذكاء الريحان أكثر ما يكون إذا أصابه بلل ، لكنه فى ذكره ماء
 الورد زيادة معنى بلا شك ، إلا أنه قد انضاف إليها العيوب للمتقدمة . ومع هذا
 فالحسن قد استوفى المعنى فى بيت واحد ، وديك الجن فى بيتين ، وصاحب بيت
 أبدا عندهم بانفاق أشعر ، كقول امرئ القيس :

أراهن لا يحببن من قلّ ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا^(٥)
 فما احتوى عليه هذا البيت ، أتى به علقمة فى ثلاثة أبيات مشهورة ، وإن
 كان المعنى أبسط وأجل فالفضل لصاحب البيت ، والزمان واحد ، لأن من قال
 علقمة مرقه فقد أخطأ ، فأما إذا كان السابق مستوفى المعنى فى بيت واحد ، ويسوقه

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٤٢ (٢) ديوانه ٢٧ .

(٣) ٢٠٩ (٤) ديوانه ٣٠٣ .

(٥) ديوانه ١٠٧

للتأخر في أبيات فالكلام في هذا ، كقول امرئ القيس :

نَمْشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكُفَّنَا إِذَا نَحْنُ قَنَاعِنُ شِوَاءَ مُضَهَّبٍ^(١)
أَخَذَهُ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ فَقَالَ :

أَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخْبِيَّةٍ وَفَارَ بِاللَّحْمِ لِلْقَوْمِ الْمَرَاجِيلُ^(٢)
وَرَدُّ وَأَشَقَرُّ لَمْ يُنْهِنَهُ طَابِخُهُ مَا غَيَّرَ الْغَلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوَّلَ
ثَمَّتَ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مَسُومَةٍ أَعْرَافَهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه ، وكان يجتنب غير الأدباء : ما خير المناديل ؟
فقال قائل : مناديل مصر كأنها قيض البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن ، كأنها
أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً ، أفضل المناديل ما قال أخوتهم
- يعني عبدة - وأنشد الأبيات ، وهي مع جودتها قصّرت عن بيت امرئ القيس .
وكذلك قول طرفة :

نَطْرُدُ الثُّرَى بِحَرِّ صَادِقٍ وَعَلَيْكَ الْقَيْظُ إِنْ جَاءَ بُقْرُ^(٣)
وقال الأعشى :

وَتَبْرَدُ بَرْدَ رِءَاءِ الْعَرُوسِ بِالصَّيْفِ رَقَرَتْ فِيهِ الْعَبِيرَا^(٤)
وَتَسْخَنُ أَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاتُهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا

الاستطراد

البحترى : أنشد أبو تمام لنفسه يهجو عثمان بن إدريس الشامي :
وَسَابِحٌ هَطَلِ التَّمْدَاءِ هَتَانٍ عَلَى الْجِرَاءِ أَمِينٍ غَيْرِ خَوَانٍ^(٥)
أَطْعَى الْفُصُوصَ وَلَمْ تَطْعَمَ قَوَائِمَهُ فَنَحَلَ عَيْنِكَ فِي ظَمَانِ رَبَّانٍ

(١) ديوانه ٥٤ (٢) المفضليات ١٤١ وفيها : « رفنا ظل أردية »

(٣) ديوانه ٧٣ والعليق : الشديد الحر

(٤) ديوانه ٩٥

(٥) ديوانه ٤ : ٤٣٤ (طبع المعارف) .

فلو تراه مُشِيحًا والحصى فَلَقَّ بين السنايك من مَثْنَى وَوُحْدَانٍ
أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صَخْرٍ تدمر أو من وَجْهِ عِثَانٍ
ثم قال : ما هذا من الشعر! قلت : لأأدرى، قال : هذا هو الاستطراد، قلت :
فما معنى ذلك ؟ فقال : يريك وصف الفرس ، وهو يريد هجاء عِثَانٍ ، فأخذه
البحترى ، فقال فى فرس :

يهوى كما تهوى العقاب وقدرأت صيدًا وينقض انقضا الأجدل^(١)
ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الأخول
وكان حمدويه عدوًا لمدوحه ، فاستطرد به . ويقال : إن البحترى لما عبّر
بسرقه هذا البيت أزاله من شعره . وقال دِغْبَل :

فلو أننى أصبحت فى جود مالك وعزته ما نال ذلك مطاي^(٢)
فتى شقيت أمواله بسماحه كما شقيت قيس بأرماع تغلب
فخرج فى استطاده من مدح إلى ذم ، وهو مطلوب استطاد زهير فى قوله :
إن البخيل ملوم حيث كان ولـ كـن الجواد على علاته هـرم^(٣)
فخرج من ذم إلى مدح . وقال جرير :

ترى برصًا بجمع إسكتنيه كعنفة الفرزدق حين شابا^(٤)
والسابق إلى هذا المعنى والناس له تبع السموءل حيث قال :
وإننا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامرٌ وسلول^(٥)
ومما يستحسن ، قول بشار :

خليلى من كعب أعينا أخا كما على دهره ، إن الكريم معين^(٦)
ولا تبخلا بخل ابن قذعة إنه مخافة أن يرجى نداء حزين

(١) ديوانه ١٧٤٥ ، وفيه : « وينتصب انتصاب »

(٢) ديوانه ٢٦٦ ، وقته عن الشريشى .

(٣) ديوانه ١٥٢ (٤) ديوانه ٦٩ ، والعنفة : ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى -

(٥) ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ٤ : ١١١

(٦) ديوانه ٩٧ (مطبعة الشباب)

إذا جثته في حاجة سدّ بابَه فلا تَلْتَمَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينٌ
فقف على هذه الجملة من صناعة البديع ، ففيها كفاية بعمون الله سبحانه وتعالى :
وأما قوله : فبرز الشيخ مجلياً ، وتلاه الفتي مصلياً ، فأصل ذلك في الخيل .
ونذكر من ذلك جملة تليق بهذا الموضع ، وينتظم المجلي والمصلي في حكاية الرشيد
مع المأمون .

[حكاية فرسى الرشيد والمأمون]

وذلك أن الرشيد أجزى الخيل يوماً بالركة فوق متلوما حتى طلعت ، فإذا
في أولها فرسان في عنان واحد ، فتأملهما ، فقال : فرسى والله . ثم تأمل وقال :
وفرس ابني عبد الله ، فجاء الفرسان أمام الخيل ؛ فرسه السابق وفرس المأمون
المصلي ، فسرّ بذلك الرشيد سروراً عظيماً . قال الأصمعي : قف للفضل : يا أبا
العباس ، هذا من أيامي ، فاحتل حتى توصّلتني ، فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ،
إن الأصمعي قد أعدّ في أمر الفرسين شيئاً يريد به سرور أمير المؤمنين ، فقال :
هات يا أصمعي ، قف : يا أمير المؤمنين ، كنت وابنك اليوم وفرسا كما ، كما
قالت الخنساء . وقد قيل لها : كيف تفضلين أخاك على أبيك ؟ فقالت :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهَمَا يَتَعَاوَرَانِ مُسْلَاءَةَ الْخَضِرِ (١)
وَهُمَا كَأَنَّهُمَا وَقَدْ بَرَزَا صَقْرَانِ قَدْ حَظَا إِلَى وَكْرٍ
حَتَّى إِذَا جَدَّ الْجِرَاءُ وَقَدْ سَاوَتْ هُنَاكَ الْغُدْرُ بِالْغُدْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ : أَيُّهُمَا ؟ قَالَ الْحَجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرِي
بَرَقَتْ صَحْفِيَّةُ وَجْهِهِ وَالِدِهِ وَمَضَى عَلَى غُلَوَائِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السِّنِّ وَالْكِبَرِ

قيل لأبي عبيد : ليس هذا في مجموع شعرها ، فقال : العامة أسقط من أن
يجودوا عليها بمثل هذا . فقولها : «ملاءة الخضر» تعني بها غبرة الفرسين التي أثارها

جعلتها كالمحفة يرتديانها ويتجاذبانها . وسيأتي مَنْ أخذ منها هذا المعنى وَمَنْ سبق إليه في الأربعين .

[مراتب الخليل في الحلبة]

ومراتب الخليل في الحلبة : السابق منها يسمى المجلى ثم المصلى ثم المسلى ، ثم التالى ثم المرتاح ثم العاطف ثم الخطى ، ثم المؤمل ، ثم اللطيم ، ثم الشكيت . قال الأصمعى وأبو عبيدة : لم نسمع فى سوابق الخليل اسماً لشيء منها ممن يوثق بعلمه إلا الثانى واسمه المصلى . قال الأصمعى ، هو من الصلّا وهو جانب ذنبه . والعاشر واسمه الشكيت ، وما سواهما فإنما يسمى الثالث والرابع إلى التاسع .

وكان عند المتقى العباسى فتى راوية للخبر والشعري أنس به ، فقال ليلة جلسائه : عودوا إلى ذكر الخليل ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، حدثني كلاب بن حمزة العقيلي : قال : كانت العرب ترسل خيلاً أراسيل ، عشرة عشرة ، والقصب سبعة سبعة ، فلا يدخل الحجرة من الخليل إلا ثمانية : الأول السابق المجلى لأنه جلى عن وجه صاحبه الكرب . والثانى المصلى لأنه وضع جفثته على قطة المجلى ، وهو صلاه ، والصلّا عجب الذنب . والثالث المسلى ؛ لأنه كان شريكاً فى سبق فسلى عن صاحبه بعض هم . والرابع التالى ، لأنه تلا المسلى دون غيره ، والخامس المرتاح وهو المفتعل من الراحة ، لأن فى الراحة خمس أصابع ، فلما كان الخامس على خامسة الأصابع سمى مرتاحاً . والسادس خطى ، لأنه نال حظاً فحظى به وإن قل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى السادس نصيباً وهو آخر حظوظ الحلبة ، وسعى السابع العاطف لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشيء وإن خس إذ كان قد دخل الحجرة ، الثامن المؤمل ، على القلب والتفاؤل ، كما سُمى اللدّيع سايماً فسمى مؤملاً لقربه من ذوات الحظوظ . التاسع اللطيم ، لأنه لورام الحجرة لطم دونها ، لأنه أعظم جرماً من السابع والثامن . العاشر الشكيت ،

لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت خزيًا وعيًا، وكانوا يحملون في عنقه حَبْلًا ،
ويحملون عليه قردًا يركضه ليعتبر بذلك صاحبه .

أبو عبيدة يشدد الشكيت ، وسمى سكيتًا لأنه آخر العدد الذي يقف عليه
العادّ والسكت الوقوف ، وسميت حلبة ، لأن العرب تحلب إليها خيولها
أى تضرها .

وأشد ابن الأنبارى أبياتاً تجمعها وهى قوله :

جاء المجلى والمصلى بعده ثم المسلى بعده والتالى
والخامس المرتاح ينقص عدوه والعاطف الصّال كالرّئبال
نسقا وقاد حظيها فى صهوة ذاك للمؤمل غير ذى الأشكال
ثم اللطيم يقودها بجميعها قبل السكيت العاشر الذّبال

[أشعار فى وصف الخليل]

ونذكر هنا جملة مقاطيع فى أوصاف الخليل يكمل بها الغرض المقصود ، قال
امرؤ القيس :

إذا ماركنّا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتينا الصيد نحطِب^(١)
وقال عُمارة بن عقيل :

وأرى الوحش فى يمينى إذاماً كان يوماً عنائه بشئالى
وقال حبيب :

مخاق وجّهه على السبق تخليق عروس الأبناء للعروس^(٢)
تقتل عشرًا من النعام به بواحد الشدة واحد النفس

(١) ديوانه ٣٨٩

(٢) ديوانه ١٦٩ ، ١٧

وقال أيضاً :

إِن زار ميداناً مضى سابقاً أو نادياً قام إليه الجلوس^(١)
نرى رزانَ القوم قد أَسْمَجَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي حُسْنِهِ وَهِيَ شُوسُ
كأنما لاح لهم بارقٌ في المَحَلِ أَوْزُقَتْ إِلَيْهِمْ عَرُوسُ
سامٍ إذا استعرضته زانه أَعْلَى ، رَطِيبٌ وَقَرَارٌ بَيْيسُ
كأنما خامره أَوْلَقُ أو عارضت هامته الخندريسُ
عوْدَه الحاسم بخلاً به وَرَفَرَفَتْ خَوْفاً عَلَيْهِ النُّفُوسُ

وقال البحتري :

وأغرَّت في الزمن البهيم محجَلٍ قد رُحِتْ مِنْهُ عَلَى أَغْرَ محجَلٍ^(٢)
كالهيكَلِ المبْنَى إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ
ذَنبٌ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذْبُ عَنْ عُرْفٍ ، وَعَرَفَ كَالرِّدَاءِ الْمَسْبَلِ
تَتَوَهَّمُ الْجُوزَاءُ فِي أَرْسَاعِهِ وَالبدر غرة وجهه المتَهَلِّلِ
وتراه يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهْيُهُ لَوْنًا وَشِدًّا كَالْحَرِيقِ الْمَشْعَلِ
هَزَجَ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَانِهِ هَزَّاتَ مَعْبُدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلَكُ الْعِيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَنَّهُ نَظَرَ الْحَبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْقَبْلِ

وقال عبد الله بن المعتز :

ولقد وطئت النيث يَحْمِلُنِي طَرَفٌ كُلُّونِ الصَّبْحِ حِينَ وَقَدَ^(٣)
يمشي ويعرض في العنان كما صَدَفَ الْمَشَقُّ ذُو الدَّلَالِ وَصَدَّ
جَمَاعَ أَطْرَافِ الصُّوَارِ فَمَا أَلْ أُخْرَى عَلَيْهِ إِذَا جَرَى بِأَشَدَّ

(١) ديوانه ١٧٩ .

(٢) ديوانه ١٧٤٤ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧ ، العقد ١ : ٢٠٦ .

بل المهادماتهن ولم يبتل منه بالحميم جسد
وكانه موج يذوب إذا أطلقتها وإذا حسبت جسد
وقال المتنبي :

وعيني إلى أذني أغرّ كأنه من الليل باقٍ بين عينيه كوكب^(١)
له فضلة عن جسمه في إهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شقت به الظلماء أذني عنانه فيطفي وأرخيه مراراً فيلمب
وأصرع أي الوحش قفئته به وأنزل عنه مثله حين أركب
وما أخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تعين غير حُسن شياها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وقال ابن نباتة يصف فرساً أغرّ حمله سيف الدولة عليه :

قد جاءنا الطرف الذي أهديته هاديه يعقد أرضه بسمائه^(٢)
تختال منه على أغرّ محجل ماء الدياجي قطرة من مائه
وكانما لطم الصباح جبينه فاقص منه فخاض في أحشائه
لاتعلق الأحاظ في أعطافه إلا إذا كفكفت من غلوائه
وقال أيضاً :

وأدم يستمدّ الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا^(٣)
سرى خلف الصباح يطير مشياً ويطوى خلفه الأفلاك طياً
فلما خاف وشك القوت منه تشبّت بالقـواثم والحيا

وقال أبو منصور^(٤)، يخاطب أبا الفضل الميكالي :

يا مُهْدِي الطرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع^(٥)

(٢) هو ابن نباتة السعدي ، نهاية الأرب ١٠ : ٦٤ .

(٤) هو أبو منصور الثعالبي .

(١) ديوانه : ١ : ١٧٩ .

(٣) نهاية الأرب ١٠ : ٦٤ .

(٥) معاهد التصحيح ٢ : ٢٧٠ .

لا شيء أسرع منه إلا خاطري
ولو أنني أنصفت في إكرامه
أقضمت حَبَّ القلوب لحبِّه
وخلعتُ نَمَ قطعت غير مضيق
في شكر نائلك اللطيف الموقر
لجلال مُهْدِيهِ الكَرِيمِ الأَرْوَعِ
وجعلتُ مربوطه سواد الأذم
بُرْدَ الشباب لجله والبرقع

وقال القسطلي :

سامي التَّليُّل كأنَّ عقد عذاره
يهدى بمثل الفرقدَيْنِ وناب عن
فكأنما أظاً الأباطح والرُّبَا
وكانه من تحت سَوطي خارجاً
في رأس غصن البانة الميَّادِ (١)
رعى السَّمَكَ بقلبه الوقارِ
بُعُقاب شاهقة وحية وادِ
في الرُّوع شعله قادح بزنادِ

ولأبي تمام الأندلسي :

وأقْبَ تتقد البروق إذا جرى
ملك الرياح قوائماً فجرى بها
من غيظها حسداً بأن لم تلحقِ
فيكاد يأخذ مغرباً من مشرقِ

وقال فيه أيضاً :

وتحتي ريح تسبق الريح إن جرت
له في المدى سبقٌ إلى كل غاية
وهمة نفس نزهتها عن الونى
وما خلت أن الرِّيح ذات قوائمِ
كأنَّ لنا فيه نفوذ عزائمِ
فيا عجباً، حتى العلا في البهائمِ !
وكان للمتوكل ببطلْيوس فرس أخضر أغرَّ محجل على كَفَلِه ست نقط
بيض ، فبذل كل شاعر في وصفه جهده ، فما سبق الغاية إلا البَجَلِيّ بقوله :
حمل البدر جوادٌ سابحٌ تقف الريح لأدنى مهله

وكان الصبح قد خاض به فبدا تحجيله من بلبه
لبس الليل قميصا سابغا فالثريا نقط في كفله
كل مطلوب وإن طالت به رجله من أجله في أجله
والباب لا يدخل تحت الحصر ، فلنكتف بهذا القدر .

* * *

فلما أنشدها والى متراسلين ، بهت لذكاءيهما المتعادلين .
وقال : أشهد بالله أنكما فرقدا سماء ؛ وكرندين في وعاء ، وأن
هذا الحدث لينفق بما آتاه الله ، ويستغنى بوجده عن سواه .
فتب أيها الشيخ من اتهمه ، وثب إلى إكرامه .
فقال الشيخ : هيئات أن تراجع مقتي ، أو تعلق به ثقتي . وقد
بلوت كفرانه للصنيع ؛ ومُنيت منه بالعقوق الشنيع . فاعترضه
الفتى وقال : يا هذا ، إن اللجاج شؤم ، والحنق لؤم ، وتحقيق
الظنة إثم ، وإعنات البرى ظلم . وهبني اقترفت جريرة ، أو
اجترحت كبيرة ؛ أما تذكر ما أنشدتني لنفسك ، في إبان
أنسك :

* * *

قوله : « بهت » أى تحير . المتعادلين : المتماثلين ، وشبههما بالفرقدين لرفقتهما
وتوقدهما ، وأخذ الحريرى هذا التشبيه من البحترى في قوله :

* كالفرقدين إذا تأمل ناظر *

وتقدم في الثانية ، وبالزندان لما فيهما من النار ، وفي هذين من الذكاء وجعلهما
في وعاء ، يريد : متى التمسهما الإنسان وجد فيما وقعت عليه يده حاجته .

وجده: غناه وما عنده من العلم: ثب: ارجع. هيهات، معناها بُعد. مَقَتِي: محبتي. تعلق به تفتي، يريد: لا أوثق به بعد ما جرّبه، وبلوت كفرانه للصنيع، أى جرّبت قلة شكره لفعل الجليل معه مُنِيت. بليت. العقوق: المقاطعة. الشنيع: المشتهر بالقبيح.

[فصل فى كفران الصنيع]

ونسوق هنا فى كفران الصنيع فصلاً يليق بهذا الموضع. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عباد الله عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ولا ينظر إليهم». قلنا: مَنْ أولئك يا رسول الله؟ قال: «المتبرئ من والديه رغبة عنهما، والمتبرئ من ولده، ورجل أنعم الله عليه نعمة فكفرها».

وفى التوراة: من صنم معروف إلى أحق فهى خطيئة تُكتب عليه.

وقال الحجاج لابن الكلبي: أخبرنى عن خمسة أشياء أُضيّعت فى الدنيا. قال: نعم أصلح الله الأمير! سراج يوقد فى شمس، ومطر جود فى أرض سبخة، وامرأة حسناء تُزفّ إلى عَنَيْن، وطعام اجتهد صاحبه فى صنعته فقدمه إلى سكران أو شعبان، ومعروف تصنعه إلى رجل لا يشكره عليه.

عائشة رضى الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنفع الصنعة إلا عند ذى حسب ودين، كما لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب».

المداثي: خرج فتيان فى صيد لهم فأثاروا ضبعة فنفرت ومرت، فاتبعوها، فاجأت إلى بيت رجل، فخرج إليهم بالسيف مسلولاً، فقالوا له: يا عبد الله، لِمَ تمنعنا من صيدنا؟ فقال: إياها استجارت بى. نخلوا يديها وبيده، فنظر إليها فإذا هى مهزولة مضرورة، فجعل يسقيها اللبن صبوحةً ومَتِيلاً وغبوقاً، حتى سمعت وحسنت حالها، فبينما هو ذات يوم متجرد عَدَّتْ عليه فشقت بطنه وشربت دمه، فقال ابن عم له:

ومن يَصْنَعُ المعروف في غير أهله يلاقى الذي لا قى مُجِير أم عامر^(١)
أعد لها لما استجارت بقره مع الأمن ألبان اللقاح الدرائر
فأشبعها حتى إذا ما تمكّنت فرته بأنياب لها وأظافر
قل لذوى المعروف، هذا جزاء من بوجه معروفاً إلى غير شاكر

وعن جابر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه ومعروفه في أهل الحِفاظ ، وإذا أراد به سوءاً جعلها في أهل المضائق » وقال حسان :

إن الصنِيعَةَ لا تكون صنِيعَةً حتى يصاب بها طريق المصنع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . وأنشد عبد الله بن جعفر هذا البيت فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس ؛ أمطر المعروف مطراً ، فإن صدفت موضعه فهو الذى قصدت ، وإلا فكنت أحقّ به .

قل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لا يُرْهَدَنَّكَ فى المعروف كفر من كفره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصنعه إليه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اصنع المعروف إلى من هو أهله ، وإلى من ليس أهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله» . وقد قال الحريرى بعد هذا :

واحفظ صَدِيقَكَ عنده شَكَرَ الصنِيعَةَ أم غَمَطُ
أى لا تفسد معروفك بالبن ؛ شكره من أنعمت عليه أم كفره . وغمط : ستر . وهو ضد شكر .

قوله: اعترضه، أى واجهه وقابله: شؤم: نحس وطيرة. الحنق: الغضب. الظنة: التهمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لازمات أمتي: سوء الظن، والحسد، والطيرة». قيل: ما يذهبهن؟ قال: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر، وإذا تطيرت فامض». إعنات: مشقة. هبنى: احسبني. اقترفت واجترحت، معناها اكتسبت. جريرة: جناية. إبان أنسك، أى وقت أنسى بك.

* * *

سامحْ أخاك إذا خلطَ منه الإساءة بالخلطِ
وتجافْ عن تعنيفه إن زاعَ يوماً أو قسطَ
واحفظْ صنيعك عنده شكر الصنيعة أم غلطِ
وأطعمه إن عاصى وهن إن عزَّ واذنْ إذا شحطِ
واقنْ الوفاء ولو أخلَّ بما اشترطت وما اشترطِ
واعلمْ بأنك إن طلبتْ مذهباً رُمْتَ الشَّطَطُ
من ذا الذى ما ساء قطُّ ومنْ له الحسنَى فقط
أو ما ترى المحبوبَ والمكروءَ لزأفى نَطُ
كالشوكِ يَبْدُو فى العَصو نِمع الجَنَى المُلْتَقطِ
ولذاذة العمر الطَّو يل يشوبُها نِقصُ الشَّمَطِ
ولو انتقدتْ بنى الزَّما ن وَجَدَتْ أَكْثَرَهُمْ سَقَطِ
رُضْتُ البَلَاغَةَ والبرا عة والشَّجَاعَةَ والخطَطِ
فوجدتْ أحسنَ ما يُرى سِيرَ العُلُومِ ممَّا فقط

* * *

تجاف: تباعد. تعنيفه: لومه. زاع: مال. قسط: جار.

وقوله : وَهُنْ إِنْ عَزَّ ، لفظ المثل : إذا عز أخوك فهن ، يُرَوَّى بضم الهاء وكسرهما ، فالضم من هان يهون ، قال ابن أحر :
 ذَبَبْتُ لَهَا الضَّرَاءَ وَقُلْتُ أَبْقَى إِذَا رَزَّ ابْنُ عَمِّكَ أَنْ تَهْوَنًا^(١)
 . ورواه بالكسر أبو عبيد وثعلب ، وقال أبو عبيد : معناه أن مياسرتك صديقك ليست بضمير يركبك ، فتدخلك منه حمية ، إنما هو حسن خلق ونفصل منك ، فإذا عاسرك فياسره ، فالضم الذي ذكر هو الهوان بعينه . قال ابن درستويه : معناه إذا صار أخوك عزيزاً قوياً عليك فأطعته واخضع له ، تسلم من ظله . رواية الكسر من هان يهين ، ويكون معنى عز تصعب واشتد لا من العزة ، ومعناه إذا صعب أخوك فلن له ، والمثل لهذيل بن هبيرة ؛ وسببه أنه أغار على ضبة فغنم ، وأقبل بالمغانم ، فقال له أصحابه : اقسمها بيننا ، فقال : أخاف أن يدرككم الطلب ، فأبوا ، فعندها قال المثل ، ونزل فقسمها

قوله شحط ، أي بعد . وأقن الوفاة : أي الزمه ، وقنيت الحياء بكسر النون أقنيه قنياناً ، ألزمته . أخل : نقص . بما اشترطت وما اشترط ، أي بما جعلاهما بينهما من علامة ، ومنه أشرط الساعة أي علاماتها ومنه الشرط لأن لهم علامة يعرفون بها . مهذباً : مخلصاً . والشطط : محاورة القدر ، قال الفضيل بن عياض : مَنْ طلب أخا بلا عيب بقي بلا أخ .

قال الحارث المحاسبي : ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حُسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الدِّبَّانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وقال النابغة :
 وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلْمَهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَي الرجال المهذب^(٢)
 وقال يزيد بن محمد المهلب :
 وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ فَضلاً أَنْ تَعَدَّ مَعَايِبُهُ^(٣)

(١) فصل المقال لأبي عبيد ١٩٦ .

(٢) ديوانه .

(٣) ط : الباهلي ، تحريف . والبيت في زهر الآداب ٧٥٥ ، نهاية الأرب ٣ : ٩٤ .

قوله: «قَطَّ» بمعنى الدهر والأبد . والحسنى: الفعل الحسن . قَطَطَ : حسب .
لذا : ربطا . النَّمَطُ : ثوب من الصوف المصبوغ ، والنَّمَطُ الطريق ، تقول : الزم
هذا النمط ، والنمط النوع من العلم والخير، فيريد أن الخير والشر قد نظما في سلك
واحد ، فإذا أتى يوم يُرَضَّى أتى بعده يومٌ يسخط .

الجنَى : الطَّرَى مما يجنَى ، نعليل بمعنى مفعول ، وأصل مجنَى مجنوى فاعِلٌ .
والملتقط : من قولك: لقطت هذه الفاكهة واحدة واحدة، أى اخترتها وانتخبتها .

أبو أمامة ، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الناس اليوم كشجرة
ذات جنَى ، ويوشك الناس أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقذتهم ناقذك ،
وإن تركهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم طلبوك» ، قيل: فكيف الخرج من
ذلك ؟ قال : « تقرضهم من مِرْضِكَ ليوم فقرك » ، وأنشد عمر بن الجعد :

طَبَّ عن الأئمة نفساً وارض بالوحدة أنساً
لست بالواجد حياً أو تردّ اليوم أمسا
ما وجدنا أحداً يسـووى على الخبرة فلساً

قوله : «نقص» تكدير العيش ، ونقص الرجل إذا لم يتم له أمره وتكدر
عيشه . يشوبها : يخالطها . السَّمَطُ : اختلاط الشيب بالسواد وانتقدت : فنشت .
والسَّقَطُ : من لا خير فيه .

وللزاهد بن عمران في معنى أبيات الحريري رحمه الله :

إذا وَغَدَتْ جفاك فلا تَكُلمهُ لأنك إن فعلت أثرت جِيفَةً
وإن يصلُ الكريمُ عليك فاصفحْ ستمطفه أصالته الشريفة
ومنْ يك بين ذاك فأغضِ عنه تنل مجداً ومرتبةً مُنيقةً
وحُلَّ الضغن إن آنتَ ضِيفناً يبسط الوجه والحيل اللطيفة

أخذ البيتين الأولين من قول حاتم :

وأغفر عوراء الكريم اذخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكثرا^(١)

* * *

قال : فجعل الشيخ يُنضِضُ نُضْضَةَ الصَّلِّ ، ويُحْمَلِقُ حَمَلَقَةَ البازي المِطْلَ ، ثم قال : والذي زين السماء بالشهب ، وأنزل الماء من السحب ، ماروغني عن الاصطلاح ؛ إلاتوَّى الافتضاح ، فإن هذا الفتى اعتاد أن أمونه ، وأراعى شثونه ، وقد كان الدهر يسح ، فلم أكن أشيح ؛ فأما الآن فالوقت عبوس ، وحشو العيش بوس ؛ حتى إن برّتي هذه عارة ، ويبتى لا تطور به فارة .

قال : فرق لقاها قلب الوالى ، وأوى لهما من غير اللئالى ، وصبا إلى اختصاصهما بالإسعاف ، وأمر النظارة بالانصراف .

* * *

قوله : « يُنضِضُ » يحرك لسانه . الصَّلِّ : الحية . يحملق : ينظر بمحلاقة وهو باطن جفنه ، وذلك نظر الغضبان . المِطْلَ : المشرف على فريسته . الشهب : النجوم . رَوَغِي : فرارى . توَّى : خشية . الافتضاح : الشهرة . أمونه : أتكلف لوازمه . أراعى : أحفظ . شثونه : أموره . يسح : يصب الرزق . الحشو : ماحشئ به . بوس : ضرّ . برّتى : ثوبى . عارة ، أى عارية . تطوره : تقرب منه ؛ يريد أن الفارة ليس لها فيه مائتا كل ، وأخذ هذا المعنى من قول امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ،

قال : ما أحسن هذه الكناية ! املئوا يديها خبزاً ولحماً وسمناً . وقد أعاد هذا المعنى منظوماً في الثالثة والثلاثين ، فقال ^(١) :

وَأَمَحَلْتُ رَبِّعِي حَتَّى خَلْتُ مِنْ رَبْعِي الْمَحِلَّ جُرْذَانُهُ

وحكى الفنجديهي بسنده إلى أبي محمد الحسن بن إسماعيل الضراب ، قال : كنت قاعداً أنسخ في السراج ، وبين يديّ قدح فيه ماء ، وظرف فيه كعك وزيب ولوز ، فجاءت فأرة فأخذت لوزة فمضت ، ثم عادت فأخذت أخرى فبددت الماء الذي في القدح ، فعادت فأرة فكبيت القدح عليها واشتغلت بشغلي ساعة ، فإذا فأرة أخرى قد جاءت فشقت وبقيت ساعة على ذلك ، والفأرة الأخرى تشفق من داخل القدح ، فلم تجد حيلة في خلاصها ، فمضت أختها ، فأتت بدينار فوضعت ووقفت ، ولم أرفع القدح عن الفأرة ، فمضت وأتت بدينار آخر ، ووقفت ولم أرفع القدح ، ففعلت ذلك إلى أن أتت بسبعة دنانير ، ووقفت ساعة ، ولم أخل عن الفأرة ، فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنها لم يبق عندها شيء فغلطت عن الفأرة .

قال الفنجديهي : رويت هذه الحكاية عن أشخاص وأشياخ ثقة .

وعلى ذكر الفأرة والجردان كتب أبو حفص الوراق رقعة إلى صاحب ، منها : وحال عبد مولانا في الخنطة مختلفة ، وجردان داره عنها منصرفة ، فإن رأى أن يخلط عبده بما أخضب عنده فعل إن شاء الله تعالى . فوقع فيها : « أحسنت يا أبا حفص قولا ، وسنحسن إليك فعلا ، فبشر جردان دارك بالخصب ، وأمنها من الجذب ، فالخنطة تأتيك في الأسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بمنوع . إن شاء الله تعالى » .

قوله « أوى » : أشفق . غَيْرَ : تَغَيَّرَ وهو من تَغَيَّرَ الحال ، وهو اسم واحد بمنزلة الجمع ، والغَيْرَ مذكور وجمعه أغيار . هذا قول الكسائي . ويجوز أن يكون

(١) م ٣٦٥ (المطبعة الحسينية) .

جَمْعًا ، واحِدَةً غَيْرَةً وهذا قول ابن عمرو ، يقال للديّة : غَيْرَةٌ لأنها تغيّر القواد إلى الرضا به . صَبَاً : مال . الإسعاف : قضاء الحاجة . النظارة : الناس الناظرون إليه .

قال الراوى : وكنت مُتَشَوِّقًا * إلى مَرَأَى * الشَّيْخِ لعلِّي أعلمُ علمَهُ ، إذا عاينت وَشَمَهُ ، ولم يَكُنِ الزَّحَامُ يُسْفِرُ عَنْهُ ، ولا يَفْرَجُ لى فَأَذْنُوْ مِنْهُ . فلَمَّا تَقَوَّضَتِ الصُّفُوفُ ، وأَجْفَلَ الوُقُوفُ ، تَوَسَّمْتُهُ فإذا هو أبو زيدٍ والفتى فَتَاهُ ، فعرفتُ حينئذٍ مَغْزَاهُ فيما أَتَاهُ ، وكِدْتُ أَنْتَقِضَ عليه ، لَأَسْتَعْرِفَ إِلَيْهِ . فَزَجَرَنِي بِإِيْمَاءِ طَرَفِهِ ، واستَوْقَفَنِي بِإِيْمَاءِ كَفِّهِ .

متشوقًا : متطلعًا . وشمه : علامته . يسفر : يكشف . يفرج : يفتح لى فرجة . تقوّضت : تفرّقت ، وأصلها الهدم . أجفل : أسرع المشى . توسّمته : نظرتّه . مغزاه : مذهبه ومقصده . انتقض : انحط وانصبّ أستعريف إليه : أعرفه بنفسى . زجرنى : انتهرنى . إيماض : إشارة بالعين خفية ، وكثيراً ما يصرف الحريرى فى المقامات تنبيه أبى زيد لابن همام على نفسه بخفى الإشارة ، المغنية عن تصريح العبارة ، وهو مذهب للعرب ، ونبلاء أهل الأدب ، وقد قالوا : رُبَّ كناية تغنى عن إيضاح ، رُبَّ لحظ يدل على ضمير .

[مختار من الشعر فى إشارة اللحظ]

وفى إشارة اللحظ يقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزونٍ ولم تتكلم
فأيقنتُ أن اللحظ قد قال مرحبًا وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم
وقال أبو نواس :

لمنى على النجل العيون التمدد القُبَّ البطون

الناطقات عن الضمير لنا بالسنه الجفون
وقال المهدي بن المنصور :

ومطلع من نفسه مايسره عليه من اللحظ الخفي دليل
إذا هو لم يبد الذي في ضميره ففي اللحظ والإيماء منه رسول
وقال تميم بن المعتز :

سبحان من خلق الخدو د شقائق تَنْدَسَمُ^(١)
وأعارها للألحاظ فهي بلحظها تكلم
وقال آخر :

العين تبدى الذي في نفس صاحبها من الحبة أو بغض إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبياناً
وقال أعرابي :

وليل لم يقصره رقاد وقصر طولَه وصل الحبيب
بمجلس لذة لم تقو فيه على شكوى ولا عد الذنوب
بخلصنا أن نقطعه بلفظ فترجت العيون عن القلوب
وقال الحسن بن بشير :

أما ترى لي ناظراً شاهداً بالحب، والأعين رسل القلوب
ودون إلحاح جفوني هوى يخبر عما في ضمير الكئيب
وأنت لاشك به عالم لأن عند اللحظ علم الغيوب
وقال الأحوص :

ودعهن ولا شيء يراجعني إلا البنان وإلا الأعين الشجيم^(٢)

(١) ديوانه ٣٨٦ .

(٢) ديوانه ٢٢٢ .

إذا أردن كلامي عنده عرضت من دونه عبرات فارعوى الكلم
مستندات وقد مالت سوافها وما بهن سوى مس الهوى ألم

وقال ماني الموسوس

بنان يد تشير إلى بنان تجاوبت ما تتكلمان
جرى الإيماء بينهما رسولا فأحكم وحيه المتناجيان
فلو أبصرتنا لفضض طرفاً عن المتحدثين بلا لسان

والباب لا يحصى كثرة فلنقتصر على هذه اللمعة

قوله : « واستوقفني بإيماء كفه » : أى أمرنى بالوقوف، والإيماء : الإشارة .

* * *

فلزمت، ووقى ، وأخرت منصرفي . فقال الوالى : مامرامك، ولأى
سبب مقامك ؟ فابتدره الشيخ وقال : إنه أنيسى ، وصاحب ملبوسى .
فتسمع عند هذا القول بتأنيسى ، ورخص فى جلوسى . ثم أفاض عليهما
خلمتين ، ووصلهما بنصاب من العين ، واستعهدهما أن يتعاشرا
بالمعروف ، إلى إطلال اليوم المخوف . فهضا من نأديه ، مشيدين
بشكر أياديه ، وتبعتهما لأعرف مشواهما ، وأترود من فخواهما .

فأما أجزنا حى الوالى ، وأفضينا إلى الفضاء الخالى ، أدركنى أحد
جلاوزته ، مهيباً بى إلى حوزته ، فقلت لأبى زيد : ما أظنه
استحضرنى إلا ليستخبرنى ، فإذا أقول ؟ وفى أى وادٍ معه أجول ؟
فقال : بين له غباوة قلبه . وتلعابى بلبي . ليعلم أن ريحه لاقت
إعصاراً ، وجدوله صادف تياراً ، فقلت : أخاف أن يتقد غضبه

فَيَلْفَحَكَ لَهْبُهُ ، أَوْ يَسْتَشْرِى طَيْشُهُ ، فَيَسْرِى إِلَيْكَ بَطْشُهُ ، فَقَالَ : إِنِّي
أَرْحَلُ الْآنَ إِلَى الرُّهَا ، وَأَنْتَى يَلْتَقِي سُهَيْلٌ وَالسُّهْلَا !

* * *

مرامك : مرادك . مقامك : تلبثك ووقوفك . أنيسى : صاحبي الذي أنا ناس به . فقسّمح بتأنيسى ، أى أولانى منه اللؤانسة . رخّص : لين وسهل . أفاض : صبّ . خلعتين : كسوتين . والنصاب : عشرون دينارا ، والعين : الذهب . استعدهما : استخلفهما . يتعاشرا : يتصاحبا . إظلال : قرب ودنو . اليوم الخوف : يوم موته . ناديه : مجلسه . مُشِيدين : رافعين بشكره أصواتهما . أياديّه : نعمه . مثواها : مسكنهما . فحواها : معنى كلامهما ، ويروى : «نجواها» . أى سرّها . أجزنا : خلقنا . أفضينا : وصلنا . الفضاء : المتسع من الأرض . جلاوزته : شرّطه ، واحد هم جلاواز ، والجلاز عقب ملوئى على القوس ، وجلزت القوس والوسط والسكين : عصبتها بالعقب ، فسّموا جلاوزة ، لأنهم يعصبون بالسياط الناس عند الضرب ، ولأن السياط لا تفارق أيديهم ، والجلاز : الشدة ، وهم يربطون الناس ويشدونهم . مهيباً : داعياً . حوزته موضعه الذى يحميه ويحوزه . استحضرنى : طلب حضورى . ويستخبرنى : يسألنى خبره . أجول . أنصرف وأمشى ، أى علّمنى فى أى غرض من الحديث آخذ معه . غباوة : جهل ، ورجل غبى غير فطن . تلعابى بلبى ، أى لعبى بهقله ، والتلعاب بنية للمبالغة . يستشرى : ينتشر . طيشه : خفته من الغضب . يسرى : يسير . بطشه : إيقاعه وتناوله بما يكره .

الرُّهّا : بلد من كورة الجزيرة تجاورها الرّقة وحرّان ، سمّيت باسم صاحبها الرها بن البلوى بن مالك بن ذعر ، وهو أوّل من نزلها . وقال اليعقوبى : الرّها من ديار مضر ، وهى مدينة روميّة ذات عيون كثيرة منها عجيبة ، تجرى

الأنهار وبها الكنيسة التي للنصارى ، وهى إحدى عجائب الدنيا الموصوفة ، وكان بالرها رجل ضعيف الحال متجمل بين الناس ، فخرج ذات يوم من منزله وعليه جبة له ، فلقبه سائل ، فسأله شيئاً يدفعه ، فقال : والله ما أملك غير جبتى هذه ، فقال السائل : ألا تحب أن تكون من الذين قال الله تعالى فى حقهم : (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ، فدفعها إليه .

أتى : كيف . سهيل والسها : كوكبان لا يلتقيان ، لأن السها نجم خفى فى بنات نعش ، وبنات نعش لا تغرب أبداً فى بلاد أرمينية ، وفى سمتها بلاد الشام والمغرب والأندلس ، وسهيل لا يرى فى شئ من هذه البلاد إلا رؤية لا يعتد بها فى أيام قلائل ، فلا يلتقى سهيل والسها بوجه ، وإنما أخذ هذا من لفظ عمر بن أبى ربيعة حيث قال :

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً عَمَرَكَ اللهُ كيف يلتقيان^(١)
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقلت يمان
والثريا هذه بنت على بن عبد الله بن الحارث ، وكانت موصوفة بالجمال ، وكان عمر يشبب بها ، فتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ؛ ففرب لها عمر المثل بالكوكبين . وأبدل الحريرى لفظ الثريا بالسها ، وأفاد عدم الالتقاء ، وسهيل هو كوكب أحمر يحيل إليك لشدة اضطرابه أنه يستدير ، وقال المعرى فى صفته فأحسن :

وسهيل كوجنة الحب فى اللو نِ وَقَلْبِ الحبِّ فى الخفَقَانِ^(٢)
مستبدًا كأنه الفارس المعلى يمدُّو معارض الفرسان
يُسرعُ الملح فى احمرار كما تُسرع بالملح مقلّة الفضبان

(١) ديوانه ٥٠٣ .

(٢) سقط الزند ٤٣٣ .

ضَرَجَتْهُ دَمًا سَيُوفُ الْأَعَادَى فَبَكَتْ رَحْمَةً لَهُ الشَّعْرِيَانِ
 قَدَمَاهُ وَرَاءَهُ وَهُوَ فِي الْعَجْزِ - زَكَسَاعٍ لَيْسَتْ لَهُ قَدَمَانِ
 قَالُوا : وَلَا تَقْعُ عَيْنُ بَعِيرٍ عَلَى سَهِيلٍ إِلَّا مَاتَ مِنْ حِينِهِ .
 وَقَدْ أَشَارَ الْعَرَبِيُّ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ :

لَا تَحْسَبَنَّ إِلَيَّ سَهِيلًا طَالَمَا بِالشَّامِ فَالْمَرْئِيُّ شَعْلَةُ مَقْبَسٍ
 وَمَتَى طَلَعَ صَرَفَتْ الْإِبِلُ كُلَّهَا وَجُوهَهَا عَنْ مَطْلَعِهِ وَقَابَلَتْهُ بِأَعْجَازِهَا :
 وَقَالَ الْمَتَنِيُّ :

وَتَنَكَّرَ قَتْلَهُمْ وَأَنَا سَهِيلٌ طَاعَتْ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّنَاءِ (١)
 وَفِي مَعْنَى تَخْوِيفِ ابْنِ هَامٍ لِلسُّرُجِيِّ بِعِقَابِ الْوَالِي مَا حَدَّثَ أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ
 الْعَبَّاسَ بْنَ حَيَّوْنَ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فِي السِّجْنِ مَنْ أَعْلَمَهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَغْلَبِ يَرِيدُ
 قَتْلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَفْرَأً ، فَقَالَ لِمَعْلَمِهِ بِالْخَبَرِ ، وَأَحْسَنَ فِي قَوْلِهِ :

تَخَوَّفَنِي بِمَخْلُوقٍ ضَعِيفٍ يَهَابُ مِنَ الْمَنِيَةِ مَا أَهَابُ
 لَهُ أَجَلٌ وَلِي أَجَلٌ وَكُلُّ سَيَبْلُغُ حَيْثُ بَلَغَهُ الْكِتَابُ

* * *

فَإِنَّمَا حَضَرْتُ الْوَالِيَّ وَقَدْ خَلَا مَجْلِسُهُ ، وَأُنْجِلَى تَعَبُّسُهُ ، أَخَذَ
 يَصِفُ أَبَا زَيْدٍ وَفَضْلَهُ . وَيَذُمُّ الدَّهْرَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : نَشِدْتُكَ اللَّهَ ، أَلَسْتُ
 الَّذِي أَعَارَهُ الدَّسْتُ ؟ فَقُلْتُ : لَا وَالَّذِي أَحَلَّكَ فِي هَذَا الدَّسْتِ ، مَا أَنَا
 بِصَاحِبِ ذَلِكَ الدَّسْتِ ؛ بَلْ أَنْتَ الَّذِي تَمَّ عَلَيْهِ الدَّسْتُ ، فَازْوَرتَ
 مُقْلَتَاهُ ، وَاحْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعْجَزَنِي قَطُّ فَضَحُّ مُرَيْبٍ ،

(١) ديوانه ١ : ١٢ .

لَا تَكْشِفُ مَعِيبَ؛ وَلَكِنْ مَا سَمِعْتُ بِأَنْ شَيْخًا دَلَّسَ، بَعْدَ مَا تَطَلَّسَ وَتَقَلَّسَ، فَبِهَذَا تَمَّ لَهُ أَنْ لَبَّسَ. أَقْتَدِرِي أَيْنَ سَكَعَ، ذَلِكَ اللَّكْعُ؟ قُلْتُ: أَشَفَقَ مِنْكَ لَتَعْدِي طَوْرَهُ، فَظَمَنَ عَنْ بَعْدَادٍ مِنْ فَوْرِهِ. فَقَالَ: لَا قَرِّبَ اللَّهُ لَهُ نَوِي، وَلَا كَلَاهُ أَيْنَ نَوِي؛ فَمَا زَاوَلْتُ أَشَدَّ مِنْ نُكْرِهِ، وَلَا ذُنْتُ أَمْرًا مِنْ مَكْرِهِ، وَلَوْلَا حُزْمَةُ أَدْبِهِ، لَأَوَغَلْتُ فِي طَلَبِهِ، إِلَى أَنْ يَقَعَ فِي يَدِي فَأَوْقَعَ بِهِ. وَإِنِّي لَا كَرِهَ أَنْ تَشِيعَ فَعَلْتُهُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، فَأُفْتَضِّحَ بَيْنَ الْأَنَامِ، وَتَحْبِطَ مَكَاتِي عِنْدَ الْإِمَامِ؛ وَأَصِيرَ ضُحْكَةً بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ. فَعَاهَدَنِي عَلَى الْأَفْوَةِ بِمَا اعْتَمَدَ، مَا دُمْتُ حَيًّا بِهَذَا الْبَلَدِ.

قال الحارث بن همام: فَعَاهَدْتُهُ مُمَاهَدَةً مَن لَا يَتَأَوَّلُ، وَوَفِيتُ لَهُ كَمَا وَفَى السَّمَوِيُّ.

قوله: «النجلى»، أى زال وانكشف. * * * نشدتك: حلفتك. الدست الأول هو الثوب، والثانى: المجلس، والثالث هو الأول، والرابع هو الخداع والحيلة، وقدمه فى الحادية عشرة حيث قال: متى مادسته تم. ازورت مقلته: اعوجت عيناه وتغير نظرها. والوجنتان: ما أحاط بالعين من أسفل. أعجزنى: غلبنى. فضح مريب: كشف متهم. تطلس: لبس الطيلسان، وهو من لباس الخواص، وهو كساء خز. لبس: خلط. سكع: ذهب. اللكع: اللثيم العاجز، قال بعض أهل العلم: كان يقال: خمس خصال، من أقبح شئ فيمن كنّ فيه: الحدة فى السلطان، والكبر فى ذى الحسب، والبخل فى الغنى، والحرص فى العالم، والفسق فى الشيخ، وثلاث هن أحسن شئ فيمن كنّ فيه: تودة لغير ذل، وجود لغير ثواب، ونصب لغير الدنيا.

أشفق : خاف . تعدى طوره : تجاوز قدره . ظعن : رحل . فوره :
حينه . نوى : بعد وسفر . كلاًه : حفظه . نوى : أقام . زاولت : حاولت . نكره :
منكره . مكره : خداعه . أوغلت : أبعدت . أوقع به : أتناوله بالشر
والمكروه والضرب .

وقال أبو حازم في معنى دعاء الوالى على السروجى :

إذا استقلت بك الركابُ فحيث لادرت السحابُ
زالت سراعاً لا وزلت تجرى بينك الظبي والغرابُ
بحيث لا يُرتجى إيابُ وحيث لا يبلغ الكتابُ
والذى استعمل الناس في الدعاء على الغائب ألا يرجع قول زهير :

* لدى حيث ألت رحلها أم قسم *^(١)

وقال آخر :

كما سار الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
ومثل هذا رقية للمرأة إذا سافر زوجها ، قالت : نافرك القمر ، وظل الشجر ،
شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه : شبك ولا انتقس ، وتس ولا
انتعش . ثم ترمى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة وتقول : حصاة حصّ أثره ،
ونواة نأت داره ، وروثة راث خبره ، وبعرة تبعره ، ولو أوغل في طلبه كما ذكر
فأدركه لأنشده السروجى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع^(٢)

(١) ديوانه ٢٣ ، صدره :

* فشدّ ولم يفزع بيوتاً كثيرة *
 (٢) ديوانه ٥٥ .

وقال المعري :

إذا ما أخفّت المرءُ جُنَّ مخافةً وأيقن أن الأرضَ كِفَّةَ حابِلٍ^(١)
يرى نفسه في ظل سَيْفِكَ قائماً وبينكما بُعْدُ المدى المتطاوِلِ

وقال محمد بن هانيء رحمه الله تعالى :

فلا مَهْجَةٌ في الأرض منك منيعة ولوقطرت من ريق أَرْقَطَ شَجَمٍ^(٢)
ولو أنها نِيَطَتْ بِمَخْلَبِ طائر ولو أنها باتت على قرن أَعْقَمِ
وقال أشجع السَّكَمِيِّ في الرشيد ، حين بعث لإدريس بن عبد الله العلوي من
اغتاله بالمغرب :

أَنْظَنَ بِإِدْرِيسَ أَنَّكَ مُفْلِتٌ كَيْدَ الْخِلَافَةِ أَوْ يَقِيكَ حِذَارُ
إِنْ السُّيُوفُ إِذَا انْتَضَاهَا عَزَمُهُ طَالَتْ وَتَقْصُرُ دُونَهُ الْأَعْمَارُ
مِهْمَاتٌ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِلَدَةٍ لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ
ولأبي العرب الصقلي :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ كُفُّكَ إِنْ يَسِرَ بِهَا هَارِبٌ تَجْمَعُ عَلَيْهِ الْأَنَامِلَا
فَأَنْ يَفِرَ الْمَرْءُ عَنْكَ بِجَرَمِهِ إِذَا كَانَ يَطْوِي فِي يَدَيْكَ الْمَرَاكِلا
قوله : تشيع ، أى تتصل ، يقال : شاع الخبر في الناس ، أى اتصل بكل واحد ،
فاستوى علم الناس به ، ويقال : سهم شائع وشاع ، إذا كان في جميع الدار فانصل
كل جزء منه بكل جزء منها ، وأصله في الناقة ، يقال : أوزعت الناقة بيوها إيزاعا ،
إذا فزقتها ، فإذا أرسلته متصلا ، قيل : أشاعت به . تحبط : تسقط وتبطل .
مكائتي : منزلتى . ضُحْكَةٌ : يضحك الناس به وتسكين عينها للمفعول ، وتحريكها

(٢) ديوانه ١٢٥ ، والشجيم : الأسد .

(١) سقط الزند ١٠٢٥ .

للفاعل . أفوه : أنطق . اعتمد ، أى قصد من الخلداع . حِلًا : مقيمًا . يتناول :
يحتال ليمينه فيحملها في الباطن على غير ما أوقعها في الظاهر عليه ، فيريد أنه ثبت
له اليمين .

* * *

[قصّة السمومل]

السمومل ، هو ابن عاديا ، يُضرب به المثل في الوفاء ، وقصة وفائه أن امرأ
القيس ، لما ألح المنذر في طلبه لحق بعمر بن جابر بن مازن يستجير به ، فقال له :
يا بن حُجْر ، إني أراك في خلل من قومك ، وأنا أنفس بك ، أفلا أدلك على
رجل لم أر أحسن جواراً منه؟ فدلّه على السمومل بتياء ، ووصف له حسبه وحصنه ،
فقال : ومن لي به؟ فقال : أحبك من يوصلك إليه ، فأصحبه الربيع بن ضبع - وكان
الربيع يأتي السمومل ويمدحه فيحمله ويعطيه - فمشوا حتى قدموا على السمومل ،
فأنشدوه أشعاراً فعرف حقهم ، وأنزل هنداً بنت امرئ القيس في قبة من آدم ،
وأنزل القوم في مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء ، ثم طلب أن يكتب له
للحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر ، ففعل ، فاستودعه بنته
وأدراعه الخمس ، وهى الفضفاضة ، والصفافية ، والمحصنة ، والحريق ، وأم الذبول ،
وكنّ لبني آكل المرار ، وهم أجداده يتوارثن ملكاً عن ملك . فضى إلى قيصر ،
وأقام عنده حتى جهّزه بجيوش ، ثم بعث له بالحلة المسمومة ، فلما لبسها تقطع لحمه ،
ومات . فلما بلغ خبر موته المنذر قصد تياء حصن السمومل ، فبعث إليه أن
يعطيه أذراع امرئ القيس وما ترك عنده من المال ، فقال له : إنما أدفع ذلك
لابنته ولورثته ، فحاصره في الحصن ، حتى أخذ ابناً له صغيراً ، فقال للسمومل إما
أن تعطيني ماترك امرؤ القيس أو أقتل ابنك وأنت تنظر إليه ، فقال له : والله
لا وفيت له في حياته ، وأعدره بعد وفاته ! اذهب ، فشأنك بابني فافعل به ما شئت ،

فذبجه وهو ينظر إليه ، ولم يرض بالغدر ، فلما جاء الموسم ذهب بالدروع فدفعها لابنته وورثته ، وقال :

وفيتُ بأدرع الكِندي إلى إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ
وقالوا إنه كنز عظيم ولا والله أغدر ما حيت^(١)
بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت
فضرب به المثل في الوفاء^(٢) . وانظر في الثلاثين ابتداء الحكاية .

(١) موضعه في الأغاني :

وأوصى عاديا يوماً بالآه هَدَّم يا سموءل ما بنيتُ

(٢) الجبر والشعر في كتاب الأغاني ٦ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

المفامنة الرابعة والعشرون النخوية

حكى الحارث بن همام قال: عَاشَرْتُ بِقَطِيعَةِ الرَّبِيعِ ، فِي إِبَّانِ الرَّبِيعِ ،
فَتِيَّةَ وَجُوهُهُمْ أَبْلَجُ مِنْ أَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْهَجُ مِنْ أَزْهَارِهِ ،
وَالْفَاظُهُمْ أَرْقُ مِنْ نَسِيمِ أَسْحَارِهِ .

فاجتليتُ مِنْهُمْ مَا يُزْرِى عَلَى الرَّبِيعِ الزَّاهِرِ ، وَيُغْنِي عَنْ رَنَاتِ
الْمَزَاهِرِ ؛ وَكُنَّا تَقَاسِمُنَا عَلَى حِفْظِ الْوَدَادِ ، وَحَظْرِ الْاسْتِبْدَادِ ، وَالْأَيْتَفَرْدِ
أَحَدُنَا بِالْتِذَاذِ ، وَلَا يَسْتَأْثِرُ لَوْ بَرَدَاذِ . فَأَجْمَعْنَا فِي يَوْمٍ سَمَاءَ دَجْنَةٍ ،
وَنَمَاءَ حُسْنَةٍ ، وَحَكَمَ بِالْاصْطِبَاحِ مُزْنُهُ ، عَلَى أَنْ نَلْتَهِيَ بِالْخُرُوجِ ،
إِلَى بَعْضِ الْمَرْجِ ؛ لِنَسْرَحَ النَّوَاطِرَ ، فِي الرِّيَاضِ التَّوَاضِرِ ، وَنَصْقَلَ
الْخَوَاطِرَ ، بِشِيمِ الْمَوَاطِرِ ؛ فَتَبَرَّزْنَا وَنَحْنُ كَالشَّهْرِ عُدَّةً ؛ وَكُنَّا
كَدَمَا نَى جَذِيعةَ مَوْدَةٍ .

* * *

عاشرت : صاحبت .

قطِيعَةُ الرَّبِيعِ : بلد معروف ، والرَّبِيعُ حَاجِبُ الْمَنْصُورِ وَمَوْلَاهُ ، وَهُوَ [وَالِدٌ] ^(١)
الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فُرُوءَ ، وَكَانَ أَقْطَعَهُ الْمَنْصُورُ
بِلَدًا بِالْعِرَاقِ فَبْنَاهُ ، وَبَنَى النَّاسَ مَعَهُ ، حَتَّى صَارَ فِيهِ عِمَارَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَهِيَ مَحَلَّةٌ
قَرِيبَةٌ مِنْ كَرْخِ بَغْدَادَ فِي أَعْلَى غَرْبِيَّةِ بَغْدَادَ ، فَتَنَسَّبَتْ إِلَى الرَّبِيعِ .

إِبَّانُ : وَقْتُ . فَصْلُ الرَّبِيعِ : التَّوَارُ . أَبْلَجُ : أَحْسَنُ لَوْنًا وَأَنْعَمُ أَنْوَارُهُ .

(١) زيادة من معجم البلدان .

أزهاره ، ونور النبات وأنور صار فيه النور ، وأبهج : أحسن لوناً ، والبهجة : حسن اللون ونسيم السحر ريحه اللينة الباردة ، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى للجنة كل يوم : طيبى لأهلك فتزداد طيباً » ، فذلك البرد الذى تجده الناس بسحر ذلك اليوم .

وقال ابن عمار فى نسيم السحر على الرياض فأحسن :

ويوم لنّا بالسّد بين معاطفٍ من النّهر تنساب انسياب الأرقام
بحيث آتخذنا الروض جارا تزورنا هداياه فى أيدي الرّياح التّواسم
ييلفنا أنفاسه فيردّها بأعطر أنفاس وأذكي لناسم
تسير علينا ثمّ عنا كأنّها حواسدُ تمشى يبدّنا بالتّمام

اجتليت : نظرت . يزرى : يقصر ، وتقول : زريتُ عليه إذا عبتَ عليه
ما فعل ، وأزريتُ به قصّرتُ . الزاهر : الناعم . رنات : أصوات . المزاهر :
عيدان الفناء . تقاسمنا : تحالفنا . حَظَرُ : منع . الاستبداد : الانفراد بالشئ .
يستأثر : يختص : رذاذ : أقل المطر ، أى اتفقوا ألاّ ينفرد واحد بشئ دون
أصحابه . أجمعنا : عزمنا : سماء جنته : ارتفع سحابه : نما : زاد . الاصطباح :
شرب الخمر بالسحر . مزنه : مطره ، وفى مثل بكورهم يقول عبد الجبار الصقلى (١) :

بادِرْ إلى اللّذاتِ وارْكَبْ لها سوابقَ اللّهُ ذواتِ المِراحِ (٢)
من قبل أن ترشف شمسُ الضحى ريقَ الفوادى من تُغور الأفاخِ

نتهى (٣) : نقسلى وتفرج . والروج : المواضع المنخفضة الخصبية ، واحداها

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس ، وشهرته ابن حمديس .

(٢) ديوانه ٨٩ ، وفيه : « باكر إلى اللذات » .

(٣) ط : « انتهى » التصحيف .

مَرَج ، وسمى مَرَجًا ، لأنَّ البهائم تمرج فيه أى تسيب . نَسْرَح : نسيب
النواظر : العيون ، وبالضاد واعم الأزهار . والخواطر : الأذهان . شيم المواطر :
نظر السحاب . برزنا : خرجنا ، وجعل خروجهم في السَّحَر ، لأنَّ أول النهار
أحمد أوقات الشرب ، فقال : أول النهار ، ألا ترى الدَّواء يَبْكُر به ، والمسافر
يُدليج لحاجته ، لأنَّ العقول أول النهار أزكى ، والفطن أصح ، وقال العَطَوِي :^(١)

قَبَّحَ اللهُ أَوَّلَ النَّاسِ سَنَ الشَّرْبِ ظَهراً مَآذَى مِنْ خَسَارِ !
مَجْلِسَ مَوْنَقٍ وَكَأْسٍ وَنَدْمَا نَ وَتَأْخِيرَهَا إِلَى الْإِظْهَارِ
نَكْتَةً فِي السَّرُورِ بَادِيَةِ الشَّيْنِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ وَالْأَبْصَارِ
إِنْ شَرِبَ النَّبِيذَ سَبْرًا إِلَى اللَّهِ هُوَ وَخَيْرَ الْمَسِيرِ صَدْرُ النَّهَارِ
مَا رَأَيْنَا لِنَشْوَةِ الصُّبْحِ شَكْلًا كَنَدِيمٍ مُسَاعِدٍ وَعُقَّارِ
وَعَنَاءٍ يَفْتُ فِي عَضْدِ الْحَاكِمِ مَ وَيُزْرِي عَلَى النَّهْيِ وَالْوَقَارِ
وَأَحَادِيثٍ فِي خِلَالِ الْأَغَانِي كَانْفِتَاحِ الرِّيَاضِ غِبَّ النَّهَارِ

وبعضهم يمدح الغبوق ، ويذم الصبوح ، وابن المعتز ممن يذهب إلى ذلك .

[جَذِيمة وَنَدِيمَاه]

قوله : كندمانى جذيمة ، أى صاحبيه على الخمر ، واسمها مالك وعقيل ،
وجذيمة ابن مالك بن تيم الأزدي ، وكان ملك أيام الطوائف بشاطيء الفرات
وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة .

قال ابن السكبي : جذيمة : أول من ملك قضاة بالحيرة ، وأول من حدّا

(١) ط : « العَطَوِي » ، تصحيف .

للنعال^(١) وأدلىج من الملوك ، ورُفِع له الشمع ، وكان من أفضل ملوك العرب رأيا ، وأظهرهم حزمًا ، وهو أول من استجمع الملك له بأرض العراق ، وغزا بالجيوش ، وكان به برص ، فكنت العرب عن البرص إعظامًا فقالت له : جذيمة الواضح ، وجذيمة الأبرش .

وكان غزا طسماً وجديساً في منازلهم ، فصادف حسان بن تميم ، قد أغار عليهما ، فانصرف جذيمة . وصادفت خيول تميم سرية له قتلوهم ، فبلغ الخبر جذيمة فقال^(٢) :

رَبِّمَا أَوْفَيْتُ فِي عَـلَمَ تَرْفَعَنْ ثَوْبِي شِمَالَاتُ^(٣)
فِي فَتَوٍ^(٤) أَنَا كَالْتُهُمْ مِنْ بِلَايَا غَزْوَةٍ مَاتُوا
لَيْتَ شَعْرِي مَا أُمَاتَهُمْ نَحْنُ أُسْرِينَا^(٥) وَهُمْ بَاتُوا

وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن ، واتخذ صنمين ، وسماها الضيزنين^(٦) ، ومكانهما بالحيرة معروف .

وغزا إيلادا بعين أباغ ، فبعثوا قوماً منهم سرقوا منهم الضيزنين ، وأصبحوا

(١) هذا النعل : قدرها وقطعها ، وفي المعارف لابن قتيبة ٥٥٤ : « وأول من حذا العال جذيمة الأبرش بن مالك ، وهو أول من وضع التنجنيق وأدلىج من الملوك ، ورقم له الشمع ، وكان ينادم الفرقدين ذهاباً بنفسه ، وكان يشرب قدحا ، ويصب لكل نجم قدحا في الأرض ؛ حتى نادمه مالك وعقيل .

(٢) وردت أبيات هذه القصيدة في سيبويه ٢ : ١٥٤ وابن سلام ٣٢ ، ٣٣ ، والأغاني ١٤ : ٧٣ والمؤتلف للامدي ٣٤ والخزانة ١ : ٥٠٧ ، وفي تاريخ الطبري ١ : ٦١٣ ، ٦١٤ أحد عشر بيتاً ، ونقل عن ابن السكبي قال : ثلاثة أبيات منها حق والبقية باطل .

(٣) أوفيت : أشرفت . والعلم : المرتفع من الأرض . والمعالمات : جمع شمال من الرياح والنون في « يرفعن » تأكيد للفعل ضرورة .

(٤) ط : « فتون » تصحيف . وفتو : جمع فتى . وكالتهم : حافظهم .

(٥) الطبري : « ونحن أدجلنا » .

(٦) ط : « الضيزنين » تصحيف .

(١٢ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

يهما في إباد، فأرسلوا إليه : إن صنميك أصبحا عندنا، زهدا فيك ورغبة فينا،
فأعطينا عهداً ألا تغزونا، ونردها إليك. ففعل .

وكان بلغه أن غلاماً من تخلم يسمى عدى بن نصر مقيم في أخواله من
إباد، وله ظرف ولُبّ وأنه لحسنٌ أن ينادم الملك، ويقوم بمجلسه . فاشترط
على إباد أن يبعثوا مع الصنمين بعدى بن نصر، وكان له جمال وظرف، فدفعوه
إليه معهما فضمه إلى نفسه . وكان يناديه ويسقيه فتعشقت رقاش أخت جذيمة ،
فبعثت إليه : إذا سقيت أخى واستنشى ، فاخطبني لك ، وأشهد عليه ، ففعل .
فلما طرب جذيمة خطبها ، فأنعم عليه ، وأشهد عليه ، فقل له : عرس بأهلك ،
ففعل . فلما أصبح غداً على جذيمة مضرّجاً بالطيب ، فقال له : ماهذه الآثار ؟
فقال : آثار العرس ، قال : وأيّ عرس ؟ قال : عرس رقاش ، فأكبت جذيمة
على الأرض ، وفرّ عدى ، وطلبه جذيمة فلم يدركه . وقيل : ظفّر به . وقال لرقاش :

حَدَّثَنِي رَقَاشُ لَا تَكْذِبْنِي أَبْحَرِ زَنَيْتِ أُمُّ بَهْجِينَ
أُمُّ بَعْبِدٍ فَأَنْتِ أَهْلٌ لِعَبْدٍ أُمُّ بَدُونٍ فَأَنْتِ أَهْلٌ لِدُونٍ

حقّالت له :

أَنْتِ زَوْجَتِي وَمَا كُنْتُ أُدْرِى فَأَتَانِي النِّسَاءُ لِلتَّزْيِينِ
ذَاكَ مِنْ شُرْبِكَ الْمَدَامَةِ صِرْفًا وَتَمَادِيكَ فِي الصَّبَا وَالْجَوْنِ

فحبسها في قصرها، فاشتملت على حبل^(١) فأنت بغلام ، وسمته عمرأ ، وربّته
حتى ترعرع ، فجملته وعطرته وألبسته كسوة مثله ، ثم أزارته خاله فأعجب به ،
وألقى عليه محبته، وخرج جذيمة في سنةٍ قدأ كُتات، وبُسط له في روضة، وعمره

(١) الطبري : ١ : ٦١٥ : « على حبل »

مع غلّة يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو ، خبأها ثم أقبلوا يتعادون^(١) وعمرو يقدمهم ، ويقول :

هـ. هذا جنائى وخيارُهُ فيه إذ كلّ جانٍ يدهُ إلى فيه

فالتزمه جذيمة ، وحلّ منه بمكان . ثم إن الجنّ استهوته^(٢) ، فطلب زماناً ، وأرسل فيه فى الآفاق ، فلم يجد له خبراً . ثم إن عمراً أوفى على مالك وعقيل ابني فارج بن مالك بن كعب بن التيس بن حمير بن قضاة ، وقد نزلا منزلاً ، وهما متوجهان إلى خاله جذيمة ، ومعهما قينة ، يقال له أم عمر ، وهى تغنيهما وتسقيهما ، فرأت عمراً وقد تلبّد شعره وطالت أظفاره ، وساءت حاله ، فاحتقرته فرمت إليه بكراع^(٣) من طعامها ، وناولتهما ، وأوكأت زقمًا ولم تناول عمرا شيئاً ، فقال عمرو :

صَدَدَتِ الكَأْسُ عَنَّا أَمَّ عمرو وكان الكَأْسُ مجراها اليمينا^(٤)
وما شرّ الثلاثة أَمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا
فما شرب الشراب كمثل عمرو وما نال المكارم فاصبحينا
فإلّا تنكرى عمرا فإنى أنا ابن عدى حقاً فاعرفينا
وخالى لا أبالك ذو المعالى جذيمة كيف ويحك تنكرينا!

فقالا له : مَنْ أنت يافتي ؟ قل : أنا عمرو بن عدى ، فضمّاه إليهما ، وغسلا رأسه ، وأخذا من شعره . وقلّما أظفاره ، وألبساه بعض الثياب التى كانت معهما ، وقالوا : ما كنا نهدي جذيمه أنفس من ابن أخته ، ثم وردا به على جذيمة فسرّ به سروراً شديداً ، وقال : لهما تمنّيا ، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش وعاشا ،

(١) تمادى القوم ، أى تباروا فى العدو .

(٢) استهوته الجن ، أى ذهبت بهواه وعقلة .

(٣) الكراع : مستدق الساق من البقر والغنم .

(٤) البيتان الأولان ينسبان لعمرو بن كاثوم ؛ وهما فى مطلقته ص ٢١١ - بشرح التبريزى

فنادماه أربعين سنة ، ما أعادا عليه حديثاً ، فضرب بهما المثل في تأكيد الألفة ،
ونال مالك بن نويرة في مالك :

وكنّا كندمانى جذيمة حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا^(١)
فلما تفرقنا كأتى ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلةً معاً
وتمتلت بهما عائشة رضى الله عنها عند قبر أخيها عبد الرحمن .

وقال أبو خراش الهذلي يرئى أخاه :

تقول أراه بعد عروّة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل^(٢)
فلا تحسبى أن قد تناسيت عهدَه ولكن صبرى يا أميم جليل
ألم تعلمى أن قد تفرّق قبلنا خليلاً صفاء : مالك وعقيل

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العمليقي من العماليق ،
ومنهم قوم من حمير . وكان ملك الجزيرة وملك الحضر ، وهى مدينة قديمة بين درجلة
والقرات ، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفترق جموعه ، وقال فى ذلك شاعرهم :

كان عمرو بن برق لم يكن ملكاً ولم تكن حوله الرايات تخفق^(٣)
لاقى جذيمة فى شعواء مشعلة فيها حراشف بالنيران ترتشق

[الزباء]

فلكت بعده الزباء ابنته واسمها نائلة .^(٤)

قال ابن الكلبي : ولم يكن فى عصر الزباء أجمل منها جالا ، وأكل

(١) من قصيدة مفضلية ص ٢٦٥ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢١٦ .

(٣) البيتان فى تاريخ الطبرى ١ : ٦١٨ ينسبتهما إلى الأعور بن عمرو بن هناة بن

مالك بن فهم الأزدي وفيه : « عمرو بن تربي » .

(٤) خبر الزباء وجذيمة فى كتاب المغتالين من الأشراف ١١٢ - ١١٥ .

منها كالا ، وكان لها شعر إذا مشت يتدلى وراءها ، وإذا نشرته جلّ لها ، فسُميت الزباء . لكثرة شعرها ، فجمعت خيل أبيها وغزت بالجيوش مَنْ حوالها من الملوك ، فذلّتهم ، فضرب بها المثل فقيل : أعزّ من الزباء ، واشتهر عنها علوّ الهمة ، وسموّ القدرة ، وقوّة المتعة ، ومضاء العزم ، وبذل الأموال . فلما استحکم ملكها أرادت أن تغزوّ جذيمة لتدرك فيه ثأر أبيها ، فهتبا أختها زبيبة عن ذلك . وقالت : لا طاقة لك به ، ولكن ابني أمرك فيه على المكر والحيل . فبهتت إلى جذيمة تحطبه على نفسها ، ليتصل ملكه بملكها ، فيصير بذلك أعزّ الملوك . وكان بلغه عن جامها ما أطعمه في الظفر بها - فاخبر أرباب دولته بمخاطبتها إياه ، فكلّهم أشار عليه أن يتزوّجها ، إلا قصير بن سعد^(١) بن عمرو - وكان ليدياً عاقلاً له مزم وحزم ، وكان خازنه وعيد دولته - فإنه قال له : هذا رأى فاتر ، لأن الزباء قتلت أباه والدم لا ينام ، ولك في بنات الملوك الأكفاء متسع ، فقال له الملك : إنّ النفس إلى ما تحبّ توافقه ، وإن كان القدر قد جرى بشيء فلا مفرّ عنه .

وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح ، وقالت له : لولا أن السعى في مثل هذا للرجال أجل ، ولهم ألزم ، لسرتُ إليك . وأهدت مع كتابها من العبيد والسلاح والأموال والذهب هدية سنّية ؛ فلما وصلت أهبجته ، وحسب أن ذلك لفرط رغبته فيه ، فشاور قومه وابن أخته عمرا ، فشجعوه على المسير إليها ، واستخلف عمرّاً على ملكه ، وسار في خواصّه حتى نزّلوا بالقرضة ، فشاور خواصّه وقصيرا في الجملة ، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيرا ، فإنه قال : أيها الملك كلّ عزم لا يؤيد بجزم فأخره إلى فساد ؛ ولولا أن الأمور تجري على المقدور ، لعزمت على الملك ألا يفعل ، فقال جذيمة : الرأى مع الجماعة ، فقال قصير : أرى القدر سابق الحذر ، ولا يطاع لقصير رأى . فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها

(١) ط : « سعد » - تحريف .

بموضعه ، فأظهرت السرور به ، وأخرجت له هدايا وأنواعا من الأطعمة والأشربة ، فقال لقصير : كيف ترى ؟ فقال قصير : مَنْ لم ينظر في العواقب لم يأمن المصائب ، فاستدرك الأمر قبل فوته ، وارجع فإن في يدك بقية تستدرك بها الصواب ، وإن كنت لا بدّ فاعلا فإن القوم إن تلقّوك غداً يحبّون قوم ويذهب قوم ، فالأمر في يدك ، وإن تلقّوك صقّين فإذا توسطتهم وأحدقوا بك ، فقد ملكوك ، وهذه العصا — وهي فرس لجذيمة تستبق الطير — فسأعرضها لك فأركبها لتسلم عليها ، فإنه لا يشقّ غبارها ، فأرسلها مثلاً .

فلما كان غد لقوة صفين ، فلما توسطتهم انقضوا عليه ، فقال لقصير : صدقت فما الرأي ؟ فقال له : بقّة تركتُ الرأي ، وهذه العصا ، اركبها ، فشعلّه الأمر عنها . فلما رأى قصير الجيوش نسير بجذيمة أعطى العصا عيناها ، فهوت به هوىّ الرّيح ، فتطاول إليه جذيمة ينظره ، فقال : ويل له جذيمة ؛ فجرت به إلى غروب الشمس .

— قال الأصمعي رحمه الله تعالى : لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلا ، ثم وقفت فبالت ، فبُني على الموضع بُرج يسمى برج العصا — وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة ، وهو يساق ، فقالت : ما أحسنك من عروس يزف إلى ! فدخلوا به إليها ، وحوّلها ألف وصيفة ، لاتشبه واحدة صاحبته في خلق ولا زينة ، وهي بينهم كالقمر حفت به النجوم ، فأمرت بالأنطاع فُبسطت ، وقالت للوصائف : خذن بيد سيدكنّ وبعّل مولاتكنّ ، فأجلسنه على الأنطاع ، ففعلن به ذلك ، ثم كشفت له عن شعرتها ^(١) ، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها ، فقالت له : يا جذيمة أشوار ذات عروس ؟ قال : بل شوار بظراء ثقلة ، وأمر غدر قد بلغ المدى ^(٢) ، فقالت : والله ما ذاك من عدم المواس ، ولكنّها شيمة أناس .

(١) الأشعران : جانبا الفرج ، وفي ط : « شعرتها » .

(٢) في المختارين : فقالت : يا جذيمة ، أذات عروس ترى ، قال : بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى .

ثم أمرت به فسقى بالخر حتى أخذت فيه ، وكانت الملوك لا تضرب أعناقهم إلا في الحرب ^(١) ، ثم أمرت أن تقطع رواهش ^(٢) ، وقالت : تحمقن بدمه ، لأنه إن قطرت من دمه قطرة في غير الطشت طُلبَ بدمه ، فجرى دمه في طشت ذهب ، فلما ضعفت يداه سقطتا ، فقطرت على النطع من دمه قطرات ، فقالت : لاتضيّعوا دم الملوك ، فقال لها « لا يحزنك دم ضيعة أهله » ، فذهبت مثلاً ، فقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، والله ما وقي دمك ولا شني قتلك ، ثم أمرت به فدفن .

وكان عمرو بن عدى يخرج كل يوم لبعض الحيرة ، يستطلع أمر خاله ، فنظر يوماً إلى فارس قد أقبل ، فأشرف عليه قصير ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال له : سعى القدر بالملك إلى حتفه ، فاطلب بثأره ، فقال عمرو : وأى نار يُطلب من الزبأ ، وهى أمتع من عقاب الجوّ ! فقال قصير : والله لأنام عن طاب دمه ملاح نجم ، فاجدع أنفى واضرب ظهري ، ودعنى وإياها . فقال عمرو : ما أنت لذلك بأهل ، وقد علمت نصحك لخالى . فقال : خلّ غنى إذا ، فجدع أنفه ولحق بالزبأ ، فقالت : ماجاء بك ؟ فأشار بظهره وأنفه - فقالت العرب : « لأمر ماجدع قصير أنفه ! » فقالت : يا قصير ، بيننا دم خطير ، فقال : يا ابنة الملوك العظام لا تآر ولا قود ، ولقد أتيت فيه على ما يأتى مثلك فى مثله ، وقد جئتكم مستجيراً بك من عمرو . فإنه علم أنى أشرت على خاله بالهجرة إليك ، فجدع أنفى وأذنى ، وأوجع ظهري ، وحال بينى وبين مالى وولدى ، فاستجرتُ بك لعلنى أتى لا أكون مع أحد أثقل عليه منك ، فقالت له : أهلاً وسهلاً - وكان يبلغها من رأيه وحزمه - فاحتضنته وأنزلته واصطفته ، فلما وثقت به ، أخذت تستشيرهُ فى أمورها . فقال لها يوماً : إن عمرا يطلبك بخاله ، والرأى أن تتخذى نفقا لعلك تحتاجين إليه ، فقالت له :

(١) بعدها فى جمع الأمثال : « تسكرمة لهم » .

(٢) الرواهش : « عروق ظاهر الكف » .

إني قد اتخذته تحت سريرى ، وخرجت به تحت سرير أختى - وكان الفرات يشق بين قصيريهما - فأظهر لها السرور ، ثم قال لها : إن لي بالعراق أموالاً كثيرة تصلح بالملوك فإن جهزني بمال للتجارة ، توصلت فيه إلى أخذ تلك الذخائر ونقلها إليك ، فجهزته . فاحتال حتى وصل إلى عمرو ، فجهزه بطرف من الجواهر والخز والدباج والأسلحة ، فرجع بها ، فلما تحققت نصحه ، أرسلته إلى العراق ثالث سفرة ليضرب لها بها عدة من السلاح ، ويشتري لها خيلاً وعبداً لتجهز جيشاً إلى من حوالها من الملوك ، فمضى فيما أمرته به ، وتوصل إلى عمرو ، وقال : قد أصبت الفرصة من الزبائن ، فقال عمرو : قل أسمع ، ومرا فاعل ، فأنت طيب هذه القرحة ، فقال : الرجال والمال ، فقال : حكمك فيما عندي مسأط ، فعمد إلى ألى رجل من أهل القتال ، وجعلهم في غرائر سود ، وجعل سلاحهم السيوف والحجف^(١) ، وجعل رموس الفرائر مربوطة من داخلها ، وجعل عمراً في الحملة ، وساق الخيل والعبيد ، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ما جاء به ، فسألت عن العير أين نزل ؟ فقيل لها : بالغوير - وكانت تنظره من غير طريق الغوير - فقالت : عسى الغوير أبؤسا ، وتقدم قصير ، فدخل عليها فبشّرها ، فرقيت سطحاً عالياً لتتنظر بحجى الإبل ، فنظرت قوائمها تسوخ في الأرض لما عليها من الأثقال ، فقالت : يا قصير :

ما للجمال مشيتها وثيداً أجندلاً يحملن أم حديداً !
أم صرّافاً^(٢) بارداً شديداً أم الرجال جُثماً قعوداً

وكانت قالت لجواريتها : إني أرى الموت الأحمر في الفرائر السود ،
فذهبت مثلاً

فدخلت الجمال المدينة ، فحسّ بواب بمحصرة في يده غرارة على آخر بعير ،

(١) الحجف : بالتحريك : التروس من جلود بلا خشب ولا عقب .

(٢) الصرّافان . تمر رزين صلب .

فأصاب الخنصرة خاصرة رجل فضرط فصاح: الشر الشر ، فأظهروا علامة كانت بينهم ، فخلوا رموس الجوالق ، فخرج منها ألفا دارع بألفي سيف ، فصاحوا: بالثأر الملك المقتول غدرأ ! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات ، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير ، وكانت صورة عمرو مصورة في جانبها ، فعندما رآته عرفته ، وكانت جعلت تحت فصّ خاتمها سمّ ساعة فصّت الفصّ ، وقالت : ييدى لا بيد عمرو . فسقطت ، وعمرو وقصير يضربانها بالسيف ، فماتت بين السم والسيف ، فاستباحوا بلدها بما فيه ، واستولى عمرو على مملكتها . واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه ، وتوارثها بنوه واحدا واحدا إلى النعمان بن المنذر ، وهو الذى أدرك زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتله كسرى ، وهو آخرهم ، وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام . وقال ابن دريد :

وسيفُ عمرو أستغلت به همتُهُ حتى رمى أبعدَ شأو المرتَمَى^(١)
فاستنزل الزباء قسراً وهى من عقاب لوح الجوّ أعلى منتهى

إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت ، وتنوعت أزاهيرها وتلوّنت ، ومعنا الكميّ الشّموس ، والسقاة الشّموس . والشادى الذى يُطربُ السّامعَ ويُلْهِيه ، وَيَقْرِى كُلَّ سَمْعٍ ما يشتهيه . فلما اطمان بنا الجلوس ، ودارت علينا الكئوس ، وَغَلَ عَلَيْنَا ذِمْرٌ ، عَلَيْهِ طِمْرٌ ، فتجهمناه تجهم الغيد الشيب ، وجدنا صفو يومنا قد شيب .

[فصل فى الرياض والبساتين وبعض ما ورد فيها من الشعر]

قوله : إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت .

نُريد أن نصل باب الرياض والبساتين، إذ هي جامعة ألوان لم تدخلها الصنعة، ولم تمارِجها الكلفة، مع بديع أزهارها التي سماها الله سبحانه وتعالى زينة، وزخرفاً فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ﴾، وأن نجتني فيه بعض ما قالت العرب، ونقلته الرواة من الشعر المستحسن، والتشبيه المشاكل، فإن جُلّ النفوس مستأنسة به ونازعة إليه، ومرتاحة لذكركه، ومشتاقة إلى زمانه، ولا تكون الرياض موفقة، والأزهار مشرقة، إلّا في اعتدال الزمان، وجدة الأيام، وهي إذا حلت الشمس في برج الحمل، كما قال الحسن :

أما ترى الشمسَ حلتَ الحملَ وقام وزنُ الزمانِ واعتدلاً^(١)
فاشرب على جدّة الزمان وقد أصبح وجهه الزمانِ مقبلاً
وغنّت الطيرُ بعد عجمتها واستوفت الحمرُ حولها كمالاً

قال الأصمعي رحمه الله تعالى: سألت أعرابياً عن الفيث، فقال: عُمِلَت الحياض، وأشرقت الرياض، وأخرجت الأرض زخرفها، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقيل لأعرابي: أي شيء رأيت أحسن؟ فقال الأعرابي: ظباء راتعة، في رياض يانعة، والشمس طالعة.

وقيل لآخر: صف لنا الربيع وأوحز، فقال: هو صديق النفس بريحانه، ومليك الطرف بريعانه، مع أنه أشكل بالشبيبة، وباعث الشهوة البعيدة.

وقال إبراهيم بن السدي: خرجت أريد نزهة نهر الأُبلة مما يلي كاظمة تميم وقصر مقعد، حتى غوّرت في مبنى أتمخيل الرياض، وأجبل ناظري في مساقط الفيث، حتى دفعتُ إلى أعرابي عند روضة غناء، عميم نبتها، زاهر نورها، يطيف بها، فقلت: يا أعرابي، أحسنُ عندك ما ترى؟ فقال: كلاً والله، سماء

مظلة وأرض مقلّة، تضحك هذه عن بكاء هذه ، فاشتت من درّة بيضاء ،
وياقوتة حمراء ، وزمردة خضراء ، قد نظمتها أيدي المزن في نحور الصعيد .

وقال يزيد بن ماهان الأومى : أتيت أرضَ السماوة في أنفٍ ^(١) من الربيع ،
وقد اكتهل النبت ، فلما جرتُ ساحةَ الحىّ دفعتُ إلى جوار كأنهنّ دُمى
العاج ، يمشين كقضيب البان ، وبين أيديهنّ روضة مشرقة ، وهنّ يَطْفُنَ بها ،
ويهنّ الولوج فيها . فقلت : مالكنّ لا تلجن الروضة ، فهى أوطأ لأقدامكنّ ،
وأقرب لإثارة أرجها من أنوفكنّ ؟ فقالت إحداهنّ : أحرام عندك أن يطا
بعضنا خدود بعض ؟ قلت : بلى والله ، قالت : فوجه الأرض أحقّ بالتحريم أن
يحصد أو يتوسّد .

وبعث الحجاج إلى عبد الملك بجاريتين ، وكتب إليه : هما عندى بمنزلة
روضتين من رياض السماوة ، جاد الربيع أولّه وآخره عليهما ، فاعتمّ نبتهما ، ونور
زهرهما ، وحسن منظرهما ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بهما مباركا له فيهما .
وقد ذكرت الشعراء الغيث والرياح بالفاظ مستحسنة ، ومان مستظرفة ،
وتمثيل رائع ، وتشبيه رائق ، يبعث السرور ، وينفى لوعة الحزون ، ويحبب أريحية
الفتوة والشباب ، فنذكر هنا من محاسن أشعارها ولطائف مذاهبها فى ذلك ما نرجو
به أنبقى بالفرض الذى قصده وضمّنه الحريرى صدره هذه المقامة ونوافقه ، ونشرح
منزعتها الشريف فى ذلك ونحقّقه إن شاء الله تعالى .

أنشد السّيرافى رحمه الله تعالى يصف روضة :

نضّاجة تملأ العينين بهجتها فيحاء حُفّت بأنواع الرياحين
فى ظل آس وجرجير و نرجس وسوسن زان وردا بين نسرين
وكزمة ذات أعنابٍ مذلة من كلّ أقطارها تحت الأفانين

(١) أنف الربيع : أوله

شَبَّهَتْ فِيهَا الْعَنَاقِيدَ الَّتِي بَقِيَتْ
فَتَارَةً مِنْ يَوَاقِيتٍ مَنْصُودَةٍ
نَعِيمِنَا غَدَقَ وَمَاؤُهَا غَبِقُ
فِيهَا زُرَابِي قَدْ بُشَّتْ مَلَمَعَةٌ

فعارضه حسن الكوفي، فقال:

كَأَنَّهَا كَاعِبٌ حَسَنَاءُ أُبْرَزَهَا
تَبَرَّجَتْ لِتَرَوْقِ النَّاسِ بَهْجَتَهَا
وَالْأَيْكَ مَائِلَةٌ الْأَعْصَانُ زَائِدَةٌ
إِذَا الرَّخَاءُ جَرَتْ فِي نَوْرِهَا لَفْظَتْ
كَأَنَّمَا أَلْبَسَتْ أَكْمامَهَا حُلًّا
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ:

لَمْ يَضْحَكِ الرُّوضُ إِلَّا حِينَ أَحْبَبَهُ
بَدَا فَأَبْدَى لَنَا دُنْيَا مُحَاسِنَهَا
مَاقَابِلَتْ قُضْبُ الرِّيحَانِ طَلْعَتَهُ
بَيْنَ النَّدِيمِينَ وَالْحَلِثِينَ مَسْرَعَةً
فَبَادَرَتْهُ يَدُ الْمُشْتَاكِ تَسْنُدُهُ
لَا عَذَابَ لِلَّهِ إِلَّا مَنْ يَعْذِبُهُ

وقال البحتري:

سَقَى الْغَيْثُ أَكْنَافَ الْحَمَى مِنْ مَحَلَّةٍ
إِلَى الْحِثْفِ مِنْ رَمْلِ اللَّوَى الْمُتَفَاوِدِ^(٢)

(١) ديوانه ٨٩، ٩٠.

(٢) ديوانه ٦٢٣. والحثف . المروج من الرمل . واللوى : ما التوى منه .

ولا زال مخضراً من اللون يانع^(١)
 يذكرنا رؤيا^(٢) الأحبة كلما
 شقائق يحملن الندى فكأنه
 ومن لؤلؤ كالأقحوان منظم
 وقال أيضاً :

وكان الحوادث والأقحوان
 قطرات من السحاب وروض
 وقال أيضاً :

وقد نبه النوروز في غسق الدجى
 ومن شجر ردّ الربيع لباسه
 وقال الحسن بن وهب :

طلعت أوائل للربيع فبشّرت
 وغدا السحاب يكاد يسحب في الثرى
 يبكي فيضحك نورهن ، فياله
 وترى السماء إذا أجدّ ركابها
 وترى الفصون إذا الرياح تارّجت
 ولأبى زرعة الدمشقي :

وقد أخذت زهر الرياض حليها

عليه بمحمر من النور حاشد^(٣)
 تنفس في جُنح من الليل بارد
 دموع التصابي في خدود الخرائد
 على نكت مصفرة كالقرائد

فضّ نظمان : لؤلؤ وفريد^(٤)
 نثرت وردها عليه الخدود

أوائل ورد كنّ بالأمس نوما^(٥)
 عليه كما نشّرت برّداً متنمنا

نور الرياض بمجدّة وشباب
 أذبال أسحمت حالك الجلباب
 ضحكا تحسّر عن بكاء سحاب
 فكأنما التحفت جناح غراب
 ملنقة كتعاقب الأحاب

وألبست الأرض الفضاء الزخارف

(١) الديوان : مخضر من الروض .

(٢) الديوان : « حاسد » .

(٣) الديوان : « ريا » .

(٤) ديوانه ٧٢٢ ، ٧٢٣ .

(٥) ديوانه ٢٠٩٠ .

لُجَيْنٌ وَعِثْيَانٌ يَرُوقُ وَجَوْهَرٌ
تَهَادَى التَّلَاعُ الْغُورُ مِسْكَاً وَعَنْبَرًا
كَأَنَّ أَبَارِيقَ الدَّمَامَةِ يَبْنِيهَا
تَوَلَّفَهُ أَيْدِي الرِّبْعِ اللَّطَائِفُ
تَوْدِيهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْعَوَاصِفُ
مِنَ الْمَنْظَرِ الْأَعْلَى ظِلَالُ رَوَافِفُ

ولبكر بن حماد :

فَسَقِيًّا لِأَيَّامِنَا الذَّاهِبَاتِ
وَهَذَا الرِّبْعِ وَرَبْعَانُهُ
يَذْكُرُنِي الْوَرْدُ حَمْرَ الْخُدُودِ
وَسَوَّسَنهُ صَحْنٌ خَدَ الْفَتَا
وَنَشْرُ الرِّيحَ رِيحَ الْحَبِيبِ
يَجُودُ بِهَا الطَّلُّ وَشَى النَّبَاتِ
لَقَدْ فَارَقْتَنَا بَصْفُورِ الْهَوَى
يَجْدُدُ عَهْدًا لَهَا قَدْ مَضَى
وَلُفْسَ الشِّفَاهِ إِذَا مَا بَدَا
وَإِذَا بَرَزْتُ لِحَبِّ أَتَى
تَبَاعَدَ مَوْعِدُهُ أَوْ دَنَا
وَيَنْظُمُهُ بِأَلَى النَّدى

ولحمد بن يزيد :

وَرَوْضَةٌ صَنَفَ النَّوَّارِ جَوْهَرَهَا
كَأَنَّ مَا تَجَنَّبْنِيهِ مِنْ زَخَارِفِهَا
مَا انْفَكَ لِلْعَيْنِ فِيهَا أَعْيُنٌ ذَرَفَ
حَتَّى كَأَنَّ أَفَانِينَ النَّبَاتِ بِهَا
كَأَنَّ غَدْرَانَهَا بِالرُّوضِ مُحَدَّقَةٌ
فِيهَا كَمَا شِئْتُ مِنْ حَسَنِ وَمِنْ طَيِّبِ
أَخْلَافُ مُسْتَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ مَحْبُوبِ
تَبْكِي بِدَمْعٍ مِنَ الْأَنْوَاءِ مَسْحُوبِ
عَلَى الْمِيَادِينِ أَلْوَانُ الْيَعَاسِبِ
تَحْيِيرُ ثَوْبٍ مِنَ الْمَوْشَى مَخْضُوبِ

وقال كشاجم :

إِلَى الرُّوضِ الَّذِي قَدْ زَيْنَتْهُ
بِكَيْنٍ عَلَيْهِ فَابْتَهَجَتْ رُبَاهُ
شَايِدَ السَّحَابِ بِالْبُكَاهِ
تَبَاهَى فِي زَخَارِفِ نَسِجِ مَاءِ

كَانَ الْأَقْحَوَانُ بِجَانِبَيْهِ — عَذَارَى يَنْتَبِسِمَنَّ مِنَ الْحَيَاءِ

وقال ابن الزقاق :

وَحْدَاتِي خُضِرَ الْمَاعِطُ أَلْبَسَتْ مِنْ حَسَنِ بَهْجَتِهَا ثِيَابَ زَبَرْجَدٍ^(١)
جَرَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فَضْلُ رَدَائِهَا^(٢) فَيَرَى زَبَرْجَدَ هُنَّ تَحْتَ الْعَسْجَدِ

وقال أيضاً :

وَرَوْضَةٌ عَاطِرٌ بِنَفْسِهَا عَطَّرَهَا وَشَيْئُهَا وَسَنْدُسُهَا^(٣)
لَمَّا غَذَّتْهَا السَّحَابُ دَرَّتْهَا مِنْ فَوْقِ حَوَازِيهَا وَزَجْسُهَا^(٤)
خَافَ عَلَيْهِ الْغَمَامُ حَادِثَةً فَسَلَّ سَيْفَ الْبَرْقِ يَحْرُسُهَا

وقال أيضاً :

نَشْرُ الْوَرْدِ فِي الْغَدِيرِ وَقَدْ دَوَّحَهُ بِالْهَبُوبِ نَشْرُ الرِّيحِ^(٥)
مِثْلَ دَرْعِ الْكَمِيِّ مَزَقَهَا الظُّفْنُ فَسَالَتْ دِمَاهُ بِمِجْرَاحِ

وقال أيضاً ،

وَقَزَازَةُ زَرْقَاءَ رَاقٍ صَفَاؤُهَا قَدْ ضَمَّ زَهْرَ الْجَلَنَارِ دَاوُهَا^(٦)
فَاعْجَبَ لِرَاحِ كَأْسُهَا مِنْ فَضَّةٍ مَا إِنْ تَسِيلُ وَقَدْ يَسِيلُ إِنَاؤُهَا

(١) ديوانه ١٤٠

(٢) الديوان : « زرت عليه الشمس »

(٣) ملحقات ديوانه ٢٩٤

(٤) في الأصول : « حوادثها » ، والمثبت من الديوان . والمخوذان : تبت .

(٥) ديوانه ١٣٠ ، وفيه : « وقد درجه » .

(٦) ديوانه ٢٨٢ .

ومن ملح الأدباء وما تصرفوا به في الأنوار ما كتب به أبو دلف إلى
ابن طاهر يعاتبه :

إخاؤكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد^(١)
وعهدى لكم كالأس حسناً وبهجة له ورق خضر إذا فتى الورد

فأجابه ابن طاهر :

وشبّهت ودّي الورد فيما تدمّه وهل زهرة إلّا وسيدّها الورد^(٢)
إخاؤكم كالأس مرّ مذاقّه وليس له في الريح قبل ولا بعد

ولم يأت أحد بأخبت من تشبيه ابن الرومي في ذم الورد :

كأنه مُرمّ بغسل حين أبرزه بعد الخراء وباقي الرّوث في وسطه^(٣)

وقال أبو الشيص :

يامن تجلّي بريجان ينادمه من بين ورد وخيرى ونسرين^(٤)
وياسمين وعود ما يغـيره ما كان أحسن ذا لو لم يكن دوى

وقال أبو المعلى الطائي :

كان عيون النور زَيْنٌ بالندى عيون ترسلن الدموع على عدلى

وقال أيضاً :

ترى للندى فيه مجالا كأنما نثرن عليه لؤلؤا فتبدّدا

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٣

(٣) نهاية الأرب ١٠ : ١٩٢ ، وقبله :

مادح الورد لا تنفك عن غلط السّت تنظره في كفّ ملتقطه

قوله : حديقة ، أى بستان . زخرفها ، أى زينتها . تنوّعت أزهارها :
اختلفت أنواع أزهارها .

وهذه الحديقة التى ذكر من حسننها، مثل البستان الذى دخله عروة بن الزبير مع عبد الملك بن مروان - وكان عروة معرضاً عن الدنيا - فحين رأى فى البستان الوصف الذى ذكر الحريرى قال : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، لأنه يؤتى أكله كلّ عام وأنت تؤتى أكلك كلّ يوم ، وكان عبد الملك يحب عروة ويعظمه، على ما بين الزبيرية والمروانية من التباعد . وقال لابن شهاب حين وفد عليه : عند من طلبت؟ قال : عند سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب ، فقال عبد الملك : فأين أنت من عروة بن الزبير ! فإنه بحر لا تسكدره الدلاء . قال ابن شهاب : فلم أبارح عروة بعد حتى مات .

قال ابن وكيع فى وصف ما ذكره الحريرى :

ألست ترى وشى الربيع تنمنا	وما صنع الربيع فيه ونظما ^(١)
وقد حكى الأرض السماء بنورها	فلم أر فى التشبيه أيهما سما
فخضرتها كالجوى فى حسن لونه	وأنوارها تحكى لعينيك أنجما
فمن نرجس لما رأى حُسْنَ نفسه	تداخله عجب به فتبسما
وأبدى على الورد الجنى تطاولا	وأظهر غيظ الورد فى خده دما
وزهر شقيق نازع الورد فضله	فزاد عليه الورد فضلاً وقدماً
فظل لفرط الحزن يلطم خده	فأظهر فيه اللطم جراً مضرمًا
ومن سوسن لما رأى الصَّبغ دونه	على كل أنواع الرياض تقسما
تجلبب من زرق اليواقيت حلة	فأغرب فى اللبوس فيها وأحكما

(١) ديوانه ٩٢ ، ٩٣ ، يتيمة الدهر ١ : ٣٣٦ .

(١٣) - شرح مقامات الحريرى ج ٣

وأنوار منشور يخالف شكلها
جواهر لو قد طال فيها حياتها
وقال أبو بكر البلوي :

وروضةٍ بات طَلَّ الفَيْثُ ينسجُها
يسكي عليها بكاء الصبِّ فارقه
إذا تنفَّس فيها ربيعٌ سوسنِها
أقول فيها لسائقينا وفي يده
لا تمزجُها بغير الرِّيق منك فإنَّ
أقلَّ ما بي من عينيك أنَّ يدي
وقال الوزير المهلبی :

الورد بين مضْمَخٍ ومضْرَجٍ
طلع النهار فلاح نُورُ شقائقِ
والثلج يهبط كالنَّارِ فقم بنا
فكانَّ يومك في غلالة فضةٍ
وقال السري :

وحديقة يُنْسِكُ وشي بُرُودها
يجرى النَّسيمُ خلالها فكَانَما
طارَت قلوبُ الحُلِّ تحقِّقُ بينها
طارَت عقيقة بركة فكَانَما
(١) حتى تشبَّهها سبائب عبقری
غُمِسَتْ فضولُ رداها في العنبرِ
بحقوق رايات السحاب الماطرِ
صدعتْ ممسك غنيمه بمصفرِ

وقال السَّلامى :

نَسَبُ الرِّبَاضِ إِلَى الغَمَامِ شَرِيفُ وَمَحَلُّهَا عِنْدَ النِّسِيمِ لَطِيفُ^(١)
أَوْ مَا تَرَى طَرَفَ البَرُوقِ تَوَسَّطُ أَفْقًا كَانَ المِزْنَ فِيهِ شَنُوفُ^(٢)
وَالْيَوْمُ مِنْ خَجَلِ الشَّقِيقِ مُضَرَّجُ خَجَلُ وَمِنْ مَرَضِ النِّسِيمِ ضَعِيفُ
وَالْأَرْضُ طَرَسُ وَالرِّبَاضُ سُطُورُهُ وَالزَّهْرُ شَكْلُ يَبْنَاهَا وَحُرُوفُ
فَأَدِرْ سَقِيتَ الرِّىَّ جَامَكَ إِنَّهُ^(٣) يَوْمٌ عَلَى كَبَدِ الزَّمَانِ خَفِيفُ

قوله : الكميّة ، يعنى الخمر . الشَّمُوسُ : التى فيها حدّة . والشَّمُوسُ :
السَّقَاةُ الذين وجوههم كالشمس ، وللسَّلامى فى ذلك :

وَضَبِيَّةٌ مِنْ بَنَاتِ الأَنْسِ فِي يَدِهَا وَوَجْهَهَا لِلصَّبَا وَالْحَسَنِ خَاتَمُ^(٤)
قَدْ حَلَّتْ لَوْلُؤُ الأَزْرَارِ عَنْ دُرَرٍ لَهَا فِي ثَغَرِهَا النِّفْضَى أَتْوَامُ^(٥)
وَزَارَتْ الأَرْضَ مِنْهَا مَقْلَتَانِ لَهَا وَحَشِيَّتَانِ وَعَذَبُ الرِّبْقِ بَسَامُ
وَالْكَأْسُ لِلسَّكْرِ التَّبْرِىِّ صَائِغَةٌ وَالْمَاءُ لِلْحَبِّبِ الدَّرِّىِّ نِظَامُ
بِتَنَّا نَكْفُكُفْ بِالكَاسَاتِ أَدْمَعْنَا كَأَنَّنا فِي حُجُورِ الرُّوضِ أَيْتَامُ

وهذه أشعار غريبة عجيبة ، ولا بن سكرة فى ذلك :

اشْرَبْ فِي الْيَوْمِ فَضْلٌ لَوْ عَلِمْتَ بِهِ بَادَرْتُ بِاللَّهِوِ وَاسْتَمَجَلْتُ بِالطَّرَبِ^(٦)
وَرَدَ الْخُدُودِ وَوَرَدَ الرُّوضِ قَدْ جُمِعَا وَالغَيْمُ مَبْتَسِمٌ وَالشَّمْسُ فِي الْحَجَبِ

(١) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ ٢ : ٣٨٠ .

(٢) الْيَتِيْمَةُ : « شَفُوفٌ » .

(٣) الْيَتِيْمَةُ : « فَاشْرَبْ وَثَقُلْ وَزِنْ جَامَكَ إِنَّهُ » .

(٤) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ ٢ : ٣٧٩ . وَخَاتَمٌ ، أَيْ خَاتَمٌ .

(٥) أَتْوَامٌ : جَمْعُ تَوَمَةٍ : وَهِيَ اللُّؤْلُؤَةُ الْكَبِيرَةُ .

(٦) يَتِيْمَةُ الدَّهْرِ ٣ : ١٦ .

لا تحبس الكأس واشربها مشعشة حتى تموت بها موتاً بلا سبب
وقال سيف الدولة وذكر قوس قزح :

وساقٍ صبيح للصَّبوح دعوتُه فقام وفي أجفانه سِنَّهُ الغَمَضِ (١)
يطوف بكاساتِ العقار كأنجم فمن بين منفضٍ عليها ومنفضٍ
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا

على الجَوِّ دُكْنًا والحواشى على الأرضِ
يطرُّزها قوسُ السماء بأصفرٍ على أخضرٍ فى أحمرٍ تحت مبيضٍ
كأذبال خَوْدٍ أقبلت فى غلائلٍ مصبغة والبعض أقصرُ من بعضٍ
وهذه من التشبيهات الملوكية التى لا يحضر السوقة مثلها . وقال ابن الزقاق :

وشادن طاف بالكئوس ضحىً فحَثَّها والصَّباح قد وضعا (٢)
والرَّوض يُبدي لنا شقائقه وآسه العنبرى قد نفعا
قلنا وأين الأقاح ؟ قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فضل ساقى العقار يحجزه عَنَّا فلمَّا تبسَّم افترضنا (٣)
وقال أيضاً :

نَبته ونجومُ الليل زاهرة والفجر منصدع والصُّبحُ قد لاحا (٤)
والليل منهزم ولت عساكره والرَّوض مبتسم والزهر قد فاحا
فقام يمسحُ عينيه براحتِه فخلَّته فى ظلام الليل مضباحا

(١) يتيمة الدهر ١ : ١٢٤ .

(٢) ديوانه ١٢٤ .

(٣) الديوان : « فضل ساقى العقار يجعد ما قال » .

(٤) ديوانه : ٢٩٢ .

قوله الشاذى : المغنى . يلهيه : يشغله ويزيل همه . يقرى : يعطى ويهدى .
سمع : أذن . ولبعضهم فى غلام مغن - وأجاد :

فديتك يا أتمَّ الناس ظرفاً وأصلحهم لمتخذ حبيبا
فوجهُك نزهة الأبصار حُسناً وصوتك أمتع الأصوات طيبا
وسائلٌ تسأل عنك قُلْنَا لها فى وصفك العجب العجيبا
رنا ظيبا ونغنى عندليباً ولاح شقائقا ، ومشى قضيبا
وقال ابن الزقاق :

يذكرنى تحنانُ شذو غنائهِ على الأيكِ تحَنُّانُ الحمامِ المفردِ^(١)
له نغماتُ أفحمت كلَّ صادقٍ وصوتُ نشيدٍ قد شجَا كلَّ منشدٍ
فدع كل ما حُدِّثت عن صوتِ مَعْبُدٍ وطارحُ نشيدٍ أعن نشيدِ ابنِ مَعْبُدٍ

قوله : اطمأن ، أى استقر وسكن . وغلّ : دخل ، والواغل الداخل على
الشَّراب ولم يُدْعِ إليه . ذمِر : شجاع ، والذمر أيضاً : الخبيث ذو الدهاء ، وهو
مخفف من ذمِر ، وهو الشجاع ، والجمع أذمار ، ومنه فلان حامى الذمار ، معناه :
يحمى ما يلزمه أن يحميه ، وسعى ذماراً لأنَّ الإنسان يذمر نفسه ، أى يمرضها به ،
وذمرتُ الرجل أذمره ، إذا حرَّضته . طمر : خلق . تجمَّمناه : عبسنا له ، والجهامة :
العُبوس ، ويقال : تجمَّمنى فلان بكذا ، يتجمَّمنى بعبته .

[مما قيل فى الشيب والشباب]

الفريد : النساء الحسان اللينات الأعناق . الشيب : الشيوخ ، الواحد أشيب .
شيب : كدّر ونقص ، وأوّل من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله :

أراهنّ لا يُحِبِّينَ من قلّ ماله ولا من رأين الشَّيبَ فيه وقوَّسا^(١)
وعلقمة في قوله :

إذا شاب رأسُ المرءِ أوقلّ ماله فليسَ له من ودّهينَ نصيبُ^(٢)
وقال حبيب في هذا المعنى فأحسن :

لعبَ الشَّيبُ في المَفارِقِ بل جدّ فأبكيَ تَماضراً ولعوباً^(٣)
يانسيبَ الثَّغامِ ذُبُكُ أَبقَى حَسفاتي عندَ الحِسانِ ذنوباً^(٤)
ولئن عَينَ ما رأين لقد أنكرنَ مستنكرأً وعَينَ مَعِيَا^(٥)
لو رأى الله أن للشَّيبِ فضلاً جاورته الأبرار في الخلد شيبا
وقال علي بن الجهم :

أنكرت ما رأت برأسي وقالت أم أمشيبُ أم لؤلؤ منظومُ^(٦)
قلت أولاهما برأسي فأنت^(٧) أنة يستثيرها المهمومُ
حسرت عني القنَاعَ ظُلومُ فتولّت ودمعها مَسْجُومُ
وقال عمرو الوراق :

لا تطلبنِ أثراً بعينٍ فالشَّيبُ إحدى الميقتينِ^(٨)
أبدى مقابح كل شيدٍ في وحى محاسن كل زينِ

(١) ديوانه ١٠٧ ، وقوس ، أي كبر وانطوى كأنطواء القوس .

(٢) الفضليات ٣٩٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .

(٤) الثَّغام : شجرة بيضاء الزهر والثمر ، يشبه بها الشَّيب . وفي الديوان : « عند الغواني » .

(٥) الديوان : « خيرا » .

(٦) ديوانه ١٧٦ : (٧) الديوان :

* قلتُ شَيْبٌ وليسَ عَيْباً أنتُ *

(٨) الشَّيب والشَّباب ..

فإذا رأيتَ الغانيا ت رأيتَ منك غراب بين
ولربما نافسن فيك وكن طوعاً لليدين
أيام همتك الشبا ب وأنت سهل العارضين

الفنجديهي : من أحسن ما سمعت في هذا المعنى قول ابن البياض ، رحمه

الله تعالى :

عرض المشيب بعارضى فأعرضوا وتقوّضت خيم الشباب فقوّضوا
فكان في الليل البهيم توسّطوا حفرا وفي الصبح المنير تقبّضوا
ولقد رأيت وما رأيت بمثله يئنا غراب الين فيه أبيض

وقال حبيب وزاد في الشيب نقاء الخلد :

راحت غواني الحى عنك غوانياً يابسن نأياً تارة وصدوداً^(١)
من كل سابعة الشباب إذا بدت تركت عميد القريتين عميداً^(٢)
أزرين بالمرّد الغطارف بدنا غيداً ألفتهم لدانا جيداً
أحلى الرجال من النساء مواقعاً من كان أشبههم بهن خدوداً
حتى إذا ما الشعر سوّد وجهه عاد المسود ينهن مسوداً^(٣)

هذا من قول الأعشى :

وأرى الغواني لا يواصلن امرأ فقد الشباب وقد يصلن الأمرداً^(٤)
ولحبيب - وروى لأبي دلف :

(١) ديوانه ٨٧

(٢) الديوان : « عميد القوم »

(٣) لم يرد في الديوان

(٤) ديوانه ٢٢٧، وروايته : « إن الغواني » .

نظرت إلى بعين من لم يعدل
لما رأيت وضع الشيب بلحيتي
لما تمكّن طرفها من ممّثلي
صدت صدود مفارق متعمّل
فجعلت أطلب وصلها بتلطّف
والشيب يغمزها بالألّا تفعل

وقال محمد بن أمية :

رأيت الفواني الشيب لاج بمارضي
وكنّ إذا أبصرني أو سمعني
فأعرضن عني بالحدود القواضر
ودنن فرقعن الكوى بالحاجر
وللشريف الرضي رحمه الله :

قالوا المشيب فعن صباحا بالنهي
لودام لي ود الكواعب لم أبل
لكن شيب الرأس إن يك طالعا
إن أعرضت عنه الحدود فطالما^(٣)
واعتق مراحك للظروق الزائر^(١)
بطلوع شيب وايبضاض غداثر
عندي فوصل البيض أول عابر^(٢)
عظفت له بسوالف ومحاجر
واليوم عاد وماله من عاذر
فعدا البياض بياض عين الناظر
عذر الملول وحجة للهاجر
ولقد يكون وماله من عاذل
كان السواد سواد عين حبيب
لو لم يكن في الشيب إلّا أنه

وقال أيضا :

لجام الشيب ثني لي جيادي
لوى عني الحدود من الفواني
ورباني لعدّالي وراضا^(٤)
وغض عني الحدق المراضا
وصار بياضه عندي سوادا
وكان سواده عندي بياضا

(١) ديوانه ٣٧٠ .

(٢) الديوان : « غائر » .

(٣) الديوان : « إن أصفحت » .

(٤) ديوانه ٤٢٢ .

ودخل أبو دلف على المأمون ، وقد ترك الخضاب ، فعمز جارية عنده أن تعبث به ، فقالت : شبت يا أبا دلف ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها ، فقال له المأمون : أجبتها ، فأطرق برأسه ثم رفعه ، فقال :

تهزأت إذ رأت شبي فقلت لها لا تهزئي من يطل عمرٌ به يشب^(١)
شيب الرجال لهم زين ومكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتنبي
فينالكن - وإن شيب بدا - أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب

* * *

إِلَّا أَنَّهُ سَلَّمَ تَسْلِيمَ أَوْلَى الْفَهْمِ ، وَجَلَسَ يَفْضُ لَطَائِفَ النَّثْرِ
وَالنَّظْمِ ، وَنَحْنُ نَنْزَوِي مِنْ أَنْبِسَاطِهِ ، وَنَتَبَرَّى لِطَيِّ بَسَاطِهِ ،
إِلَى أَنْ غَنَى شَادِينَا الْمَغْرِبَ ، وَمَغْرَدَنَا الْمُطْرِبَ :

إِلَامَ سَعَادٍ لَا تَصِلِينَ حَبْلِي وَلَا تَأْوِينَ لِي مِمَّا أُلَاقِي
صَبَرْتُ عَلَيْكَ حَتَّى عِيلَ صَبْرِي وَكَادَتْ تَبْلُغُ الرُّوحُ التَّرَاقِي
وَهَا أَنَا قَدْ عَزَمْتُ عَلَى انْتِصَافٍ أُسَاقِي فِيهِ خَلِي مَا يُسَاقِي
فَإِنْ وَصَلَا أَلَذُّ بِهِ فَوَصَّلْهُ وَإِنْ صَرَمًا فَصَرِّمْ كَالطَّلَاقِ
قال: فاستفهمنا العابت بالمشائي ، لم نصب الوصل الأول ورفع
الثاني ؟ فَأَقْسَمَ بِتُرْبَةِ أَبَوَيْهِ ، لَقَدْ نَطَقَ بِمَا اخْتَارَهُ سِبْيُوِيهِ .

* * *

قوله : « يفض » يكسر . لطائم : أوعية الطيب ، وجعلها الكلام مجازاً . نزوى :

(١) نالمقد ٣ : ٥٢ .

ننقبض . وننبرى : نبادر . طلى بساطه : لقطع كلامه . المغرب : الحسن الغناء الآتى .
بالغريب فيه . والشادى والمغرّد واحد وهو المغنى . المطرب : الآتى بالطرب وهو
الاهتزاز بالسروور ، وقد يكون من شدة الحزن ، وقال ابن رشيق فى مغنّ :

غنى يا مجوّد الخلق عندي : « حتى مجدا ومن بأكناف نجد »^(١)
واسقى ما يصير ذو البخل منها حاتما والجبان عمرو بن معدى
فى زمان الشباب عاجلى الشد ب فهذا أوائل الدن دردى

وقال البجلي فى مغنية :

ولاعية الشاح بفصن بان لها أثر بتقطع القلوب
إذا استولت طريق العود نقرا وغنت فى محب أو حبيب
فيمناها يفديها فؤادى ويسرها تفديها ذنوبى

قوله : تأوين ، أى تشفقين . عيل : غلب ، وأنت الروح لأنه ذهب به إلى
النفس ، قال ابن ظفر : الروح الذى يكون به الحياة ، وإذا فارق الجسد كان الموت ،
والنفس التى بها العقل وهى المقبوضة عند النوم ، ولا معنى للإكثار فى هذا ، لأن
الشارع ليس له فيه قول يعول عليه ، ولا للحواس على إدراكه حول فهمدى إليه .

التراقى : العظمان المعوجان أعلى الصدر : خلى : صاحبى . صرم : قطعة ،
ويستقبح عندهم مجازاة الحبيب على إساءته ، كبيت امرئ القيس :

* فسلى ثيابى من ثيابك تنسل *^(٢)

(١) نقله فى التنف ٢٦

(٢) ديوانه ١٣ و صدره :

* وإن تك ساءتك منى خليفة *

وقول طرفة :

وَإِذَا تَلَسَّنِي أَلْسِنَهَا إِنِّي لست بموهون فقر^(١)

وقول الأعرابي :

إِنْ كَانَ أَهْلَكَ يَمْنَعُونَكَ رَغْبَةً عَنِّي فَأَهْلِي بِي أَضْنُ وَأَرْغَبُ
وَالْمُسْتَحَبُّ عَنْدهُمْ قَوْلُ ابْنِ رَبِيعَةَ :

أَلَا يَأْمَنُ أَحَبُّ بِكَلِّ نَفْسِي وَمَنْ هُوَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي^(٢)
وَمَنْ يَظْلَمُ فَأَغْفِرُهُ جَمِيعًا وَمَنْ هُوَ لَا يَهْمُ بِغَفْرِ ذَنْبِي

وقال أبو نواس :

جَنَانٌ تَسْتَبْنِي - ذَكَرْتُ بِخَيْرٍ - وَتَزْعَمُ أَنَّ رَجُلَ خَيْثٍ^(٣)
وَأَنْ مَوَدَّتِي كَذِبٌ وَمِينٌ وَأَنْيَ لِلَّذِي يُطَوِّي بَنُوْتُ
وَمَا صَدَقْتُ^(٤) وَلَا رَدَّ عَلَيْهَا وَلَكِنْ الْمُلُولُ هُوَ النَّكَوْتُ
وَلِي قَلْبٌ يَنَازَعُنِي إِلَيْهَا وَشَوْقٌ بَيْنَ أَضْلَاعِي حَيْثُ
رَأَتْ كَلْفِي بِهَا وَدَوَامَ عَهْدِي فَلْتَنِي كَذَا كَانَ الْحَدِيثُ^(٥)

وقال ابن شهيد :

كَلِفْتُ بِالْحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي لِمَا وَجَدْتُ لَطْعَمَ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمٍ^(٦)
وَعَاقِبِي كَرَمِي عَمَّنْ وَلَهْتُ بِهِ وَيْلِي مِنَ الْحَبِّ أَوْ وَيْلِي مِنَ الْكَرَمِ
وَأَطْرَبُ مِنْ شَعْرِ الْمَقَامَةِ لِلْغَنَاءِ ، مَا حَكَى أَنَّ الْقَاضِيَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى

(١) ديوانه ٧٤

(٢) ديوانه ٤٨٥

(٣) ديوانه ٣٦٩

(٤) ديوانه : « وليس كذا »

(٥) لم يرد في الديوان

(٦) ديوانه ١٥٢

من بنى يحيى ، خرج إلى حضور جنازة ، وكان رجل من إخوانه ينزل بقرب مقبرة قريش ، فعزم عليه بالليل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وغنت جاريته :

طابت بطيب لثانك الأفداحُ وزها بحمرة وجهك التَّفاحُ
وإذا الربيع تفسّمت أرواحهُ نمتَ بعرفِ نسيمك الأرواحُ
وإذا الحنّاس ألبست ظمائمها فضياء وجهك في الدّجى مضباحُ

فكتبها القاضي طرباً بها على ظهر يده ، ثم خرج . قال الراوى : فلقد رأيته يكبّر على جنازة والأبيات على ظهر يده .

وقال إبراهيم بن المهدي : دخلت يوماً على الرشيد وفي رأسه فضلةٌ مخار ، وبين يديه المغنون ، فقال : يا إبراهيم ، بحقّ عليك غنّني ، فأخذت العودَ فغنّيته من أشعار جرير :

أسرى خلّالة الخيال ولا أرى شيئاً ألدّ من الخيال الطارق^(١)
إن البليّة من تملّ حديثه فأتبع حديثك من حديث الوامق^(٢)
أهواك فوق هوى النفس ولم يزلْ مذبّت قلبي كالجنّاح الخفاق
شوقاً إليك ولم تجار مودتي ليس المكذب كالحيب الصادق^(٣)

وقال إبراهيم الموصلي لابن جامع : لو هذا طلب الغناء كانطابه ، ما أكلنا معه الخبز ، فقال ابن جامع : صدقت .

ومما ينتظم في هذا النمط ويغنى به قول الآخر :

قال الوشاة لهند عن تصارمنا ولست أنسى هوى هند وتنساني
قد قلت حين بدا لي بخلُ سيدي وقد تتبع في بنى وأحزاني
هل تعلمين وراء الحب منزلة تُدني إليك فإنّ الحب أقصاني

(١) ديوانه ٣٩٧ (٢) الديوان « فانشع فؤادك »

(٣) ديوانه : « ليس المكاذب » .

والحريرى لم يتعرض بشعره فى هذا ، لأنه بنى البيت فى المسألة ، لكن
فما ذكرناه زيادة بيان ، وأنه يجب أن يختار المعنى ما يتلقى للغناء من كل
جہاته بالاستحسان

قوله : العايب بالمثانى ، أى اللالعاب بأوتار عود الغناء . وما يستحسن فى
وصف العود قول ابن القاضى :

جاءت بعود تناغيه ويسعدھا فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عودھا الأطيّار مفصحة غضا فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزل عليه أو به طرب يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

وقال ابن شرف :

سقى الله أرضاً أنبتت عودك الذى زكت منه أغصان وطابت مغارس^(١)
تغنى عليه الطير والعود أخضر وغنى عليه الفيد والعود يابس

ومما قيل فى ذم معن :

لو أبصرت عينك بشراً جالساً والعود فى يده يثّ وساوسا
لأبت منه فتى تحب بأن ترى فى الرأس منه مشاورا وطنافسا
فإذا تربّع - لا تربّع بعدها - وبدا يحرك عوده متنافسا
فكان جرّذان المدينة كلها فى عوده يقرضن خبزاً يابسا

المثانى : أوتار بالعود، معروفة على سائر أوتاره . بترية أبويه، يريد عظامهما
التي تصير ترابا فى القبر ، ولذلك أقسم بالقبر .

(١) نقله فى التنف ١٠٣ .

[ترجمة سيديويه]

وأما سيديويه ففارسيّ، مولى لبني الحارث بن كعب، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، وتفسير سيديويه بالفارسية ربيع التفاح، وهو لقب له لأنه كان من أطيب الناس رائحة، وأجلهم وجهاً، وقد أشرنا إلى ذلك في العاشرة^(١). وقيل: معنى «سى» ثلاثون و«بويه» رائحة التفاح، فكان معناه: الذي ضعف طيب رائحته ثلاثين مرة. وقيل: إن أمه كانت ترقصه بذلك وهو صغير فازمته.

وولد بالبليضاء، وهي قرية بشيراز من عمل فارس ونشأ بها، وقدم البصرة في أول أيامه ليكتب الحديث، فلزم حلقة حماد بن سلمة فاستملى عليه يوماً قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس من أصحابي إلا مَنْ لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء» فقال سيديويه: ليس أبو الدرداء، بالرفع، وظنه اسم ليس، فقال حماد: لحت ياسيديويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما ليس هنا استثناء، فقال سيديويه: سأطلب علماً ليس يلحني فيه أحد، فلزم الخليل، فبلغ في علم النحو الغاية، وضرب به في ذلك المثل وهو أول مَنْ بسط طريقته، وشرع شريعته، وكتابه الإمام في النحو، الذي لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، وغاية الأئمة فهمه. وأخذه الأخفش عنه.

وقيل ليونس: ألف سيديويه كتاباً نحواً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال: متى سمع سيديويه هذا كله! فأني بكتابه، فنظر فيه فقال: يجب أن يكون صدق عن الخليل، كما صدق فيما حكاه عني.

وناظر الأصمعيّ سيديويه، فغلبه الأصمعيّ بلسانه، فقال يونس: الحق مع سيديويه.

وكانت في لسانه حبة، وقلمه أبلغ من لسانه. قال أبو زيد: كان سيديويه

(١) الجزء الأول: ٢٧٩

يختلف إلى وهو غلام له ذؤابتان، وإذا قال في كتابه : حدثني من أثنى به ،
فإنما يعني .

قال الأخفش : كان سيبويه إذا وضع شيئاً من كتابه عرض على وهو يرى
أني أعلم منه ، وكان أعلم مني .

والأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع ، يكنى أبا الحسن ،
وهو الذي أخذ الكتاب عن سيبويه ، وهو أكبر من سيبويه ، وصاحب الخليل .
وأما الأخفش الكبير شيخ سيبويه فهو عبد الحميد بن عبد الحميد ، يكنى أبا الخطاب
وهو الأخفش الكبير ، ويونس هو ابن حبيب ، يكنى أبا عبد الرحمن مولى بني
ضبة ، أخذ النحو عن حماد بن سلمة وعن أبي عمرو بن العلاء ، وقيل : إنه جاوز
المائة في سنه . ولما فاق سيبويه في علم النحو أهل عصره ، وبرز فيه على نظرائه من
أهل دهره ، سمع أن الكوفيين ظهروا ببغداد عند الرشيد بعلم النحو ، وهم
الكسائي وأصحابه ، فقصدهم ببغداد ، واطَّهرهم بحضرة الرشيد وبحضرة يحيى بن
برمك .

وناظره الكسائي ، وقيل الفراء بحضرة الكسائي في المسألة الزنبورية^(١)
المشهورة ، وقد ذكرناها في الرابعة والثلاثين ، وكان - فيما ذكر - الظهور لسيبويه ،
وتراضوا بينهم بشهادة الأعراب الحاضرين بباب الخليفة ، فقدم الكوفيون
بجانبيهم عند الخليفة للأعراب من لغتهم أن يجيبوا موافقة قول الكوفيين ،
فأجابوا بذلك ، فخرج سيبويه خجلاً وكاد يموت غماً ، فزعموا أنهم شفَعوا
للرشيد لئلا يرجع مغلوباً خائباً ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فانبعث إلى الأهواز
ولم يرجع على البصرة . فأقام هناك مدة مديدة إلى أن مات .

وحكى أنه لما انصرف عنهم مغموماً لقي الأخفش سعيد بن مسعدة ، فأخبره

(٣) إنباه الرواة ٢ : ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

بتأليمهم عليه، فدخل الأخفش، فسأل الكسائي عن مائة مسألة فخطأه فيها كلها ، فقال له : أنت سعيد بن مسعدة ؟ فقال له : نعم ، فسأله أن يؤدب أولاده فأجابه . وقرأ عليه الكسائي كتاب سيديوه ، وأعطاه سبعين ديناراً .

ويروى أنه لما بلغ الكسائي موته، قال للرشيد : يا أمير المؤمنين، أدّ عني دينته ، فإني أخاف أن أكون شاركت في موته .

وقيل : إنه مات من ذرّب المعدة .

وقيل : إنه لما خرج عنهم سأل مَنْ يرغب من الملوك في النحو ، فقيل له : طلحة بن طاهر بخراسان ، قصده ، فلما انتهى إلى ساوة مرض ومات .

ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه ، فقطرت دمعة من دموعه على خده ، فرفع عينيه إليه ، وقال :

أَحْيَيْنَا كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إِلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى ، وَمَنْ يَأْمَنُ الدَّهْرَ !^(١)
ثم قال عند موته :

تَوَقَّلْ دُنْيَا لِنَبْقَى بِهَا وَتَأْتِ الْمُنْيَةَ دُونَ الْأَمَلِ^(٢)
حَيْثَا يَرْوَى أَصُولُ الْفَسِيلِ فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلُ .

وفيه أنه مات بشيراز وقبر بها سنة ثمانين . وقيل سنة أربع وتسعين ومائة .
قال أبو سعيد الصولي : رأيت على قبره مكتوباً لسليمان بن يزيد :

(١) إنباه الرواة ٢ : ٣٥٧ .

(٢) إنباه الرواة ٢ : ٣٦٠ .

ذهب الأحبة بعد طول تزوارٍ ونأى الزارُ فأساءوك وأمرعوا
تركوك أوحشَ ما تكون بفترةٍ لم يؤسوك وكربةٍ لم بدفموا
قضى القضاء وصرت صاحبَ حُفرةٍ عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

* * *

فتشعبت حينئذٍ آراءُ الجمعِ ، فى تجويز النصبِ والرفعِ ، فقالت
فرقةٌ : رفعهما هو الصواب ، وقالت طائفةٌ : لا يجوز فيهما إلا
الانتصاب ، واستنبههم على آخرين الجواب ، واستقر بينهم الاصطحاب ،
وذلك الواغل يبدى ابتسامَ ذى معرفة ، وإن لم يفقه بنت شفة ،
حتى إذا سكنت الزماجر ، وصمت المزجور والزاجر . قال : يا قوم ،
أنا أنبئكم بتأويله ، وأميز صحيح القول من عليه ؛ إنه ليجوز رفع
الوصلين ونصبهما ، والمغايرة فى الإعراب بينهما ، وذلك بحسب
اختلاف الإضمار ، وتقدير المحذوف فى هذا المضمار . قال : ففرط من
الجماعة إفراط فى مماراته ، وانخرط إلى مباراته .

* * *

قوله : تشعبت ، تفرقت ، وشعبتُ الشيء : فرقته وجمعته ، وهو من الأضداد .
ورجل شعاب : يضم ويجمع . آراء : جمع رأى . واستبهم : استغلق . استعر :
انتقد : الاصطحاب : اختلاط الأصوات ، وقد صخب صخباً . بنت شفة : كلمة .
[بعض حكايات النحويين]

ومثل اختلاف هذه الجماعة على المعانى فى رفع « وصل » وخفضه ، اختلاف
أصحاب الواثق^(١) على جارية غنت بحضرته :

أظلمُ إن مصابكم رجلاً أهدى السلامِ نعمةً ظلمُ
وذكر الحريرى فى الدرّة : أن أبا العباس المبرد ذكر أن أبا عثمان المازنى

(١) وردت هذه الحكاية فى دورة الفواص ٤٣ ، ولإنباء الرواة ٢٤٩ : ١ ، وطبقات الزيدى ٩٣

(١٤) - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

قصده بعضُ أهل الذمة ليقراً عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من قبول بذله ، فقلت له : جعلت فداك ! أترك هذه النفقة ، مع فاتقك وشدة إضاقتك ؟ قال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة كذا وكذا آية من كتاب الله تعالى ، ولست أرى أن أمكن منه ذمياً ، غيره على كتاب الله وحيّة له .

قال : فاتفق أن غنّت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي : أظلوم . . . البيت ، فاختلف من بالحضرة في إعراب « رجل » فمنهم من نصبه بأن على أنه اسمها ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مُصِرَّة على أن شيخها أبا عثمان لقنها إياه بالنصب ، فأمر الواثق بإحضاره . قال أبو عثمان : فلما مثلتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : من أي الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس ؟ أم مازن أم ربيعة ؟ فقلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي وقال لي : باسمك ؟ يريد ما اسمك - وهم يقابون الميم باء والباء ميما إذا كان في أول الأسماء - فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجه بالسكر ، فقلت : بكر يأمير المؤمنين ، فقطن لما قصده وأعجب منه ، ثم قال : ماتقول في قول الشاعر :

* أظلوم إن مصابكم رجلا *

أترفع « رجلا » أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : « إن مصابكم رجلا » مصدر بمعنى إصابتمكم . فأخذ اليزيدي في معارضتي فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربكم زيدا ظلم ، فالرجل منقول بمصابكم ومنصوب به ، الدليل عليه أن الكلام معلق إلا أن تقول « ظلم » فيتم . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم ، بنية يأمير المؤمنين ، قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى ^(١) :

أَيَا أَبْتَأَ لَا تَرَمُ عِنْدَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرَمْ
أَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتَكَ الْبَلَاءَ دُ نَجَفَى وَتَقَطَعَ مِنْهُ الرِّحْمُ
قَالَ : فَمَا قُلْتَ لَهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ قَوْلَ جَرِيرٍ :

ثَقِيَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ^(١)
قَالَ : أَنْتَ عَلَى النَّجَاحِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ أَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِينَارٍ
وَرَدَّ نِيَّ مَكْرَمًا .

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْبَصْرَةِ قَالَ : كَيْفَ رَأَيْتَ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ !
رَدَّدْنَا لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ فَعَوَّضْنَا بِأَلْفٍ .

قَالَ الْحَرِيرِيُّ : فَهَذِهِ الْحِكَايَةُ تَرْغَبُ فِي اقْتِنَاسِ الْأَدَبِ وَدِرَاسَتِهِ حَيْثُ
اسْتَعْتَفَ الْمَازَنِيَّ الْوَائِقُ بَيْتَ الْأَعَشَى حَتَّى اهْتَزَّ لِإِحْسَانِ صَلَاتِهِ
قَالَ : وَفِي أَخْبَارِ النَحْوِيِّينَ^(٢) أَيْضًا أَنَّ الْمَازَنِيَّ سَثَلَ بِحَضْرَةِ الْمُنَوَّكِلِ عَنْ
قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمْلُكَ بِغِيًّا ﴾ فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ حَذَفْتَ الْهَاءَ مِنْ « بَغِيًّا »
وَفَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ ، تَلَحُّقُهُ الْهَاءُ ، نَحْوُ فَنِيٍّ وَفَنِيَّةٍ وَغَنِيٍّ وَغَنِيَّةٍ ، قُتِلَ : إِنْ « بَغِيًّا »
لَيْسَتْ « فَعِيلًا » إِنَّمَا هُوَ فَعُولٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ ، لِأَنَّ الْأَصْلَ « بَغَوِيٌّ » وَمِنْ أَصُولِ
التَّصْرِيفِ أَنَّهُ مَتَى اجْتَمَعَتِ الْيَاءُ وَالْوَاوُ فِي كَلِمَةٍ وَسَبَقَتْ إِحْدَاهُمَا بِالسَّكُونِ قَلَبْتَ
الْوَاوِ يَاءً ، كَشَوَيْتَهُ شَيْئًا ، وَيَوْمٌ وَأَيَّامٌ ، وَهَذَا أَصْلُ مُطَرَّدٍ لَمْ يَشُدَّ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ ،
فَعَلِيَ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ تَحْذِفُ الْهَاءَ وَجَوَابُهَا بِمَعْنَى « بَاغِيَّةٌ » ، كَمَا تَحْذِفُ مِنْ « صَبُورٍ »
لِأَنَّهَا بِمَعْنَى « صَابِرَةٌ » .

قَالَ الْمَازَنِيُّ :^(٣) حَضَرَ يَمْقُوبُ عِنْدَ الْوَائِقِ وَقَدْ حَازَ مَنَزِلَةَ الْعُلَمَاءِ ، فَقَالَ لِي
الْوَائِقُ : سَلْهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا وَزَنَ « نَسَكْتَلُ » ؟ فَقَالَ : « نَفْعَلُ » ، فَقُلْتُ لَهُ :

(١) ديوان جرير ٩٨

(٢) طبقات الزبيدي ٩٥ .

(٣) إنباء الرواة ١ : ٧٥ .

غلطت، ثم قال لى: فستره . فقلت: أصله « نكتيل »، قلبت الياء ألفاً للفتحة قبلها وسكنت اللام للجزم، لأنه جواب أمر، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فقال الوائق: هذا الجواب لا جوابك يا يعقوب، فلما خرجنا قال لى يعقوب: ما حملك على هذا وبينى وبينك المودة؟ فقلت: والله ما ظننت أنه يمزب عنك مثل هذا! فانظر كيف لم يثبت يعقوب الأوزان على ثبوت قدمه فى العلم.

لقى هارون الرشيد الكسائى فى بعض طرقه فوقف عليه، وتحنى بسؤاله عن حاله، فقال: أنا بخير يا أمير المؤمنين، ولو لم أجد من ثمرة الأدب إلا ما وهب الله تعالى لى من وقوف أمير المؤمنين على لسان ذلك كافيا محسبا.

ودخل أبو يوسف رحمه الله تعالى وهما فى مذاكرة وممازحة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا الكوفى قد غلب عليك، فقال: يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبى، وتأخذ بمجامعه، فقال الكسائى: يا أبا يوسف، هل لك فى مسألة؟ فقال: فى نحو أو فى فقه؟ فقال: بل فى فقه، فضحك هارون حتى خفى برجليه، وقال: تُلقي على أبى يوسف الفقه؟ فقلت: نعم، ثم قال: يا أبا يوسف، فما تقول فى رجل قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ قال: إذا دخلت الدار طلقت، قال: أخطأت يا أبا يوسف! فضحك الرشيد ثم قال: فكيف الصواب؟ قال: إذا قال: «أن» وجب الفعل، دخلت بعد أو لم تدخل، وإذا قال «إن» بالكسر لم يجب ولم يقع الطلاق.

دخل القراء على الرشيد فتكلم فلحن مرات، فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إنه قد لحن، فقال الرشيد للقراء: أتلحن يا يحيى؟ فقال: إن طبع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحن، فاستحسن الرشيد كلامه وعلم أنه الحق^(١).

(١) الخبر فى طبقات الزبيرى ١٤٣.

وهذا القدر من المناظرة النحوية كاف .

* * *

قوله : الزماجر ، أى الأصوات من الجوف كصوت الأسد ، الواحدة زججرة .
صمت : سكت . المزجور : المنهى ، والزاجر : الناهى ، وزجرته : انتهزته .
أنبئكم بتأويله : أخبركم بتفسيره . المغايرة : المخالفة ، وهى من لفظ « غير » .
المضمار : الموضع يختبر فيه جرى الخيل . قرط : تجاوز الحد . مماراته :
مخاصمته . انخراط : اندفاع وانطلاق ، وخرط عبده : أطلته على أذية
الناس ، والمرأة نكحها ، والشجرة نثر ورقها بيده . مباراته : معارضته .

* * *

فقال : أما إذ دعوتكم نزال ، وتلبيتم للنضال ؛ فما كلمة
هى إن شئتم حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ؟
وأى اسم يتردد بين فرد حازم ، وجمع مُلَازِم ؟ وأية هاء إذا
التحقّت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ؟ وأين تدخل السين
فتعزل العامل ، من غير أن تجامل ؟ وما منصوب أبداً على الظرف ،
لا يخفضه سوى حرف ؟ وأى مضاف أخل من عرى الإضافة
بُعُوزة ، واختلف حُكْمُهُ بين مساءً وغُدوة ؟ وما العامل الذى يتصل
آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ؟ وأى عامل نائبه أرحب
منه وكراً ، وأعظم مكرراً ، وأكثر لله تعالى ذكراً ؟ وفى أى
موطن تلبس الذكران براقع النسوان ، وتبرز ربّات الحِجَال
بعمائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟

وما اسم لا يُعرف إلا باستضافة كلمتين ، أو الاختصار منه على حرفين . وفي وصفه الأول التزام ، وفي الثاني إلتزام ؟ وما وصف إذا أُرْدِفَ بالنون ، نقص صاحبُه في العُيُون ، وقوّم بالدُّون ، وخرج من الزُّبون ، وتعرّضَ للهُون ؟

فهذه ثنتا عشرة مسألة ، وفقَ عددِكم ، وزينة لَدَدِكم ، ولو زِدْتُمْ زِدْنَا ، وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا .

. . .

نزّال ، أى انزلوا للحرب ، ولذلك بُنيت على الكسر لأنها في معنى فعل الأمر ، وهى كلمة تقال في الحرب ولها مقامان : الأول أن ينزلوا من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل ، والثاني أن ينزلوا من ظهور الخيل إلى الأرض ؛ وذلك أشد ما يكون للحرب . تلبّيتُم : تحزمتُم . النضال : المراماة بالسهم . حرف : ناقة . حلوب : لها ابن . حازم : مشعر ، أخذ بالثقة . أماطت : أزالَت . المعتقل : المحبوس . تجامل ، أى تائقى المزعول بجميل . أخلّ : نقص . ممكوسه : مقلوبه . نائبة : القائم مقامه . أرحب منه وكرا : أوسع موضعا . مكرا : تصرفا . الحجال : جمع حَجَلَة ، وهى الستر . المرانب : المواضع . استضافة : إضافة . أُرْدِفَ : جُعِلَ رِدْفُه ، أى خلفه . قوّم : قدرت قيمته . الدون : الحقير . الزُّبُون : الكريم الكثير دفع العطايا ، أى أخرج من هذه الصفة . والهون : الهوان . وفق : موافقة . لَدَدِكم : خصامكم . عدتم : رجعتُم للخصام .

ومن ملح ابن رشق فى مليح نحوى :

إن زارنى يوماً على خلوة أو زرتُه فى موضعٍ خالٍ^(١)

(١) نقله فى التنقيح ٦٣

كنت له رفقا على الابتدا وكان لى نصبا على الحال

وقال الميسكالى :

أفدى الغزال الذى فى النحو كلمنى مجادلا فاجتنبتُ الشهد من شفته
وأورد الحججَ المقبولُ شاهدُه مناظراً ليربى فضل معرفته
ثم اتفقنا على رأى رضى به والرفع من صفى والخفض من صفته

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فوردَ علينا من أحاجيه التى هالت ، لما
انْهالتْ ، ما حارتْ له الأفكار وحالتْ . فلما أعجزَ العومُ فى بحره ،
واستسلمتْ تماثنا لِسِحرِهِ ، عدلنا عن استئصالِ الرؤيةِ له ، إلى
استنزالِ الروايةِ عنه ، ومن بغي التبرُّم به ، إلا ابتغاءُ التعلُّمِ منه .
فقال : والذى نزلَ النحوَ فى الكلام ، منزلةَ الملحِ فى الطعام ،
وحجبهُ عن بصائرِ الطعامِ ؛ لا أنلتكم مراما ، ولا شفيتُ لَكُمْ
غراما ، أو تخوَّلتُ كَيْلُ يدٍ ، ويختصني كُلُّ منكمُ بيدٍ . فلم يبقَ
فى الجماعةِ إلا مَنْ أذعنَ لِحُكْمِهِ ، وتبذَّ إليه خُبَاةَ كُفِّهِ . فلما
حصَلتْ تحَتَ وكائِهِ ، أضرمَ شُعْلَةَ ذكائِهِ ، فكشف حينئذٍ عن
أسرارِ الغارِ ، وبدائعِ إعجازِهِ ، ماجلا بهِ صدا الأذهان ، وجلى
مُطلعهِ بنورِ البرهان .

قال الراوى : فهِمْنَا ، حِينَ فَهِمْنَا ، وَعَجِبْنَا إِذْ أُجِبْنَا ، وَنَدِمْنَا عَلَى مَا نَدَمْنَا . وَأَخَذْنَا نَعْتَذِرُ إِلَيْهِ اعْتِذَارَ الْأَكْيَاسِ ، وَنُعْرِضُ عَلَيْهِ ارْتِضَاعَ الْكَاسِ . فَقَالَ : مَأْرَبٌ لَاحْفَاوَةٌ ، وَمَشْرَبٌ لَمْ يَبْقَ لَهُ عِنْدِي حَلَاوَةٌ ، فَأَطْلَمْنَا مُرَاوَدَتَهُ ، وَوَالَيْنَا مُعَاوَدَتَهُ .

. . .

أحاجيه : ألغازه : هالت : عظمت فى النفوس . انهالت : انصبّت ، وانهال الرمل : انصبّ أعلاه إلى أسفله . الأفكار : الأذهان . حالت : تغيرت . استسلمت : انقادت . تماننا : معاذاتنا ، وهى الأحراز . عدلنا : ملنا . الروبة : الفكرة . استنزال : طلبه بتلطف . بنى : ظلم . ابتغاء : طلب . التبرم : الاستئفال ، وبرم بالأمر برماً : ضجر ، والبرم : البخيل الذى لا يدخل فى الميسر . والبصيرة : اليقين والمعتقد وجمعها بصائر . والطغام : الأوغاد وأرذال الناس . أنلتكم : أعطيتكم . مراما : مرادا . تحولنى : تملككنى وتعطينى . يختصنى : يفردنى . بيد ، أى نعمة . أذعن : انقاد وذل . نبذ : رمى . خُبْأَة كَمْه : ماخبيء فيه . بدائع : غرائب . إعجازه : ما عجز به . جَلَا : كشف . صدأ : وسخ . جَلَى : أوضح . البرهان : الحجة . هَمْنَا : تحيرنا لحسن ماسمعنا ، وهام الرجل : ذهب فى غير طريق . فهَمْنَا ، من الفهم ، أى عرفنا . نَدَّ : سبق وخرج ، يريد الخصام الذى بدروه به وردوا كلامه ، ونَدَّ : أصله شَرْد البعير . قوله : الأكياس : الحذاق العقلاء . ارتضاع : شرب . مأرب : حاجة ، قال يعقوب : قال الأموى : ومن الأمثال : مأرب للاحفاوة ، يضرب للرجل إذا كان يتملّك ، أى إتمامك حاجة إلى لاحفاوة لى . قال ابن سيده : مأرب يئبنا ، يكون واحداً وهو السابق ، ويكون جمع مأربة ، من الجمع الذى يفارق واحده بالهاء . حفاوة : تهيم ، وقد خفيت بك ، أى تهيمت واعتنيت . ومشرب لم يبق له عندى حلاوة ، قال الشاعر فى معناه :

ولم أجتنب شرب المدام لعلّة
تنافرنى أن صرتُ ضدّاً لشكلها
ولم ألحق الصّهباء ذمّاً ولا عدلاً
فليستُ لنا أهلاً، ولستُ لها أهلاً
وقال ابن رشيق :

قرعت سنّي على ما فأنّني ندماً
فقد رددت كنوس الرّاح مترعة
أنزّه السمعَ والعينين في نغم
من كلّ لافظةٍ بالدرّ باسميّة
أيام تصحبني الغزلان آنسة
هذا على أننى أعدى من الذّوب
من الشّباب ومن باللهو للشّيب^(١)
على السقاة وكانت جلّ مشروبي
ومنظر عابثٍ بالحسن والطّيب
عنه محلاّقةٍ نوعٍ منه مثقوب
أيام تصحبني الغزلان آنسة

والسابق لردّ الكأس لعلّة الكبر أيمن بن خرّيم بن فاتك الأسدى في قوله:

وصهباء جرجانية لم يطف بها
ولم يحضر القسّ المهيم نارها
أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً
فقلت اغتبقها أو لغيرى فاسقها
تعففت عنها فى السّنين^(٢) التى خلت
إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن
فدعه ولا تنفس عليه الذى ارتأى
خفيفٌ ولم يسعر بها ساعةٍ قدّر^(٣)
طروقاً، ولم يشهد على طبعها حبرٌ
وقد غابت الشّعريّ وقد جَنَحَ الذّسرُ
فما أنا بعد الشّيب ويحك والخمرُ
فكيف التّصابى بعدما كلاً العُمُرُ^(٣)
له دون ما يأتى حياءً ولا سِتْرُ
وإن جرّ أسباب الحياة له الدّهرُ

قال المهيم بن عدى : كنا نقول بالكوفة : من لم يروِ هذه الأبيات
فلا مروءة له ، أنشدّها أبو على فى نوادره . وأنشد أيضاً :

(١) نقله فى التنف ١٠ .

(٢) أمالى القالى ١ : ٧٨ ، وفيه : « لم تنفر » ، أى تغلى .

(٣) كلاه : انتهى إلى أقصاه .

رَأَيْتُ التَّبِيدَ يُذَيِّدُ الْعَزِيزَ وَيَكْسُو التَّقَى النَّقَى أَتَسَاخَا^(١)
فَهَبْنِي عَذْرَتُ الْفَقِي جَاهِلًا فَمَا الْعَذْرُ فِيهِ إِذْ الْمَرْءُ شَاخَا

وَأُنْشِدُ أَيْضًا فِي نَوَادِرِهِ لِمَنْ حَرَّمَ الْخَمْرَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرْوَةً جَمَلَةً
أَشْعَارًا، شَهْرَتُهَا فِي الْكِتَابِ أَغْنَتْ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَيْنَ شَرَفٌ أَوْلَئِكَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ
- عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ مَبَاحَةٌ لَهُمْ - مِنْ مَجْهُونِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ - عَلَى تَحْرِيمِهَا عَلَيْهِمْ -
مِثْلَ الرَّمَادَى فِي قَوْلِهِ :

أَفَى الْخَمْرِ لَامَتْ بِخَلَّتِي مَسْتَهَامَهَا كَفَرْتُ بِكَأْسِي إِنْ أَطَعْتَ مَلَامَهَا
لِحُمُولَةٍ فِي الْفَلَكَ فِي جَبَّةِ الْمَنَى قَدْ أَوْصَى لِنُوحٍ غَرَسَهَا وَضِيَامَهَا
فِيخَادَعُهُ إِبْلِيسُ عَنْهَا لَعَلَّهُ بِهَا فَرَأَى كِتْمَانَهَا وَاغْتِنَامَهَا
فَقَارَ بِثَلَاثِهَا وَنُوحَ بِثَلَاثِهَا وَلَوْلَا مَضِيَّ عَنْهُ لَمْ يَكُ رَامَهَا
لَهُ حَظٌّ أَتَى وَهُوَ حَظٌّ مَذْكُورٌ قَلِيلٌ لَعَيْنِي أَنْ أَطِيلَ انْسِجَامَهَا
وَإِنَّا لَوِ تَرَانٍ وَقَدْ مَاتَ جَدُنَا عَنِينَا وَإِنَّا لَا نَجِيزُ اقْتِسَامَهَا

أَخَذَ هَذَا مِنْ خَيْرٍ يَرَوِي، أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ مِنَ السَّفِينَةِ ،
نَازَعَهُ إِبْلِيسُ أَصْلَ الْعَنْبِ ، فَاصْطَاحَا أَنَّ لِنُوحٍ الثَّلَاثَ وَإِلِبْلِيسِ الثَّلَاثِينَ .
وَلَمَّا قِيلَ لِلْحَسَنِ : نَزَعْتَ عَنِ اللَّهِ إِلَى التَّوْبَةِ ، قَالَ :

قَالُوا نَزَعْتَ وَأَنَا يَعْلَمُوا وَطَرِي فِي وَصَلِ أَغْيِدَ سَاجِي الطَّرْفِ مَيَّاسٍ^(٢)
كَيْفَ النَّزْوَعِ وَقَلْبِي قَدْ تَقَسَّمَهُ لِحَظِّ الْعَمِيونَ وَلَوْنِ الرَّاحِ فِي الْكَاسِ
إِذَا نَزَعْتَ إِلَى رَشْدٍ تَكْتَفَنِي رَأْيَانٌ قَدْ شَغَلَا يُسْرِي وَإِفْلَاسِي
فَالْيَسْرِ فِي الْقَصْفِ وَاللِّذَاتِ أَخَاسَهَا وَالْعَمْرِ فِي وَصَلِ مَنْ أَهْوَى مِنَ النَّاسِ

(١) أُمَالِي الْقَالِي ٢ : ١٣٩ .

(٢) نَهَايَةُ الْأَرْبَعِ ٤ : ٩٦ ، دِيوَانُهُ ٢٩٦ .

لا خير للعيش إلا في الجون مع الأكل في الورد والخير والآس
ومسمع يتغنى والكتوس لها حث علينا بأخماس وأسداس
يا موري النار قد أعيت قوادحه أقبس إذا شئت من قلبي بمقياس

* * *

فَشَمَخَ بِأَنفِهِ صَلَفًا، وَتَأَى بِجَانِبِهِ أَنْفًا، وَأَنشَدَ:
نَهَانِي الشَّيْبُ عَمَّا فِيهِ أَفْرَاجِي
فَكَيْفَ أَجْعُ بَيْنَ الرَّاحِ وَالرَّاحِ
وَهَلْ يَجُوزُ اصْطِبَاحِي مِنْ مَعْتَقَةٍ
وَقَدْ أُنَارَ مَشِيبُ الرَّأْسِ إِصْبَاحِي
أَلَيْتُ لَا خَامِرَتِي الْحُمْرُ مَا عَالِقَتْ
رُوحِي بِجَسَمِي وَأَلْفَاضِي بِإِفْصَاحِ
وَلَا أَكْتَسْتُ لِي بِكَاسَاتِ السُّلَافِ يَدُ
وَلَا أَجَلْتُ قِدَاحِي بَيْنَ أَقْدَاحِ
وَلَا صَرَفْتُ إِلَى صِرْفٍ مُشْعِشَةٍ
هَمِّي وَلَا رُخْتُ مُرْتَحَاً إِلَى رَاحِ
وَلَا نَظَّمْتُ عَلَى مَشْمُولَةٍ أَبَدًا
شَمْلِي وَلَا اخْتَرْتُ نَذْمَانًا سِوَى الصَّاحِي
حَمَاً الْمَشِيبُ مِرَاجِي حِينَ خَطَّ عَلَى
رَأْسِي، فَأَبْرِضْ بِهِ مِنْ كَاتِبِ مَا حِي

ولاحَ يَلْحَى عَلَى جَرَى العنانِ إِلَى
 مَلَبَى فَسُحْقاً لَهُ مِنْ لَأْمَحٍ لَاحِي
 ولو لَهَوْتُ وفَوْدِي شائبٌ خَلْبَا
 بَيْنَ المصاييحِ من غَسَّانٍ مِصْبَاحِي
 قَوْمٌ سَجَايَاهُمْ تَوَقِيرُ ضَيْفُهُمْ
 والشَّيْبُ ضَيْفٌ لَهُ التَّوَقِيرُ ياصاح
 ثمَّ إِنَّه انسَابُ انسَابِ الأَيْمِ، وأَجْفَلَ إِجْفَالِ النِّيمِ . فعُلِمْتُ أَنَّهُ
 سِرَاجُ سَرُوجٍ، وَبَذْرُ الأَدَبِ الذِي يَجْتَابُ البُرُوجِ . وكان قُصَّارَانَا
 التَّحَرِّقَ لِبُعْدِهِ، وَالتَّفَرِّقَ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

قوله: «شمخ، أى تكبر ورفع أنفه . صلفاً : قحة وصلابة وجه ، وفي فلان صلف ،
 أى قلة انطباع وموافقة إذا أردت منه شيئاً تهاون بك، والتصليقان : ناحيتا العنق ،
 كأنه إذا كلمته فى شئ أعرض عنك ، ولوى عنك صليفه ، والصلف مجاوزة
 قدر الظرف ، وفي الشهاب : آفة الظرف الصلف . ناء : نهض ، وىروى : نأى ،
 تباعد . أنفك : غضبا ، وأنفت من كذا تنزهت عنه وترفعت ، وأصله من رفع
 الأنف ، فكأنه رفع أنفه تيمناً عليهم وتكبرا عن منادمتهم لاحتقارهم له أولاً
 قبل اختباره ، ثم تبدلهم آخر بعد اعتباره ؛ واعتذر لذلك بالشيب .

ونذكر هنا فصلاً أدبياً يأتى على جميع أغراض هذه الأبيات :

قال بعض الظرفاء يذم الخمر : الشراب : أول الخراب ، ومفتاح كل باب ،
 يحقق الأموال ، ويذهب الجمال ، ويهدم المروءة ، ويوهن القوة ، ويضع الشريف ،
 ويذل العزيز ، ويبيح الحرائر ، ويفلس التجار ، وينهك الأستار ، ويورث الشنار .

وقال بعضهم لابنه : كثرة الشراب تكسد القلب ، وتقلّ الكسب ، وتغيّر
اللب ، واعلم أن الظلم الذابح ، خير من الرىّ الفاضح .

وقال يزيد بن محمد المهلبى يذمه :

لعمرك ما يحصى على الناس شرّها وإن كان فيها لذة ورّخاء
مرارا تريك الفىّ رشداً ، وتارةً تخيل أن الحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الودّ مبغضٌ وأن مديح المادحين هجاء
وجرت إخوان النبىذ ققلاً يدوم لإخوان النبىذ إخاء

وقال ابن الرومى :

مودّة إخوان النبىذ سلافةً يبولونها عند انقضاء المجالس
فبيننا نراهم أهل ألف وأثرة وبيننا نراهم بينهم حربٌ داحس
فأما إذا ناديتهم للّمة فناد التّصاوير التى فى الكنائس

ولهذا كتب الحسن إلى صديق له يستهدى منه مشروباً :

لما رأيت الحظّ للقاعدِ والناس من واشٍ ومن حاسدِ
خلوت فى بيتى وحدى ولا أقلّ فى الأعداد من واحد
فابت بها تشغلى واكفى رؤية هذا العالم الفاسد
وقال أيضاً :

خلوت بالخمير أناجيها أشرب منها وأعطيها^(١)
نادمتها إذ لم أجد صاحباً أرضاه أن يشرّكنى فيها
شربتها صرّفاً على وجهها فكنت ساقيةا وجانيةا

(١) ديوانه ٣٥٠ .

قيل لعضهم : لم لا تتخذ لك نديماً ؟ قال : لأنه مأخوذ من الندم .
واختلفوا في اختيار استعمال النديم ، فمنهم من اختار نديماً واحداً ، ومنهم
من انتهى في الاختيار إلى ستة بالساق وصاحب البيت ، وما زاد على ذلك
فهدوم بإجماع منهم . قال : وأنشدوا في ذلك :

وخير الندأ من ستة من دوى الحجى فخمسة إخوانٍ وآخر يمنعُ
ويحمد في الإخوان من كان محسناً بصوتٍ ينفية ولا يتمتع

* * *

قوله : نهاني الشيب ، جملة الناهي عن اللذات ، لأنه الداعي إلى الفناء
والنذير بالموت ، وما يقول بغير هذا إلا مة كلف عذر ، كقول أعرابي —
ويروى لإبراهيم بن المهدي :

لقد جلّ قدر الشيب أن كان كلاماً بدت شيبة يعرى من اللهو مرّكبُ
وقال المعدّل :

لاح شيبى فظلت أمرحُ فيه مرح الطرف في اللجام المحلى
وتولّى الشباب فازددت ركضاً في ميادين باطلٍ إذ تولّى
إن من ساءه الزمان بشيبٍ لأحق أمره بأن يتسأى
أترانى أسوء نفسى لما ساءني الدهر ، لا أعمرى كلاً

وقال البحتري يعتذر منه :

عبّرتني بالشيب وهي رمتُهُ في عذارى بالصدّة والاجتناب^(١)
لا ترّيه عاراً فاهو بالشيب ولكنّه جلاء الشباب

وبياض البازي أصدق حسناً إن تأملت من سواد الغراب
أخذه ابن رشيق فقال :

وإن لم تعجبني بيباض شعرٍ فلا تستغربني بَلَقِ الغراب^(١)
تعافين المشيب وليس هذا ولكن هذه شيةُ الشَّبَابِ
وقال حبيب يتشكاه :

أصبحت روضةً الشباب هشياً وغدت ريحهُ البليلُ سَمُوماً^(٢)
شعلةً في الفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلاً صميماً
غُرَّةً بهمةً ألا إنما كُنْتُ أغراً أيام كنت بهيماً
دقةً في الحياة تُدعى جلالاً مثل ما سُمِّي اللديغ سليماً
وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مورود^(٣)
يمضي المشيب فلا يأتي له خلفٌ والشيب يذهب مفقوداً بمفقود
أخذه سليمان بن وهب حين نظر إلى المرأة ، فقال : عيب لاعدمناه .
وقال أبو الفتح البستي :

يا شيبتي دومي ولا تترحلي وتيقني أني بوصلك مولعُ
قد كنت أجزع من حلوك مدةً والآن من خوف ارتحالك أجزعُ
وزاد أبو الطيب على هذا فقال : وذكر أنه يتمنى الشيب في زمن الشباب :

(١) نقله في التنف ١١ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٢٣ (دار المعارف)

(٣) ديوانه ٣١٠

مُنَى كُنَّ لِي أَنْ الْبَيَاضُ خَضَابُ فَيَخْفَى بِقُبَيْضِ الْقُرُونِ شَبَابُ^(١)
 لِيَالِيْ عِنْدَ الْبَيْضِ فَوَدَايَ فَتْنَةُ وَنَخِرُ وَذَلِكَ الْفَخْرُ عِنْدِيْ عَابُ
 فَكَيْفَ أَذُمُّ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أُشْتَهِيْ وَأَدْعُوْ بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أَجَابُ

كَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ نَسِيَ مَا قَالَهُ فِي الشَّيْبِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ
 يَشْتَهِيهِ وَيَتَمَنَّا^(٢) :

أَبْعَدُ بَمَدَّتْ بَيَاضًا لَا بَيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِيْ مِنَ الظَّلَمِ
 وَقَالَ رُبْعِيْ :

مَنْ كَانَ يَبْكِي الشَّبَابَ مِنْ أَسْفٍ فَلَسْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْفٍ
 كَيْفَ وَشَرَّخَ الشَّبَابُ أَوْقَفَنِيْ يَوْمَ حَسَابِيْ مَوَاقِفِ التَّلَفِ
 لَا صَحِيحَتُ شِرَّةَ الشَّبَابِ وَلَا عَدِمْتُ مَا فِي الْمَشْيَبِ مِنْ خَلَفِ

وقال ابن رشيقي :

أَرَاكَ لِلشَّيْبِ ذَا اكْتِثَابٍ فَأَيْنَ تَمْضِيْ عَنْ الصَّوَابِ^(٣)
 إِنْ كُنْتَ تَرَعَى الْوَفَاءَ حَقًّا فَالشَّيْبُ أَوْفَى مِنَ الشَّبَابِ

وحقيقة الأمر أنه مازال الناس يكرهون الشيب ويذمونه ، نثرًا ونظمًا .
 لما فيه من دليل الفناء ، والهجنة عند النساء ، وقطع اللذات بالرقة والحياء ،
 ويحبون الشباب ويمدحونه ، لما فيه من عذرة الجاهل ، وإتيان العاجل ، وحسن
 الشرائع ؛ إلا أن لطف الخذاق من الشعراء في تحسين ما كانوا يكرهون ،
 وتقبيح ما كانوا يمدحون رياضةً للنفوس ، وتوسعًا في القول ، كما قال أحدهم :

(١) ديوانه ١ : ١٨٨

(٢) ديوانه ٤ : ٣٥

(٣) نقله في التنف ١٢ .

تفريق شيب في العذار لوامعٌ وماحُسنٌ ليلٍ ليس فيه نجوم !

وفالوا : في الشيب استحكام الوقار ، وتناهى الحلال ، ويسم التجربة .
فهذه مقاصدهم فقف عليها .

قوله : أفرأى : جمع فرح . الراح : الحمر ، والثاني جمع راحة ، وهى الكف .
معتقة : خمر قديمة شديد الحمرة . أنار : بَيَض . إصباحى : احمرار شعرى ،
والصبح : حمرة الشعر ، وضعه موضع السَّواد ، لأنَّ كليهما من حلية الشباب ،
وحمله على هذا ماضن الشيب من التحسين فيقول مستفهماً : هل يجوز شرى
في البكور من خمر صافية في حال تغير الكبر شبابى ، وتبديله حلية الشباب
بحلية الشيوخ . خامرتنى : خالطتنى . إفصاحى : تبينى . الشلاف : الحمر .
وأجأت : صرفت . قِداحى : سهام الميسر . أقَدَّاح : جمع قِدَح ، وهو
الكأس . صرفت : رددت . صرف : خمر . مشعشة : رقيقة المزيج . همتى :
إرادتى . رُحْتُ : مشيتُ بالعشى . مرتاحا : مهتزاً من الطرب ، وارتاح :
وجَد راحة الطلب أو خِفَّة الكرم . نظمت : جمعت . مشمولة : خمر ، وهى
الشمول ، سميت بذلك لاشتغالها على عقل صاحبها ، وقيل : لأنها تشمل القوم
بريحها ، أى تعمهم . وقيل : لها عصفة كمصفة الريح الشمال . شملى : مجموع
أمرى ، والندمان : هو النديم . الصاحى : المُفَيِّق من سكره . نحاً : أزال .
مراعى : طَرَبى . خطّ : كتب . أبفض به ، أى ما أبفضه إلى . لاح :
ظهر : يَبَحى : يلوم ويفاظ القول . جَرَى العنان ، أى انهماكى فى الملاهى .
مَلهى : لهو . سُخِنَاً : بعداً . لائح : ظاهر فى الرأس . لاح : شاتم وعائب ،
يريد أن شيبه لاح فى رأسه فلحاه على اللهو والصبا . فَوَدَى : جانب رأسى .
شائب : فيه الشيب . خبا : طفىء وسكن ضوءه . غسان : قبيلة . وأحسن

(١٥ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

ما سمعت في شيب الفؤد، وفي وخط الشيب الذي ذكر، قول عبد الرحيم بن هارون:
 رأيت الشيب مبتسما بفودي ففاضت أدمعي بدم الفؤاد
 وعمرى كل يوم في انتقاص وذلك النقص لقب بالزياد
 ولي خطٌ وللأيام خطٌ وبينهما مخالفة المداد
 فأكتبه سواداً في بياض وتكتبه بياضاً في سواد
 أنشدها الفنجديهي وقال عند إنشادها: ولعبد الحميد أيات، كأنها روضات جنات.
 قوله: سجاياهم، أي طبائعهم. يا صاح، أراد يا صاحب فرخم لكثرة
 الاستعمال. ولما جعل غسان من عادتهم توقير الضيف، والشيب ضيف وجب
 عليه توقيره. ومراعاة مثل هذا العموم قد تقدم له في ذم الزجاج الذي جرت عليه
 سبيله، وأخذ هذا من قول دعبيل:

أحب الشيب لما قيل ضيفٌ كحبي للضيوف النازلينا^(١)

وقال المتنبي في ذم هذا الضيف:

ضيفٌ أَلَمْ يرَأْسِي غير محتشمٍ والسيفُ أحسنُ فِعْلا منه باللمم^(٢)
 أبعدُ بعدت بياضاً لا بياض له لأنت أسودُ في عيني من الظلم

وقال محمود الوراق:

للضيف أن يُتَرَمَى ويُعرف حَقُّه والشيب ضيفٌ فاقِرُه بمخضاب
 وافي بأصدق شاهد ولربما وافي الشيب بشاهد كذاب
 فافسخ شهادته عليك بخضبة تنفي الظنون بها عن المرتاب
 فإذا دنا وقت الرحيل فخله والشيب يذهب فيه كل ذهب

وقوله: والشيب ضيف له التوقير، قام وكيع لسفيان فنكر قيامه إليه فقال:

(١) ديوانه ١٥٠

(٢) ديوانه ٤: ٣٥

أنتكر على قيامي إليك، وأنت حدثتني عن عمرو بن دينار، عن أنس بن مالك رضي الله عنهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من إجلال الله عز وجل إجلال ذي الشيبة المسلم ». قال : فأخذ سفيان بيده ، فأقعدته إلى جانبه .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قَبَضَ الله تعالى له من بكرٍ مه عند كبر سنه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَوْحَى إِلَيَّ رَبِّي يَقُولُ : الشَّيْبُ عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ نَوْرٌ مِنْ نَوْرِي ، وَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ أَحْرَقَ نَوْرِي بِنَارِي » .

وحدث محمد بن مسلم الخوَّاص الرجل الصالح . قال : رأيت يحيى بن أكثم القاضي في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفني بين يديه ، وقال : يا شيخ السوء ، لولا شَيْبَتُكَ لأحرقتك بالنار ، فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه ، فلما أفتت قالها ثانية وثالثة ، فلما أفتت قلت : يارب ، ما هكذا حَدَّثْتُ عنك ، فقال تعالى : وما حَدَّثْتُ عَنِّي ؟ قلت : حدثني عبدالرزاق ، قال : حدثني معمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزهري ، عن أنس بن مالك ، عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل ، عنك يا عظيم ؛ أنك قلت : ما شاب لي عبد في الإسلام شَيْبَةً إِلَّا اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ أَنْ أَعَذِّبَهُ بِالنَّارِ ، فقال الله عز وجل : صدق عبد الرزاق وصدق معمر ، وصدق الزهري وصدق أنس وصدق نبيي وصدق جبريل ، أنا قلت ذلك ، انطلقوا به إلى الجنة .

* * *

تفسير ما أودع هذه المقامة

من النكت العربية والأحاجى النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذى هو : « فإن وصلأ ألدَّ به » ؛ فإنه نظير قولهم : المرء مجزى بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وهذه المسألة أودعها سيديويه كتابه وجوزَ في إعرابها أربعة أوجه :

أحدها — وهو أجودها — أن تنصب : « خيراً » الأول وترفع الثانى . وتنصب : « شراً » الأول وترفع الثانى ، ويكون تقديره : إن كان عمله خيراً فجزاؤه خير ، وإن كان عمله شراً فجزاؤه شر ، فنصب الأول على أنه خبر كان ، وترفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقد حذف في هذا الوجه « كان » واسمها لدلالة حرف الشرط الذى هو « إن » على تقديرهما . وحذف أيضاً المبتدأ لدلالة الغاء التى هى جواب الشرط عليه ؛ لأنه كثيراً ما يقع بعدها .

الوجه الثانى : أن تنصبهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان عمله خيراً فهو مجزى خيراً ، وإن كان عمله شراً فهو مجزى شراً ؛ فينصب الأول على أنه خبر « كان » وينصب الثانى انتصاب المفعول به .

والوجه الثالث : أن ترفعهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان فى عمله خير فجزاؤه خير ، فيرفع « خير » الأول على أنه اسم « كان » ويرفع « خير » الثانى على ما بين فى شرح الوجه الأول .

وقد يجوز أن يرفع « خير » الأول على أنه فاعل « كان » وتجعل « كان » المقدرة ما هنا هى التامة التى تأتى بمعنى حدث ووقع ، فلا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ ، ويكون التقدير فى المسألة : إن كان خير فجزاؤه خير ، أى إن حدث خير فجزاؤه خير .

والوجه الرابع : وهو أضعفها أن ترفع الأوّل على ما تقدّم شرحه في الوجه الثالث، وتنصب الثاني على ما يُبين ذكره في الوجه الثاني ، ويكون التقدير : إن كان في عمله خير فهو يجزى خيراً ، وعلى حسب هذا التقدير والمقدّرات المحذوفات فيه يجري إعراب البيت الذي غنّى به . ومما ينتظم في هذا السلك قولهم : المرء مقتول بما قُتل به ؛ إن سيفاً فسيف ، وإن خنجراً فخنجر .

وأما الكلمة التي هي حرف محبوب أو اسم لما فيه حرفٌ حلوب ، فهي « نعم » ، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهي حرف ، وإن غنيت بها الإبل فهي اسم . والنعم تذكر وتؤنث وتُطلق على الإبل وعلى كلّ ماشية فيها إبل . وفي الإبل الحرف وهي الناقة الضامرة ، تُسمّى حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف . وقيل : إنها الضخمة تشبيهاً لها بحرف الجبل .

وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، فهو : سراويل ، قال بعضهم : هو واحد وجمعه سراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد ، وكفى عن ضمّه الخَصْرَ بآنه حازم .

وقال آخرون : بل هو جمع ، واحده سِرْوال ، مثل : شِمْلال وشَمَاليل ، وسِرْبال وسَرَابيل ، فهو على هذا القول جمع .

ومعنى قوله : ملازم ، أى لا ينصرف ؛ وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع ، وهو كلّ جمع ثالثة ألف وبعدها حرف مشدّد ، أو حرفان أو ثلاثة أو سطها ساكن لثقله وتفرّده دون غيره من الجوع بأن لا نظير له في الأسماء والآحاد ، وقد كنى في هذه الأَحجية عمّا لا ينصرف بالملازم ، كما كنى في التي قبلها عمّا ينصرف باللازم .

* * *

وأما الهاء التي إذا التحقت أضافت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، فهي الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره ، كقولك : صيارفة وصياقلة ، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الهاء به ، لأنها قد أضافته إلى أمثال الآحاد ، نحو : رفاهية وكراهية ، فنفخ بهذا السبب وصرف لهذه العلة . وقد كفى في هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بالمعتقل ، كما كفى في التي قبلها عمّا لا ينصرف باللازم .

وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجمال ، فهي التي تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن ، التي كانت قبل دخولها من أدوات النصب ، فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير الخففة من الثقلية ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى ﴾ ، وتقديره : علم أنه سيكون .

وأما المنصوب على الظرف الذي لا يختصه سوى حرف ، فهو : « عند » إذ لا يجره غير « من » خاصة ، وقول العامة : ذهب إلى عنده نحن .

وأما المضاف الذي أدخل من عرى الإضافة بعروءة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، فهو « لدن » ولدن من الأسماء الملازمة للإضافة ، وكل ما يأتي بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فإن العرب نصبته بلدن لكثرة استعمالهم إياها في الكلام ، ثم ثبوتها أيضاً ليتبين بذلك أنها منصوبة ، لأنها من نوع المجرورات التي لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن « لدن » بمعنى « عند » ، والصحيح أن بينهما فرقاً لطيفاً ، وهو أن « عند » يشتمل معناها على ما هو في ملكك ومكنتك ، مما دام لك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك .

وأما العامل الذي يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، فهو : « يا » ، ومعكوسها « أي » ، وكلتاها من حروف النداء ، وعملها في الاسم

المنادى سيَّان ، وإن كانت « يا » أجول في الكلام ، وأكثر في الاستعمال .
وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى ، القريب فقط كالمزمرة .

وأما العامل الذى نأثبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مسكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا ، فهو باء القسم ؛ وهذه الباء هى أصل حُرُوف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضاً على المضمر ، كقولك : بك لأفعلن ؛ وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما جميعاً من حروف الشفة ؛ ثم لتقارب معنييهما ؛ لأنَّ الواو تغيد الجمع والباء تغيد الإلصاق ، وكلاهما متفق ، والمعنيان متقاربان . ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلت بالأقسام ؛ ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذِكْراً . ثم إن الواو أكثر موطناً من الباء ، لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ، ولا تعمل غير الجر ، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف . وتجر تارة بالقسم وتارة بإضمار رب . وتنظم أيضاً نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برُحْب الوكر وعظم المكر .

وأما الموطن الذى يلبس فيه الذَّكران براقع النسوان ، وتبرز فيه ربَّات الحجال بعمائم الرجال ، فهو أوَّل مراتب العدد المضاف ، وذلك بين الثلاثة إلى العشرة ، فإنه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها ، كقوله تعالى : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ﴾ والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث ، كقولك : قائم وقائمة وعالم وعالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى اقلب كل منهما فى ضدِّ قلبه ، وبرز فى بزة صاحبه .

وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب عن المضروب والضارب ، فهو حيث يشقبه المفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الإعراب فيهما أوفى أحدهما ،

وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى ، أو من أسماء الإشارة نحو ذاك وهذا . فيجب حينئذٍ لإزالة اللبس إقرار كل منهما في رتبته ، ليعرف الفاعل منهما بتقدمه ، والمفعول بتأخره .

وأما الاسم الذى لا يفهم إلا باستضافة كلمتين ، أو الاقتصار منه على حرفين فهو « مهمما » ، وفيها قولان : أحدهما : أنها مركبة من « مه » التى هى بمعنى اكفف ، ومن « ما » والقول الثانى - وهو الصحيح - أن الأصل فيها « ما » فزيدت عليها « ما » أخرى ، كما تزداد على « إن » فصار لفظها « ماما » ، فنقل عليهم توالى كلمتين بلفظ واحد ، فأبدلوا من ألف « ما » الأولى « ها » فصارتا « مهمما » . ومهما من أدوات الشرط والجزاء ، ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ، ولا عُقِلَ المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها ، كقولك : مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرت منهما على حرفين وهما « مه » التى بمعنى اكفف ، فهم المعنى وكنت ملزماً مَنْ خاطبته أن يكف .

وأما الوصف الذى إذا أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون ، وقَوِّمَ بالدون ، وخرج من الزَّبُون ، وتعرض للهُون ، فهو « ضيف » إذا لحقته النون استحالة إلى « ضيفن » وهو الذى يتبع الضيف ويتنزل فى النقد منزلة الزَّيْف .

المقامة الخامسة والعشرون وتعرف بالكرجية

حكى الحارث بن همام قال : شَتَوْتُ بِالْكَرَجِ لِدَيْنٍ
أَقْتَضِيهِ ، وَأَرْبِ أَقْضِيهِ ، فَبَلَوْتُ مِنْ شَتَائِهَا الْكَالِحَ ، وَصِرَّهَا
النَّافِحَ ، مَا عَرَفَنِي جَهْدَ الْبَلَاءِ ، وَعَكَفَ بِي عَلَى الْإِصْطِلَاءِ ؛ فَلَمْ
أَكُنْ أَزَايِلُ وَجَارِي ، وَلَا مُسْتَوْقِدَ نَارِي ، إِلَّا لَضَرُورَةٍ أُدْفَعُ
إِلَيْهَا ، أَوْ إِقَامَةٍ جَمَاعَةٍ أُحَافِظُ عَلَيْهَا ، فَاضْطَرَرْتُ فِي يَوْمٍ جَوْهَ
مُزْمَرٍ ، وَدَجْنُهُ مَكْفَهَرٍ ، إِلَى أَنْ بَرَزْتُ مِنْ كِنَانِي ، لِمِهِمَّ عَنَانِي ؛
فَإِذَا شَيْخٌ عَارِي الْجِلْدَةِ ، بَادِي الْجُرْدَةِ ، وَقَدْ ائْتَمَّ بِرَيْطَةٍ ،
وَاسْتَفْقَرَ بِفُيُوطَةٍ ، وَحَوَالِيهِ جَمْعٌ كَثِيفٌ الْحَوَاشِي ، وَهُوَ يَنْشُدُ وَلَا يُجَاسِي .

* * *

شَتَوْتُ : أَقْتِ فِي الشَّتَاءِ

[الكرج]

وَالْكَرَجُ : مَدِينَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَبَشْدَةُ الْبَرْدِ مَوْصُوفَةٌ ، وَهِيَ بَيْنَ أَصْبَهَانَ
وَهَمْدَانَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَرْدُ هَمْدَانَ ^(١) فِي الْأَوَّلِ ، وَمِنْ هَمْدَانَ إِلَى نِهَازَنْدِ مَرَحِلَتَانِ ، وَمِنْ
الْكَرَجِ إِلَى مَدِينَةِ أَصْبَهَانَ سِتُونَ فَرَسَخًا . وَهِيَ مَنَازِلُ دَيْسِي بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ
مَمْلُوحِ الْعَجَلِيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ فِي أَيَّامِ الْعَجَمِ مَدِينَةً مَشْهُورَةً ، وَإِنَّمَا كَانَتْ فِي عِدَادِ الْقُرَى
الْعِظَامِ مِنْ رَسَائِقِ كُورَةِ أَصْبَهَانَ ، فَتَزَلُّهَا الْعَجَلِيُّونَ فَيَنْوُوا بِهَا الْحَصُونَ وَالْقُصُورَ ،
وَجَعَلَهَا أَبُو دَلْفٍ مَدِينَةً عَظِيمَةً .

وَقَالَ أَبُو دَلْفٍ : دَخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَقَالَ لِي : يَا قَاسِمُ ، مَا خَبَرُ أَرْضِكَ ؟
خَلَّتْ : خَرَابُ يَابِ ، خَرَّ بِهَا الْأَكْرَادُ وَالْأَعْرَابُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : هَذَا آفَةُ الْجَبَلِ
وَهُوَ أَفْسَدُهُ ، فَقُلْتُ : فَأَنَا أَصْلَحُهُ . قَالَ الرَّشِيدُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : أَفْسَدْتُهُ وَأَنْتَ عَلَى ،

(١) فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، صَفْحَةُ ٢٤ ، ٢٥

وأصلحه وأنت معي . ففعل ذلك ، وعمر الكرج ، حتى صار دار أجناد ، ومحل وفود وقصّاد .

وقال علي بن جبلة^(١) : زرت في الجبل ، فلما حلت بالكرج ، أظهر من برّي وإكرامى أمراً مفرطاً ، حتى تأدّرت عنه تأخراً كبيراً . فوصل إلى معقل بن عيسى ، فقال : يقول الأمير : انقطعت عني ، وأحسبك استقلت برّي ، فلا يفضّئك ذلك ، فسأزيدُ فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعني عنه إلا إفراطه بالبرّ . قال : وكتب إليه في ذلك :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمة وهل يُرتجى نيلُ الزيادة بالكفر
ولكنني لما أتيتك زائراً فأفرطت في برّي عجزت عن الشكر
فما ليت لا آتيك إلا مسلماً أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهر
فإن زدتنى برّاً ترايدت جفوة ولم تلقني طول الحياة إلى الحشر

فلما وصلت إليه ، قال : قاتله الله ما أشعره ، وأدق معانيه ! فأجابني لوقته ، وكان حسن البديهة :

ألا ربّ ضيف طارق قد بسطته وآنسته قبل الضيافة بالبشر
أناي برجيني فما حال دونه ودون القرى والعرف من نيله سترى
وجدت له فضلاً على بقصده إلى وبرّاً راد فيه على برّي
فزودته مالا يقلّ بقاؤه وزودني مدحاً يدوم مع الدهر

وبعث إلى بها وبألف دينار مع وصيفة ، فقلت حينئذ :

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين مبداه ومختصره
فإذا ولي أبو دلفٍ ولت الدنيا على أثره
ملك تندي أنامله كانبلاج النور عن مطره

(١) الأغاني ١٩ : ٢٩٨ (بيروت)

مستهلٌّ عن مراهبه - كابتسام الزهر عن زهرة
 جبلٌ عزَّتْ مناكبهُ - أمنتُ عدنان في كفرة
 كل من في الأرض من عربٍ - بين بادية ومحتضرة
 مستعيرٌ منه مكرمة - يكفها يوم مفتخرة

والبيت الثاني أحفظ المأمون على ابن جبلة حتى سلّ لسانه من قفاه .

* * *

قوله : أفتضيه ، أى أجمعه . أرب : حاجة . بلوت : قاسيت . السكالح : الشديد ، وكلح كلوحا . أبدى أسنانه عند العبوس ، والبرد الشديد يبدى الأسنان عند رعده . صرّها : يردّها الشديد . النافح : المتحرك بالريح الباردة . جهد البلاء : مشقة الضرّ ، ويقال : بلغ جهده ، أى أقصى قوته ، فأراد بجهد البلاء المشقة التي يتمنى الإنسان عندها الموت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيد منه .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء : « اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الأعداء » ؛ وروى في « جهد البلاء » ، أنه القتل عبرا
 أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه قال : قتل الصبر جهد البلاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « جهد البلاء أن تحتاج إلى ما في أيدي الناس فيمنعوك »
 مجاهد قال : كنت جالسا عند عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بالكوفة ، فأبى برجل أن يضرب عنقه ، فقلت : هذا والله جهد البلاء ، فقال : والله ما هذا إلا كشرطة حجام بمشراط ، ولاكن جهد البلاء فقر مدقع بعد غنى مؤسع .

الأحنف : جهد البلاء خمسة : خادم مذموم ، وحطب رطب ، وبيت يصف ،

وخوان ينتظر ، وجبار على الباب يدق .

عكف بنى على الاصطلاء : ألزمنى التسخُن بالنار وعكف على الشئ .
عكوفاً: لزمه. أزايل وجارى : أفارق يبتى ، والوجار جحر الضبع . إقامة جماعة ، أى
حضور الصلاة مع الجماعة ، ويرد شكير بغرناطة كان أشد على ابن صارة - حيث
منعه الصلاة - من برد السكرج على ابن هام حيث يقول ابن صارة :

أحلّ لنا ترك الصلاة بأرضكم وشرب الحميا وهو شئ محرم
فراراً إلى نار الجحيم فإنها أرق علينا من شكير وأرحم
لئن كان ربى مدخلى فى جهنم فى مثل هذا اليوم طابت جهنم

جوة مزمهر : هواؤه بارد ، والمزهرير : البرد . دجنه مكفر : سحابه
متراً كم مظلم . كنانى : يبتى : مهم : أمر لا يؤخر . عنانى : عرض لى وقصدنى .
الجرودة الجلدة : التى تجرد عنها ثوبها ، وفلان جسن الجردة والتجرد ، أى حسن
العرى ، وقيل : الجردة الثوب المتجرد البالى . والريطة عند العرب : شئ
رقيق ، شبه الملحفة ، ولذلك شئى به المرأة ، ولا معنى لهذه الصفة لأنه قد وصفه
بالعرى ، وإنما أراد هنا شبه الكراز لفظ مغير عن أصله كالقوطة عندنا ، ضرب
عما يعتم به ، وهى مغيرة عن أصلها ، وإنما أصل القوطة ثوب يحلب من الهند غليظ ،
وتصغيرها قوطة ، يلبسه أهل مصر وأهل المشرق كما يلبس أهل المغرب وأهل
الأندلس الإحرام والمئزر . واستنفر : بالثوب إذا لواه على فخذه ، ثم أخرجه من
بينهما ، فشده فى حجزته ، واستنفر الكلب بذنبه : جعله بين فخذه فتخيل
صورة السروجى هنا التى نهاية فى القبح على ما يتصف به أبدا ، وقد لوى على
رأسه قطعة من عمامة بالية ، واستنفر بمنالها ، فلا تجدله مثلاً إلا ما قال أبودلامة
فى نفسه :

إذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة :

وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ رَشِيقٍ فِي غِلَامٍ مَعْتَمٍّ بِعِمَامَةٍ حُمْرَاءَ :
 يَأْمَنُ يَمْرَءً وَلَا تَمَرُّ بِهِ الْقُلُوبُ مِنَ الْحَرَقِ
 بِعِمَامَةٍ مِنْ خِذِّهِ أَوْ خِذِّهِ مِنْهَا سَرَقُ
 فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهُمَا قَرُّ أَحَاطَ بِهِ شَفَقُ
 شَفَلُ الْجَوَارِحِ وَالْجَوَا نَحْ وَالْخَوَاطِرِ وَالْخَدَقُ

وَقَالَ السَّلَامِيُّ فِي عِمَامَةٍ :

حَسَنَاءُ ضَافِيَّةٌ ، بِيضَاءُ صَافِيَّةٌ كَأَنَّ رَوْقَهَا فِي صَارِمٍ ذَكَرِ
 يَزِينُ أَطْرَافَهَا طَرَزٌ كَمَا رَقَّتْ عَلَى الْجُرَّةِ طَرَزُ الْأَنْجَمِ الزَّهَرِ
 كَثِيفٌ : خَشَنٌ مَنْصُومٌ بَعْضُ حَوَاشِيهِ إِلَى بَعْضٍ مِنَ السَّكْرَةِ . يَحَاشَى :
 يَسْتَنْتِي .

* * *

يَا قَوْمِ لَا يَنْبِئُكُمْ عَنْ فَقْرِي
 أَصْدَقُ مِنْ عُرْيِ أَوَانَ الْقُرَى
 فَاعْتَبِرُوا بِمَا بَدَأَ مِنْ ضُرِّي
 وَحَازِرُوا انْقِلَابَ سِلْمِ الدَّهْرِ
 فَإِنِّي كُنْتُ نَبِيَّةَ الْقَدْرِ
 تَفِيدُ صُفْرِي وَتُبِيدُ سُمْرِي
 آوِي إِلَى وَفْرِ وَحَدِّ يَفْرِي
 وَتَشْتَكِي كَوِي غَدَاةَ أَقْرِي
 فَجَرَّدَ الدَّهْرُ سَيُوفَ الْغَدْرِ
 وَشَنَّ غَارَاتِ الرِّزَايَا الْغُبْرِ
 وَلَمْ يَزَلْ يَسْحَتْنِي وَيَبْرِى
 حَتَّى عَفْتُ دَارِي وَغَاضَ دَرِّي
 وَبَارَ سِغْرِي فِي الْوَدَى وَشِعْرِي

(١) ثَقَلَهُ فِي النَّفْسِ ٥

وَصِرْتُ نِضْوَ فَاقَةٍ وَعُسْرِ
عَارِي الْمَطَا مَجْرَدًا مِنْ قَشْرِي
كَأَنِّي الْمِنْزَلُ فِي التَّعَرِّي لَادِفٍ لِي فِي الصَّنِّ وَالصَّنْبَرِ
غَيْرُ التَّضَحِّيِّ وَاصْطِلَاءِ الْجَمْرِ فَهَلْ خِضَمٌ ذُو رِءَاءِ غَمْرِ
يَسْتُرُنِي بِمُطَرَفٍ أَوْ طَمْرِ طَلَابَ وَجْهِ اللَّهِ لَا لَشَكْرِي!

ينبىء : يخبر . أو ان القرء : وقت البرد . حاذروا : خافوا . سلّم : صلح .
نبيه القدر : رفيع المنزلة . آوى : ارجع . وفر : مال كثير . بفرى : يقطع .
تفيد : تأتى بالفوائد . صفرى : دنايرى . تُبِيد : تلتف . مُمَرى : رماحى .
كُونى : إبلى ، والكوماء : الناقة العظيمة السنام أقرى : أطمع الأضياف ،
أى تشتكى إبلى من كثرة ما أنحرها للضيغان . شن : فرّق . الرزايا : المصائب .
الغبر : الآتية فى الزمان المحل . يَسَحْتْنِي : يستأصل مالى . يبرى : يقطع لحمى .
عَفَتْ : درست . غاض : ذهب وجف . درى : لبن إبلى . بار : كسد وضاع .
سعرى : سوقى . نضو : هزبل . فاقة : حاجة وفقر . عسر : ضيق حال . المطا : الظهر
قشرى : ثيابى . والدف : ذهاب البرد ، وقد دفى يدفاً ، أى سخن وذهب برده .
الصَّنُّ والصنبر : يومان من أيام العجوز ، وهى سبعة : أربعة من آخر فبراير ،
وثلاثة من أول مارس . وقال الشاعر فجمعها :

كُتِبَ الشَّوَابُ بِسَبْعَةِ غُزْرِ بِالصَّنِّ وَالصَّنْبَرِ وَالْوَبْرِ^(١)
وَبَامِرٍ وَأَخِيهِ مُؤْتَمِرٍ وَمَعْلَلٍ وَبِمُطَفٍ وَالْجَمْرِ

التَّضَحَّى : الجلوس للشمس . خِضَمٌ : كريم ، شبه بالبحر ، وهو الخِضَم .
ذو رداء غمر : ذو عطاء كثير . مطرف : ثوب مربع فى طرفه علم .
الفرء : قيل مُطَرَفٌ لأنه أطرف ، أى جُمِلَ فى طرفيه العلمان . طمر : ثوب خلق .

ثُمَّ قَالَ: يَا أَزْبَابَ الثَّرَاءِ، الرَّافِلِينَ فِي الْفِرَاءِ؛ مَنْ أُوتِيَ خَيْرًا فَلْيَنْفِقْ، وَمِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُرْفِقَ فَلْيُرْفِقْ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا غَدُورٌ، وَالذَّهْرُ عَثُورٌ، وَالْمُسْكَنَةُ زَوْزَةٌ طَيْفٌ، وَالْفَرَصَةُ مُزْنَةٌ صَيْفٌ. وَإِنِّي وَاللَّهِ لَطَالَمَا تَلَقَّيْتُ الشِّتَاءَ بِكَافَاتِهِ، وَأَعَدَدْتُ الْأَهْبَ لَهُ قَبْلَ مُوَاظَاتِهِ، وَهَا أَنَا الْيَوْمَ يَسَادَتِي، سَاعِدِي وَسَادَتِي، وَجَلَدَتِي بُرْدَتِي، وَخَفَّتِي جَفْنَتِي، فَلْيَعْتَبِرِ الْعَاقِلُ بِحَالِي، وَلْيُبَادِرْ صَرْفَ اللَّيَالِي؛ فَإِنَّ السَّيِّدَ مَنْ اتَّعَظَ بِسَوَاهِ، وَاسْتَعَدَّ لِمُسْتَرَاهِ.

* * *

أرباب الثراء: أصحاب المال. الرافلين: المشين بخيلاء وتبختر: الفراء: جمع فروة. أوتي: أعطى. خيراً: ملاً. يرفق: يعين، وأرقته: أعطيته ما يرتفق به. غدور: كثيرة الخداع. عثور: واقع بأهله. المسكنة: الغنى. طيف: ما يرى في النوم.

ابن الأنباري: في طيف الخيال قولان: قيل: أصله طَيْفٌ فَخَفَّفَ، وقال الأصمعي رحمه الله تعالى: هو مصدر طاف، وبه أخذ السهيلي رحمه الله تعالى، فقال: هو مصدر طاف الخيال يَطِيفُ طَيْفًا، ولا يقال: منه طائف على فاعل، لأنه لا حقيقة للخيال، إنما هو توهم وتخييل. فإن كان شيء له حقيقة قلت: فيه طائف، نحو قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾، لأن الذي طاف عليها له حقيقة، ويقال: إنه جبريل عليه الصلاة والسلام. وأما قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهْمٌ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ فقد قرئ: ﴿طَائِفٌ﴾ أيضاً فطائف لأن له حقيقة، وطيف لأنه غرور الشيطان وأمانيه تشبه بالخيال وما لاحقيقة له، فتحصل من هذا ثلاث مراتب الخيال، ولا حقيقة له فيمتر بالطيف، ويقال في وسوسة الشيطان: طائف وطيف، وما عدا هذين فهو باسم الفاعل، ولا يميز عنه بطيف

فقف عليه . الفرصة : ما تمياً لك وتيسر لك من مطالبتك . مزنة صيف ، أى
سحابة لا دوام لها ، وأراد قول عمران بن حطان :

أرى أشقياء الناس لا يستؤونها على أنهم فيها غراب وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها سحابة صيف عن قريب تقشع

ولما ولي بلال بن أبى بردة البصرة ، كان إذا اجتاز فى مواليه بخالد بن
صفوان يقول : * سحابة صيف عن قريب تقشع *

فبلغ قوله بلالاً ، فقال : والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب ، فردّه ثم
ضربه مائة سوط .

كافات : جمع كاف ، وأراد بها آلهة وما يستعدّ له بها وهى الأهب التى أراد .
موافاته : مجيئه وحضوره . ساعدى : ذراعى . بردنى : ثوبى ، الحفنة : ما يملأ
الكف . الحفنة : الصحيفة . فليتعض ، أى يعتبر ويجعلنى عبرة . صرف : قلب .
استعد : أعدّ : اسراه : مثواه . وقال الألبيرى فى هذا المعنى :

وذى غنى أو همته همته أن الغنى عنه غير منفصل^(١)

فجر أذيال عجبهِ بطراً واحتال للكبرياء فى حُلال

برّته أيدى الخطوب يزّته فاعتاض بعد الجديد بالسّمَل

فلا تثق بالغنى فأفته الفقر وصرف الزمان ذو دُول

كنى بنيل الكفاف منه غنى فكف به الدهر غير مُحْتَفِل

[من مقامة البديع البخارية]

ومن مقامات البديع : حدثنا^(١) عيسى بن هشام قال : أحلتنى جامع بخارى يوماً
وقد انتظمت مع رققة فى سلك الثريا . وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو
طمرين ، قد أرسل صوانا ، واستتلى طفلاً عريانا ، يضيق بالضرّ وسوءه ، ويأخذه
القرّ ويدعّه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتفى لحماية رعدة ، فوقف الرجل
وقال : لا ينظر لهذا الطفل إلّا من الله طفله ، ولا يرق لهذا الضرّ إلّا من لا يأمن

مثله . يا أصحاب الجودود المفروزة ، والأردية للطرورزة ، والدُّور المنجدة ، والقصور
 المشيدة . إنكم لن تأمنوا حادثاً ، ولن تعدموا وارثاً ، فبادروا الخير ما أمكن ،
 وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طَعِمْنَا السُّكْبَاجَ ، وركبنا الحملاج ،
 ولبسنا الديباج^(١) ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فاراعنا إلا هبوب الدهر بفدْرِه ،
 وانقلاب الجنِّ لظهره ، فعاد الحملاج قَطُوفاً^(٢) ، والديباج صَوْفاً ، وهلمَّ جراً إلى
 ما تشاهدون من حالى وزبى ؛ فيها نحن نرتضع من الدهر ندى عَقِيمٍ ، ونركب
 من الفقر ظهر بهيم ، فلا نزنو إلا بعين اليتيم ، ولا نمد إلا يدَ العديم . فهل
 من كريم يحلو غياهب هذه البثوس ، ويفلِّ شبا هذه النحوس . ثم قد
 مرتفقاً^(٣) ، وقال للطفل : أنت وشأنك ، فقال : ما عسى أن أقول وهذا الكلام
 لولقى الشعر لحلقه ، أو الصخر لفلقه ، وإن قلباً لم ينضجه ما قلت لنى . وقد سمعتم
 يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كلٌّ منكم بالجوود يده ، وليذكر
 غده ، واقياً بى ولده ، وامنحونى أشكركم ، واذكرونى أذكركم . وتماها
 فى العشرين .

* * *

ف قيل له : قَدْ جَلَوْتَ عَلَيْنَا أَدَبَكَ ، فاجلُ لنا نسبَكَ ،
 فقال : تَبَّا لِمَفْتَحِرٍ ، بِمَظْمَنَةٍ ، إِنَّمَا الْفَخْرُ بِالْتَقَى ، وَالْأَدَبُ الْمُنْتَقَى ؛
 ثم أنشد :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ
 عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لَا ابْنَ أَمْسِهِ

(١) السكباج : لحم يطبخ بالخل ويجعل معه مرق ، والحملاج : الدابة السريعة ، والديباج : الحرير .

(٢) القطوف : الدابة البطيئة فى سيرها .

(٣) مرتفقاً ، أى فى مكان عال .

وما الفخرُ بالعظمِ الرَّمِيمِ . وإنما
فخارُ الذي يبغي الفخارَ بنفسه .

ثمَّ إِنَّهُ جَلَسَ مُحَقِّقًا ، واجرِئْكُمْ مُقَفِّقًا . وقال : اللَّهُمَّ يَا مَنْ
غَمَّرَ بِنَوَالِهِ ، وَأَمَرَ بِسُؤَالِهِ ؛ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَأَعْنِ عَلَى الْبَرْدِ
وَأَهْوَالِهِ ، وَأَتَمِّحْ لِي حُرًّا يُوْثِرُ مِنْ خَصَاصَةِ ، وَيُوَاسِي وَلَوْ
بِقِصَاصَةٍ .

قوله : « جلوت » ، أظهرت وكشفت . أجلُّ : اكشف وبين عنه . تَبَّأ :
خسرانا . نَحَرَ : بال . المشتق : المختار . تجلَّى : تبدى وظهر . الرَّمِيم : البالي .
يبغي : يطلب .

وقوله : « تَبَّأ لِمُفْتَخِرٍ ، بِعَظْمِ نَحْرٍ » ، كانت العرب تتفاخر بالأحساب ، وتتعاضد
بكرم الآباء ، فنزل القرآن العظيم بترك ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ ﴾ و ﴿ إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم في حجة الوداع : « أيها الناس ، إنما الناس إخوة وليس لعربي على عجمي
فضل إلا بالتقوى . أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لأدم
وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم » ، فلذلك قال : إنما الفخر بالتقى .

وقال على كرم الله وجهه ورضى عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفاه أبومُ آدمُ والأمُ حَوَاهِ
فإن يكن لهم من قبل ذا نسبٍ يفاخرون به فالطيب والماء

وقال عامر بن الطفيل :

ولمّا وإن كنتُ ابنَ سيّد عامرٍ وفي السرِّ منها والصريح المهدب^(١)
فما سودّ نبيّ عامرٍ عن ولادة^(٢) أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أب
ولكنني أحمى حماها وأتقى أذاها وأرعى من رماها بمنكب^(٣)

فهذا مع إمكانه الفخر بالآباء لم يفخر إلا بنفسه . وأخذ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يوماً على الأحساب تَتَكَلَّمُ
نَبِيٌّ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وهذا مثل قول الحسن رضى الله تعالى عنه وقد أجزل صلة شاعر ، فليم في ذلك فقال : أترانى خفت أن يقول : إني لست ابن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ولكني خفت أن يقول : لست كمثلهما فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخدراً في الكتاب محفوظاً على السنة الرواة ، فقال الشاعر : أنت والله يا بن رسول الله أعرف بالمدح والذم مني .

قوله : والأدب المنتقى ؛ حدث يحيى بن أكرم قال : بينما أنا جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى ، أبدع الناس زياً وهيبة ووقاراً ، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فنظر إليه المأمون ، فقال : يا يحيى إن هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشمياً أو نحريراً ، ثم بعثنا من يتعرف ذلك منه . فعاد الرسول فأخبر أنه نحرير ، فقال المأمون : يا يحيى ؛ أعلمت إن علم النحر قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلو الهمة منزلة بنى هاشم في شرفهم ! يا يحيى ، من قعد به نسبه قام به أدبه . قال : وأنشد الشاعر :

(١) ديوانه ٢٨ .

(٢) الديون : « ورائقه » .

(٣) الديوان : « بجنب » .

كن ابن من شئت واتخذ أدبا يُغنيك مأثورُه عن النَّسبِ
 ابن الفتي من يقول ما أنا ذا ليس الفتي من يقول كان أبي
 مالى عقلى وهمتى حسبي ما أنا مولى ولا أنا عربى
 ابن انتى منتم إلى أحدٍ فإنتى منتم إلى أدبى
 وتكلم رجل عند عبد الملك بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فقال له وقد
 أعجبه : ابن من أنت يا غلام؟ فقال : ابن نفسى يا أمير المؤمنين ، التى نلت بها
 هذا لقمع منك ، قال : صليت . أخذه ابن دريد فقال :

كن ابن من شئت وكن مؤدباً فإنما البرء بفضل حسبه^(١)
 وليس من تكرم له غيره مثل الذى تكرم لنفسه
 وقالت عائشة رضى الله عنها : كل كرم دونه لؤم ، فاللؤم أولى به ، وكل
 لؤم دونه كرم فالكرم أولى به — يعنى أن أفعال الإنسان إذا كرمت لم يضره لؤم
 آبائه ، وإذا لؤمت لم ينفعه كرم آبائه . وقال المعري :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده^(٢)
 لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالعدوم فى وجده
 ومجده أفعاله لا الذى من قبله كان ولا بعده
 قوله : ما تجلّى يومه ، أى على ما ظهر وانكشف يومه من أفعاله الحمودة .
 أو المذمومة . محقوقها : منحنيّاً . اجرثم : انقبض . مقققا : مرتعداً ، ويقال :
 قفّ شعره إذا ارتفع من دعر أصابه . وقفّ جلدى من هذا الحديث ، إذا اتشعر
 من استئشاع ما سمع .

غمر بنوالة ، أى غطى بغطاياه . وأمر بسؤاله : يريد قوله تعالى : ﴿ واسألوا

(١) ديوانه ٧٠ ، وفيه : « كيه » .

(٢) سقط الزند ١٠١٦ مع اختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات .

الله من فضله . آله : أهله . أهواله : شدائده ومخاوفه . أنتح : قَدَّر . يؤثِّر :
يفضِّل غيره على نفسه . خصاصة : جوع ، وهذا منزع من القرآن .

* * *

قال الراوى : فلما جَلَى عن النفسِ العِصاميَّة ، والملحِ
الأصمعيَّة ، جعلت ملامح عيني تعجُّهُ ، ومرامي لخطي ترعُّجُهُ ،
حتى استبنتُ أنَّه أبو زيد ، وأنَّ تعريَّه أجبولة صيدٍ . ولمح هو
أنَّ عرفاني قد أدركه ، ولم يَأْمَن أن يهتِكْهُ ، فقال : أقسمُ
بالسَّمرِ والقمرِ ، والزُّهرِ والزَّهرِ ، إنَّه لن يَسْتُرَنِي إلَّا مَنْ طابَ
خيمُهُ ، وأشرب ماء المروءة أدِيمُهُ . فعقلتُ ما عناه ، وإن لم يذرِ
القومُ مَعْنَاهُ ، وساءَني ما يعانِيهِ من الرَّعدة ، واقتشعرَّارِ الجلدَةِ .
فعمدْتُ لفروءة هي بالنَّهارِ رياشي ، وفي اللَّيلِ فراشي . فنضوتها عني ،
وقلتُ له : أقبِلْها مِنِّي ؛ فما كذبَ أنِ اقترأها ، وعيني
تراها . ثم أنشد :

لله من ألبسني فروةً أضحت من الرعدة لي جنة
ألبسنيها واقياً مُهَجَّتِي ووقى شرَّ الإنسِ والجنَّة
سيكُنسِي اليومَ ثنائِي وفي غدٍ سيكُنسِي مُنْذَسَ الجنَّة

. . .

والعصامية : منسوبة إلى عصام بن شهر بن الحارث الجرمي ، حاجب النعمان
ابن المنذر الذي يقول له النابغة :

فإني لا ألام على دخولٍ ولكن ما وراءك يا عصام^(١)
ولم يكن عصام شريفاً ، ولا نشأ في قومه ، ولكن كان من أشد الناس
بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، وأقربهم إلى النعمان ، وقال له رجل
يوماً : كيف بلغت هذه المنزلة من الملك وأنت دنيء الأصل ؟ فقال :
نفسُ عصامٍ سودت عَصَاماً^(٢) وعلمته الكثرة والإقدام^(٣)

* وصيرته سيّدا هاما *

ويقال : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، أي افتخر بنفسك لا بأبائك
الذين ماتوا وبقيت عظامهم . فكل من ليس له شرف قدم ، وشرف نفسه ،
يقال له عصامي .

وكانت لرجل عند الحجاج حاجة ، فوصف بالجهل والحق ، فأراد
أن يختبره ، فقال : أعصامي أنت أم عظامي ؟ فقال له الرجل : عصامي
عظامي ، فظن أنه يريد افتخاره بنفسه لفضله وبآبائه لشرفهم ، فقال الحجاج :
هذا من أفضل الناس ، وقضى حاجته ، ثم جرّ به بعد ذلك ، فوجده أجهل
الناس ، فقال له : أصدقني وإلا قتلتك ، أجبتني بعصامي وعظامي ، فقال له
الرجل : لم أعلم معناها ، فخشيت أن أقول أحدهما فأخطيء ، قلت في نفسي : أقولها
معا ، فإن ضررتني أحدهما نفعتني الآخر ، فقال الحجاج : المعاذير تصير النبي خطيئا ،
فذهبت مثلاً .

وسمع المأمون رجلا يفخر بنفسه وهو ناقص ، فقال : أنت عظامي لا عصامي .

(١) ديوانه ٧٤ .

(٢) ديوانه ٧٩ .

ولهذا أشار بما تقدم من قوله « تَبَا لِمَفْتَخِرٍ ، بِعَظَمِ نَحْرِ » ، يريد أن عصاما ساد بنفسه لا بأبائه ، وكذلك السَّروحي لم يفخر إلا بنفسه .

الأصمعي : التي حكاهما الأصمعي ، وقد مرّ من مُلح الأصمعي في هذا الكتاب جملة كافية بحمد الله تعالى . والأصمعي عَصَاحِيّ لأنه من باهلة ، وهي أجن قبيلة في العرب والأماها ، وذكر المبرد في كامله جملة أخبار في أمثالها ، قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النَّسَبِ (١)
وهو مع ذلك خامل المنشأ ، وقد ذكرنا في الأربعين خمول أبيه إلا أنه ساد الناس بنفسه أداً وعلماً وديناً . ومن مُلحه أنه قال : بينما أنا في طرق البصرة إذا أنا بكناس يكنس كنيفاً ، وإذا هو يقول :

فإياك والسكنى بأرض مذلة تعدّ مسيئافيه إن كنت مُحسناً
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك بها فاطاب لنفسك مسكناً
قال : فوقفت عليه ، فقلت : والله ما بقي عليك من الهون شيء إلا وقد أهنتها به ، فما الذي نلت من كرامتها ؟ قال : والله لكنس ألف كنيف أحسن من القيام على باب مثلك ساعة .

الأصمعي : كان أعرابيان متواخيان بالبادية ؛ ثم إن أحدهما استوطن الريف ، واختلف إلى باب الحجاج ، فولّاه أصبهان . فسمع أخوه خبره فغضب إليه ، فأقام بيابه حيناً لا يصل إليه ، ثم أذن له بالدخول ، فأخذه الحاجب فشى به وهو يقول :

فلستُ مسلماً ما دمتُ حيّاً على زيد بتسليم الأمير

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١١ .

فقال زيد : لا أبالي ، فقال الأعرجي :

أتذكر إذ لحافك جلدُ شاةٍ وإذ نعلك من جلد البعيرِ

فقال : نعم ، فقال الأعرجي :

فسيبحان الذي أعطاك ملصكا وعلمك القمود على السرير

تَعْجَمُه : تحتبره . مراعى لحظي : نظرات عيني وسهام نظري ، واحده المرامي
مرّماة ، وهي السهم .

ترجمه : ترميه ويهجم عليه . أحبولة : شبكة . يهتسكه : يكشفه . السمر :
خلل القمر ، ثم سُمي حديث الليل سمرا به . الزهر : النجوم . خيمه : طبعه .
أشرب : سُقي . المروءة : الفعل الجميل . أديمه : وجهه ، ويقال : أشرب فلان
حبّ فلان ، إذا خالط حُبّه قلبه . ماعناه : ما أراد ، يريد أنه لما قال : لن يسترنى ،
إنما أراد لن يستر على هذه الحيلة التي أريد بها خداع الناس بعد ما عرفها بالإمن
هو كما وصف .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن
أحيا موءودة من قبرها » .

سأنى : شقّ على . يمانيه : يقاسيه . اقشعرار : انقباض وارتعاد .
عمدت : قصدت . رياشي : لباسي . نضوتها : جرّدتها . افتراها : اتخذها .
جُنّة : ستراً ووقاية . واقيا : صائنا . مهجتي : نفسي . وقّ : كُفي . الجنّة :
الجنّ : سندس : ثياب خضر .

قال : فَلَمَّا فَتَنَ قُلُوبَ الْجَمَاعَةِ ، بَافْتِنَانِهِ فِي الْبَرَاةِ ، أَلْقَوْا عَلَيْهِ
مِنَ الْفِرَاءِ الْمَغْشَاةِ ، وَالْجُبَابِ الْمَوْشَاةِ ، مَا آدَهُ ثِقَلُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ

يَقْلَهُ ، فَاَنْطَلَقَ مُسْتَبْشِرًا بِالْفَرَجِ ، مُسْتَسْقِيًا لِلْكَرَجِ ، وَتَبِعْتُهُ
إِلَى حَيْثُ ارْتَفَعَتِ التَّقِيَّةُ ، وَبَدَتْ السَّمَاءُ نَقِيَّةً ، فَقُلْتُ لَهُ : لَشَدَّةٍ
مَا قَرَسَكَ الْبُرْدُ ، فَلَا تَتَعَرَّ مِنْ بَعْدِ ، فَقَالَ : وَيْلَكَ ! لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ ،
سُرْعَةُ الْعَدْلِ ، فَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِ هُوَ ظَلَمَ ، وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ؛ فَوَالَّذِي نَوَّرَ الشَّيْبَةَ ، وَطَيَّبَ تَرْبَةَ طَيِّبَةٍ ، لَوْ لَمْ أَتَعَرَّ
لَرُحْتُ بِالْخُيْبَةِ ، وَصَفَرَ الْعَيْنَةَ .

. . .

افتنانه : تنوعه . البراعة : الجودة والنفاسة . المغطاة : بغيرها من
الثياب . الموشاة : المزينة بالرقم . آده : أثقله . يرفعه : مستسقيًا : داعيًا
بأن يسقيها الله تعالى . التقية : الخشية .

قوله : بدت السماء نقية ، مثل ضرب خلخلة الموضع من الناس وظهوره
فيه وحده . ويك ، أى عجباً لك . العذل : اللوم .

تقف : تتبع ، يقال : قفوت أثره أقفوه قفواً ، إذا تتبعته ، ومنه : قفاً فلان
فلانا إذا أتبعه بكلام قبيح ، ويقال : قفاه بالتخفيف .

أبو عبيدة رحمه الله تعالى : أصل القفو والتقافى : البهتان يَرْمِي بِهِ الرَّجُلُ
صَاحِبَهُ ، وَاحْتِجَ بِحَدِيثِ حَبَّانِ بْنِ عَطِيَّةَ : « مَنْ قَفَا مُؤْمِنًا بِمَا لَيْسَ فِيهِ حِسْبُهُ اللَّهُ
تَعَالَى فِي رَدْغَةٍ ^(١) الْخُبَالِ حَتَّى يَأْتِيَ بِالْخُرْجِ » . قَالَ الْفَرَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : الْقَفْوُ :
مَأْخُذٌ مِنَ الْقِيَافَةِ ، وَهُوَ تَتَبُعُ الْأَمْرِ ، يُقَالُ : قَافَ الْقَائِفُ يَقْفُو قِيَاْفَةً ، فَهُوَ
قَائِفٌ ، بِتَقْدِيمِ الْفَاءِ عَلَى الْوَاوِ ، كَمَا قَالُوا فِي جَذَبٍ : جَبَذَ ، وَقَرَى : « وَلَا تَقْفُ »
مِثْلَ تَقْلُ . نَوَّرَ : بَيَّضَ .

(١) الردغة : الطين والوحل ؛ كذا فسره ابن الأثير وأورده في النهاية .

[ذكر طيبة]

طيبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وطيب الله تربتها بأن صيرها موطناً
لنبيه صلى الله عليه وسلم ، في حياته ومستقرآله بعد مماته . وذكر شيخنا ابن جبير
المدينة فقال : للمدينة^(١) المكرمة أربعة أبواب وهي تحت سورين في كل سور
باب يقابله آخر : باب الحديد ، وباب الشريعة ، وباب القبلة ، وباب البقيع ،
وبين سورها الغربي والخندق النبي صلى الله عليه وسلم مقدار غلوة ، وبين السور
والخندق عين النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلق عظيم مستدير ، ومنبع العين
وسطه ، كأنه الحوض السطيل ، وتحت العين سقايتان بينهما جدار لظفر
الناس وغسل أثوابهم ، والعين للاستقاء والعين تمد السقايتين ، وتهبط إليهما على
خمس وعشرين درجة ، وماؤها يعم أهل الأرض فضلاً عن أهل المدينة . بمقربة
من الحوض مما يلي الحوض حجر الزيت ، يقال : إن الزيت رشح للنبي صلى الله
عليه وسلم من ذلك الحجر . وبالقرب منه بئر بضاعة وبازائها من الجهة
اليسار جبل الشيطان حيث صرخ يوم أُحُد : قتل نبيكم . وعلى شفير
الخندق حصن العراب ، وهو خرب . كان عمر رضى الله عنه بناء لعراب المدينة ،
وأمامه جهة الغرب على بعد بئر رومة التي اشتراها عثمان رضى الله عنه بعشرين
ألفاً . وداخل باب الحديد سقاية يهبط إليها على أدراج ، وهي بمقربة من الحرم
المكرم ، وبقبلى الحرم دار مالك بن أنس رضى الله عنه . ويطيّف بالحرم شارع
مبلط بالحجر المنحوت ، وفي جوف المدينة جبل أحد على ثلاثة أميال منها ، وبقبلته
مسجد حمزة ، وقبره برحبة بجوف المسجد ، وبازائه قبور الشهداء ، وحوله تربة
حمراء أنزل فيها سورة الفتح الشريفة ، وشرقي المدينة بقيع العرقد ، وإذا
خرجت على باب البقيع تلقى على يسارك قبر صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم
وأم الزبير ، وأمامها قبة مختصرة البناء على قبر مالك بن أنس . وأمامه قبر

(١) رحلة ابن جبير ، ١٧٦ ، بتصرف .

السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم عليه قبة بيضاء وعلى يمينها قبر عبد الرحمن بن عمر ، الذى جلده أبوه الحدّ فات ، ويازائه قبر عَقِيل بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر ، ويازائه روضة صغيرة فيها ثلاثة من أبنائه صلى الله عليه وسلم ، وبليها روضة العباس والحسن رضى الله عنهما ، وعليها قبة مرتفعة فى الهواء ، وقبراهما مرتفعان على الأرض مغشيان بألواح ملتصقة أبدع التصاق ، مرصعة بالصفايح الصفرة مسكوكة بمسامير على أبدع صفة ، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم عليه السلام بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد ، وعليه قبة مختصرة البناء ، وبمقربة منه قبر فاطمة بنت أسد أم على كرم الله وجهه ، ومشاهد البقيع أكثر من أن تُحصى لأنها مدفن الصحابة رضى الله عنهم . وقبل المدينة على نحو الميّلين قُبَاء ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرّمة ، وبها المسجد الذى أسس على التقوى وهو مربع مستوى الطول والعرض له باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبع بلاطات فى الطول ، ومثلها فى العرض ، وفيه صومعة طويلة بيضاء تظهر على البعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، عليه خلق قصير شبه الروضة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مسطبة ، وهو أوّل موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى قبليّته دار بنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى ، ويليها دار عائشة رضى الله تعالى عنها ، ويازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين ورضى عنا بهم ، ويازائها بئر أريس حيث نفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فعاد عذبا بعد أن كان أجاجا ، وفيه وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، وحديثه مشهور ، وفى آخره تلّ مشرف يعرف بعرفات لأنه كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات . ويدخل من التل على دار الصّفة ، وبها كان عمار وسلمان وأصحابهما . والطريق من قبل قُبَاء إلى المدينة بين حدائق النخل المتصلة ، والنخيل تحمق بالمدينة من

جهاتها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب . وآثار المدينة وقباء
لاتحصى . فلما خص الله تعالى تربة طيبة بصفوة عباده أقسم الحريري بمن طيبها .
صفر العينية : خلو الوعاء .

* * *

ثمَّ نَزَعَ إِلَى الْفِرَارِ ، وَتَبَرَّقَعَ بِالْكَفْهِارِ ، وَقَالَ : أَمَا
تَعْلَمُ أَنَّ شِنْشِنَتِي لِلْإِنْتِقَالِ مِنْ صَيْدٍ إِلَى صَيْدٍ ، وَالْإِنْطِافِ مِنْ
عَمْرٍو إِلَى زَيْدٍ ، وَأَرَاكَ قَدْ عُقَّتَنِي وَعَقَقْتَنِي ، وَأَفْتَنِي أَضْعَافَ
مَا أَفْدَتَنِي ، فَاغْفِنِي عَافَاكَ اللَّهُ مِنْ لُغُوكَ ، وَاسْتُدْ دُونِي بَابَ جَدِّكَ
وَلَهْوِكَ . فَجَبَذَتْهُ جَبَذَ التَّلْعَابَةِ ، وَجَمَعَتْ بِهِ لِلدُّعَابَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ :
وَاللَّهِ لَوْ لَمْ أُوَارِكَ ، وَأُغَطَّ عَلَى عَوَارِكَ ، لَمَا وَصَلْتُ إِلَى صَلَةِ ،
وَلَا تَقَلَّبْتَ أَكْسَى مِنْ بَصَلَةٍ ، فَجَازَنِي عَنْ إِحْسَانِي إِلَيْكَ ،
وَسَتَرِي لَكَ وَعَلَيْكَ ، بَأَنَّ تَسْمَحَ لِي بِرَدِّ الْفَرُودَةِ ، أَوْ تَعْرِفَنِي
كَكَافَاتِ الشَّتْوَةِ . فَنَظَرَ إِلَى نَظَرِ الْمُتَعَجِّبِ ، وَازْمَهَرَّ اَزْمَهَرَّارِ
الْمُتَغَضِّبِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا رَدُّ الْفَرُودَةِ فَأَبْعُدُ مِنْ رَدِّ أَمْسِ الدَّابِرِ ، وَالْمَيْتِ
الْفَاجِرِ .

. . .

نَزَعَ : مال وحن . وَتَبَرَّقَعَ : ستر وجهه . الْكَفْهِارُ : العبوس . شِنْشِنَتِي :
طبيعتي . الْإِنْطِافُ : الرجوع . عَقَّتَنِي : حبستني . عَقَقْتَنِي : قطعني . أَفْتَنِي :
حرمتني . أَفْدَتَنِي : أ كسبتني فائدة . اَعْفَنِي : أ رحتني وعافني . لُغُوكَ : باطلاك .

التلابة : كثرة اللعب ورجل تلابة : حسن اللعب مزاح ، وفي الحاسة :

هُوَ الظفر الميمون إن عاد واغْتَدَى به الركب والتلابة المتحجبُ

جمعت : صحت ودعوت به ، والجمعة : رُغَاء الإبل . الدُّعابة : المزاح .
أوارك : أسترِكَ . عوارك : عيبك . صلة : عطية . ستري لك ، أى ثوبى ،
وأراد بعليك ، سكوتى عنك حين قلت : لن يسترنى إلا من طاب خيمه . ازمهر :
توقدت عيناه غضبا . المتغضب : المستعمل الغضب . الدابر : الماضى . والفابر :
الذاهب .

* * *

وَأَمَّا كَافَاتِ الشَّتْوَةِ ، فَسَبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَى ذَهْنِكَ ،
وَأَوْهَى وَعَاءَ خَزْنِكَ ، حَتَّى أَنْسَيْتَ مَا أَنْشَدْتِكَ بِالذَّمِّ مَكْرَةً ،
لَابِنِ مُكْرَةٍ :

جاء الشَّتَاءُ وَعِنْدِي مِنْ حَوَائِجِهِ

سَبْعٌ إِذَا الْقَطْرُ عَنْ حَاجَاتِنَا حَبْسًا

كِنْ وَكِسْ وَكَانُفْ وَكَاسُ طِلَافٍ

بَعْدَ الْكِبَابِ وَكُسٌ نَاعَمْ وَكِسَا

ثم قال : لَجَوَابُ يَشْنَى ، خَيْرٌ مِنْ جَلْبَابٍ يُذْنِي ؛ فَكَتَفَ
بِمَا وَعَيْتَ وَأَنْكَنِي . ففَارَقْتُهُ وَقَدْ ذَهَبَتْ فِرْوَتِي لِشِقْوَتِي ،
وَحَصَلْتُ عَلَى الرَّغْدَةِ طَوْلَ شَتْوَتِي

• • •

وقوله : سبحان من طبع ، معناه تنزيهاً لك يا ربنا من الولد والصاحب والشريك ، أى نزهتك من ذلك ، وانتصابه على المصدر ، كأنك قلت : سبحت الله تسبيحاً ، فجعلت « سبحان » فى موضع التسبيح ، ومعنى طبع على قلبك ، أى غشاه الصدأ والدنس والوسخ ، قال الله تعالى : ﴿ فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وفى الحديث « نعوذ بالله من طبع يَدْنِي إِلَى طَبْعِ » . وقال الشاعر :

لَانْطَمَعَنْ طَمَعاً يَدْنِي إِلَى طَبْعٍ إِنْ الطَّامِعُ قَرَّ وَالْغَنَى يَاسُ
وَأُنْشَدَ يَعْقُوبُ :

لَا خَيْرَ فِي طَمَعٍ يَدْنِي إِلَى طَبْعٍ وَغُفَّةٌ مِنْ قِوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِينِي^(١)
والذهن : قوة إدراك العقل . أوهى : أضعف . خزنك : تقيفك وحرزك .
السكرية : هنا قرية معروفة بينها وبين بغداد على طريق خراسان ستة عشر فرسخاً .

[ترجمة ابن سكرة]

وابن سكرة من شعراء البتيمة قال صاحبها^(٢) : ابن سكرة الهاشمي هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد . شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الظرف والملح ، أحد الفحول والأفراد ، وجال فى ميدان المجون والسخرى بما أراد . وكان يقال ببغداد : إن زماناً جاداً بن سكرة وابن الحجاج لمسخي جدّاً ، وما أشبههما إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما . ويقال إن ديوان ابن سكرة يربو على خمسين ألف بيت .

(١) البيت فى لسان غفا من غير نسبة . والغفة : بلغة من العيش . (٢) البتيمة ٣-٤ .

ومن شعره في غلام في يده غصن نوار :

غصن بان بدا وفي اليد منه غصن فيه لؤلؤ منظوم^(١)
فتحيرت بين غصنين في ذا قر طالع وفي ذا نجوم

وله في غلام يعرف بابن برغوث :

بليت ولا أقول بمن لأني إذا أنا قلت من هو تمشقه^(٢)
حيب قد نفي عني رقادى فإن غمضت أيقظني أبوه

وله في غلام أعرج :

قالوا بليت بأعرج فأجبتهم العيب يحدث في غصون البان^(٣)
ماذا على إذا استجدت شمائله وروادفا تغنى عن الكُشبان
إني أحب جلوسه وأريده للنوم لا للجري في الميدان
في كل غصن منه حسن كامل ماضرتني إن زلت القدمان

وله في غلام سميه :

إذا باسمي دُعيت حنلت شوقا وذكرني به الداعي حبيي^(٤)
فليت كما اتفقنا في الأسامي وألقها اتفقنا في القلوب

وله أيضا :

بنفسى عذار بدا طالما على ناضر الورد ما أملا^(٥)
كتمت هواه زمان الصبا وبوحت^(٦) بالحب لما التحى

(٢) البيضة ٣ : ٨

(٤) البيضة ٣ : ٤

(٦) البيضة : « صرحت »

(١) البيضة ٣ : ٣

(٣) البيضة ٣ : ٦

(٥) البيضة ٣ : ٥

وقالوا محاسن الشعر لما بدا محاسنه منه واستقبجا
فقلت لهم ما محاسنه ولكن صبري عنه محاسن

وله في مثله :

وغزال لولا تميمة شعر ذكرته لقلت بعض الجواري^(١)
شاربٌ أشرب الصباة قلبي وعذار خلعت فيه عذاري

وله في مثله أيضاً :

من عذيري من شادن لا يراني وهو روجي أهلا لرد السلام^(٢)
أنا من خده وعينه والثغر ومن ريقه البعيد المرام
بين وردٍ ونرجس ولآلٍ أخوانٍ وبالي مدام

وله في مثله أيضاً :

في وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعن في أحد^(٣)
الحدّ ورد والضدغ غالية ولا ريق خمر والثغر من برد

وله في مثله أيضاً :

لقد أمسكت من عمر بن يحيى بجبل ما أخاف له ابتاتا^(٤)
حباني في الحياة ورمّ حالي وأوصى بي أبا حسن وماتا
فكنت مجاورا للبحر منه فلمّا مات جاورت الفراتا

وله في وزير المهلب :

لا عذب الله ميتا كان يُعشني فقد لقيت بضرّي مثل مالاقي

(٢) اليتيمة ٣ : ٤

(٤) لليتيمة ٣ : ٢٢

(١) اليتيمة ٣ : ٣

(٣) اليتيمة ٣ : ٦

طواه موتٌ طوى عنى مكارمهُ فذقت من بعده بالفقر ماذا؟^(١)
وقال فيه أيضاً :

مضى ملك عمّ البرية جوده رءوف وإن راع الأسود شفيق^(٢)
سكرتُ بنعماء وجود وزيره فقالت لى الأيام : سوف تذوقُ
وقال رحمه الله أيضاً :

لقد كان الشباب فكان غصّاً له ثمرٌ وأوراق تظللُك^(٣)
وكان البعض منك فمات فاعلم متى ما مات بعضك مات كلكُ
ويا بعد ما بين حاله وقت قوله : جاء الشتاء ... البيتين . وبين حاله وقت
موت المهلبى، وقد أدرك فاقة، فسئل عما أعدّ لشتوة فقال :

قيل ما أعددت للبر د فقد جاء بشده^(٤)
قلت : دراعة عرّى تحتها جُبّة رعه

* * *

قوله : « إذا انظر عن حاجاتنا حبسا » ، فى معنى ذلك أن الحسن بن وهب
تأخر عن ابن الزيات وهو يكتب له ، فاستبطأه فكتب الحسن إليه :

أوجب العذر فى تراخى اللقاء ما ترى بى من هذه الانواء^(٥)
لست أدرى ماذا أقول وأشكّو من سماء تعوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالشكّل وأدعو لهذه بالبقاء
فسلام الإله أهـديه منى لك غصّاً يا سيّد الوزراء
كان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه أنى راحل غدا ، فلما أصبح عاقه عن

(١) البيّمة ٣ : ٢٠ (٢) البيّمة ٣ : ٢١ (٣) البيّمة ٣ : ٢٤

(٤) البيّمة ٣ : ٢٢ (٥) الأغاني ٢٠ : ٥٤ - سابع

(١٧ - شرح مقامات الحريرى ج ٣)

السفر تكاثرُ المطر ، فأبجلى عن ابن عبد ربه همة ، وكتب إليه :

هلاً ابتكرت لبين أنت مبتكرُ هيات يأتى عليك الله والقدر^(١)
مازلت أبكى حذار البين ملتعباً حتى رثا لى فيك الريح والمطر
يا برّده من حيامُزٍ على كبدٍ نيرانها بغليل الشوق تستعِرُ
آليت ألا أرى شمساً ولا قرأ حتى أراك ، فأنت الشمس والقمر

وعد ابن رشيّق محبوبه الصائغ أن يكون عنده يوم عيد فصلّى وارقبه ،
فإذا بالسما قد أُرعدت وأبرقت ، فكتب إليه :

تجهم العيد وانهدت مدامعه وكنت أعهد منه البشر والضحكا^(٢)
كأنه جاء يطوى الأرض من بعدٍ شوقاً إليك فلما لم يجدك بكى

وكتب السّلامى إلى أصحابه والمطر قد قطعه عنهم :

قطعتكم برغم المجد شهراً أشدّ على من شهر الصيام^(٣)
وكيف أزوركم والزن تبكى على دارى بأربعة سجام
وكانت منزلاً طلق الحميا فصارت وادياً صعب المرام
تهافت ركم الجدران فيها سجدوا للعود بلا إمام
أنادى كلما ارتفعت سحاب فأبكتنا البوارق بأقسام
حوالينا بذاك ولا علينا كفانا الله شرّك من غمام

كن ، أى بيت . كيس : وعاء الدراهم . كانون : حيث تجعل النار فيه .
طلا : خر . كباب : لحم يشرح ويشوى ، وكتبته : فعلت ذلك به ، وقيل :
الكتاب قطع السكرش تلوى عليها المصارين ، وأراد بها هاهنا شواء اللحم .
والكس : اسم فرج المرأة وليس بعربى ، قال الفنجدى رحمه الله تعالى : سمعت

(١) معجم الأدباء ٤ : ٢١٥ (٢) نقله في التنف ٥٦ (٣) القيمة ٢ : ٣٩٤

بعض الفضلاء يقول : كتب ابن سكرة في يوم مطر إلى صديق له :

يوم مطير وعندي من خواطره سبع إذا القطر عن حاجتنا حبسا^(١)
حروف كافاتها فيها مقومة إذا تلاها الفتى ذواللب أو درسا
لنّ وكيس وكانون وكأس طلا مع الكباب وكسّ ناعم وكسا
فلو مطرت البحار الدهر لم ترني أقول : أحسن هذا اليوم بي وأسا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة فقال :

وكم ليلة في شهر كانون بثها أعانق من حبّي بها الدّعص والغصنا
سمعت من الكافات فيها ثمانيا فاشتت من مرأى أنيق حوى الحسننا
كبابا وكيزانا وكيسا وكاعبا كساء وكوباوالكوانين والكسا

كما نقصه الأمير تميم بن المعز السابعة ، فقال :

إذا هب سلطان المريسى ضاحكا سحيرا وحلّ الغرب كل نقاب^(٢)
وزرّ على الأرض الغمام ثيابه ققم والقه في عدّة وحراب
بكنّ وكانون وكأس مدامة وكيس وكسّ وافير وكباب

نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن اللبان ، قال : ولما جمعنا في أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات ، قلت في ضدها من الحرّيتين ، جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهي :

عندي فديتك راءات ثمانية ألقى بها الحرّ إن وافي وإن برّدا
رّقّ وروح وريّحان وريق رشّا ورفرف ورياض ناعم وردا
جلباب : ثوب يابس على الثياب . اكتف : اقتنع . وعيت : حفظت .
انكفي : ارجع إلى موضعك . طول : مدة . والله تعالى أعلم .

(١) ابن خلدون : ١ : ٥٢٧ . (٢) ديوان نعيم ٥١ والمريسى ربيع جنوبية .

المقامة السادسة والعشرون وتعرف بالزقطاء

حدث الحارث بن همام قال : حَلَمْتُ سُوقَ الْأَهْوَازِ ، لَابِسًا حُلَّةَ الْإِعْوَازِ ، فَلَبِثْتُ فِيهَا مُدَّةً ، أَكَابِدُ شِدَّةً ، وَأُزْجِي أَيَّامًا مُسْوَدَّةً ، إِلَى أَنْ رَأَيْتُ تَمَادِيَ الْمَقَامِ ، مِنْ عَوَادِي الْإِنْتِقَامِ ، فَرَمَقْتُهَا بَيْنَ الْقَالِي ، وَفَارَقْتُهَا مَفَارِقَةَ الظَّلَمِ الْبَالِي . فَظَعَنْتُ عَنْ وَشَلِّهَا كَمِيشَ الْإِزَارِ ، رَكُضًا إِلَى الْمِيَاهِ الْفِزَارِ ؛ حَتَّى إِذَا سِرْتُ مِنْهَا مَرَّحَلَتَيْنِ ، وَبَعُدْتُ سُرَى لَيْلَتَيْنِ ، تَرَأْتُ لِي خِيْمَةً مَضْرُوبَةً ، وَنَارًا مَشْبُوبَةً ، فَقُلْتُ : آتِيهِمَا أَلَمِّي أَنْقَعُ صَدَى ، أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى .

* * *

حلت : نزلت . الأهواز : مدينة واسعة لها سبع كور بين البصرة وفارس ، قال الرشاطي : الأهواز : متصلة بالجبل وأصبهان ، وقيل : إن الأهواز بلد من سكن قصبتها ، ضعف عقله ولزمته الحمى .

حُلَّةُ الْإِعْوَازِ : ثوب الفقر ، والحُلَّةُ إِزَارٌ ورداء ، ولا يقال ثوب واحد : حُلَّةٌ . لبثت : أقمت . أَكَابِدُ : أَقَامِي . أَزْجِي : أَسُوقُ . مَسْوَدَّةٌ : شَدَادٌ مَشْوُومَةٌ . تَمَادَى : دَوَامٌ وَطَوَّلُ . الْمَقَامُ : الْإِقَامَةُ . عَوَادِي : جَمْعُ عَادِيَةٍ ، مِنَ الْعُدَّانِ وَهُوَ الظُّلْمُ . وَالْإِنْتِقَامُ : الْعَذَابُ وَالنَّكَايَةُ . رَمَقْتُهَا : نَظَرْتُهَا . الْقَالِي : الْبَغِيضُ . الظَّلَمُ : مَا شَخَصَ مِنْ آثَارِ الدَّارِ . ظَعَنْتُ : ارْتَحَلْتُ . وَشَلِّهَا : مَاؤُهَا الْقَلِيلُ .

كميش: مشمرٌ، وانكس في طلب حاجته: أسرع فيها، والإزار والمئزر: ما يلبس عَرَضًا من السراويل، ولا تعرف العرب السراويل، ووجدوا أعرابي فظنها قميصًا، فأدخل يديه من على ساقها، والتمس من أين يخرج رأسه فلم يجد، فرمى بها، وقال: هذا قميص الشيطان.

قوله: راكضا، أى جاريا، وهمزة ماء مبدلة من هاء «مياه». الفزار: الكثير. سرى ليلتين، أى سرت مقدار ما يسار فيه ليلتين. تراءت: ظهرت. مشبوبة: موقودة. أنقع صدى: أروى عطشا. أجد على النار هدى، أى أجد عليها من يُرشدني إلى الطريق

* * *

فلما انتهيتُ إلى ظلِّ الخيمةِ، رأيتُ غِلمةً رُوقَةً، وشارةً مرْمُوقَةً، وشيخاً عليه بزةٌ سنّيةٌ، ولديه فاكهةٌ جنيّةٌ. فَحَيَّيْتُهُ ثُمَّ تَحَامَيْتُهُ. فَضَحِكَ إِلَيَّ، وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيَّ، وقال: أَلَا تَجْلِسُ إِلَى مَنْ تَرُوقُ فَاكِهَتُهُ، وَتَشُوقُ مُفَاكِهَتُهُ! فَجَلَسْتُ لِإِغْتِنَامِ مُحَاضَرَتِهِ، لَا لِإِتِّهَامِ مَا بِحَضْرَتِهِ، فحين سَفَرَ عَنْ آدَابِهِ، وَكَشَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ بِحُسْنِ مُلَاجِهِ، وَقُبْحِ قَلْبِهِ. فتعارفنا حينئذٍ، وحَفَّتْ بِي فَرَحَتَانِ سَاعَتَئِذٍ، وَلَمْ أَذْرِ بَأَيِّهِمَا أَنَا أَضْفَى فَرَحًا، وَأَوْفَى مَرَحًا! أَيَّا سَفَارَةٍ، مِنْ دُجْنَةِ أَسْفَارِهِ، أَمْ بِخِصْبِ رِحَالِهِ، بَعْدَ إِحْمَالِهِ.

* * *

رُوقَة: حسانا، وغلّام رُوقَة، وإذا أعجبك، وغلّمان رُوقَة، الواحد والجمع سواء، وقيل: رُوقَة لفظ مفرد والجمع رُوق، والهاء للمبالغة. شارة: هيئة حسنة

يشار إليها . مرموقة : محبوبة . بزّة سنية ثياب حسان ، والبزّة والبزّة أفضل الثياب . جَنِيّة : طرية كما اجتذبت . حَيَّيْتُهُ : سلّمت عليه . تحاميته : تباعدت عنه . تروق : تعجب . تشوق : تشوق وتدعو إلى الطرب . مفاكته : مازحته ، وفاكته : حدّثته بما يعجب التهام : ابتلاع . سَفَر : كشف وبين أنه من أهل الأدب . كَشَرَ عن أنيابه : كشف عن أسنانه عند الضحك . مُلّحه : ملبّح كلامه . قَلّحه : صفرة أسنانه . تعارفنا : عرفته من أنا وعرفني من هو . حقّت : أحاطت . والمرح : شدة الفرح ؛ وأوفى مرحاً ، أى أكمل طرباً ونشاطاً . إسفاره : طلوعه وإضاءته . دجّة : سواد وظلام . أسفاره : جمع سفر . رحاله : أوقاره ، يصف كثرة ماله ، وأنه إذا نزل منزلاً أخصب بكثرة أحواله . إبحاله : جذبته .

* * *

وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى أَنْ أَفْضَ خَمَّ سِرِّهِ ، وَأَبْطُنَ دَاعِيَةَ
يُسْرِهِ ، فَقَاتُلْهُ : مِنْ أَيْنَ إِيَابُكَ ، وَإِلَى أَيْنَ انْسِيَابُكَ ، وَبِمِ
امْتَلَأَتْ عِيَابُكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا الْمَقْدَمُ فَمِنْ طُوسٍ ، وَأَمَّا الْمَقْصَدُ فإِلَى
السُّوسِ . وَأَمَّا الْجِدَّةُ الَّتِي أَصَبْتُهَا ، فَمِنْ رِسَالَةٍ اقْتَضَيْتُهَا . فَسَأَلْتُهُ
أَنْ يَفْرُشَنِي دِخْلَتَهُ ، وَيَسْرُدَ عَلَيَّ رِسَالَتَهُ ، فَقَالَ : دُونَ مَرَامِكَ
حَرْبُ الْبُسُوسِ ، أَوْ تَصَحَّبَنِي إِلَى السُّوسِ . فَصَاحَبْتُهُ إِلَيْهَا قَهْرًا ،
وَعَكَفْتُ عَلَيْهِ بِهَا شَهْرًا ، وَهُوَ يَعْلَنِي كَاسَاتِ التَّعْلِيلِ ، وَيَجِرُنِي
أَعِنَّةُ التَّأْمِيلِ .

* * *

تاقت : اشتاقت . أفضّ : أكرس . ختم : ربط وشد . أبطن : أعرّف
باطنه . يُسرّه : غناه . إيابك : رجوعك . انسيابك : ذهابك . عيابك :
أوعية متاعك .

طوس : مدينة منها إلى نيسابور مرحلتان ، قال اليعقوبي : مدينة طوس العظمى ، يقال لها لوبان ، وبها قبر الرشيد ، وبها توفي الرضا علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، وهي من نفور الجبال المنصلة بخراسان ، ومجاورتها أيضاً مدينة أصبهان ، وهي عظيمة .

وأما السوس ، فمدينة بأرض فارس ، تعمل بها الثياب الشوسية من الخز ، قال الرشاطي : السوس من كور الأهواز ، والسوس في بلاد الغرب ، وذكر الجاحظ أن من طنجة إليها عشرين يوماً .

وسوسة من بلاد إفريقية على البحر ، تُصنع بها ثياب رفيع ، والسوس اسم مشترك ، والذي قصد الحريري منهما الأولى .

الجدّة : الفنى . اقتضبتها : ارتجلتها . يُفرّشني دخلته : ييسط لي باطن أمره ، وأفرشتك حديثي : بسطته لك وبينته . يسرد : يقرأ . مرامك : مطلبك . وتقدّمت حرب البسوس في التاسعة عشرة .

عكفت : أقمت . يعانى : يسقيني مرّة بعد مرّة ، والتعليل أن يطعمك في قضاء حاجتك فإذا تقاضيته أظهر لك عكلاً وعوائق ثم يمتنعك ، فتى ماجئته اعتلّ لك بعلة مانعة من قضاء حوائجك .

يجرّني : يعلّقها بي ويجعلني أجرها . أعنة : جمع عنان . التأميل : مصدر أمّله ، إذا رجاه وحقق له أمّله .

* * *

حَتَّى إِذَا حَرَجَ صَدْرِي ، وَعَيْلَ صَبْرِي قُلْتُ لَهُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَكَ عِلَّةٌ ، وَلَا لِي فِي الْمَقَامِ تَعِلَّةٌ ، وَفِي غَدٍ أَرْجُرُ غُرَابَ الْبَيْنِ ، وَأَرْحَلُ عَنْكَ بِخُفْيٍ حُنَيْنٍ ، فَقَالَ : حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أُخْلِفَكَ ، أَوْ أَخْلِفَكَ ؛ وَمَا أَرْجَأْتُ أَنْ أَحَدْتُكَ إِلَّا لِالْبَيْتِ . وَإِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرْبَتْ

بِعِدَّتِي ، وَأَغْرَاكَ ظَنُّ الشَّوْءِ بِمَاعِدَتِي ، فَأَصْبَحْ لِقَصَصِ سِيرَتِي
الْمُعْتَدَةِ ، وَأَضِفْهَا إِلَى أَخْبَارِ الْفَرْجِ بَعْدَ الشَّدَّةِ .

فَقُلْتُ لَهَا : هَاتِ فَمَا أَطْوَلَ طِيْلَكَ ، وَأَهْوَلَ حِيْلَكَ . فَقَالَ :
اعْلَمْ أَنَّ الدَّهْرَ الْعَبُوسَ ، أَلْقَانِي إِلَى طُوسٍ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ فَقِيرٌ
وَقِيرٌ ، لَا فَتِيلَ بِهَا وَلَا تَقِيرَ ، فَأَجَانِي صَفَرُ الْيَدَيْنِ ، إِلَى التَّطَوُّقِ
بِالدَّيْنِ ، فَادَّانَتْ لِسُوءِ الْإِتِّفَاقِ ، مِمَّنْ هُوَ عَسِيرُ الْأَخْلَاقِ ، وَتَوَهَّمَتْ
تَسْنِيَّ النَّفَاقِ ، فَتَوَسَّعْتُ فِي الْإِنْفَاقِ ، فَمَا أَفْقَتْ حَتَّى يَهْطُنِي دَيْنٌ
لَزِمَنِي حَقُّهُ ، وَلَا زَمَنِي . سَتَحَقُّهُ ، فَجِرَتْ فِي أَمْرِي ، وَأَطْلَعْتُ غُرَيْبِي
عَلَى عُسْرِي .

* * *

حَرَجَ صَدْرُهُ ، إِذَا ضَاقَ . عِيلَ : غَلَبَ ، وَعَالَى الْأَمْرَ يَعُولُنِي عَوْلًا : غَلَبَنِي .
وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَائِلَةً ﴾ أَيْ خِصْلَةً تَعُولُكُمْ وَتَغْلِبُكُمْ .
تَعِيلَةٌ : مَا تَبْدِيهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي اعْتِزَالِكِ لِمَنْ يَتَقَاضَاكَ ، وَفِي غَدِ أَزْجَرَ غَرَابِ الْبَيْنِ ،
أَيْ التَّفَاوُلِ بِهِ لِفِرَاقِكَ ، وَإِنَّمَا يَنْسَبُونَ الْفِرَاقَ لِلْغَرَابِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا ارْتَحَلُوا عَنْ
مَوْضِعٍ اجْتَمَعَتِ الْغُرَبَانُ فِيهِ يَلْتَقِطْنَ مَا تَرَكَوْا مِنْ بَقَايَا طَعَامِهِمْ وَزَيْلِ دَوَابِهِمْ ،
وَإِذَا أَخَذُوا فِي هَذْمِ الْبُيُوتِ لِلرَّحِيلِ وَأَبْصَرَهُمُ الْغَرَابُ صَاحَ رَغْبَةً فِيمَا يَلْتَقِطُ ،
فَيَقُولُونَ عِنْدَ ذَلِكَ : نَعِيقُ غَرَابِ الْبَيْنِ ، فَصَارُوا يَتَشَاءَمُونَ بِهِ ، وَزَجَرَ الطَّيْرُ
يَذْكُرُ فِي الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ . قَالَ الْمَعْرِيُّ فِي صَدَقِ التَّفَاوُلِ بِالْغَرَابِ :

نَبِيٌّ مِنَ الْغُرَبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعٍ يَخْبِرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ عَلَى صَدْعٍ ^(١)
أَصْدَقَهُ فِي مِرْيَةٍ وَقَدْ امْتَرَتْ صَحَابَةَ مُوسَى بَعْدَ آيَاتِهِ الْقَسَمِ

(١) شروح سقط الزند ١٣٣٢ . والشعوب : القبائل .

كَانَ بَيْنَهُ كَاهِنًا أَوْ مَنْجَمًا يُخْبِرُنَا عَمَّا لَقَيْنَا مِنَ الْفَجْعِ
وَمَا كَانَ أَفْعَى أَهْلِ نَجْرَانَ مِثْلَهُ وَلَا كَانَ لِلْإِنْسِ الْفَضِيلَةُ فِي السَّمْعِ ^(١)
أَتَى وَهُوَ طَيَّارُ الْجَنَاحِ وَإِنْ مَشَى أَشَاحَ بِمَا أَعْيَا سَطِيحًا مِنَ السَّحْمِ ^(٢)

قوله : أَخْلَفَكَ ، أَ كَذَبَ وَعَدَكَ . أَرْجَأَتْ : أَخَّرَتْ . لِأَتْبَنُكَ : لِأَتَبَطَّكَ
وَأَجْعَلَكَ تَقِيمَ مَعِيَ . اسْتَرَبْتَ : تَشَكَّيْتَ ، وَدَاخَلَكَ الرِّيبَةُ . أَغْرَاكَ : حَرَضَكَ
وَأَلْصَقَكَ . أَصِيخُ : أَسْمَعُ : قَصَصَ : خَيْرَ وَحَدِيثَ . سِيرَتِي : عَادَتِي . أَضْفَهَا :
ضَمَّهَا . وَأَخْبَارُ الْفَرْجِ بَعْدَ الشَّدَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِالْإِنْسَانِ شَدَّةً فَيَشْرَفُ مِنْهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ
ثُمَّ يَنْزِلُ ، اللَّهُ تَعَالَى تَفَرِّجُهَا ، فَالْحَدِيثُ بِهَا يُسَمَّى خَبَرُ الْفَرْجِ بَعْدَ الشَّدَةِ .

[قصص في الفرج بعد الشدة]

ومنها ماجاء في حديث أنس رضي الله عنه ، قال : كان رجلٌ على عهد
النبي صلى الله عليه وسلم يتعجر من بلام الشام إلى المدينة ، ولا يصحب القوافل
توكلًا منه على الله تعالى ، فبينما هو جاء من الشام عرض له لصٌ على فرس ،
فصاح بالتاجر : قِفْ ، فوقف التاجر ، وقال له : شَأْنُكَ بِمَالِي ، فقال له اللص :
المال مَالِي ، وإنما أريد نَفْسَكَ ، فقال له : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَصَلِّيَ ، قال : افعل ما بدا
لك . فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ وَرَنَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ : يَا دُودُ يَا دُودُ ، يَا ذَا الْعَرْشِ
الْحَمِيدِ ، يَا مَبْدِيءَ يَامُعِيدِ ، يَا فَتْلًا لِمَا يَرِيدُ ، أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي مَلَأَ
أَرْكَانَ عَرْشِكَ ، وَأَسْأَلُكَ بِقُدْرَتِكَ الَّتِي قَدَّرْتَ بِهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ ، وَأَسْأَلُكَ
بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَّعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا مُغِيثَ أَغْنَتْنِي ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .
وَإِذَا بَفَارِسَ يَبْدُهُ حَرَبَةٌ ، فَلَمَّا نَظَرَهُ اللَّصُّ تَرَكَ التَّاجِرَ وَمَضَى نَحْوَهُ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ

(١) أفعى أهل نجران: كاهن منهم . ونجران أقدم بلاد اليمن ، وكانت لها كعبة تحج فغربت

(٢) سطيح كاهن ، والكهان : معروفون بالسجم .

طعننه ، فأذراه عن فرسه ثم قتله ، وقال للتاجر : اعلم أنى ملك من السماء الثالثة ، لما دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قمعة قتلنا: أمر حدث ، ثم دعوت الثانية ، ففتحت أبواب السماء ولها شرر ، ثم دعوت الثالثة ، فهبط جبريل عليه السلام ينادى : مَنْ لهذا المكروب ؟ فدعوت الله أن يوليئنى قتله . واعلم يا عبد الله أن مَنْ دعا بدعائك فى كل شدة أغاثه الله ، وفرج عنه . ثم جاء التاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر ، فقال : لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التى إذا دُعِى بها أجاب ، وإذا سُئِلَ بها أعطى .

وقال عمرو السرايا : كنت أعبرُ فى بلاد الروم وخدي ، فبينما أنا نائم إذ ورد علىّ عِلج فخركنى ، ثم قال : يا أعرابي ، اختر إما مسابقة ، وإما مطاعنة ، أو مصارعة ! فقلت : للمسابقة والمطاعنة لامعنى لهما ، ولكن المصارعة ، فلم ينهينى أن صرعى وقعد على صدرى ، وقال : أى قتلة تريد أن أقتلك ، فذكرت الدعاء ورفعت رأسى إلى السماء ، وقلت : أشهد أن كل معبود مَادون عرشك إلى منتهى الأرضين باطل ، عزّ وجك الكريم ؛ فقد ترى ما نزل بى . وأغمى علىّ ، فأقتت والرومى قتيل إلى جانبي ، قممت ، وكنت أعلم الناس هذا الدعاء .

ووجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ، فأطلق أهل سجون الحجاج وضيق على يزيد بن أبى مسلم كاتبه . فظفر به يزيد لما ولى إفريقية ، فجعل محمد يقول : اللهم احفظ لى إطلاق الأسمى ، وإعطاء الفقراء ، فلما دنا يزيد منه وفى يده عنقود ، قال : يا محمد ما زلت أسأل الله أن يُظفرنى بك . فقال له محمد : وما زلتُ أستعجير الله منك ، قال : فوالله ما أبارك ولا أعاذك منى . ووالله لأقتلنك قبل أن آكل هذه الحبة من العنب ؛ ووالله لو رأيت ملكا

يريد قبض روحك لسبقته إليها . وأقيمت الصلاة فوضع حبة العنب بين يديه ،
وتقدّم فصلّى بهم ، وكان أهل إفريقية اجتمعوا على قتل يزيد ، فلما ركم ضربه
رجل بعمود حديد فقتله ، وقال للحمد: اذهب حيث شئت .

وقال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه
هشام يحفونى في أيامه لذلك ، فلما مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ،
فسكنت في بيتي سنة ؛ لا أخرج إلا لمن آمن إليّ من إخواني سرّاً . فلما لم أسمع
أحدًا يذكرني في السنة أمنت فخرجت ، وصليت الجمعة في الرصافة ، فإذا شرطيان
قد وقفا عليّ ، وقالوا : يا حماد ، أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت في نفسي :
من هذا كنت أخاف ، ثم قلت للشرطيين : هل لكما أن تدعاني حتى آتى
أهلى فأودعهم وداع من لا يرجع إليهم أبداً ، ثم أسير معكما إليّ؟ فقال : ما إلى
ذلك من سبيل ، فاستسلمت في أيديهما ، وسرت إلى يوسف بن عمر وهو في
الإيوان الأحمر ، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام ورمى إلى كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد
فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع ولا تمتع ،
وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرباً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت
الدنانير وجعلت رجلى في غرز جل أعدّه لى ، ووافيت دمشق لاثنتي عشرة ليلة ،
واستأذنت على هشام ، فأذن لى ، فدخلت عليه فوراً في دار مفروشة بالرخام ،
وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وهو جالس على طنفسة حراء ، وعالمة
ثياب حر من الخز ، وقد تضمخ بالسك والعنبر ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام
واستدنانى فدنوت منه ، حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قط ، في
أذنى كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان ثوقدان ، فقال : كيف أنت
يا حماد وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : أنتدرى فيم بعثت
إليك ؟ قلت : لا ، قال : في بيت خطر ببالى لم أدر من قائله ، قلت : وما هو ؟ قال :

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
 قُلْتُ : هُوَ لَعْدَى بَن زَيْدٍ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ ، قَالَ : أَنْشُدْنِيهَا فَأَنْشُدْتُهُ :
 بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبْحِ سَحَّ يَقُولُونَ لِي : أَمَا تَسْتَفِيْقُ
 وَيُلَومُونَ فِيكَ يَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
 لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرَ وَالْعَذْلُ فِيهَا أَعْدَوْ يُلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ !
 حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ :

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا . . . الْبَيْتُ

قَدَّمْتُهُ عَلَى سُلَافِ كَمِينِ الدَّيْكَ صَفَّى سَلَاْفَهَا الرَّاَوُوقُ^(١)
 مَرَّةً قَبْلَ مَرْجِئِهَا فَإِذَا مَا مُرِجْتُ لَدَّ طَعْمَهَا مَنْ يَذُوقُ
 وَطَفَا فَوْقَهَا فَقَاقِيعُ كَالِيَا قَوْتُ حَمَرٍ يَزِينُهَا التَّصْفِيقُ^(٢)
 ثُمَّ كَانَ الْمَزَاجُ مَاءَ سَحَابٍ لَا صِرَى آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقُ^(٣)

قَالَ : فَطَرَبَ ، ثُمَّ قَالَ لِي : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا حَمَادُ ! ثُمَّ قَالَ لِإِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ :
 اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً ذَهَبَتْ بَثْلُ عَقْلِي ، ثُمَّ قَالَ : أَعْدَهُ فَأَعْدَتُهُ ، عَلَيْهِ ، فَاسْتَخَفَّهُ
 الطَّرَبُ حَتَّى نَزَلَ عَنْ فَرْشِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرَى : اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً فَذَهَبَ
 ثَلْثُ آخِرِ مِنْ عَقْلِي ، ثُمَّ قَالَ : سَلْ حَاجَتَكَ ، فَقُلْتُ : إِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ :
 هَا جِئِمَا لَكَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْأُولَى اسْقِيهِ ، فَسَقَتْنِي شَرْبَةً سَقَطَتْ مِنْهَا فِلْمٌ أَفْقٌ إِلَّا
 وَالْجَارِيَتَانِ عِنْدَ رَأْسِي وَعِشْرَةٌ مِنَ الْخُدَمِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ بَذْرَةٌ ، فَقِيلَ لِي يَقُولُ :
 لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : انْتَفِعْ بِهَذَا فِي سَفَرِكَ ، فَأَخَذْتُهَا وَالْجَارِيَتَيْنِ وَعَاوَدْتُ أَهْلِي .

(١) الرَّاَوُوقُ : المصفاة وناجود الشراب الذي يروق فيه . والناجود : الرعاء .

(٢) التصفيق : المزج .

(٣) الصرى : الماء الذي طال استنقاؤه . والآجن : التغير طعمه . والمطروق : ماء يخوض

فيه الناس وغيرهم .

وذكر أبو محمد هذه الحكاية في الدرّة^(١) وقال : هذه حكاية تنشر ماثر
الأجواد ، وترغب المتأدب في الازدياد . وهذه النبذة دالة على أخبار الفرج بعد
الشدة فلنقتصر عليها .

* * *

قوله : ما أطول طيلك ، أى ما أكثر حيلتك . يقال ذلك للكثير الدهاء
والتصرف ، والطَّيْل : الحبل . أهول : أخوف وأغرب وقير : إبتاع لفقير ،
وفائدة الإبتاع المبالغة في معنى الأول ، وذلك أنك تقول : فلان فقير فيكون له
الشيء اليسير من المال ، فإذا قلت : وقير ، فليس له شيء البتة . وقيل : معنى
وقير مثقل بالدين موقر به ، والإبتاع قصد لأنه فسر به بقوله : لاقتيل لى ولا فقير ،
كأن إنسانا توهم أن له شيئا فذكر وقيرا لنفسه ، ثم زاده بيانا بما بعده ، ولأنه
ذكر استئناف الدين بعد ذلك .

ويكون الوقير أيضا من الوقر في العظم ، وهو الكسر كأنه مكسور
العظم ، كما أن الفقير أصله المكسور الفقار . والفتيل : الخيط الذى فى شَوْءٍ ،
النواة مثل الفتيلة ، والنقير الفرض الصغير الذى فى ظهرها ، وفيه كالنقطة ومنه
تنبت النخيل ، والتظهير : اللقافة التى عليها ، وهى القشرة اللطيفة .

صفر اليدين : فراغهما من المال . التطوق : لبس الطوق : أراد أنه لبس من
الدين طوقا . اذنت : أخذت الدين ، والاتفاق ، ضد الاختلاف . عسر :
صعب توهمت : حسبت . تسنى : تنفّس . النفاق ، ضد الكساد . توسعت :
كثرت . بهظنى : غلبنى وثقل على . حقه : واجبه .

أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الرزق مفتوحة
إلى باب العرش فينزل الله تعالى إلى عباده أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن

(١) درة النواص ١١٠ ، وهى أيضا فى نزهة الألباء ٣٧ ، ٣٨

قَلَّ قَلَّ لَهُ ، وَمِنْ كَثَرِ كَثْرَ عَلَيْهِ .

مستحقّه : صاحبه فخرت في أمرى ، أى في همّ الدين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : علمنى جبريل دعاء فى الدين ، وهو أن يصلى إذا زالت الشمس أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد ، فإذا سلم قرأ : ﴿ قل اللهم مالك الملك تُؤتى الملك مَنْ تَشَاءُ وتنزعُ الملكَ مِنْ تَشَاءُ وتُعزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وتُنزِلُ مَنْ تَشَاءُ بيدك الخير إناك على كل شىء قدير ﴾ * تُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهَارِ وتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فى اللَّيْلِ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وترزق مَنْ تَشَاءُ بغير حساب ﴾ ، ثم يقول : يا فارجِ الهمَّ يا كاشفِ الغمَّ ، يا مجيبِ دعوة المضرَّ ياربِّ رحيمِ الدنيا والآخرة ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن سواك واقضِ دَينى ؛ فإن الله تعالى يقضى دينه عنه وفيها اسم الله الأعظم .

غريمى : صاحب دَينى ، سُمِّىَ غريمًا لإدامته التقاضى وإلحاحه وملازمته مَنْ عليه الدين ، ويكون الغريم أيضًا المطلوب بالدين لازم له كما قال الشماخ :
تلوذ ثعالب الشرفين منها كما لاذ الغريم من التبيع^(١)
عسرى : فخرى .

* * *

فَلَمْ يُصَدِّقْ إِمْلَاقِي ، وَلَا نَزَعَ عَنِّ إِرْهَاقِي ، بَلْ جَدَّ فى التَّقَاضِي ، وَلَجَّ فى اقْتِيَادِي إِلَى الْقَاضِي . وَكَلَّمَا خَضَعْتُ لَهُ فى الْكَلَامِ ، وَاسْتَنْزَلْتُ مِنْهُ رِفْقَ الْكِرَامِ ، وَرَغَبْتُهُ فى أَنْ يَنْظُرَ لِي بِمَيَّاسَةٍ ، أَوْ يُنْظِرَنِي إِلَى مَيَّاسَةٍ . قَالَ : لَا تَطْمَعُ فى الْإِنْظَارِ ،

(١) ديوانه ٢٧٧ .

وَاحْتِجَانِ النَّضَارِ ، فَوَحِّقْ مَا تَرَى مَسَالِكَ الْخِلَاصِ ، أَوْ تَرِيْنِي
 سَبَائِكَ الْخِلَاصِ . فَلَمَّا رَأَيْتُ احْتِدَادَ لَدَيْهِ ، وَأَلَّا مَنَاصَ لِي مِنْ يَدِهِ ،
 شَاغِبْتُهُ ، ثُمَّ وَابَتْهُ ، لِيَرَا فَعْنِي إِلَى وَالِي الْجَرَائِمِ ، لَا إِلَى الْحَاكِمِ فِي الْمَظَالِمِ ،
 لِمَا كَانَ بَدَغْنِي مِنْ إِفْضَالِ الْوَالِي وَفَضْلِهِ ، وَتَشَدُّدِ الْقَاضِي وَبُخْلِهِ .
 فَلَمَّا حَضَرَ نَا بَابَ أَمِيرِ طُوسَ ، آانَسْتُ أَلَّا بَأْسَ وَلَا بُوسَ .
 فَاسْتَدْعَيْتُ دَوَاةَ بَيْضَاءَ ، وَأَنْشَأْتُ رِسَالَةً رَفِطَاءَ ؛ وَهِيَ :

* * *

ومثله إملاق ، وأملق . ذهب ماله ، مشتق من اللقات وهي الصخور الملس ،
 كأنه افتقر حتى لم يبق له ما يلبس إلا جلده الأملس . نزع : كف . إرهاق :
 تكليف ما لا أطيق ، وأرهقته : كلفته مشقة ، والرهق : الظلم . جدّ : عزم واجتهد ،
 التقاضى : طلب المال . لجّ : عزم وركب رأسه . استنزلت : طلبت . رفق
 الكرام : لطفهم وحنانهم على الفقير . مياسرة : لين ومساهلة . ينظرني : يؤخرني
 والإنظار الإمهال ، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « من أنظر
 معسرا أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

ميسرة : غنى . احتجان : اختزان ، واحتجنت الشيء : ضممته بالمخجن ،
 وهو عود معقف . النضار : الذهب . مسالك الخلاص . طرق التجارة . سبائك :
 فقر وقطع . الخلاص ، بالكسر : الذهب الخالص . احتداد : اشتداد ، وقد
 احتدّ . لدده : خصامه وإلحاحه . مناص : مخلص ومفرّ ، وناص عن قريبه نوصا
 ومناصا ، إذا فرّز وفرّ ، وما أحسن ما قال العبدى في محمد بن إبراهيم يشكو
 غريما لازمه :

اقض عني يا بن عمّ المصطفى أنا بالله من الدين وبك

مِنْ غَرِيمٍ فَاحْشٍ قَدْ عَرَّيْتُ أَسْوَدَ الْوَجْهِ لِعَرْضِي مُنْتَهَكٍ
أَنَا وَالظِّلُّ وَهُوَ ثَالِثُنَا أَيَّمَا زَلَّتْ مِنَ الْأَرْضِ سَلَاكُ

شاغبته : شاررته ، أى أوقعت بيني وبينه الشغاب . واثبته : ضاربته ووثبت
إليه ، ووثب إلى . وإلى الجرائم : حاكم الجنايات ، والحاكم فى المظالم : هو القاضى .
إفضال : إنعام . فضله : جوده وكرمه . وتشدد : يحل ، ورجل شديد ومشداد ،
أى بخيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ، أى لبخيل من أجل حبه الخير
وهو المال ، أو تشدد شدته على من تعين قبله حق . آست : علمت وأحسن
بأس : ضرر . وبوس : شدة . بيضاء : ورقة يكتب فيها ؛ ولابن الزقاق فيها :

وواضحة كمثل النصل تجرى مع الإبصار كالماء القراح^(١)
ترى حُبُّكَ المداد بحسب نورٍ كمخضرة الفرند على الصفاح
كأن سواده فى صفحتها بقايا الليل فى وجه الصباح

رقطاء : فيها حرف منقوط وآخر غير منقوط ، والرقطاء عندهم الدجاجة
المرقشة ، وهى المنقطة بسواد وبياض ، ومنه قيل للنهر أرقط ؛ لأن فيه تنقيطاً
خلاف لونه ، ولو شكر أعطيه الدواة لأنشد هذه الأبيات ، وهى لابن سكرة :

أخ مزجت بروحى روحه وجرى منه كجرى دمي فى الجسم أفديه^(٢)
أهدى إلى دواة لو كتبتُ بها دهرى أياديه لم تنفذ أياديه

وهذه الرسالة التى أنشأها أبو محمد أبدع فيها بما أراد ، وأغرب بها وأجاد

ونشد من الشعر النفيس فى مدح الرسائل ما يجرى لها كالوصف ، ويسرى
بذكرها طيب العرف ، فمن ذلك قول أبى تمام :

(١) ملحق ديوانه ٢٩١

(٢) بقيمة الدهر ٣ : ٢٢

مدادٌ مثل خافية الغرابِ وقرطاس كرقراقِ السَّرابِ^(١)
وألفاظ كأنفاظ المثاني وخطٌ مثل وشم يد الكعابِ
كتبت ولو قدرت هوى وشوقا لكنت إليك سطرًا في الكتاب

وله في كتاب جاء من الحسن بن وهب :

لقد جلى كتابك كل بثٍّ جَوٍّ وأصاب شاكلة الرمي^(٢)
وكان أغصن في عيني وأندى على كبدي من الزهر الجنى
وأحسن موقعاً منى وعندى من البشرى أتت بعد النعي
فكائن فيه من معنى خطير وكائن فيه من لفظ بهي
فيا تلج الفؤاد وكان رضعاً ويا شبعي بروقه ورني
من أبيات كلها عيون، وفيما ذكرنا دليل على ما تركنا.

وقال أبو نواس في كتاب ورد عليه من صديق :

وواردٍ ورد إنشاء يؤكده صدوره عن سليم الورد والصدور
شدت بقيقانه منه على نزه تقسم الحسن بين السمع والبصر
عذوبة صدرت عن منطقي ينع كالماء يخرج ينبوعاً من الحجر
وروضة من رياض الفكر دبجها صوب القرائح لا صوب من المطر
كأنما نشرت أيدى الزبيع بها برُداً من الوشي أو ثوباً من الحرير
ولابن طاهر في ابن ثوابة :

في كل يوم صدور الكتب صادرة عن رأيه وندى كفتيه عن مثل
عن خط أقلامه خط القضاء على الأعـداء بالموت بين البيض والأتل
لعابها عسل في الصدر تبعته وربما كان فيه النفع للعلل
كأن أسطارها في بطن مُهرقة نورٌ يضاحك دمع الواكف الخليل

(١) ورد البيت الأول في ديوان الماعاني ٢ : ٨٣ من بيتين نسباً إلى الحسن بن وهب .

(٢) ديوانه ٣٤٤ ، أدب الكتاب ٤٦ .

(١٨) - شرح مقامات الحريري ج ٣

وقال بعضهم :

كتاب فيه من غرر المعاني قلائد لا تنظمها اليدان
إذا نشرت صحائفه تجلّت بروضتها أزهير المعاني
ترود العين منها في مرادٍ مربع جاده فيض البنان
كان مجال عين الفكر فيه مجال اللحظ في غرر الحسان

وقال آخر :

يدير على القرطاس أسمر مرهفًا إذا دار لم تلحق به البيض والشمر
كان المعاني روضة وهو غيثها ففهما سقى أغصانها ضحك الزهر

وقال الرمادي :

قلم الوزير وكفه هذا يصول وذا يطول
أضفى كليث خفية ودواته لليث غيل

أخلاق سَيِّدنا تَحَبّ ، وبقوته يُلَبّ ، وقرْبُهُ تَحَفّ ، ونأْيُهُ
تَلَفّ ، وخلّته نَسَب ، وقطيعة نَصَب ، وغرْبُهُ ذَلَق ، وشُبّهُهُ
تَأْتَلَق ، وظلّفهُ زان ، وقويم نهْجِهِ بَان ، وذهنه قلب وجَرَب ،
ونعته شَرَقَ وغَرَب

سَيِّدُ قَلْبٍ سَبَّوقٌ مُبِرٌّ فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُوفٌ
مُخْلِفٌ مُثْلِفٌ أَغْرُ فَرِيدٌ نَابِهٌ فَاصِلٌ ذَكِيٌّ أَنْوَفٌ
مُفْلِقٌ إِنْ أَبَانَ ، طَبٌّ إِذَا نَا بَ هَيَّاجٌ وَجَلَّ خَطْبٌ خَوْفٌ

قوله : أخلاق سيدنا تحب ، حسن أخلاق الإنسان من كمال سعادته، وكرم فضيلته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » مع أن الله عز وجل يقول فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ .

قوله : وبعقوته يلبّ ، أى بمنزله يقام لحماية الممدوح من يلوذ به وإكرامه له . وقربه تحف ، أى من قرب منه أتخفه وهاداه ، ومن بعدد منه فقد الأمن فهلك . والثأى : البعد ، ولما كان القرب سببا للتحف والثأى سببا للتلغف ، جعل نفس القرب والبعد هما الحياة والموت . خلّته : صداقته . نسب ، أى هو للصدق بمنزلة النسب ، قيل لبزر جُهمر : مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ : أخوك أم صديقك ؟ فقال : لأحبّ أخى إلا إذا كان صديقى . وقال أكرم بن صيفى : القربة تحتاج إلى مودة ، ولوادة لا تحتاج إلى قرابة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : القربة قد تقطع ، والمعروف قد يكفر ، وما رأيت كتقارب القلوب ، أخذه ابن منذر فقال : قَدْ يُقَطَّعُ الرَّحِمُ الْقَرِيبُ وَتُكْفَرُ النَّعْمَى وَلَا كَتَقَارِبِ الْقَلْبَيْنِ ^(١) يُدْنِي الْهَوَىٰ هَذَا ، وَيُدْنِي ذَا هَوَىٰ فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تَرَىٰ نَفْسَيْنِ

أخذه أبو تمام فحسّنه فقال :

فَإِنَّ الْفَتَىٰ فِي كُلِّ حَالٍ مَنَاسِبٌ مَّنَاسِبٌ رُّوحَانِيَّةٌ مَّنْ يَشَاكُلُ ^(٢)
وَلَنْ تَنْظُمَ الْعِقْدَ الْكَعَابُ لَزِينَةً كَمَا تَنْظُمُ الشَّمْلَ الْأَشْتَّ الشَّمْلُ ^(٣)
وقد تقدّم حديث : الأرواح جنود مجنّدة ، ونظم الحسن له .

وقال الشاعر :

لَا خَيْرَ فِي قَرَبِي بِغَيْرِ مَوْدَةٍ وَلَرُبَّ مُنْتَفِعٍ بِوَدِّ أَبَاعِدٍ

(١) الأغاني ١٧ : ٢٦ - ساسي

(٢) ديوانه ٢٥٦ ، وفيه : « في كل ضرب مناسيب » .

(٣) الديوان : « الشئيت » .

وإذا وجدت من البعيد مودّة فامدّد له كفّ القبول بساعدٍ

قوله : وقطيعته نصب ، أى عداوته همّ وتعب ، وقد قال أبو تمام :

وإلا فأعلمه بأنك ساخطٌ ودعه فإنّ الخوف لاشكّ قاتله^(١)

غربه : أى حدّه . ذلق ، أى حادّ . شبهه : نجومه ، يعنى أخلاقه ومكاريمه
تأثلق : تضىء . وظلّفه : منعه وكفه ، وظلّقت نفسى عن الشيء : منعته منه .
زان : يزىن ، يقول : إن قمعه من تجاوز قدره ومنعه من سأل ما لا يحبّ زُين
بالممنوع ، وشرف بالممنوع ، فتأديب الملوك لأعاريه ، وإنما العار أن يهينك
كفؤك ، ومنّ لاحكم له عليك . وقال المتنبي :

ومنّ شرف الإقدام أنك فيهم على القتل موموق كأنك شاكد^(٢)
وإنّ دما أجرية بك فاخر وإنّ فؤادا رُعته لك حامدٌ

وقال حبيب :

خضعوا لصولتك التى هى عندهم كالوت يأتى ليس فيه عار^(٣)
وقال آخر :

وإنّ أمير المؤمنين وعته لكالدهر لعار بما فعل الدهر^(٤)

وإذا تزين بمنعه ، فما ظنك بمطائه ! على أن اليد القابلة للجدوى ، وهى اليد
السفلى ، لا تنفك عن حشمة أو ذلة ، وقد اعتذروا لهذا المعنى ، قال أبو تمام :

رأيت رجائى فيك وحدك همة ولكنّه فى سائر الناس مطمع^(٥)

(١) ديوانه ٢٣٢ .

(٢) ديوانه ١ : ٢٧٦ . موموق : محبوب . والشاكد : المعطى .

(٣) ديوانه ١٤٦٨ .

(٤) البيت فى شرح العكبرى ٢ : ١١٣ ، بـنون نسبة

(٥) ديوانه ١٩٢ .

وقال أيضاً :

تُدعى عطاياه وفراً وهي إن شهرتُ كانت فخاراً لمن يعرفه مؤثماً^(١)
مازلت منتظراً أعجوبة زمناً حتى رأيت نوالاً يقتضى شرفاً

وقال إبراهيم بن العباس :

إذا طمع يوماً عرائى منحه كتائب يأس كرها وطرادها^(٢)
سوى طمع يدنى إليك فإنه يبلغ أسباب للعلا من أرادها

وقال الخريجي :

عطائك زين لامرئ إن أصبته بخير وما كلّ العطاء يزين^(٣)
وليس بعار لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وقال أبو الطيب :

وفيض نواله شرفٌ وزينٌ وفيض نوال بعض الناس ذمٌ

وقال ابن أبي خالد :

شرف للشرف منك نوال ربّ نيل تَعافُهُ الأحرارُ
فزاد بقوله : للشريف على من سبق .

قوله : قويم نهجه ، أى مستقيم طريقه . بان تبين . قلب : بحث . شرق وغرب :
أى مشى بوصفه المادحون شرقاً وغرباً ، وأشد المتنبى وزاد فيه معنى :

ستحيا بك السمّار ملاح كوكبٌ وتحذو بك السفار ماذر شارق^(٤)

(١) ديوانه ٢٠١ (٢) ديوانه ١٨٣ .

(٣) البيتان في ديوان أمية بن أبى الصلت ٦٣ .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٤٨ ، وفي ترتيبه : الثانى قبل الأول .

تَخْلَى مِنَ الدُّنْيَا لِيُنْسَى فَمَا خَلَتْ مَغَارِبُهَا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْمَشَارِقُ

قَلْبٌ : دَرْبُ الْأُمُور ، وَفُلَانٌ حَوَّلَ قَلْبَهُ ، إِذَا كَانَ مُتَصَرِّفًا فِي أُمُورِهِ ،
نَفَاعًا لِأَوْلِيَائِهِ ، ضَرَارًا لِأَعْدَائِهِ ، كَأَنَّهُ لِمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ قَدْ حَوَّلَ الْأُمُورَ وَقَلْبَهَا .
وَمِيزٌ ، أَيْ غَالِبٌ لِأَعْدَائِهِ . فَطَنٌ : ذَكِيٌّ . مُغْرِبٌ : يَأْتِي بِالْغَرَائِبِ . عَزُوفٌ :
نَزِيهٌ النَّفْسَ بَعِيدٌ مِنَ الرِّيبِ . عَيُوفٌ : كَارِهِ لِلدُّنْيَا . وَالتَّلَفُ عِنْدَ الْعَرَبِ : الَّذِي
يَتَلَفُ مَالَهُ بِالْجُودِ . وَالْخَلْفُ : الَّذِي يَخَافُ مَا أَتَلَفَ بِالْإِغَارَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَأَخَذَ
أُمُورَهُمْ ، يَصِفُهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ . وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

بَارُوعٌ مِنْ طَلِيٍّ كَأَن قِيَصَهُ بُزُرٌّ عَلَى الشَّيْخِينَ زَيْدٌ وَحَاتِمٌ ^(١)
سَمَاحًا وَبَأْسًا كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَمِيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمُتَرَاكِمِ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

لَمْ تَخْنَى قَطُّ مِنْ صَنَائِعِكَ الْفَرَّ وَلَا مِنْ حُرُوبِكَ الْفَرَسِ
تَصَرَّفَ الْغَيْثُ فِي صَوَاعِقِهِ وَتَارَةً فِي سِجَالِهِ الْبَحْسِ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

ضَحُوكٌ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ قَرِيبُهُمْ وَلِلْسَيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْنُقٌ ^(٢)
حَيَاةٌ وَمَوْتُ وَاحِدٌ مَمْتَهَاهُمَا كَذَلِكَ غَمْرُ الْمَاءِ يُرْوَى وَيُغْرَقُ
وَقَالَ دِيكُ الْجَنِّ :

هُوَ عَارِضٌ زَجَلٌ فَمَنْ شَاءَ الْخَلِيَا أَرْضِي ، وَمَنْ شَاءَ الصَّوَاعِقُ أَغْضِبَا ^(٣)

(١) ديوانه ١٩٧١هـ

(٢) ديوانه ١٤٩٦هـ ، وفيه : « وهو يروعه »

(٣) ديوانه ١٥٠٠هـ

وقال أبو مسهر :

تحيا الأنام به في الجذب إن قخطوا جوداً وتشقى به يوم الوغى الهام
كأذن يجتمع الحالان فيه معاً ماء و نار ، وإرهام وإضرار

وقال ابن الرومي :

والناس طراً بين مرتقب سطواته ومؤمل نفقه
كالعارض التهب صواعقه وسقى البلاد فلم يدع بقعه

قوله : أغرت : مشهور . فريد : ليس له نظير . نابه : رفيع الذكر . ذكي : متوقد الفطنة ، و يروى : « زكي » ، وهو الطاهر العفيف ، وقيل : هو المتزيد في الخير ، والزكاء : النماء والزيادة . أنوف : كثير الحية والغضب لما يستراب منه . مفلق . فصيح ، وأفلق : جاء بالفلق ، وهي الداهية كأنه جاء من الفصاحة بما لا يطاق . أبان : بين كلامه . طب : حاذق حسن التدبير . ناب هياج : حدث شر واختلاف . جلّ خطب : عظم أمر . مناظم : جمع منظوم . تأتلف : تجتمع ، يريد أن ما ينظم في شرفه من المدائح يأتلف بلا تكلف على الشعراء لكثرة صفات الفضل والسؤدد ، كما قال حبيب :

تغايّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل^(١)

وقال أبو الطيب :

لك الحمد في الدرّ الذي لي لغناه فإنك مبطيه وإني ناظم^(٢)

وقال آخر :

مالقينا من فضل جود ابن يحيى صير الناس كلهم شعراء

* * *

مَنَظِمُ شَرَفِهِ تَأْتَلِفُ ، وَشُؤْبُوبُ حَبَائِهِ يَكِفُ ، وَنَائِلُ
يَدَيْهِ فَاظُ ، وَشُحُّ قَلْبِهِ غَاضُ ، وَخِلْفُ سَخَائِهِ يُحْتَلِبُ ، وَذَهَبُ
عِيَابِهِ يُحْتَرَبُ . مَنْ لَفَّ لَفَّهُ فَلَجَ وَغَلَبَ ، وَتَاجِرُ بَابِهِ جَلَبَ
وَخَلَبَ . كَفَّ عَنْ هَضْمِ بَرِي . وَبَرِيٌّ مِنْ دَنَسِ غَوِي ، وَقَرَنَ
لِيَاَنِهِ يِعِزُّ ، وَنَكَبَ عَنْ مَذْهَبِ كَزَّ . لَيْسَ بُوْتَابُ عِنْدَ نَهْزَةِ
شَرِّ ، بَلْ يَعْفَ عَفَاً بَرَّ .

فَلِهَذَا يُحِبُّ وَيُسْتَحَقُّ عَفَاً

شَعْفًا به فلبابه خَلَابُ

أَخْلَاقُهُ غُرٌّ تَرْفُ وَفُوقَهُ

فُسُوقٌ إِذَا نَاضَلَتْهُ غَلَابُ

سُجُجٌ يَهْشُ وَذُو تَلَافٍ إِنْ هَفَا

خِلٌّ فَلَيْسَ بِحَقِّهِ يُرْتَابُ

لَا بَاخِلٌ بَلْ بَاذِلٌ خِرْقٌ إِذَا

يُعْتَرُّ ، بَرَزٌ لَا يَلِيهِ بَابُ

إِنْ عَضَّ أَزَلٌ فَلَّ غَرَبَ عِضَاضِهِ

بَعْنَابِهِ فَانْحَتَّ مِنْهُ نَابُ

. . .

شُؤْبُوبُ حَبَائِهِ : دَفْعُ عَطَائِهِ ، وَالشُّؤْبُوبُ : دَفْعُ الْمَطَرِ . يَكِفُ : يَقْطُرُ
وَيَسْقُطُ . نَائِلُ : فَاضٌ . فَاضٌ : سَالٌ وَخَرَجَ عَلَى الْأَرْضِ . غَاضٌ : غَابَ وَجَفَّ .

وَالْخِلْف : حلة الضَّرْع الذى يُحلب منه اللبن ، وهو أيضاً اسم للضَّرْع .
سَخَائِهِ : جوده . عِيَايَه : جمع عيبة . يُحْتَرَب : يستلب ، أى لكثرة جوده كَانَ
ماله يسلبه القاصدون له . مَنْ لَفَّ لِفَه ، أى من التف به ودخل فى جماعته ،
وَالَّف : لفيف الناس ، وَلَفَّ القوم : اجتمعوا والتف بعضهم ببعض ، وأخذ
هذا اللفظ من قول الأعشى :

وقد ملأت بكرٍ وَمَنْ لَفَّ لِفَهَا مُنَاكَ فَأَحَواضُ الرِّبَا فَالنَّوَاعِصَا^(١)
بَكَرٍ قَبِيلَةٍ ، وَمَنْ لَفَّ لِفَهَا ، أى مَنْ التف بها . فلج ، أى ظفر بما أحب .
جلب : ساق ، أى التاجر الذى يقصد بابه بما جلب إليه من الفوائد يجازيه على
ذلك بالعطاء الكثير ، فلكثرة ما أخذ فكأنه قد خدعه ، والمالك المفضل
يوصف أنه يُخَدَع لكثرة هباته ، وقيل لعرابة : بم سدت قومك ؟ قال : أنخدع
لهم فى مالى . هضم : نقص ، أراد أنه لا يهضم ولا يظلم من لم يذنب إليه غَوَى :
ضالٌّ مفسد . لِيَانِهِ ، أى لين خلقه . بَعَزَّ : بمنع وبغظم ، والعزة فى اللغة : الشدة
والمُنْعَةُ ، والعَزَاز : الأرض الصلبة ، يريد أن الأمير إذا انبسط لم يهب ، وإذا
اشتدَّت سطوته لم يُؤَلَف ، فحالة هذا الممدوح بين العزة واللين ،

وقال أبو تمام :

المجدُّ شيمته وفيه فكاهةٌ سَمَحٌ ولا جدَّ لمن لم يلعب^(٢)

شَرِسٌ يُتَمَع ذاكَ لِنُ خَلِيقَةٍ لا خيرَ فى الصَّهْبَاءِ ما لم تقطَب^(٣)

نَكَب : عدل ومال . مذهب : طريق : كَرَزَ : بخيل قليل الخير . وثَّاب :
عجول كثير الوثوب . نُهْزَةٌ : فرصة وغنيمة . ويعف : يكف نفسه . بَرَّ :
مطيع لله ، أراد أنه عفيف عن المحارم . قوله : شعفا ، أى حبا يطلب الغاية ،
وشعاف القلب : أعلاه ، يريد أن عفاه بلغه غاية الحب من القلوب ، وفلان

(١) ديوانه ١٤٩ .

(٢) ديوانه ١٣ . (٣) تقطب : تنزع .

مشعوف بفلان ، إذا ذهب به حبه كل مذهب . الفراء : هو من الشَّعَف ، وهي رؤوس الجبال ، واحدها شعفة ، فكأن معنى شعف بفلان ، ارتفع حبه إلى أعلى موضع فيه .

لبابه : خالصه . خلاب : آخذ للنفس غالب عليها . غرّ : حسان . ترفّ : تتلألاً وتشرق ، والرفيف : بريق اللون . وفوقه : سهمه والفوق : طرف السهم الذي يلي الوتر . ناضلته : راميته ، يقول : سهمه ، غلاب لمن راماه . سحج : سهل الخلق . يهشّ : يهتزّ طرباً . تلاف : تدارك . هفا : زلّ وسقط ، والهفوة : الزلة . خِلّ : صاحب . يرتاب : يشكّ . خرق : كريم جواد يتخرق في العطاء . يمتزّ : يقصد . برزّ : ظاهر غير محتجب . قال الفنجديهي : رجل برزّ ، أي عفيف عاقل كريم . لايّيه باب ، أي لا يحتجب ببابه دون قصاده .

[مما قيل في الحجاب]

شاد الملوك قصورهم وتحصّنوا من كلّ طالب حاجة أوراغي
غالوا بأبواب الحديد لعزها وتنافسوا في قبح وجه الحجاب
فإذا تلطّف للدخول عليهم راجّ تلقّوه بمنذر كاذب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن بادى الضراعة طالباً من طالب

هي لمحمود الوراق .

وقال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الكافي فحجبتني ، فكتبت إليه :

إني أتيتك للتسليم أمسي فلم تأذنْ عليك ليّ الأستار والحجب
وقد علمتُ بأنّي لم أرد ولا والله مارد إلا الحلم والأدب

فأجابني بهذا القول :

لو كنتَ كَأَفَاتٍ بالحسنى لقلتَ كما
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملاً
قال ابن أوس وفيما قاله أدبُ
إن السماء ترجى حين تحتجب^(١)

وقال حبيب :

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
فما خاب مَنْ لم يأتِه متعمداً
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئ
إذا لم أجد للإذن عندك موضعاً
على ما أرى حتى يلين قليلاً
ولا فاز من قد نال منه وصولاً
حتى بابه من أن يُنسال دخولاً
وجدت إلى ترك الجوى سبيلاً
وحُجب أبو العتاهية عن بعض الهاشميين ، وقال له : تكون لك
عودة فقال :

لئن عدتُ بعد اليوم إلى لظالمٍ
متى يظفر الغسادي إليك بحاجة
سأصرف نفسي حيث تُبغى المسكارمُ
ونصفك محبوبٌ ونصفك نائمٌ !

قال المتنبي :

أصبحتَ تأمرُ بالحجاب للخلوةِ
مَنْ كان ضوء جبينه ونواله
لم يحجباً لم يحتجب عن ناظرٍ
وإذا بطأنتَ فأنت عينُ الظاهرِ
هيئات لست على الحجاب بقادرٍ^(٢)
فإذا احتجبتَ فأنت غير محجبٍ

وقال جرير :

قومٌ إذا حضر الملك وفودهم
نَتَقَتْ شواربهم على الأبواب^(٣)

(١) ابن أوس : هو أبو تمام والبيت في ديوانه ٢٢ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٧ .

(٣) ديوانه ٥٦ .

وقال آخر :

نهيت جميع الناس عن كل خطة يدبرها في رأيها ابن هشام -
فلما وردنا الباب أيقنت أننا على الله والسلطان غير كرام

وقال آخر :

وكل خفيف الشأن يدعى مشمراً إذا فتح البواب بابك إصبعاً
ونحن الجلوس الماكثون توقراً حياء إلى أن يفتح الباب أجمعاً

قوله : عض أزل ، أى اشتد زمان ، والأزل : ضيق العيش من الجذب
والقحط ، وعض : قبض بأسنانه . فل : كسر . غرب : حد . بمنابه :
بكفايته . انحت : انكسر . ناب : سن ، يقول : إن عضت الشدائد الناس
وأضرّت بهم دفعها وكسر أنيابها بمواهبه وخيره لمن أفقرته . ومن مليح
ما قيل في هذا المعنى قول المتنبي :

أظمتني الدنيا فلما جئته مستسقيا مطرت على سحائب^(١)
حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان إلى منها تائباً

نقل المتنبي اللفظ والمعنى من قول أبي تمام :

كثرت خطايا الدهر في وقد يرى لنداك وهو إلى منها تائب^(٢)
والم به الحصني أيضاً في قوله :

وقد تحسن الأيام بعد إساءة ويذنب صرّف الدهر ثم يتوب

وقال ابن المعتز :

وعوقني الدهر عن قربه زمانا فقد تاب عن ظله

(٢) ديوانه ٢٩ .

(١) ديوانه ١ : ١٢٥ .

وقال ابن الرومي :

أساءت لي الأيام يا بن محمد
وهن إليّ اليوم معذرات
رأيت مطافى حول عفوك عائداً
فهنّ لما أبصرته حذرات

وقال أبو تمام :

إذا العيس لاقت بي أبادلف غداً
تقطع ما بيني وبين النواذب

وقال أبو نواس :

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ
أمنتُ به من طارق الحدائقِ
تغطيت من دهرى بظل جناحه
فعميت ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام عني ما درتُ
وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أيضاً :

أنا في ذمّة الخصيب مقيمٌ
حيث لا تهتدى صروف الزمانِ
قد عرفنا من الخصيب خلالاً
آمننا طوارق الحدائقِ
كيف أخشى من الليالي اغتيالاً
ومكاني من الخصيب مكاني

* * *

وجديرٌ بمن لبّ وفطن ، وقربَ وشطن ، أن أذعنَ
لقريرِ زمن ، وجابرِ زمن ، مُذ رَضِعَ ثديَ لبانه ، خُصَّ
بإفاضة تهنّاته . نَعشَ وفرج ، وضافرَ فأبهج ، ونافرَ فأزعج ،
وفاءً بحقّ أبلج ، أتمبَ من سيلي ، وفرطَ إذ هزّ ويلي ، وتوجَّ
صفاته ، بحُبِّ عَفاته .

فَلَا خَلَا ذَا بَهْجَةٍ يَمْتَدُّ ظِلُّ خَصْبِهِ
فَإِنَّه بَرٌّ بِمَنْ آنَسَ ضَوْءَ شَهْبِهِ
زَانَ مَزَايَا ظَرْفِهِ بُلْبُسِ خَوْفِ رَبِّهِ

* * *

قوله : جدير ، أى حقيق . لبّ : كان لبيبا وعاقلا . شطن : بعد . أذعن : ذلّ وانقاد . القرع : السيد يدفع ضرّ الزمن ويقرعه . جابر زمن ، أى معنى فقير ، والزمن الفقير الذى لازمه الفقر أو المريض الذى لازمه المرض ، وبه زمانة ، وأصل ذلك من الزمن . لبانه ، أى لبن أمه ، وقال فى الدرة^(١) وقولهم : الرضيع الإنسان ارتضع بلبنه ، صوابه بلبانه ، لأن اللبن هو المشروب ، واللبن ، هو مصدر لابنه ، أى شاركه فى شرب اللبن ، هذا معنى كلامهم الذى نحوا إليه ولفظوا به . التهمتان : سيلان المطر ، وإفاضته : صبه ، وأراد فى لبن أمه ، ارتضع الجود فداوم عليه ، كقول المتنبي :

سموا للعالمى وهم صبيةٌ وسادوا وقادوا وهم فى المهود^(٢)

وقد غلط المتنبي فى هذا ، ونُسب فيه إلى الكذب والحال الفاضح ، لأن سيادة الأطفال فى المهود وقود الجيوش من أنحلّ الحال ، وهذا وإن كان ظاهره كذلك ، فقد اتسعت العرب وأهل الأدب فى هذا القدر ، وأقاموا تحمّل النجاسة فى المولود فى مهده مقام وجودها فى كبره . ثم إذا وجدوا صفة الكمال فى الرجل التام حكموا بكاملها ، لأنه رضعها فى ثدى أمه ، أو غذى بها فى بطن أمه ، ألا ترى قوله : تعلمت العلم قبل أن يقطع سرك وسررك ، وقبل أن يقطع ذاك ، كان

(١) درة الفواس ٩٩

(٢) ديوانه ١: ٣٤٥ .

في بطن أمه ، وهذا لم ينسكه أحد ، ومن شعر الحماسة في الذي رأى المهلب في
مهدده فقال :

خذوني به إن لم يسد سرواتهم ويبرع حتى لا يصاب له مثل^(١)
وفيها أيضاً :

لئن فرحت بي معقل عند شيبتي لقد فرحت بي بين أيدي القوابل
وذلك لتخيل النجاة فيه في ذلك الوقت ، ألا ترى ما تثبت نساء العرب
من بلوغ السيادة لأبنائهن عند ترقيصهن ، وانظر إلى ذلك إن شئت في فصل
نظامناه في كتابنا الموضوع لاختصار نوادر أبي علي ، فقد سقط عن المتنبي والحريري
هذا ما عيب عليهما ، وقال سوار بن أبي شراة :

تعرف السودد في مولودهم وتراه سيّدا إن أيفعا
نمش : رفع الضعيف بجوده . مَرَج : أزال همه . ضافر : فاخر . أبهج :
أدخل السرور على أحبابه إذا كان له القلب . نافر : خاكم في النسب .
وكانوا في الجاهلية إذا تنازع الرّجلان الشرف تنافرا إلى حكمائهم فيفضلون
الأشرف ، وسميت منافرة^(١) لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : أينما أعزّ نفرّا .

[منافرة عامر بن الطفيل . وعلقمة بن علاثة]

وأشهر منافرة في الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن
كلاب مع علقمة بن علاثة بن عوف بن الأخوص بن جعفر ، حين قال له علقمة :
الرياسة لجدّي الأخوص ، وإنما صارت إلى عمك أبي براء من أجله ، وقد أسنّ
عمك وقعد عنها ، فأنا أولى بها منك . وإن شئت نافرْتُك ، فقال عامر : قد

(١) المنافرة : المفاخرة بالنسب ، وخبر المنافرة بين عامر وعلقمة في الأغاني ١٥ : ٥٠ -
ساسى ، مع تصرف واختصار .

سئلت والله ؛ لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت نسباً ، وأطول قصباً ، فقال علقمة :
 أنا فرك وإني لبر وإنا لك لفاجر ، وإني لولود وإنا لك لعاقر ، وإني لعف وإنا
 لعاهر ، وإني لواف وإنا لك لغادر ؛ فقال عامر : أنا فرك ؛ أنا أسنى منك سنة ،
 وأطول قفة ، وأحسن لمة ، وأجعد حمة ، وأبعد همة . فقال علقمة : أنت جسيم
 وأنا قضيف^(١) ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ؛ ولكن أنا فرك أنا أولى بالخيرات منك .
 فخرجت أم عامر فقالت : نافر أئكما أولى بالخيرات ، ففعلوا على أن جعلوا مائة
 من الإبل يعطاها الحكماء الذي ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببني خالد بن
 الأصغر وبني الأحوص ومعهما القباب والجزور والتدور ؛ ينحرون في كل منزل
 يطعمون ، وخرج عامر ببني مالك ، وقال : إنها المقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا :
 بمنل ماشخص به ، وقال لعمه أبي براء : أعتى ، فقال : سئبني ، فقال لا أسببك
 وأنت عمتي ، فقال : وأنا لا أسب الأصوص وهو عمتي ، ولكن دونك نعل ،
 فإني ربت فيها أربعين سنة ؛ ولم ينهض معه . فجعلنا منافرتهم إلى أبي سفيان بن حرب
 ابن أمية ، ثم إلى أبي جهل بن هشام ، فلم يقولوا بينهما شيئاً ، ثم رجعا آخر إلى هريم
 ابن قطبة بن سيار بن عمر الفزاري ، فقال : لعمري لأحكم بينكما ، فأعطاني موثقاً
 أطمئن إليه أن ترضيا بحكمي ، وتسلمنا ما قضيت بينكما . ففعلنا ، فأقاموا عنده أياماً
 فأرسل إلى عامر فأتاه سرّاً ، فقال : قد كنت أحسب أن لك رأياً ، وأن فيك خيراً ،
 وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أنا فرك رجلا لا تفتخر أنت
 وقومك إلا بابائنا ! فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ،
 ألا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها ، هذه ناصيتي فأجزها
 واحتكم في مالي ، فإن كنت ولا بد فاعلاً فسو بيني وبينه ، فقال له ما قال
 عامر ، فقال له : أنا فخر رجلا هو ابن عمك في النسب وأبوه أبوك وهو مع ذلك
 أعظم منك غناء وأحد لقاء ، وأسمح سماحاً ! فما الذي أنت به خير منه ! فرد

(١) قضيف ، أي نحيف

عليه علقمة مارد عامر وانصرف وهو لا يشك أنه ينقر عامراً عليه . فأرسل هريم إلى بنيه وبني أخيه ، وقال لهم: إني قاتل غداً بينهما قتالة ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا يكون بينهم جماعة . ثم أصبح هريم مجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا ، فقال هريم: إنكما يا بني جعفر قد تحاكمتما إلى ؛ أتما كركبتى البعير الآدم الفحل تقعان على الأرض [معا] ^(١) ، وليس فيكما واحد إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكلا كما سيد كريم . ولم يفضل واحدا منهما على صاحبه لئلا يحب بذلك شرّاً بين الحيتين ، ونحرت الجزر وفترقت على الناس .

وعاش هريم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال: يا هريم ، أى الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت جَزَعة ، ولبلغت شَمَعات هَجَر ، فقال عمر : نعم مستودع السرّ أنت يا هريم ، مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم . والحكاية طويلة ، وقال فيه الأعشى ^(٢) :

حَكَمْتُمُوهُ قَضَى بَيْنَكُمْ أَبْلُجُ مِثْلُ الْقَمَرِ الْبَاهِرِ
لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ فِي حَكْمِهِ وَلَا يَبَالِي غَيْرَةَ الْخَامِرِ

قوله : فاء ، أى رجع أبلج : بين ظاهر . أتعب من سَيْلٍ ، يقول : إن الأمير الذى يأتى بعده فى تعب لأنه يروم أن يفعل مثل ما فعل فيعجز عنه ، وأعاد هذا المعنى منظوماً فى السابعة والثلاثين حين قال :

سَمَاحُهُ أَزْرَى بَيْنَ قَبَلِهِ وَعَدْلُهُ أَتَعَبَ مَنْ بَعْدَهُ ^(٣)

أخذه من قول رجل قال لأحد الأمراء وقد عزل عن عمله : أصبحت والله

(١) من الأغاني (٢) ديوان الأعشى ١٤١ . (٣) المقامات ٤١٤ .

(١٩ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

فاضحاً متعباً ، أما فاضحاً فلا كلّ وال قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعباً فلكل وال بعدك أن يلاحظك .

قَرَّط : مدح . هز : حرك بالثناء عليه . بلى : جَرَّب : توجَّص صفاته ، أى زَيَّنْها وشرفها . عَفَّاتِه : قصاده . بهجة : سرور ، وكنتى بخصبه عن ماله ودعاه بالبركة والسكثرة إذ جعله ممتدّ الظل . برّ : مكرم . آنس : أبصر . شبيه : نيرانه الساطعة ، واحداً شهاب ، وأصل هائه التشكيل تخففت ، وكانت العرب توقد النيران فيقصدوها الأضياف بالليل ، أراد أنه كثير الإكرام لمن يقصد ناره ، وأخذ اللفظ من قوله تعالى : ﴿ آنس من جانب الطُّورِ ناراً ﴾ ^(١)

مزايا : فضائل . ظرفه : حسن هيئته وعذوبة لسانه ، وهو مصدر ظرف يظرف خرفاً فهو ظريف ، فمن قال : الظريف البليغ ، وقصره على اللسان لم يَجْزُ له أن يقول : ما أظرف زيد ؟ على الاستفهام ، ومن جعل الظرف حسن الوجه والهيئة جاز له ذلك ، وكذلك مَنْ جعل الظرف عاماً فيكون معناه : أى شئ فيه من الظرف ؟ أوجهه أم هيئته أم ذكاؤه وبلاغته ؟

بلبس : اختلاط ، أراد أنه يخلط الهزل بالجد ، والمزاح وخفة الطرب بالانقباض والحشمة ، وقد تقدّم في صفة التنوخى مثل هذا . والمزاي : جمع مزية وهى التمام والكمال ، وأصلها من الزى .

* * *

فَلَيْهِنَّ سَيِّدَانَا فَوْزُهُ بِمَفَاخِرِ تَأَثَّلَتْ وَجَلَّتْ ، وَفَوْقَهُ بِصَنَائِعِ تَمَّتْ وَنَمَّتْ ، وَيُلَاقِمُ قَرَبَ حَضْرَتِهِ ، وَثُ رِقَّةٍ بِحُظٍّ مِنْ حُظْوَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ تَلِيدٌ نَدْبٌ ، وَشَرِيدٌ جَدْبٌ ، وَجَرِيحٌ

نَوْبٍ أَثَرَتْ ، وَنَاظِمٌ فَلَا تَدَّ تَسِيرَتْ ، إِذَا جَاشَ خُلْطُهُ فَلَا يُوجَدُ
فَائِلٌ ، ثُمَّ قَسَّ ثُمَّ بَاقِلٌ .

فَإِنْ حَبَّرَ قَلْتَ : حَبَّرْتُ نَمِمتُ ، وَخِلْتَ رِيَاضًا قَدْ نَمَتْ ، هَذَا ثُمَّ
شَرُّهُ بَرُّضٌ ؛ وَقُوْتُهُ قَرُضٌ ، وَفَلَقُهُ غَسَقٌ ، وَجَلْبَابُهُ خَلَقٌ . وَقَدْ
قَلَقَ لِتَوَغَّرِ غَرِيمٍ غَاشِمٍ ، يَسْتَحِثُّهُ بِحَقِّ لَازِمٍ ؛ فَإِنْ مَنْ سَيِّدُنَا
بَكْفِهِ ، ، بِهَبَاتِ كَفِّهِ ، تَوَشَّحَ بِمَجْدِ فَاقٍ ، وَبَاءَ بِأَجْرِ فَكِّي
مِنْ وَثَاقٍ .

لَا خَلَّتْ سَجَايَا خُلُقِهِ ، تَرْفِدُ شَائِمَ بَرَقِهِ ، بِمَنْ رَبِّ أَزَلِيٍّ ،
حَيَّ أَبَدِيٍّ

. . .

فوزة : ظفروه . تأملت : تقدمت واتصلت . جلّت : عظمت . فوقه : سبقه .
صنائع : أفعال جميلة . نمت : اشتمرت . يلاثم : يوافق . حضرته : موضعه الذي
يحضر فيه ، والقرب : جمع قرية ، وهي ما يتقرب به من أعمال البر إلى الله تعالى ومن
الهدايا إلى الملوك . غوث : إغاثة وكشف ضرر . رقه : عبده . حظّ : نصيب .
حظوته : مكانته ورفعته . تليد ندب ؛ تقول : ندبت القوم دعوتهم ، يريد أنه
عبدٌ للدعوة التي دعاه بها خصمه إلى الوالى ، والتليد من العبيد : ما ولد عند
غيرك ثم اشتريته صغيراً ، فكبر عندك ، وجعل نفسه عبداً للدعوة لما تعبد بها ،
أو يريد بالتليد القديم ، فإن التليد والتالد المال القديم ، ولاندب : ألهم ، من
ندبت الميت ندباً ، فيريد أنه قديم هم ، ورجل ندب ، أى خفيف فى قضاء
الخواج لأصحابه ، فيريد على هذا بتليد ندب ، أى خفيف ومن هذه صفته

فقد وجبت حرمة . وشر يد جذب : طريد فقر وجوع ، والجذب ضد الخصب .
 نوب : نوازل . أثرت : أبقت به أثرا وأثرها أخذها ماله حتى عاد فقيراً ، فمن نظره
 رأى أثر النوائب عليه . ناظم قلائد : قائل قصائد . ورسائل تسيرت : مشت في
 الناس والبلاد ، جاش لخطبة : تحرك صدره للكلام بها ، يريد أنه إذا أراد قول
 خطبة ازدحم الكلام في صدره وارتفع ، كما يجيش القدر ، أى يغلى ، وتقدم
 هذا الكلام .

قس : فصيح العرب ، ويأتى ذكره فى الأربعين . ثم ، معناه هنالك . باقل ،
 تقدم ، يريد أن قسا على فصاحته لو حضر مع الموصوف لنظم أو نثر لرجع فى عى
 باقل ، والعادة إنما يذكر معه سبحانه للزوم الرسالة وقال حبيب وذكر ثلاثة من
 أصحاب عبد الله بن طاهر :

أول :

حازوا خلائق قد تيقنت العلا كل التيقن أنهم نجومها^(١)
 ثان :

لو أن باقلاً المفم ينبرى فى مدحها سملت عليه حزومها
 ثالث :

ولو أن سبحانه يسحب ذيله فى ذمها لم يدر كيف يذمها^(٢)
 ح : قال شعرا أورسالة ، وأصل حبر : وثى وزين . حبر : ثياب موشاة .
 تمننت : زينت ورقمت . تمت : تحركت بالروائح العطرة .
 وقال الصابى فى المهلبى وكأنه يصف هذا الكلام :

وإن اسنة نطق الأنامل جاءت ببيان كالجوهر المنضود^(٣)
 فى سطور كأنما نشرت بمناء منها عصائباً من برود
 فقر لم يزل فقيراً إليها كل مبدى بلاغة ومعين

(١) ديوان أبو تمام ٣١١ (٢) يذمها : يذمها (٣) ينمية الدهر ٢: ٧٤٩

يَعْتَدِي الْبَارِعَ الْمَفِيدَ لَدَيْهَا لاحقا بالمقصر المستفيد
بيبان شافٍ ولفظ مصيب واختصار كافٍ ومعنى سديد
وله في مثله أيضاً :

وكم من يدٍ بيضاء حازت جمالها يدُ لك لا تسودُ إلا من النَّفسِ^(١)
إذا رَقَشَتِ بِيضَ الصَّحَائِفِ خِلَتَهَا تطرّز بالظالماء أردية الشمس
وقال السري رحمه الله تعالى :

شغلتك عن حسن الشّام مدائحٌ حسنت فما تنفك تطرب سامعاً^(٢)
زهر، إذا صاغن سمع معاندٍ خَفَضَ الكلامَ وغض طرفاً خاشعاً
جاءتكَ مثلَ بدائع الوشي الذي مازال في صنعاء يتعب صانعا
أو كالربيع يريك أخضر يانعا متورّداً شرقاً وأصفر فاقعا
وله أيضاً في مثله :

سأبعث الحمد موشياً سبائبه إلى الأمير صحيحاً غير مؤثبٍ^(٣)
إنّ المدائح لا تهدي لنّاقدِها إلا وألغاظها أضنى من الذهب
كم رُضْتُ بالفكر منها روضة أنفاً تفتح الزهر فيها عن جنى الأدب
لفظ يروح له الريحان مطرحاً إذا جعلناه ريحاناً على النخب

قوله: شربه، أي حظه من الماء. برّض: قليل. قرض: سلف، والقرض
ما أخذ ليعوّض منه. وفلقه: ضوء صبحه. غسق: ظلام، يريد أن حاله متغيرة.
جلبابه: ثوبه. خلق: بال. توغر: توقّد واشتد غضبه، والتوغر: التوقد
لشدّة الغيظ، والوغر شدة الحر. غاشم: ظالم جاف. يستحنه: يستعجله. لازم:

(١) بنية الدهر ٢ : ٢٤٩ .

(٢) ديوان السري ١٦١ .

(٣) ديوان السري ٣٩ .

واجب . من : أنعم وأحسن . بكفه : برده عنى . هبات : عطايا . توشح :
 تحزم وتزين ، وتوشح الرجل بثوبه : جعله موضع الوشاح وتحزم . فاق : فضل
 بهذا المجد كل أحد . باء : رجع . فكى : إنقاذى . وثاق : شد وربط . سجايا :
 طبائع . ترفد : تصل وتعين ، والرّفْد : المعونة : شائم برقه : راجى خيره ونازل
 أمره ، ونزل البرق منزلة الجود لأنه يأتى بالمطر والمطر يشبه به الجود : بمن :
 بإحسان وإنعام . أزلّى : قديم . أبدى : باق مع الأبد وهو الدهر .

وإذ قد فرغنا من شرح هذه الرسالة على صعوبتها ، فإننا نعتذر إلى من وقف
 على شرحنا لها من صعوبة هذا المقام ، فإن هذه الرسالة وأمثالها إنما يؤتى بها على
 جهة الملح والاعتذار ، لا على أنها من نفيس الكلام الفصيح ، ألا ترى الحريرى
 كيف اعتذر فى مثلها حيث قال : أجلّ الأبيات العرائس ، وإن لم يكن نفائس ؛
 ولا شك أن الشارح لمثل هذه الرسالة يقارب تعب منشئها فى أنه يغوص على
 تلك الاستعارات البعيدة ، فيريد أن يبرز المعنى فى غاية البيان ، واللفظ فى أغلبها
 موضوع على غاية الإبهام ، فوق التمانع ، فلا يصل إلى عبارة متوسطة تتعلق بالمعنى ،
 ولا تبعد من اللفظ إلا بعد جهد ، فهذا عذرنا فى هذه الرسالة الرقطاء والتهقرية
 والخيفاء المتقدمتين ، وما علمت أحداً شرحها شرحنا ولا بلغ منها مبالغنا ، والله
 منشئها من عالم بارع ! فما اتفق له إنشاؤها إلا بعد التبحر فى علوم اللغات حتى
 كأن أبا حفص بن برد يخاطبه بهذه الأبيات :

أهدى لك الودّ محضاً غير مقطوب	أبا العلاء استمع تعريض ذى مقه
فى العلم والظرف والآداب والطيب	أنت الذى لم نعاشر مثله رجلاً
وكُنْهُ علمك شىء غير محسوب	تحصيل فضلك للحساد معجزة
وعيت منها ولا أشياخ يعقوب	أما اللغات فما يعقوب يبلغ ما

* * *

قَالَ : فَلَمَّا اسْتَشَفَّ الْأَمِيرُ لَآلِيهَا ، وَلَمَحَ السَّرَّ الْمودَعِ
فِيهَا ، أَوْعَزَ فِي الْحَالِ بِقَضَاءِ دِينِي ، وَفَصَلَ بَيْنَ خَصْمِي وَبَيْنِي .
ثُمَّ اسْتَخْلَصَنِي لِمُكَائِرَتِهِ ، وَاخْتَصَنِي بِأَثَرَتِهِ . فَلَبِثْتُ بِضْعَ سِنِينَ
أَنْعَمَ فِي ضِيَاقِهِ ، وَأَرْتَعَ فِي رَيْفِ رَأْفَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا غَمَرَتْنِي مُوَاهِبُهُ ،
وَأَطَالَ ذَيْلِي ذَهَبُهُ . تَأَطَّفْتُ فِي الْإِزْتِحَالِ ، عَلَى مَا تَرَى مِنْ
حُسْنِ الْحَالِ .

قال : فَقُلْتُ لَهُ شُكْرًا لِمَنْ أَتَاكَ لَكَ لُقْيَانُ السَّمْحِ الْكَرِيمِ ،
وَأَنْقَذَكَ مِنْ ضَنْطَةِ الْغَرِيمِ . فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَعَادَةِ الْجَدِّ ،
وَالْخُلُوصِ مِنَ الْخَصْمِ الْأَلَدِّ . ثُمَّ قَالَ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ أَنْ
أُحْذِيكَ مِنَ الْعِطَاءِ ، أَمْ أَتِحَفَّكَ بِالرَّسَالَةِ الرَّقْطَاءِ . فَقُلْتُ : إِمْلَأْ
الرَّسَالَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ ، فَقَالَ : وَهُوَ وَحَقِّكَ أَخَفَّ عَلَى . فَإِنَّ نَحْلَةَ
مَا يَلِجُ فِي الْأَذَانِ ، أَهْوَنُ مِنْ نَحْلَةِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْدَانِ . ثُمَّ
كَأَنَّهُ أَنْفَ وَاسْتَحْيَا ، فَجَمَعَ لِي بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالْخُذْيَا ، فَفَزْتُ مِنْهُ
بِسَهْمَيْنِ ، وَفَصَلْتُ عَنْهُ بِعُنْمَيْنِ ، وَأَبْتُ إِلَى وَطْئِي قَرِيرَ الْعَيْنِ ، بِمَا
حَزَتْ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْعَيْنِ .

قوله : استشف ، نظر . لآليها : جواهر كلامها . لمح : رأى . المودع :
المضمّن الجعول ، وعنى بالسّرّ ما ذكر من النقط لحرف والترك لآخر . أوعز : تقدم .
فصل : قطع . استخلصني : ضمني وأنقذني منه . مكائرتي : لزيادته عدده ، يريد
أن الأمير خلّصه من غريمه وضمه إليه ، وجعله فيمن حواليه فكثروا به . اختصني
بأثرته : أفردني بعطيته ، وآثرني بها على غيره . لبثت : أمت .
بضع سنين : قال أبو عبيدة رحمه الله : البضع من واحد إلى أربعة ، وقال

الأخفش: من واحد إلى عشرة، وقال الفراء: مادون العشرة، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: البضع من الثلاثة إلى عشرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر لما نزلت ﴿فِي بَضْعِ سَنِينَ﴾: البضع ما بين السبع والتسع، قال ابن سلام: فلما انقضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس. وقال أبو محمد في الدرة: البضع أكثر ما يستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر، وأسرت ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ في بضع سنين، وذلك أن المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب والمشركون يميلون إلى أهل فارس، لأنهم أهل أوثان، فلما بشر الله المسلمين بأن الروم سيفعلون سرّ المسلمون. ثم إن أبا بكر رضى الله عنه أخبر مشركي قريش بما نزل عليهم، فقال له أمية بن خلف: خاطرنى على ذلك، فخطره على خمس قلائص في مدة ثلاث سنين، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن البضع، فقال: ما بين الثلاثة إلى العشرة، فأخبره بخطاره مع ابن خلف، فقال له: ما حملك على تقريب المدة؟ قال: الثقة بالله ورسوله، فقال له: عد إليهم فردهم في الخطر، وازدد في الأجل، فزادهم قلوبين وزادوه سنين، فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثاني تصديقاً لتقدير أبى بكر رضى الله عنه. ويقال: البضع بغير هاء للمؤنث مثل خمس وبضعة للمذكر مثل خمسة.

أرتع: آكل وأتعم، والريف: الخصب، والرأفة: الرفق. غمرتني مواهبه: غطتني عطاياه، وأراد بإطالة ذيله كثرة ماله حتى صار منه فضول، وصار يجرد ذيله تبخيراً. تلطف: تسلت برفق. أتاح: قدر. لقيان: لقاء. الضفطة: التضييق، وضفطه: ضيق عليه. الجدد: الحظ والسعد. الألد: الشديد الخصومة. أحذيك: أعطيك. أتحفك: أهديك. وإملاء الرسالة: إلغاؤها عليه ليكتبها. نحلة: عطية. يلج: يدخل. الأردن: الأكام. أنف: كبر ذلك عليه واستنكفه. والحذيا: العطية فصلت: زلت. أبت: رجعت: قرير العين: مسرورا بالفائدة. حزت: جمعت، وصار في حوزي، أى في ملكي. والعين: الذهب الأحمر.

المقامة السابعة والعشرون وهي الوبرية

حكى الحارث بن همام، قال: ملئت في ريق زمان الذي غبر،
إلى مجاورة أهل الوبر؛ لأخذ أخذ نفوسهم الآية، وألستهم
العربية، فشمرت تسمير من لا يالو جهداً، وجملت أضرب
في الأرض غوراً ونجداً؛ إلى أن اقتنيت هجمة من الراعية
وثلة من الثاغية، ثم أويت إلى عرب أرداف أقيال، وأبناء
أقوال، فأوطنوني أمتع جناب، وفلوا عني حد كل ناب،
فما تأوئني عندهم هم، ولا قرع صفاتي منهم.

...

غبر، تقدم. أهل الوبر: أصحاب البوادي: الذين ملهم الإبل، وكفى بالوبر
عنها. الآية: العزيرة التي تأبى الذل. يالو جهداً: يقصر في الاجتهاد. أضرب:
أمشى في الأرض. وغوراً ونجداً: مرتفعاً ومنخفضاً. اقتنيت: اكتسبت
لنفسى لا للبيع.

وشرح الحريري ألفاظاً في المقامة فنقتصر فيها على شرحه إلا بقدر ما يزيد
الكلام بياناً، مثل قوله: أخذ أخذ نفوسهم، أي أتخلق بأخلاقهم وطباعهم،
ويقال: لو كنت مثلنا لأخذت ياخذنا، بكسر الهمزة وفتحها، أي بخلاقتنا وشكلنا،
واستعمل فلان على الشام وما أخذ أخذه، أي وما والاه وكان حيزه. وقوله: إرداف
أقيال؛ يفسر القيل بالملك وبردف الملك، وقيل: القيل بالمشرك كالقائد

بالأندلس والرّدافة في الجاهلية كالوزارة في الإسلام ، والرّدافة : بأن يرتد مع الملك على مركوبه ، وأن يستخلفه في موضعه متى غزا . أويت : رجعت واتخذته مأوى . أوطنوني : أنزلوني . جناب : جانب . قلوا : كسروا . ناب : ضرس . تأوّبني : أتاني ليلاً ولا قرع صفائي سهم ، أي لم ينالني ضرر .

* * *

إلى أن أضلّت في لَيْلَةٍ مُنِيرَةٍ البذر ، لِقَحَّةٍ غَزِيرَةِ الدّرّ ؛ فلمْ أَطِبْ نَفْسًا بِالْغَاءِ طَلَبًا ، وَلِقَاءِ حَبِلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ؛ فتدثّرتُ فَرَسًا مَخْضَرًا ، واعتقلتُ لَذًا خَطَّارًا ، وَسَرَيْتُ لَيْلَتِي جَمْعَاءَ ، أَجُوبُ الْبَيْدَاءِ ، وأقترى كُلَّ شَجَرَاءٍ وَمَرْدَاءَ ، إِلَى أَنْ نَشَرَ الصَّبِيحُ رَايَاتِهِ ، وَحَيَّعَ الدَّائِي إِلَى صَلَاتِهِ ، فَنَزْتُ عَنْ مَتْنِ الرُّكُوبَةِ ، لأداء المكتوبة . ثم حُلْتُ فِي صَهْوَتِهَا ، وفردتُ عَنْ شَحْوَتِهَا ، وَسِرْتُ لَا أَرَى أَنْرًا إِلَّا قَفْوَتُهُ ، وَلَا نَشْرًا إِلَّا عُلُوَّتُهُ ، وَلَا وَاِدِيًا إِلَّا جَزَعَتُهُ ، وَلَا رَاكِبًا إِلَّا اسْتَطْلَعَتُهُ ، وَجَدْتُ مَعَ ذَلِكَ يَذْهَبُ هَدْرًا ، وَلَا يَجْدُ وَرْدُهُ صَدْرًا ، إِلَى أَنْ حَانَتْ صَكَّةُ عُمَى ، وَلَفَحَ هَجِيرٌ يُذْهِلُ غَيْلَانَ عَنْ مَى .

أضلت: أتلفت ، وضلت الناقة وأضلّها ربّها . منيرة : مضيئة . اللقحة : الناقة لها لبن . غزيرة الدّرّ : كثيرة اللبن . إلقاء : ترك . غاربها : أعلى سفاهها . اللدن : الرمح اللين . الخطار : الطويل المضطرب . واعتقلت الرمح : جعلته ما بين مرجك ورجلك . أجوب البيداء : أقطع القفر . وفسر « حيعل » بأنه قول المؤذن: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، وشاهده :

أَلَا رَبَّ طَيْفٍ بَاتَ مِنْكَ مَعَانِي إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِيَ الصَّلَاةِ فَخِيَلَا
وقال آخر :

أَقُولُ لَهَا وَدَمَعَ الْعَيْنَ جَارِ أَلَمْ تَحْزَنْكَ حَيْعَلَةُ الْمَنَادِي
ومعنى حتى ، هَلَمْ وَأَقْبَلْ ، والفلاح : الفوز ، وأفلح الرجل ، إذا فاز وأصاب
خيرا ، والمفلحون : الفائزون ، وقيل : الفلاح البقاء ، أى أقبلوا على بيت البقاء فى الجنة .
والمفلحون : الباقون . والصلاة : المعلومة ، والصلاة : الرحمة كقوله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « اللَّهُمَّ صَلِّ
عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » ، والصلاة بمعنى الدعاء كالصلاة على الميت ، وكقوله صلى الله
عليه وسلم : « إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ فَلْيَجِبْ فَإِنْ كَانَ مَغْطَرًا فَلْيَأْكُلْ وَمَنْ
كَانَ صَائِمًا فَلْيَصِلْ » . أداء : قضاء . حُلَّتْ فى صَهْوَتِهَا : رَكِبَتْ ظَهْرَهَا وَوَثَبَتْ
عَلَيْهَا . فَرَرَتْ : كَشَفَتْ . قَفْوَتُهُ : اتَّبَعْتُهُ . نَشَزَا : مَرْتَفَعَا . اسْطَلَعَتْ : اسْتَخْرَتْهُ
وَسَأَلَتْهُ . جِدَى : عَزَمَى وَاجْتَهَادَى . هَدَرَا : بَاطَلَا . وَرَدُّهُ صَدْرًا ، أَى سَوَّالُهُ
خَيْرًا ، وَالْوَرْدُ إِنْيَانِ الْمَاءِ ، وَالصَّدْرُ : الرَّجُوعُ عَنْهُ . لَفَحَ : تَحَرَّكَ . هَجِير : حَرٌّ .
يَذْهَلُ : يَشْغَلُ .

[أَخْبَارُ ذِي الرُّمَّةِ مَعَ مَيَّ]

غِيلَانُ اسْمُ ذِي الرُّمَّةِ ، وَهُوَ غَيْلَانُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ بِيَهْسَ بْنِ مَسْعُودَ بْنِ حَارِثَةَ ،
عَدَاةُ فِي الرَّبَابِ ، وَالرَّبَابُ : عَدَى بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ وَتَيْمٌ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ وَعُكْلٌ ، وَهُوَ
عُوفُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ ، وَثُورُ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ ، وَضَبَةُ بْنُ أَدُوهُوَ عَمَّهُمْ ، وَأَدُ بْنُ طَابِخَةَ
ابْنِ الْيَاسِ بْنِ مُضَرَ ، وَسَمِيَ ذَا الرُّمَّةِ ، لِقَوْلِهِ يَصِفُ وَتَدَا :

وغير مرضوخ القفا موتود أشعث باقي رُمّة التقليد^(١)
نعم فأنت اليوم كالعمود^(٢) من الهوى أو شبه المورود

(١) ديوانه ١٥٥ . مرضوخ القفا : مَدْقُوقٌ ، يَعْنَى الْوَتْدُ . وَالرُّمَّةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْحَبْلِ .

(٢) الديوان : « كَالْعَمُودِ » ، قَالَ فِي شَرْحِهِ : الْعَمُودُ مَا انْضَمَّتْ عَلَيْهِ الصُّلُوعُ .

بمى ذات الميسم المبرود^(١) والملتين وبياض الجيد
وقيل: سُمي به لأنه خشي عليه من المس، فأتى به رجل من الحى فكتب له
معاذة علقت في عنقه، وشُدَّت بحبل. وقيل: سمته بذلك خرقاء التي يذكرها في
شعره، وذلك أنه رآها وهي في جوارٍ على سنّها فأعجبته وأدام الالتفات إليها،
ثم قال لها: يا جارية أخرجى لي هذه القربة. فعلت مراده، فقالت له: إني خرقاء،
فوّلّي وفي يده قطعة حبل بالرفف فنادته: يا ذا الرّمة إن كنتُ خرقاء، فجاري صناع،
فأذهب إليها، فمضى عليه ذو الرمة، وسمّاها في شعره خرقاء، فمضت
عليها^(٢).

وهي مى بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، وتكنى أم ثور،
وغلبت عليه حتى عرف بها، فقيل غيلان مى كما قيل كثير عزة.

وأول أمره مع مى - فيما حكى الأصمعي عن أمة لأم مى - قالت^(٣): كنا
نازليين بأسافل الدّهناء ورهط ذى الرّمة بجاورون لنا، فجلست مية تفسل ثيابا لها
ولأمها، في يد رث فيه خروق، وهي فتاة أحسن من رأيت حين بدا ثديها،
فلما فرغت لبست ثيابها وجلست عند أمها، وأقبل ذو الرّمة يُنشد ضالة، فدخل
وجلس ساعة ثم خرج، فقالت مية: إني لأرى أن هذا العذرى قد رآني منكشفة
واطلع على من حيث لا أشعر، فإنّ بنى عذرة أخبث قوم في الأرض. فأذهبي

(١) في الديوان: «ياى ذات الميسم»

(٢) الخبر في الأغاني: «.. وكان اجتاز بخباثتها وهي جالسة جنب أمها فاستسقاها ماء،
فقالت لها أمها: قومي فاسقيه. وقيل بل خرق لإداته لما رآها وقال لها أخرجى لي هذه، فقالت:
والله ما أحسن ذلك فإني لخرقاء — قال: والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على
قومها — فقال لأمها: مريها أن تسقيني ماء، فقالت لها: قومي ياخرقاء، فاسقيه ماء، فقامت
فأتهت بهاء: وكانت على كتف عذرة، وهي قطعة من حبل، فقالت: اشرب يا ذا الرمة.. فقلب
بذلك. الأغاني ١٨: ١

(٣) الأغاني ١٨: ١

فَقَصَى أَثْرَهُ ، فَقَالَتْ : قَصَصْتُ أَثْرَهُ فَوَجَدْتَهُ قَدْ تَرَدَّدَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّةً ، كُلَّ ذَلِكَ يَدْنُو فَيَطْلَعُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُ عَلَى عَقْبِهِ ثُمَّ يَعُودُ فَأَخْبَرْتُهَا بِذَلِكَ ، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ أَنْ جَاءَنَا شَعْرُهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَمَكَانٍ .

وَحَدَّثَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ ثَقِيفٍ ^(١) أَنْ ذَا الرُّمَّةَ حَدَّثَهُ أَنْ أَوَّلَ أَمْرِهِ مَعَهَا أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ أَخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ فِي بَغَاءٍ لِإِبِلٍ لَهُمْ ، فَوَرَدُوا عَلَى مَاءٍ ، وَقَدْ جَهَدَهُمُ الْعَطَشُ . قَالَ : فَأَتَيْتُ خَبَاءَ عَظِيمًا أَسْتَسْقِي لَهَا مَاءً ؛ فَإِذَا عَجُوزٌ جَالِسَةٌ فِي رِوَاقِهِ ، فَالْتَفَتْتُ وَرَاءَهَا وَقَالَتْ : يَا مَيِّ ، اسْقِ الْغَلَامَ ، فَخَلْتُ عَلَيْهَا وَهِيَ تَنْسِجُ شُقَّةً ، فَقَالَتْ لِي : لَقَدْ كَلَّفَكَ أَهْلُكَ السَّفَرَ ، عَلَى مَا أَرَى مِنْ حَدَاثَةِ سَنِكَ ، ثُمَّ قَامَتْ تَصَبُّبِي رُكُوتِي مَاءٍ وَعَلَيْهَا شَوْذِبٌ ^(٢) ، فَلَمَّا احْتَضَتْ عَلَى الْقِرْبَةِ رَأَيْتُ مَرَأًى لَمْ أَرِ أَحْسَنَ مِنْهُ ، فَلَهَوْتُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَهِيَ تَصَبُّبُ الْمَاءَ فَيَذْهَبُ يَمِينًا وَشِمَالًا . فَقَالَتِ الْعَجُوزُ : يَا بَنِي أَهْلِكَ مَيِّ عَمَّا بَعَثَكَ لَهُ أَهْلُكَ ، أَمَا تَرَى الْمَاءَ يَذْهَبُ يَمِينًا وَشِمَالًا ؟ قُلْتُ : أَمَا وَاللَّهِ لِيَطُولَنَّ هَيَامِي بِهَا ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِالْمَاءِ أَخِي وَابْنَ عَمِّي فَلَفَفْتُ رَأْسِي ، وَانْتَبَذْتُ نَاحِيَةَ وَقُلْتُ :

قَدْ سَخِرَتْ أَخْتُ بَنِي لَبِيدٍ مَقَى وَمَنْ سَلَّمَ وَمَنْ وَلِيدٍ
رَأَتْ غَلَامِي سَفَرٌ بَعِيدٌ يَدْرَعَانِ اللَّيْلَ ذَا السَّدُودِ
* مِثْلُ أَدْرَاعِ الْيَلِيقِ الْحَدِيدِ * ^(٣)

وَهِيَ أَوَّلُ قَصِيدَةٍ ^(٤) قُلْتُ : ثُمَّ مَكَثْتُ أَهْمِيمَ بِهَا فِي دِيَارِهَا عَشْرِينَ سَنَةً .
وَأَمَّا ابْنُ ^(٥) قَتِيْبَةٍ فَقَالَ : مَكَثْتُ مَيِّ تَسْمَعُ شَعْرَ ذِي الرُّمَّةِ وَلَا تَرَاهُ ،

(١) الْأَغَانِي ١٨ : ١٨ (٢) الشَّوْذِبُ : الثَّوْبُ الطَّوِيلُ (٣) الْيَلِيقُ : الْمَاءُ

(٤) دِيَوَانُهُ ١٥٥ - ١٦٣ ، وَمُطْلَعُهَا :

هَلْ تَعْرِفُ الْمَنْزِلَ بِالْوَحِيدِ قَفْرًا مَحْجَاهُ أَجْدُ الْأَيْدِ

(٥) الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ ٥٠٩

فجعلت لله أن تنحر بدنه يوم تراه - وكانت من أجل الناس - فلما رأته دميما أسود صاحت : واسوءناه ! واضيعة بدنتاه ! فقال :

على وجه مَيّ مَسْحَةٍ من مَلَاَحَةٍ وتحت الثياب الشَّيْنُ لو كان باديا
فكشفت عن جسدها ، وقالت : أشينا ترى لا أمّ لك ! فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فقلت له : قد رأيت ما تحت الثياب ، فلم يبق إلّا أن أقول لك : هَلَمْ
فَدُقْ ما وراه ، فوالله لا ذقت ذلك أبدا^(١) . ثم صالح الأمر بينهما ، فعادا لما
كانا من حبّهما .

وهو شاعر مجيد مكثّر وصاف للأطلال والديار والصبر على قطع القفار .
أبو الفرج^(٢) : كان سليمان بن أبي شيخ ، رواية لشعر ذي الرثمة ، فأنشد
يوما قصيدة له وإعرابى من بنى عدى بسمعه فقال : أشهد أنك فقيه تحسن
ما تلوته ، وكان يحسبه قرآنا .

وكان أهل البادية يعجبهم شعره ، وكان جرير والفرزدق يحسدانه .
وقال حماد الراوية : ما أحرّ القوم ذكره إلا لخدائته سنه ، وأنهم حسدوه .
وقال أبو المطرف : لم يكن أحد منهم في زمانه أبلغ منه ، ولا أحسن جوابا ،
وكان كلامه أحسن من شعره .

وقال مولى لبني هاشم : رأيته بسوق المربد وقد عارضه رجل فقال :
يا أعرابى - يهزأ به - أتشهد بما لم تر ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ، قال : أن أباك
نأك أمك .

(١) في خبر الأغاني ١٨ : ٢٨ فقال :

فياضيعة الشعر الذى لجّ فاقضى بمى ولم أملك ضلال فؤاديا

(٢) الأغاني ١٨ : ٧ .

الأصمعيّ ما أعلم أحداً من العشاق شكاً أحسن من شكوى ذى الرّمة،
مع عفة وعقل .

أبو عبيدة: يخبر ذو الرّمة فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه فيحسن الردّ، ثم
يمتدّر فيحسن التخلص، مع حسن إنصاف في الحكم وعفاف .

وقال ذو الرّمة: من ^(١) شعري ما ساعدني فيه القول، ومنه ما أجهدت نفسي
فيه . ومنه ما جنت فيه جنونا، فأما الذي طأوعني فيه القول فقولى :

خِلِي عَوْجًا فِي صُدُورِ الرُّوَاهِلِ بِجَمْهُورِ حُزْوِي فَابْكِمَا فِي الْمَنَازِلِ ^(٢)
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يَعْقِبَ رَاحَةَ مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجَى الْبِلَابِلِ
وَأَمَّا مَا أَجْهَدْتُ نَفْسِي فِيهِ فَقُولِي :

أَنْ تَوَسَّمتَ مِنْ خِرْقَاءِ مَنْزِلَةٍ مَا هِىَ الصَّبَابَةُ مِنْ عَيْنِيكَ مَسْجُومٌ ^(٣)
كَأَنَّهَا بَعْدَ أَحْوَالِ مَضِينٍ لَهَا بِالْأَشِيمِينَ يَمَانٍ فِيهِ تَسْهِيمٌ
وَأَمَّا الَّذِي جَنَنْتَ فِيهِ جَنُونًا فَقُولِي :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ مَرْبٌ ^(٤)
بِرَاقَةِ الْجِيدِ وَاللَّبَاتِ وَاضِحَةٌ كَأَنَّهَا ظَلِيمَةٌ أَفْضَى بِهَا لَبٌ ^(٥)
زَيْنُ الثِّيَابِ وَإِنْ أَثْوَابُهَا اسْتَلِمَتْ فَوْقَ الْحَشِيَّةِ يَوْمًا زَانَهَا السُّلْبُ
إِذَا أَخُو لَذَّةِ الدُّنْيَا تَبَطَّنَهَا وَالْبَيْتُ فَوْقَهَا بِالسَّتْرِ مُحْتَجِبُ
سَاقَتْ بِطَيِّبَةِ الْعَرْنَيْنِ مَارُهَا بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ مَخْتَضِبُ
لِمَاءٍ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ كَعَسٍ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ
كَلَاءٍ فِي بَرَجٍ ، بِيضَاءٍ فِي دَعَجٍ كَأَنَّهَا فَضَّةٌ قَدْ زَانَهَا ذَهَبُ
وهذه القصيدة من المطولات التي نَبِّهَتْ عَلَى الْمَائَةِ وَرَبْعِهَا ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا

(١) الأغاني ١٨ : ٢٢ (٢) ديوانه ٤٩١ . والجمهور : العظيم من الرمل

(٣) ديوانه ٦٧ . والأشيمان جبلان من جبال الرمل

(٤) ديوانه ١ (٥) اللب: منقطع الرمل .

ماشاء من أوصاف الأطلال والديار والثور والحار والكلاب والظبي وغير ذلك ، وفي خلال ذلك يأتي بتشبيهات بديعات . وهو أشعر الشعراء الإسلاميين في التشبيه ، وكان يقول : إذا قلت « كَأَنَّ » فلم أجد نخرجا قطع الله لساني .

واحتذى في ذلك حذوه من المولدين ابن المعتز ، وقصده الحريري في هذا الموضع لمعنيين : أحدهما لأنه كان صادقاً في حب مية فكان لا يشغله عنها شيء ، لا مثل كثير عزة وغيره ممن لا يصدق في حبه ، والثاني أنه يكثر في شعره صبره على قطع الهواجر لمية مثل قوله :

وهاجرة من دون مية لم تقل قلو صي بها والجنذب الجون يرَمَحُ^(١)
إذا جعل الحرباء مما أصابه من الحر يلوى رأسه ويرنح
لئن كانت الدنيا على كما أرى تباريح من مية فلموت أروح
ولما شكوت الحب كيما تنيفي بودي قالت إنما أنت تمرح
فذكر الحريري أن هذه الهاجرة شغلته عن ذكر مية حتى طلب ظلاً يلوذ به

* * *

وكان يوماً أطول من ظل القناة ، وأحرّ من دمع المقلات
فأيقنت أنني إن لم أستكن من الوقدة ، وأستحم بالرقدة ، وأذ نفى
الغوب ، وعلقت بي شعوب . فمجت إلى سرحة كشيعة الأغصان ،
وريقة الأفنان ، لأغور تحتها إلى المغيربان ؛ فوالله ما استروح
نفسى ، ولا استراح نفسي ؛ حتى نظرت إلى سائح ، في هيئة
سائح ؛ وهو يذبح نجعتى ، ويشد إلى بقعتى ، فكرهت
انعياجه إلى معاجي ؛ فاستعدت بالله من شر كل مفاجي . ثم

(١) ديوانه ٨٦ . لم تقل ، من القيلولة والفلوس : الناقه الفتية . والجون : الأبيض أو الأسود ، من الأضداد . برمح : يضرب الأرض برجله من شدة الحر .

تَرْجَيْتُ أَنْ يَتَصَدَّقَ مُنْشِدًا ، أَوْ يَتَبَدَّئَ مُرْشِدًا . فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ
سَرَحَتِي ، وَكَادَ يُحِلُّ بِسَاحَتِي ، أَلْفَيْتُهُ شَيْخَنَا السَّرُوجِيَّ ، مُتَشَجِّعًا
بِجَرَابِهِ ، وَمُضْطَعِّنًا أَهْبَةَ تَجْوَابِهِ ، فَأَنْسَى إِذْ وَرَدَ ، وَأَنْسَانِي مَاشِرَدَ ،
ثُمَّ اسْتَوْضَحْتُهُ مِنْ أَيْنَ أَثَرُهُ ، وَكَيْفَ عَجَرُهُ وَبَجَرُهُ .

* * *

أَسْتَكَنَ : أَسْتَرْتُ وَأَطْلَبُ كِنًى . الْوَقْدَةُ : شِدَّةُ الْحَرِّ . أَسْتَجِمُّ : أَسْتَرِيحُ
فَأَتَقَوَّى . أَذْنَفِي : أَمْرَضَنِي . اللَّغُوبُ : التَّعَبُ .

وذكر طول اليوم وأنشد عليه في الشرح : « ويوم كظل الرمح ... » ، وذكر
أن اليوم القصير يوصف بإيهام القطاة ، ولم ينشده عليه شيئاً . وقال جرير :

ويومٍ كإيهام القطاة محببٍ إلى صباه غالبٍ لي باطله^(١)
رزقنا به الصنيد الغزير فلم يكن كمن نبله محرومةً وحباؤه
وذلك يومٌ خيرُهُ قبل شرِّهِ تغيّب واشيه وأقصر عاذله

قال الأصمعي : قال لي خلف الأحمر : ويحه فما ينفعه حين يثول إلى الشرِّ !
قلت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : خيرهُ دون شرِّهِ ، قلت : والله لا أرويه
بعدها إلا هكذا .

عُجْتُ : مِلْتُ . مَرَّحَةٌ : شَجَرَةٌ . كَثِيفَةٌ : مَلْتَفَةٌ الْأَغْصَانِ . وَرِيقَةٌ : كَثِيرَةٌ
الْوَرَقِ . وَالْأَفْئَانُ : الْأَغْصَانُ ، أَوْ مَا تَقَرَّعَ مِنْهَا . وَمَا أَحْسَنَ مَا نَظُمَ فِي الْفَرَارِ
مَنْ الْحَرِّ إِلَى الظِّلِّ الْمَنَازِي كَاتِبِ مِرْوَانَ صَاحِبِ مِيَا فَارْقِينَ حِينَ قَالَ :

وَقَانَا وَقْدَةَ الرَّمْضَاءِ رَوْضٌ سَقَاهُ مَضَاعِفُ الظَّلِّ^(٣) الْعَمِيمِ

(١) ديوانه : ٤٧٩ ، مع اختلاف في الرواية . (٢) نفع الطيب ٤ : ٢٨٨ .

(٣) نفع الطيب : الفيت .

(٢٠ شرح مقامات الحريري ج ٣)

قصدا دَوْحُهُ فحنا علينا حُنُوُّ الوالداتِ على الفطيمِ
يراعى الشمس أنى قابلتنا فيحجبها ويأذنُ للنسيمِ
وهذا ما يتعلق بالفرض ، وزاد فيه معنى بديعا بقوله :

ويستقينا على ظلمٍ زلالاً^(٢) ألدَّ من اللدام مع الكريمِ^(٢)
يرُوع حصاه حالية الغواني فتلمس جانب العقد النظيمِ
تأمل هذه الصفة تجدها غاية في بابها ، وتخيّل هذه الجارية كيف نظرت
بياض الحصى في الماء ، فارتاعت وحسبت عقدها تناثر ، فالتسته بيدها .
وقال الهـ بى فأحسن :

أدرها ففقد اللوم إحدى الغنائم ولا تخش إثمًا لست فيها بأثم^(١)
ولا عيش إلا في اعتصامٍ بقهوة يروح القتي منها خضيب الماعصم
ولا ظل إلا ظل كرمٍ معرّش تغنيك من قطريه وُزقُ الحائمِ
سما غصونٍ تحجب الشمس أن ترى على الأرض إلا مثل نثر الدّراهم

وقال ابن بُلال في متنزه بشرّيش يسمى أجانة :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدت أيا حبيبًا أو زمان ربيع أو زمان عصير^(٢)
مذاب ماء كاللجين على حصي كدر بلا ثقب أغرّ ثير
ورمل إذا ما ابتل بالماء عطفه غنينا به عن عنبر وذرور
وتين كما قامت على حلماها نهود عذارى الزنج فوق صدور
كان القباب الخرز فيها عرائس على سررٍ مفروشة بحرير
وله أيضًا عفا الله تعالى عنه :

كان جنى القوطى في روث الضحى وقد حملته راحة الورقات

(٢) النفج : من الدامة للديم .

(١) ديوانه ٢٤٢ ، ٢٤٣

نهود عذارى زُحزحت عن مقرّها فقامت على الأطراف والحلمات
 قوله : استروح نفسى ، أى استنشقت الريح فتنفست فيه من التعب ، أى
 ما سكنت عني أنفاس التعب ، واستروحت الشيء ، وجدت ريحه . سأمح : عابر
 يسبح فى الأرض ، أى يمشى فى جهاتها ، ويقال للمكدى : سأمح ، لأنه يسبح فى
 طلب الكدية . ينتجع نجمتى ، أى يقصد قصدى فى طلب الراحة . والانتجاع :
 طلب المرعى . يشتدّ : يجرى . بُقعتى : موضعى . انعياجه : انعطافه . معاجى :
 مكافئ الذى عجت إليه . مقاجى : آت على غفلة . يتصدّى : يتعرض . منشدا :
 دالاً على الشيء . تقول : نشدت الضالة : طلبتها ، وأنشدتها : دلت عليها طالبتها .
 مرشدا : هادياً للطريق . ساحتى : موضعى الذى أنا فيه . ألقيته : وجدته . متشعّحاً
 بجوابه ، أى جعل جوابه موضع الوشاح . أهبة تجوابه ، أى عدة جَوْلانه . ورد :
 وصل . ماشرّد : ما نفر ، يعنى الضالة . استوضحته : سألته أن يوضح لى أمره .

* * *

فأنشد بديها ، ولم يقل إيهيا :

قُلْ لِمُسْتَطْلَعٍ دَخِيلَةٍ أَمْرِي لَكَ عِنْدِي كَرَامَةٌ وَعَزَاةٌ
 أنا ما بين جوبِ أرضٍ فَأَرْضِ
 وَسُرِّي فِي مَفَاازٍ فَمَفَاةٌ
 زَادِي الصَّيْدُ وَالْمَطِيَّةُ نَعْلِي وَجَهَازِي الْجَرَابُ وَالْمَكَاةُ
 فَإِذَا مَا هَبَطْتُ مَصْرًا فَيَنْتَبِي غُرْفَةُ الْخَانِ وَالنَّدِيمُ جُزَاةُ
 لَيْسَ لِي مَا أَسَاءُ إِنْ فَاتَ أَوْ أَحْزَ
 نٌ إِنْ حَاوَلَ الزَّمَانُ ابْتِزَاةُ

غير أني أبيتُ خلوا من الهمِّ ونفسي عن الأسى مُنحازة
أرقدُ اللَّيْلَ ملء جفني وقلبي باردٌ من حرارةٍ وحرارة
لا أبالي من أيِّ كأسٍ تفوقتُ ولا ما حلاوةٍ من مزازة
لا ولا أستجيزُ أن أجعل الذلَّ مجازاً إلى تسنى إجازة
وإذا مطلبٌ كسا حلة العا ر فبعداً لمن يرومُ نجازة
ومتى اهتزَّ للهذأةِ نكسٌ عاف طبعي طباعه واهتزَّ آزة
فلما نيا ولا الدنيا وخيرُ
من ركوبِ الخنا ركوبُ الجنازة

بديها : مرتجلا من غير فكرة . المستطلع : الذي يجب أن يطلع على الأمر
دخيلة أمرى : باطنه . عزازة : عزة ورفعة . جوب : قطع . سرى : مشى الليل .
مفازة ، قال الأصمعي : هي المهلكة سميت بذلك تفاولا لسالكها بالفوز ، كما
سمى اللديغ سليما تفاولا بالسلامة ، قال ابن الأعرابي : هي مأخوذة من فوز الرجل ،
إذا هلك ، والعرب تسمى الفعل مطية مجازاً حيث يستعان بها على قطع للمفازة .
وأنشد أبو علي الفارسي رحمه الله :

رواحِلُنَا سَتْ ونحن ثلاثة نجتنبهن الماء في كلِّ مَشْرَبٍ^(١)
وقال أبو نواس :

إليك أبا العباس ياخيرَ مَنْ مشى عليها امتطينا الحضرمي الملسنا^(٢)
قلائصَ لم تعرف حنيناً إلى طَلَا ولم تدْرِ ماقرع الفنيق ولا الهفا^(٣)

(١) شرح العكبري ١ : ٣٠٣ من غير نسبة . وفيه : « من غير منهل » .

(٢) ديوانه ٧٦ ، شرح العكبري ١ : ٣٠١ . (٣) الهنا : القطران .

وأخذه أبو الطيب فقال :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرّهان أجهدّها^(١)
شراكها كورها ومشفّرها زمامها والشّسوع مِقْوَدُها
أشدّ عصف الرياح يسبقه تحيّي من خطوها تأيّدّها
وكان السّروجي أكثر عدّة من أبي الشّمقمق^(٢) في قوله :

كلّما كنتُ في جموع فقالوا قربوا للرّحيل قرّبتُ نعل^(٣)
أترى أنّني من الدهر يوماً لي فيه مطية غير رجلي
حيثما كنتُ لا أخلف رجلاً من رآني قد رآني ورحلي

ومن أبيات المعاني في نمل :

وسوداء المناسب يمتطيها أخو الحاجات ليس له نكير
فيحملها وتحمله وفيها منافع حيث يبتدر السّفير
على أن السّفار ينال منها فيرقعها إذا جدّ المسير

السفير : ورق الشجر ، والمِسْفَرَة المسكفة . والجهاز : ما يحتاج إليه المسافر من العدة . والعُكّازة : العصا . مصر : بلدا . الخان : الفندق . والتّديم : الصّاحب على الشّراب ، وجُرّازة ، قيل : إنه خليع مشهور عندهم ، وهذا لا يبعد . وأخبرني الأستاذ أبو ذرّ وغيره أنها القراطيس الصّغار ، يكتب للناس فيها صفة حاله فيستجديهم بها ، فيريد أن نديمه إذا دخل بلدة قطع من قرطاس يجرّها ورقة كبيرة ، يكتب فيها بما يجلب تمّا يؤكل ويشرب ، والجُرّازة : ما يسقط من الشّيء تجرّه ، كالقصاصة ما يسقط مما يُقصّ ، والتّحانة والقلامة وغير ذلك ، فلما كانت القطعة الصغيرة تسقط من الورقة سمّوها جُرّازة ، ثم اشتهر عندهم ما صغر

(٢) اسمه سروان بن محمد .

(١) ديوانه ١ : ٣٠١

(٣) كتاب شعراء ماسيون ٣٥ ، والمقدّم ٣ : ٤٤ / ٤ : ٢٥٥ .

من القراطيس بهذا الاسم . قال الفنجديهي : جزازة ، أى قطعة كاغد عليها شيء مكتوب ، والجزازة : ما يقطع من الشيء . قال : وأنشد بعضهم :

وقالوا كيف حالك قلتُ حالِي تُقضى حاجتي وتفوت حاجِي
نديمي مرَّتِي وسميدُ أنسِي دفاتيري ومعشوقِي سراجِي
أساء : أصاب فيه بسوء ، وأحزن عليه . حاول : طلب . ابتزازة : تجريده وإزالته . خلو : فارغ البال الأسى : الحزن . منحازة : متنجية ومنعزلة ومنقبضة . وانعاز : انعزل . ملء جفني : أى أرقد هنيئاً لقله هي ، فتمتلئ عيني بالنوم ، وهو من قول المتنبي :

* أنا مِلءُ جُفُونِي عن شوارِدِها^(١) *

والحزازة فى القلب : تأثير الهم كأنه يحز فيه ، أى يقطع . وقال الشاعر :
إذا كان أولاد الرجال حزازةً فأنتَ الحلالُ الحلو والبارد المذب
والحزازة هنا : الولد السوء ، ولا شيء أنكى للقلب من همّه ، والحزازة أيضاً الحقد والفيظ ، وفى قلبى منه حزازة ، أى حرقه وحزن . تفوت ، أى شربت فوقها ، وهو أخذها ما فيها شيئاً فشيئاً ، وما بين عتبة وعتبة فواق ؛ وأصله ما بين حلبة من الضرع وحلبة . مزازة : بين الحموضة والحلاوة . مجازاً : طريقاً يجاز عليه . تسنى : تيسر . إجازة : عطية وصلة . يروم : يطلب . مجازة : قضاءه وتماه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

أشدُّ من عَمِلَةٍ وجُوع إغضاه حرٌّ على الخشوع
فدفع من الدهر قوتَ يوم وأنتَ بالمنزل الرفيع
ولاً ترد ثروة بمال يُنال بالذل والخشوع

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٧ ، وبقيته .

* وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ *

وارْحَلْ إِذَا أَجْدَبْتَ بِلَادَ مِنْهَا إِلَى الْخِصْبِ وَالرَّيْعِ
الدَّاءُ : الفعل القبيح . نَكَسَ : دنى . عَافَ : كَرِهَ . اهْتَزَّاهُ : طَرَبَهُ وَخَفَّتَهُ .
ولبعضهم في هذا المعنى :

ويجتنب اللبيبُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلابُ يَلْفَنَ فيه
كما سقط الذباب على طعامٍ ففتركه ونفُسك تشبهه

وقال أبو محمد المصري يخاطب المعتمد وقد فرّ منه :

رحلتُ وفي القلبِ بَجْرُ النَّصَى وهجرى لكم دُونُ شِكِّ صَوَابُ
كما تهجرُ النفسُ حُرَّ الطَّعَامِ إذا ما تساقط فيه الذبابُ

المنابا ولا الدنيا ، أى إتيان النية ولا فعل الدنية ، قال أوس بن حارثة :
مَلَكَ المَنِيَّةُ ولا الدنية ، فى وصية طويلة ، والمنية معناها المقدورة المحكوم بها ،
وهى مفعولة من المَنَى وهو المقدَّر والقَدَر ، يقال : مَنَّاكَ اللهُ بما يسرك ، وأصلها
ممنوعة فصرُفت مفعولة فمفعلة ، كمطبوخ وطبيخ ، وأدغمت الياء فى الياء . الخنا :
الفساد . الجنازة : النعش .

* * *

ثُمَّ رَفَعَ إِلَى طَرَفِهِ ، وَقَالَ : لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرُ أَنْفِهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ
خَبْرَ نَاقَتِي السَّارِحَةِ ، وَمَا عَانَيْتُهُ فِي يَوْجِي وَالْبَارِحَةِ ، فَقَالَ : دَعِ
الْاَلْتَفَاتِ ، إِلَى مَا فَاتَ ، وَالطَّمَّاحِ إِلَى مَا طَاحَ ، وَلَا تَأْسَ عَلَى مَا ذَهَبَ ،
وَلَوْ أَنَّهُ وَاذِمٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا تَسْتَمِلْ مَنْ مَالَ عَنْ رِيحِكَ ،
وَأَضْرَمَ نَارَ تَبَارِيحِكَ ، وَلَوْ كَانَ ابْنُ بُوحِكَ ، أَوْ شَقِيقَ رُوحِكَ ،
ثُمَّ قَالَ : هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَقِيلَ ، وَتَتَحَايَى الْقَالَ وَالْقِيلَ ؟ فَإِنَّ

الأبدان أنضاء تعب ، والهاجرة ذات لهب ، ولن يصقل الخاطر ،
وينشط الفاتر ، كقائلة الهواجر ، وخصوصاً في شهرى ناجر ، فقلت :
ذاك إليك ، وما أريد أن أشق عليك ، فافتش الترب واضطجع ،
وأظهر أن قد هجع ، وارتفعت على أن أحرس ، ولا أنعس ، فأخذتني
السنة ؛ إذ زمت الألسنة ، فلم أفق إلا والليل قد تولى ، والصبح قد
تبلى ، ولا السروجي ولا المسرج .

* * *

قوله : «لأمر ما جدع قصير أنه» أى ماجدع قصير أنه إلا المعنى ، وكذلك
أنت ما خرجت في هذا الوقت لشدة حره إلى هذه القفار الخوفة إلا المعنى ، فأخبرتني
به ، فلذلك قال : «فأخبرته خبر ناقتي» ، وأيضاً فإن أول الكلام يدل عليه ، لأنه
قال : فاستوضحته من أين أثره ، فأخبره السروجي في الشعر بقصته ، فلما أكملها
سأل ابن همام عن قصته ، فأخبره بالناقة الضائعة . والسارحة : التي سرحت ، أى
مشت حيث شاءت . عاينته : شاهدهته ورأيت . الالتفات : النظر إلى جهة .
والطاح : ارتفاع العين بالنظر وطاح : ذهب وتلف . لا تأس : لا تعزن .
ولا تستمل : تستدع حبه وأن يميل إليك بوجه . مال : انحرف . عن ريحك :
عن طريقك وهواك . أضرم : أوقد . تباريحك : أحزانك . ثقيل : تنام في
القا : تتعامى : تتباعد عنها . أنضاء : جمع نضو وهو المهزول ، أى قد أهزل
التعب أبداننا . الهاجرة : القائلة سُميت هاجرة لأنها تهجر البرد ، أو لأنها
أكثر حرّاً من سائر النهار ، يقال : فلان أهجر من فلان ، إذا كان أضخم منه .
لهب : نار .

وشهرى ناجر : يونيه ويولييه ، وهما أشد الحر . قال الأزهرى : هما حيران

وتموز، النجران: الفطشان. ابن سيده: ظن قوم أنها حَزيران وتموز، وهذا غلط، وإنما هما وقت طلوع نجمين من نجوم القيظ.

الليث: كل شهر في صميم الحر فاسمه ناجر، لأن الإبل تنجر فيه، أي تشتد عطشاً حتى تبيس جلودها، فلا تكاد تروى من الماء.

هجم: رقد. وارتفعت: توكت على مرفقي. السنة: النوم القليل. زمت: ربطت ومنعت. فأولج: دخل. تبلج: أضاء وظهر. المسرج: الفرس عليه سرجه.

فبت بَلِيلَةَ نَابِغِيَّةَ، وأحزبانِ يَعْقُوبِيَّةَ، أساورِ الوجوم،
وأساهرِ النجوم، أفكرُّ تارَةً في رُجَلَتِي، وأخرى في رَجْعَتِي،
إلى أن وَضَحَ لي عِنْدَ افْتِرَارِ نَغْرِ الضَّوءِ في وَجْهِ الجَوِّ، رَاكِبٌ
يَخْدُ في الدَّوِّ، فألمعتُ إِلَيْهِ بِشَوْبِي، وَرَجَوْتُ أَنْ يُعَرِّجَ إلى صَوْبِي،
فَلَمْ يَغْبَأْ بِالْمَاعِي، وَلَا أَوَى لِالْتِيَاعِي، بَلْ سَارَ على هِينَتِهِ، وَأَصْمَانِي
بِسَهْمِ إِهَانَتِهِ، فَأَوْفَضْتُ إِلَيْهِ لِأَسْتَرْدِفَهُ، وَأَخْتَمِلَ تَغَطُّرُهُ. فَلَمَّا
أَذْرَكْتُهُ بَعْدَ الْأَيْنِ، وَأَجَلْتُ فِيهِ مَسْرَحَ الْعَيْنِ، وَجَدْتُ نَاقَتِي
مَطِيَّتَهُ، وَصَالَتِي لِقَطَّتِهِ، فَمَا كَذَبْتُ أَنْ أَذْرَبْتُهُ عَنْ سَنَامِيهَا،
وَجَاذَبْتُهُ طَرَفَ زَمَامِيهَا، وَقُلْتُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُهَا وَمُضِيهَا، وَلِي
رَسْلُهَا وَنَسْلُهَا، فَلَا تَكُنْ كَأَشْعَبَ، فُتْتَعِبَ وَتَتَّعِبَ.

أساور : أوائب . الوجوم : السكوت على غيظ ، والمعنى : أن الفَيْظ إذا اشتدّ عليه عالج كظمه ودفعه عن نفسه ، فكأنه يوائبه . أساهر : أسامر ، والسهر امتناع النوم . الرُّجْلة ، بضم الراء : القُدرة على المشي ، ورجل يرجل رجلاً ورجلةً ، إذا مشى في السفر وحده بلا دابة . وضح : تبين . افترار : انكشاف ، وافتّر : كشف أسنانه عند الضحك . يخذ : يسرع . الدوّ : الصحراء ، والراكب : من يركب البعير . والجوّ : نواحي السماء . يعرج إلى صوبى : يميل إلى جهة وقصدى . يعبأ : يبال . الماسعى : إشارتى ، وهو مصدر ألمت إليك ، أى أشرت إليك ، فإذا بعد عنك الرجل فلم يسمع صوتك جردت ثوبك وأشرت إليه ، والإشارة بالثوب هى الإمساك . أوى : أشفق . التياعى : تحرقى وتوجمى . هينته : سكينته . أصمانى : أصاب مقتلى . إهاتته : احتفاره . أوفضت : أسرعت . أسترده : أطلب إليه أن يُردفنى . تغطرفه : تكبّره ، والغطريف : السيد العظيم . الأبن : الفتور . أجلت : صرفت . مسرح : موضع تسرحها وجوّ لانها بالنظر . واللقطة : ما يجده الإنسان قد سقط لغيره ، فيأخذه ويلتقطه . أذريته : رميت به عنها . مضلّها ، أى الذى ضلّت له . رسلها : لَبَنها .

[ذكر أشعب وبعض نوادره]

أشعب : الطماع ، رجل مدنى صاحب نوادر وملاه وله صنعة فى الفناء ، وكان أبخل الناس وأكثرهم طمعاً . ويقال فى المثل . أطمع من أشعب ، ولهذا قال الحريرى : فلا تك كأشعب ، أى لا تطمع فى أخذ الناقة فتكون مثله فى طمعه فى مال غيره . فتمتع من تعلقت له بشىء ، وتمتع ، أنت معه فى المخاصمة . ومن حكايات أشعب : قلل سالم بن عبد الله بن عمر لأشعب : ما بلغ من طعمك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتساران فى جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشىء .

وقال له ابن أبي الزناد : ما بلغ من طعمك ؟ قال : ما زفّت بالمدينة امرأة ، إلا كنست يتي رجاء أن يُغلط بها إلى .

وكانت عائشة بنت عثمان كفلته مع ابن أبي الزناد ، فقال أشعب : تربيت معه في مكان واحد ، وكنت أسفل ويملو حتى بلغنا ما ترون .

وقيل لعائشة : هل آنست من أشعب رشداً ؟ فقالت : أسلمته منذ سنة في البرز ، فساته بالأمس : أين بلغت في الصناعة ؟ فقال : يا أمّه ، قد تعلمت نصف العمل وبقي نصفه ، تعلمت النثر في سنة ، وبقي على تعلم الطي .

وسمعه اليوم يخاطب رجلاً وقد ساومه قوس بندق ، فقال : بدينار ، فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت عليها طائراً وقع في حجرى مشوياً مع رغيفين ، ما اشتريتها بدينار ، فأى رشديؤنس منه !

ونظر إلى رجل يعمل طبقاً ، فقال له : أسألك بالله إلا ما زدت في سعة طوقاً أو طوقين ، فقال له الرجل : ما معنى ذلك ؟ فقال : لعله أن يهذى إلى يوماً فيه شيء :

وقيل له : أرأيت أطعم منك ؟ قال : نعم ، خرجت إلى الشام مع رفيق لي ، فتلا حيناً عند دير فيه راهب ، فقلت له : الكاذب منّا ، أيرُ الراهب في استه ، فنزل الراهب من صومعته وقد أنعظ ، فقال : أيكما الكاذب ؟ ثم قال : دعوا هذا ، امرأتى أطعم مني ومن الراهب ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إنها قالت : ما يخطر على قلبك شيء يكون بين الشك واليقين إلا وأنا أتيقنه ، ودعوا هذا ، شاتي أطعم مني ومنها ، قيل : وكيف ؟ قال : صعدت على سطح ، فنظرت إلى قوس قرح فظننته جبل قتي ، فأهوت إليه فسقطت فاندقت عنقها .

وقيل له : هل رأيت أطعم منك ؟ قال : كلبه آل فلان ، رأيت رجلاً يعض عكسكاً فتبعته فرسخين ، تظن أنه يأكل شيئاً .

وقيل له : ما بلغ من طعمك ؟ قال : أضجرتني الصبيان يوماً ، فأردت أن أشغلهم عني ، فقلت لهم : إن بموضع كذا عرساً ، فامضوا نحوه . فلما ذهبوا ظننت أن نتم عرساً ، فتبعتهم .

وقال ابن شرف :

وما بلوغ الأماني في مواعدها إلا كأشعب يرجو وعد عرقوب^(١)
وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لي بقضاء غير مكتوب .

وقال ابن حجاج :

فدبت من نفسي من كَلَمَا لقيته والحق لا يفضبُ
فقلت : يا عرقوب أطمعتني فقال : لم نفسك يا أشعبُ

* * *

فأخذ يلذع ويصّي ، ويتقح ولا يستغيثي ، وبيننا هو ينزو
ويلين ، ويستأسد ويستكين ؛ إذ غشنا أبو زيد لابساً جلد
النمر ، وهاجماً هجوم السيل المنهر ، فخفت والله أن يكون
يَوْمُهُ كأمسه ، وبدّرهُ مثل شمسهِ ، فألحق بالقارظين ، وأصيرَ خبراً
بعدَ عَيْن . فلم أرَ إلا أن أذكرته اليهود المنسية ، والفعلة الإمسية ،

(١) نقله في التنف ٩٣

وَنَاشَدْتُهُ اللَّهُ : أَوْاقِي لِلتَّلَافِي ، أَمْ لِمَا فِيهِ إِتْلَافِي ؟ فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَجْهَزَ عَلَى مَكْلُومِي ، أَوْ أَصِلَ حَرْوَرِي بِسَمُومِي ؛ بَلْ وَافَيْتُكَ لِأَخْبَرَكَنَّهُ حَالِكَ ، وَأَكُونُ يَمِينًا لَشِمَالِكَ . فَسَكَنَ عِنْدَ ذَلِكَ جَاشِي ، وَانْجَابَ اسْتِيحَاشِي ، وَأَطْلَعَتْهُ طِلْعَ اللَّقْحَةِ ، وَتَبَرَّقَعَ صَاحِي بِالْقَحَّةِ .

* * *

قوله : يَتَّقِح ، أى يبدى الوقاحة : ينزو : يقفز . يستأسد : يقشبه بالأسد فيتقوى . يستكين : يذل ، يريد أنه كان مرة يتقوى ومرة يذل . غشيناً : جاءنا فجأة . لا بساً جلد النمر ، أى وقحا شجاعا . هاجما : آتيا على غفلة . المنهر : الكبير الانصباب ، وتقدم أثر خبر بعد عين ، الإسمية : المنسوبة إلى أمس . - الفنجديهي : رأيت بخط الحريري النسبة إلى أمس إمسي ، وهو من شاذ - النسب - ناشدته : حلقته . أَوْاقِي : أُجاء وأوتى . التلافي : التدارك قبل فوته . معاذ الله ، أى أستجير بالله مما ذكرت . أجهز : أتم عليه . مكلومي : مجروحي ، وفى أخبار على رضى الله عنه أنه ما أجهز على مكلوم قط . أخبر : أعلم . كنه : حقيقة جاشي : نفسى ، قاله ابن سيده : وقيل : الجأش القلب ، وقيل : رباطته وشدته عند الشيء يسمعه ، ما يدرى ما هو . وقيل : جاشي : رَوْع قلابى واضطرابه عند الفزع . واستوحش من الشيء : لم يأنس به . انجباب : انقشع وزال . أطلعه طلمها ، أخبرته سرها وعلوت طلع الأكمة ، أى مكانا يطلع منه على ما حولها ويُسرف عليه والقحة : صلابة الوجه ، كأنه جعل منها برقما على وجهه .

* * *

فنظر إليه تَظَرَّيْتُ العرْيَسة ، إلى الفريسة . ثمَّ أشرع قِبَله الرَّمح ،
وأقسم له بمن أنار الصُّبح ، لئن لم ينجُ منجى الذُّبابِ ، ويرض من
الغَنِيمة بالإياب ، ليوردن سِنانه وريده ، ليفجمن به وليده وودَّيده .
فنبذ زمام الناقة وحاص ، وأفلت وله حُصاص ، فقال لى أبو زيد :
تسلمها ونسئما ، فإنها إحدى الحُسْنَيْنِ ، وويلٌ أهون من ويلين .

قال الحارث بن همام : فحِرتُ بين لومِ أبي زيدٍ وشُكره ، وزنة
نفعه بضره . فكأنه نُوجى بذاتِ صدرى ، أو تكهن ما خامر
سرى . فقابلنى بوجهٍ طليق ، وأنشد بلسانٍ ذليق :

يا أخى الحاملَ ضيى دون إخوانى وقومى
إن يكن ساءك أمسى فلقـد سرك يومى
فاغتفر ذاك لـهـذا وأطرح شُكرى ولومى

ثم قال : أنا تيقٌ ؛ وأنت متيقٌ ، فكيف تتفق ! وولى يفرى
أديم الأرض ، ويركض طرفه أيتما ركض ، فما عددت أن اقتعدت
مطيتى ، وعدت ليطيتى ، حتى وصلت إلى حلتى ، بعد اللتيا والتى .

. . .

العرْيَسة : مأوى الأسد . والفريسة : الصيد يفترسه ، أى يكسر عنقه ،
وهى أكلة الأسد . أشرع : صوب . أنار : نور . بنج منجى : يخلص مخلص ،
وشبه خلوصه بخلوص الذباب ، لأنه يقع على الجسد أو الطعام فيقتذِر الإنسان

بمقره فيشرده ، وهو واحد عليه ، فينجو الذباب ، سالما بعد أذايته .

[مما قيل من الشعر في الذباب والبعوض]

وأخذه من قول إبراهيم بن العباس الصولي لحمد بن الزيات :
 كن كيف شئت وقل ما تشاء وأبرق يميننا وأرعِدْ شَمَالَنَا (١)
 نجا بك قومك منجى الذباب حتمه مقاديره أن ينالاً
 وأخذه إبراهيم من قول الآخر :

أسمنى عبداً بنى مسمع فصمت عنه النفس والعرض (٢)
 ولم أجبه لاحتماري له ومن يعص الكلب إن عضا !

ومن قول الآخر :

قوم إذا ما جنى جانبيهم أمنوا للؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا
 وهو كثير ، وإنما اخترع إبراهيم لفظ الذباب .
 وعرض - أى بعض الأدباء - على صاحب له بمحضر جماعة شعرا ، فجعل
 يعرض عن محاسن الشعر ويتتبع مواضع النقد حسدا ، فقال له صاحب الشعر :
 أراك كالذباب تعرض عن المواضع السليمة ، وتتبع قروح الجسد .
 وقال ابن الرومي :

تأمل العيب عيب ما بالذى قلت ريب
 والشعر كالشعر فيه مع الشبهة شيب

(١) ديوانه ١٦٣ .

(٢) إنباء الرواة ١ : ١٤٠ وفيه : « شامى » .

فليصنع الناس عنه فطعنهم فيه عيبٌ

ومنكيات الذباب لابن آدم كثيرة ، منها نزوله على الوجه عند النوم ،
فيلقى منه بلاء ، أو في الصلاة فيصير أضرّ من إبليس للشاغل ، وأما إذا تساقط
في الطعام فتغنيصه وتنفيذه للطباع أضرار لا تخفى ، وقد قدّمت آنفاً في ذلك من
الشعر شيئاً ، ولذلك تضرب به العرب المثل فتقول : أجرأ من ذباب ، لأنه ينزل
على الأسد والأمير .

ونذكر هنا ما هو أشدّ أذية منه وهو البعوض ، ولولا أنّ أيامه قلائل
لأخلى البلاد ، قال ابن رشيق يتشكّاه :

ياربّ لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف الموزي^(١)
مالي بعثت إلى ألف بعوضة وبعثت واحدة إلى نمرود!

وقال ابن شرف :

لك منزل كملت بشارته لنسا للهو لكن تحت ذاك حديث^(٢)
غنى الذباب وظلّ يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وقال آخر :

ليلُ البراغيث والبعوض ليلٌ طويلٌ بلا غموض
فذاك ينزو بغير رقصي وذا يُغني بلا عروض

وقوله : ويرضى من الغنيمة بالإياب ، منقول من قول امرئ القيس ، وقد

(١) نقله في التنف ٣٠

(٢) نقله في التنف ٩٤ . وينسبان لابن رشيق أيضاً .

طوّفت...^(١) البيت . وهو مشهور . يوردن : يَدْخُلْنَ . وريده : صفحة عنقه ،
والوريدان : العرقان يجرى فيهما النَّفْسُ ، وهما في مقدّم العنق ، ولجنته المصيبة
فجعا : أوجعته فهو فجيع وفجوع ، وموت فاجع ، والفجيرة : الرزية للوجعة .
يفجعن : يحزنن . وليده : ابنه . وديده : صاحبه . نبذ : رمى . حاص :
مال إلى الحرب ، ويقال : حاص يَحِصُّ حصا ، إذا عدل ، ومنه ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ
حِصٍّ ﴾^(٢) ، أى من ملجأ ومجيد . تسلّمها : خذها . تستنّها : اركب سنامها .
إحدى الحسينين ، أى السرتين ، ولو رجع له الفرس لكملثاله ، فالناقة إحداها .
بذات صدرى : علم بحاجة نفسى وبحقيقة ما أضمرته فى صدرى . تكهن : علم .
خامر : خالط . طليق : مستبشر . ذليق : حديد . ضيى : ذلى وضرى :
ساءك : أحزنك . اطرح : اترك ، وقد أعاد هذا فى السابعة والثلاثين فقال :
وهبها لا خطأ ولا إصابة .

وسأل الخطيئة عتية النهاس العجلى فردّه ، فقال له قومه : عرضتنا ونفسك
للشر ، هذا الخطيئة ، وهو هاجينا أخبر هجاء ، فقال : ردّوه ، فردّوه ، فقال :
كتمتّنا نفسك ولك عندنا مايسرك ، ثم قال له : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : الذى
يقول :

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّمَّ يُشْتَمُ^(٣)

فقال له : وهذه من مقدمات أفاعيك . ثم قال لو كيّله : اذهب به إلى السوق
فابتع له كلّ ما أحبّ ، فعرض عليه الخبز ورقيق الثياب ، فعرض هو إلى

(١) وهو فى ديوانه ٩٩ ، والبيت بتمامه :

وقد طوّفتُ بالأماقِ حتّى رَضِيتُ من الغَنِيمةِ بِالْإِبَابِ

(٢) سورة إبراهيم ٢١ .

(٣) ديوانه ٣٠ .

(٢١ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

الأ كسبة الفلاظ فاشترى له ما أراد ، فرجع إلى عتيبة ، فقال له اسمع :

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلًا فسيان لاذمَّ عليك ولا تحمدُ

وأنت امرؤ لا الجود منه سجيّة

فَتُعْطِي وقد يُعْذِي على النَّائِلِ الوُجْدُ^(١)

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهدي ، فوجده عليلاً ، فقبل منه المدحة
وأنا له ما يصلحه ، وقال له : عسى أن أقوم من مرضى فأكفئك ، فأقام شهراً
ثم كتب له :

إنّ حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتجى من الصّفَدِ^(٢)

كما الدنانير والدرام في البيع^(٣) حرام إلّا يداً بيد

فقال لحاجبه : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجئني بدواة ، فكتب إليه :

عاجلتنا فأتاك عاجلُ برّنا قُلّاً ولو أمهلتنا لم نُقَلِّلِ

نغذ القليل وكن كأنك لم تُقَلِّ ونكون نحن كأننا لم نفعل

وقال الخوارزمي :

ولما أن رأيت ابني وليد وبينهما اختلاف في الفعّالِ

وهبت قبيح ذا الجليل هذا وأسملت العواقب لآيالي

إذا اليدُ أحسنت منها يمينٌ تسوغنا لها ذنب الشمال

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٢ : ١٦٨

(٢) الخبر في زهر الآداب ٢٧٦ ، وفيه : « دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن أبي دواد »

(٣) زهر الآداب : « في الصرف »

قوله يفرى : أى يقطع . أديم الأرض : وجهها . يركض طَرْفه :
يجرى فرسه . أَيْمًا ، صفة لمصدر محذوف ، وفيه معنى التعجب من كثرة جريه ،
تقديره : يركض ركضًا ، أى ركض . اقترنت : ركبت القعود ، وتقدمت في
الأولى . ماعدت : ماجاوزت ، أى ما عملت شيئًا قبل القعود على الناقة . حَلَّتْ :
موضعي الذي هو سكني ونزولي . وحلّ : نزل .

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

وقوله : « رَيْقُ زَمَانِي وَرَائِقُهُ » يعنى أوله ، وقد يخفف فيقال « رَيْقُ » .
وقوله : « آخِذْ أَخْذَ نَفُوسِهِمُ الْأَبْيَةِ » ، يعنى أقتدى بهم ، يقال :
أخذه ، بكسر الهمزة وفتحها .

والهَجْمَةُ ، نحو المائة من الإبل .
والثَّلَّةُ : القطيع من الغنم .

والراغية : الإبل . والثاغية : الشاء ، ومنه قولهم : ماله راغية ولا ثاغية ،
أى لا ناقة له ولا شاء .

وقوله : « أُرْدَافُ أَقْيَالٍ » ، أى يَخْلُقُونَ لِلْمُلُوكِ إِذَا غَابُوا .

وقوله : « أَبْنَاءُ أَقْوَالٍ » ، أى فصحاء ، يقال لِلْمُنْطَلِقِ : إنه ابن
أقوال .

وقوله : « فَتَدَثَّرْتُ فَرْسًا مُحْضَارًا » ، التَدَثَّرُ : الوثوب على ظهر
الفرس ، والمحْضَارُ والمحْضِيرُ : الشديد العدو ، مأخوذ من الحَضَر ، وهو العدو .
وقوله : « أَقْتَرَى كُلَّ شَجَرَاءٍ مُرْدَاءٍ » الاقتراء : تتبّع الأرض .
والشجرَاء : ذات الشجر ، والمراد الخالية من النبات ، ومنه اشتقاق الأَمْرَد ، لخلوّ
وجهه من الشعر .

وقوله : « حَيْعَلُ الدَّاعَى إِلَى صَلَاتِهِ » ، يعنى قول المؤذن : حىّ على الصلاة
حىّ على الفلاح ، والمصدر منه الحَيْعَلَةُ ، ومثله من المصادر المهيّئَةُ والحَمْئَلَةُ .

والحوقة والبسلة والحسيلة والسنبلة والجملفة ؛ فالهيلة حكاية قول : لا إله إلا الله . والمثلة : حكاية قول : الحمد لله . والحسلة حكاية قول : حسبنا الله ، والسبلة حكاية قول : سبحان الله . والجملفة حكاية قول : « جعلت فداك » . وقوله : « فنزلت عن متن الركوبة ، يعنى الركوبة ، يقال : ناقة ركوب وركوبة وحلوب وحلوبة ، وقد قرئ : ﴿ فمنها ركوبتهم ﴾ .

والصهوة : مقعد الفارس . والشحوة : الخطوة . والجزع : قطع الوادى عرساً . وقوله : « صكة عمى » يعنى قائم الظهيرة ، وقد اختلف فى أصله ، قيل : كان عمى رجلاً مغواراً ، فزأ أقواماً عند قائم الظهيرة ، وصكهم صكة شديدة ، فصار مثلاً لكل من جاء ذلك الوقت ، وقيل : المراد به الظبي ، لأنه يسد فى الهواجر ، ويذهب بصره ، فيصطك ، وكذلك الحية ، واضطكاك الظبي بما يستقبله كاضطكاك الأعمى ، ثم صغر الأعمى تصغير الترخيم ، قيل : عمى ؛ كما صغروا أسود وأزهر ، فقالوا : سويد وزهير .

وقوله : « وكان يوماً أطول من ظل القناة » ، يوصف اليوم الطويل بظل القناة ، كما يوصف اليوم القصير بإبهام القطاة ، والعرب تزعم أن ظل الرمح أطول ظل ، ومنه قول شبرمة بن الطميل :

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفى المراهر^(١)

وقوله : « أحر من دمع المقات » المقات هى المرأة التى لا يعيش لها ولد ، فدمعها أبداً حار لحزنها ، لأنه يقال : إن دمة الحزن حارة ودمعة السرور باردة ، ولهذا قيل للدعوى له : أقر الله عينه ، مأخوذ من القر وهو البرد ، وقيل للدعوى عليه : أسغن الله عينه ، مأخوذ من السخنة ، وهى الحرارة ، وقيل : إن إقرار العين مأخوذ من القرار ؛ فكأنه دعا له أن يرزق ما يقر عينه حتى

(١) البيت فى المضاف والمنسوب ٦٢٦ ونسبه إلى ابن الطرية .

لا تطمح إلى ما لغيره . وكانت الجاهلية تزعم أن : إن القلات إذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدها ، ولهذا أشار بشر بن أبي خازم في قوله :
تظَلَّ مَقَالِيتُ النِّسَاءِ بِطَانِهِ يَقْلُنَّ : أَلَا يُلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مِهْزَرٌ^(١)
وقوله : « عَلِقَتْ بِي شَعُوبٌ » يعنى المنية ، ولا يدخل هذا الاسم أداة التعريف ، مثل دجلة وعرفة .

وقوله : « لَأَغُورَ تَحْتَهَا إِلَى الْمَغِيرِبانِ » ، التقدير : النزول إلى القائلة ؛ كما أن التعريس : النزول آخر الليل للتهويم أو الاستراحة .
والمَغِيرِبان ، تصغير المغرب ، وكان قياس تصغيره المغيرب ، إلا أن العرب ألحقت آخره ألفاً ونوناً على طريق الشذوذ .

وقوله : « مضطفناً أهبة تجوابه » ، الاضطفان : أن يحمل الشيء تحت حضنه ، والاضطبان أن يحمله تحت ضنبه ، والضنب : ما بين الإبط والكشح ، وكلاهما متقارب . ويقال : أول مراتب الحمل الإبط ثم الضنب ، وهو أسفل الإبط ثم الحضن ، وهو عند الجنب .

والتجواب مصدر جاب ، وجميع المصادر التي جاءت على « تفعال » هي بفتح التاء إلا قولهم : تلبيان وتلقاء لاغير ، وزاد بعضهم : تيصال .
وقوله : « عَجَرِي وَبُجَرِي » يريد به جميع أمرى الظاهر والباطن ، وأصل العجر العقْد الناتئة في العصب ، والبحر : العقْد الناتئة في البطن .

وقوله : « ولم يقل إيهآ » ، أى لم يأمرنى بالكف ، يقال : للدستزاد : إيه . وللمستنكف : إيهآ .

وقوله : « لأمر ما جدع قصير أنفه » ، قصير هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان جدع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ، ثم أتاها وأوهما أن عمرو بن

عدى ابن أخت جذيمة ، هو الذى جدع أنفه اتهاماً له بأنه غشّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصدها ، فحطّى بهذا القول عندها حتى جهّزته مراراً إلى العراق ؛ فكان يأتيه بالطرف منه إلى أن استصحب في آخر نوبة الرجال في الصناديق ، وتوصل إلى قتلها ، والأخذ بثأر مولاه منها . وقصته مشهورة .

وقوله : « ولو كان ابن بُوحك » يعنى ولد الضُّلب ، إشارة إلى أنه ولد في إباحة الدار ؛ وهى عرضتها ، وجمعها بُوح . وقيل : إن البوح من أسماء الذكور .
وقوله . « فى شهرى ناجر » هاشمها الحرّ ، وقيل : إنها خزيران وتموز .
وأنكر ابن دريد هذا القول ، وقال : هما طلوع نجمين .

وقوله : « بت بليلة نايغة » أوماً به إلى قول النابغة :

فبت كأتى ساورتنى ضئيلة من لرقش فى أنيابها السم نافع^(١)

وقوله : « فألمت إليه بشوبى » يعنى أشرت إليه ، يقال منه : ألمع ولمع بمعنى .

وقوله : « يلدغ ويصىء » ، هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو ، يقال : صاءت العقرب تصىء صيئاً وصيئاً بفتح الصاد وكسرها ؛ إذا صوتت ، وكذلك الفرخ ، وما أحسن قول ابن الرومى فى هذا المعنى :

تشكى الحبّ وتشكو وهى ظالمة كالفوس تُصمى الرمايا وهى مرّنان^(٢)

وقوله : « ينزو ويلين » ؛ هذا مثل يضرب لمن يتعزّز ثم يذلّ ، ويقال : إن أصله أن الجدى ينزو وهو صغير فإذا كبر لان .

وقوله : « لا بسأجلد النمر » ، هذا مثل يضرب للمتّعجّج الجرىء ، لأن النمر أجراً سبيع وأقله احتمالاً للضيم ، ومن هذا اشتقاق قولهم : تنمر ، أى صار مثل النمر .

وقوله : « فألقى بالقارظين » الأصل فى القارظ الذى يحنى القرظ ، وهو النبات المدبوغ به ؛ والقارظان المشار إليهما أحدهما من عبّرة والآخر من النمر

ابن قاسط ، خرجا ينجيان القرظ فلم يرجعا ، ولا عُرِفَ لهما خبر ، فَضْرِبَ بهما
المثل لكل غائب لا يُرجى إِيابُه ، وإليهما أشار أبو ذؤيب في قوله :

وحتى يثوب القارظان كلاهما وَيُنْشَرِ في القتلِ كليبٌ لوائِلُ^(١)
وقوله : « حَرُورِي بِسُمُوحِي » ، الحُرور : الرِّيحُ الحارة ليلا ، والسَّموم :
الريح الحارة نهاراً ، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً . وقال بعضهم : الحُرور
يكون ليلا ونهاراً ، والسَّموم يختص بالنهار .

وقوله : « لَيْثٌ عَرِيْسَةٌ » بمعنى مأوى السبع ، ويقال فيه . عَرِيْسٌ وعَرِيْسَةٌ
بإثبات الهاء وحذفها ، كما يقال : غاب وغاية وعرين وعَرِينَةٌ . فأما الفيل والحِيس
فلم يلحقوا بهما الهاء .

وقوله : « أَفَلْتُ وَلَهُ حُصَاصٌ » هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشقى
عليها بعد ما كاد يَهْوِي فيها . وَالْحُصَاص : الأعْدُو ، وقيل إنه الضراط .
وقوله : « وَيْلٌ أَهْوَنُ مِنْ وَيْلَيْنِ » ، هذا المثل يضرب تسلياً لمن ناله
بعض المكروه ، ومثله قول الراجز^(٢) :

أَبَا مَنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضُنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقوله : « أَنَا ثَقٌّ ، وَأَنْتَ ثَقٌّ ، فَكَيْفَ تَتَّقُ » ، هذا المثل يضرب
للمتنافيين في الخلق ؛ فَإِنَّ الثَّقَّ هو الممتلئ غيظاً ؛ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : أَنَا ثَقٌّ
الْإِنَاءُ ؛ إِذَا مَلَأْتَهُ . وَالثَّقُّ هُوَ الْبَاكِي ؛ فَكَأَنَّ الثَّقَّ يَنْزِعُ إِلَى الشَّرِّ
لغَيْظِهِ ، وَالثَّقُّ بِضِيْقٍ ذَرْعاً بِاحْتِمَالِهِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَنَا كَلِفٌ ، وَأَنْتَ
صَلِفٌ ، فَكَيْفَ نَأْتَلِفُ !

وقوله : « لَطِيقِي » يعني لقصدي ووجهتي ، وقد يقال فيها : طَيْةٌ ،
بالتخفيف .

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٤٤ .

(٢) البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ هـ هو من بحر الطويل ، وليس رجزاً .

وقوله : « بعد اللَّتْيَا والتي » اللَّتْيَا تصغير اللَّتَى ، وهو على غير قياس التصغير المطرد ؛ لأنَّ القياس أن يضمَّ أول الاسم إذا صُغِرَ ، وقد أُقِرَّ هذا الاسم على فتحته الأصلية عند تصغيره ، إلَّا أنَّ العرب عوضته عن ضمِّ أوله ، بأن زادت ألفا في آخره ، وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه ، فقالت في تصغير الذى والَّتَى : اللَّذْيَا واللَّتْيَا ؛ تصغير ذا وذاك . وقد اختلف في معنى قولهم : بعد اللَّتْيَا والتي ، ف قيل : هما من أسماء الداهية . وقيل : المراد بهما بعض صغير المكروه وكبيره .

المقامة الثامنة والعشرون وهي السمرقندية

حدث الحارث بن همام قال : استبَضَعْتُ في بَعْضِ أسفاري القَنْدَ ، وقصدتُ به سَمَرْقَنْدَ ؛ وكنت يومئذٍ قويمَ الشَّطَاطِ ، جُحُومَ النَّشَاطِ ، أرمي عَن قَوْسِ المِرَاحِ ، إلى غَرَضِ الأَفْرَاحِ ، وأُستَعِينُ بِماءِ الشَّبَابِ ، على مَلَايِجِ السَّرَابِ ، فوافيتها مُبْكَرَةً عَرُوبَةً ، بعد أن كابدتُ الصُّعُوبَةَ ، فسعيتُ وَمَا وَنَيْتُ ، إلى أن حَصَلَ اليَيت .
فلَمَّا نَقَلْتُ إليه قَنْدِي ، ومَلَكْتُ قولَ عِنْدِي ، عُجْتُ إلى الحَمَامِ على الأَثَرِ ، فأَمَطْتَ عَنِّي وَعَثَاءَ السَّفَرِ ، وأَخَذْتَ في غُسْلِ الجُمُعَةِ على الأَثَرِ .

° ° °

استبضعتُ : اتخذت بضاعة . القند . غسل السكر .

[ذكر سمرقند]

وَسَمَرْقَنْدُ : بلد عظيم من بلاد خراسان ، غزاها ملك من ملوك اليمن اسمه شمر ، فَلَكَهَا وَهَدَمَهَا فَسَمِّيَتْ شَمْرَكَنْدَ ، بمعنى خرابة شمر ، ثُمَّ عَرَّبَتْ فَقِيلَ : سَمَرْقَنْدُ ، وأهلها الشُّنْدُ . وفي رواية أنه لما انتهى إلى السُّنْدِ قَاتَلَهُمْ أَيَّامًا تَحَوَّلُوا إلى مَدِينَتِهِمْ فَنَاصَرَهُمْ حَوْلًا حَتَّى افْتَتَحَهَا عَنْوَةً ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَسْبًا وَهَدَمَهَا ، ثُمَّ ثَابَ لَهُ رَأْيٌ ، فَأَمَرَ بِنَائِهَا ، فُبْنِيَتْ خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَخْرَةٍ قُبْنِيَتْ عِنْدَ بَابِهَا ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا : هَذَا بِنَاءُ مَلِكِ الْعَرَبِ لَا الْعَجَمِ ، شَمِيرُ الْمَلِكِ الْأَثَمِ . وَوُحِدَ فِي سُورِهَا لَوْحٌ مِنْ نَحَاسٍ فِيهِ كِتَابٌ ، وَهُوَ : «هَذَا مَا أَمَرَ بِنَائِهِ شَمْرُ» ، وَقَدْ تَقَدَّمَ

أن فرغانة من أعمالها التي هي آخر خراسان ، وبين سمرقند وبغداد ستة أشهر ،
وتقدم أن مدينة سمرقند من أحسن بلاد الله تعالى ، ولما أشرف قتيبة بن مسلم
عليها ، فرأى ما أدهشه لإفراط حسناتها . قال : كأنها السماء في الخضرة ، وكأن
قصورها النجوم والزهرة ، وكان أنهارها المجرة .

* * *

قوله : قويم الشَّطَّاط ، أى معتدل القامة : جموم النشاط ، أى كثير
القوة والخفة . والراح : النشاط . والأفراح : جمع فرح ، و ماء الشباب :
نضارة الفتوة ونعمة الصبا . ملامح السراب : مواضع يلح السراب فيها ، أى
يلمَح ويظهر ، فأراد أنه استعان بقوة فتوته على قطع الصحراء . وافيتها :
أقبتها .

[يوم عروبة]

عروبة ، اسم يوم الجمعة ، سُمِّيَ بذلك لحسنه حيث كان موسماً ، وهو من
قولهم : جارية عروب أى حسناء ، وكانت العرب تسمي أيام الأسبوع بأسماء
يجمعها بيتان وهما :

أؤمل أن أعيش وأن يومى بأول أو بأهون أو جبار^(١)
أو التالى دبار فإن أفتئ فؤنس أو عروبة أو شيار

وعروبة من الأسماء التي تدخلها الألف واللام مرة وتسقط منها أخرى ،
قال الشاعر :

* يوم كيوم عروبة المتطاول *

(١) البيتان والاسان : جبر ، دير ، شير ، أنس ، هون . أول : الأحد . أهون : الاثنين .
جبار : الثلاثاء : دبار : الأربعاء ، مؤنس : الخميس . عروبة : الجمعة . شيار : السبت .

وقال آخر :

* يوم العروبة أوراذا بأوراد *

وحكوا أن سيبويه ، كان في حلقة بالبصرة فتذاكروا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر سيبويه حديثاً غريباً ، وقال : لم يرو هذا إلا سعيد بن أبي العروبة ، فقال له بعض الفضلاء : ماهاتان الزيادتان ؟ - يعني الألف واللام في العروبة - فقال سيبويه : هكذا ينبغي أن يقال ، لأن العروبة هي يوم الجمعة ، فمن قال : عروبة فقله خطأ . قال محمد بن سلام : فذكرت ذلك ليونس بن حبيب ، فقال : أصاب : سيبويه لله درّه .

وسُمِّيَ يوم الجمعة لما جاء في حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سُمِّيَ يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : لأن فيه جمع أبوك آدم . وقال بعضهم فذكر عروبة :

في العيد زار ، وكان يوم عروبة يافرحتي بثلاثة الأعياد
وكان المتوكل صاحب بطليوس ينتظر وفود أخيه عليه من شفتيرين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت ، فلما تلقاه عانقه ، وأنشد :

تخبرت اليهود السبت عيداً وقلنا في العروبة يوم عيد
فلما أن طاعت السبت فينا أطلت لسان محتج اليهود

وقال ابن الرومي :

وحبب يوم السبت عندي أنني ينادمني فيه الذي أنا أحببت
ومن عجب الأشياء أنني مسلم حنيف ولكن خير أيامي السبت

* * *

(١) الخبر والشعر في نفع الطيب ٣ : ٤٤٨

قوله : كابدت ، أى قاسيت . سَعَيْت وما ونيت : خرجت وما فترت ، ويقال : ونى بنى ، أى ضعف ، والونى الضعف والفتور والإعياء . ملكت قول عندى ، يريد أن المسافر فى الطريق لا يحسب ماله مِلْكَالَه حتى يدخل المدينة ، لأنه متعرّض للهلاك فى الطريق ، فإذا دخل المدينة وحصل فى بيته ماله فصار « ملكت قول عندى » عبارة عن سلامة ماله وخلاصه من حوادث الأسفار نحو الفرق والنهب والفرق والغضب ، أو يكون عبارة عن الحصول فى البيت يقول : عندى كذا ، أى فى بيتى .

عُجْتُ ، أى ملت على الأثر ، أى فى الحين ، ورجع على الأثر أى أتى مستعجلاً ، كأنه مشى على أثره فى طريقه قبل غيره ، فعنى عجت إلى الحمام على الأثر ، أى دخلته على الفور فى الحال . وقد ذكرنا باباً أدبياً من الشعر فى الحمام فى الرابعة ، ونذكر هنا فيه فناً آخر من الأدب .

[ذكر الحمام وماورد فيه من الشعر والحكايات]

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم أرض الأعاجم ، وتجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات ، فلا يدخلها الرجل إلا بإزاره ، وامنعوا النساء أن يدخلنها إلا مريضة أو نفساء » .

وروى أن عبيد بن قرط الأسدي ، دخل مع صاحبين له بلداً فيها حمام فأحب صاحباه دخوله فيها ، فأتيا عبيد ، فأبيا إلا دخوله ، فماد دخلاه رأيا فيه رجلاً يتنور ، أى يستعمل النّور فسالاه عنها . فأخبرها بإذنها بالشعر ، فاستعملها فلم يحسنا فأحرقتهما وأضرّت بهما ، فقال عبيد :

لعمري قد حذرتُ قرطاً وجاره ولا ينفع التحذيرُ من ليس يحذرُ
 نهيتهما عن نوزةٍ أحرقتهما وحمام سوء ناره تنسقرُ
 فما منهما إلا أثنى موقعاً به أثر من مسها يتقشرُ
 أحدكما لم تعلم أن جارنا أبا الحسل بالبيداء لا ينورُ
 ولم تعلم حمامنا في بلادنا إذا جعل الحرباء في الجذب يحضرُ

ورد أعرابي البصرة ، فنزل على ابن عم له ، فلما رأى البصري شعثَ
 الأعرابي ، أراد أن ينظفه ، فقال له يوم الجمعة : إن الناس يتطهرون للجمعة ،
 ويتنظفون ، ويلبسون أحسن الملابس ، فعمال أدخلك الحمام لتنظف من
 قشَف السفر والبادية ، وتنظف للصلاة ، فدخل معه الحمام ، فعندما وطئ
 الأعرابي فرش أول بيت في الحمام ، لم يحسن المشي عليها لشدة ملاستها فزلق ،
 وسقط لوجهه ، وصادفت جبهته حرف مدخل البيت ، فشجّه شجةً مفكرة فخرج
 مرعوباً وهو ينشد ، ودماؤه تسيل :

وقالوا تطهرْ إنه يومُ جمعةٍ فأبْتُ من الحمام غيرَ مطهرٍ
 تزودتُ منه شجةً فوق حاجبي بغير جهاد بئسما كان متجري
 يقول لي الأعراب حين رأيتني به لا بظلي بالصَّريمة أعفر^(١)
 وما تعرف الأعراب مشياً بأرضها فكيف يبيت ذى رخام ومرمرٍ!

وقال ابن سكرة : دخلت حماماً ، فخرجت وقد سُرق مدامي ، فعدت إلى داري
 حافياً وأنا أقول :

(١) نظر في ذلك إلى المثل : « به لا بظلي أعفر » ، والأعفر : الأبيض ، يضرب للشحانة .
 وانظر بجم الأمثال ١ : ٩٠ .

إليك أذمّ حَمَامُ ابنِ مُوسَى فإن فاق المُتَنَّى طيباً وحرّاً
تَكَاثَرَتِ اللَّصُوصُ عَلَيْهِ حَتَّى لِيَحْفَى مِنْ يَطِيفُ بِهِ وَيَعْرِى
وَلَمْ أَفْقِدْ بِهِ ثُوباً وَلَكِنْ دَخَلَتْ مُحَمَّدًا وَخَرَجَتْ بَشْرًا
— يَرِيدُ بَشْرًا الْخَافِي ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الزَّهَادِ ، وَلَزِمَ الْمَشَى حَافِيًا فَلَقَّبَ بِهِ .

وقوله : أُمِطَتْ ، أَى أَزَلَتْ . وَعَثَاءُ السَّفَرِ : شِدَّتُهُ وَمَشَقَّتُهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ :
« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ » ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْوَعَثِ ، وَهُوَ
الْدَّهَسُ ، أَى الرَّمْلُ الدَّقِيقُ . وَقِيلَ : الْوَعَثُ الرَّمْلُ تَغَيَّبَ فِيهِ الْقَوَائِمُ ، وَقِيلَ : هُوَ
الطَّرِيقُ الْخَشَنُ الصَّعْبُ . بِالْأَثَرِ ، أَى بِالْحَدِيثِ الْمُرَوَّى . وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ جُمُعَةٍ غَسَلَ الْجَنَابَةَ
ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ ، وَمَنْ رَاحَ فِي الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا
قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبِشًا ، وَمَنْ رَاحَ فِي الرَّابِعَةِ
فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ
حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » .

ثُمَّ بَادَرَتْ فِي هَيْئَةِ الْخَاشِعِ ، إِلَى مَسْجِدِهَا الْجَامِعِ ، لِأَلْحَقَ
عَنْ يَقْرُبُ مِنَ الْإِمَامِ ، وَيُقَرَّبُ أَفْضَلَ الْأَنْعَامِ ، فَحَظِيَّتُ بِأَنْ جَلِيَّتُ
فِي الْحَلْبَةِ ، وَتَخَيَّرَتْ الْمَرْكَزَ لِاسْتِمَاعِ الْخُطْبَةِ ، وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يُدْخِلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَيَرِدُونَ فِرَادَى وَأَزْوَاجًا ؛ حَتَّى إِذَا اكْتَضَتْ
الْجَامِعَ بِحُفْلِهِ ، وَأَظْلَلَ تَسَاوِي الشَّخْصِ وَظِلِّهِ ، بَرَزَ الْخُطِيبُ فِي
أُهْبَتِهِ ، مُتَهَادِيًا خَلْفَ عُصْبَتِهِ ، فَارْتَقَى فِي مَنْبَرِ الدَّعْوَةِ ، إِلَى أَنْ

مَثَلٌ بِالذُّزْوَةِ ؛ فَسَلَّمَ مَشِيراً بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى خُتِمَ نَظْمُ
التَّائِذِينَ .

* * *

الأنعام : هي الإبل والبقر والغنم . وقال في الدرة : فرقت العرب بين النعم
والإنعام ، فجعلت النعم اسماً للإبل خاصة وللماشية التي فيها الإبل ، وتذكر وتؤنث ،
وجعلت الأنعام اسماً لأنواع المواشى مثل الإبل والبقر والغنم . حظيت : سعدت .
جلّيت : سبقت . والحلبة : جماعة الخيل ، وأراد بها الناس المبادرين للصلاة ، وأنه
سبقهم . المركز : الموضع تنقظر فيه الصلاة . دين : طاعة . أفواجاً : جماعات .
يردون : يأتون الجامع . اكتظّ : امتلأ وضاق بأهله . حفله : اجتماع الناس
فيه . أظل : دنا قرب . تساوى الشخص وظلّه ، يريد حديث عمر رضى الله عنه : أن
صلّ الظهر إذا صار ظلك مثلك . برز : خرج . أهبطه : عدّته للصلاة . متهادياً :
متمايلاً لوقاره . عصبته : جماعة المؤذنين . ارتقى : طلع . مثّل بالذروة : جلس
بأعلى المنبر أو ظهر بأعلاه . والمائل : اللاطيء بالأرض أو القائم المنتصب ، وهو
من الأضداد ، وسمى المنبر منبر الارتفاعه وعلوّه من المنبر ، وهو ارتفاع الصوت ،
ومنبر الرجل نبرة : تكلم بكلمة فيها علوّ ، وأنشد أبو الحسن بن البراء :

إني لأسمع نبرةً من قولها فأكاد أن يُنشى على سرور^(١)

مشيراً باليمين ، مذهب الشافعي رضى الله عنه أن الخطيب إذا جلس على
المنبر ، أشار إلى الناس بيمينه مسلماً من غير كلام . قال ابن عمر رضى الله عنهما :

(١) البيت في اللسان - نبر من غير نسبة .

انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قباء ، فصلى فيه ، فخرج على صهيب ، فقلت : يا صهيب ، كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد من يسم عليه ؟ قال : يشير بيده .

قوله : جلس ، قال الخليل : يقال لمن كان قائماً : أقعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس ، وهذا صحيح لأن القعود هو الانتقال من علو إلى سفلى ، ولهذا يقال لمن أصيب برجله : مُقعد ، والجلوس هو الانتقال من سفلى إلى علو ، ورجل جالس : آتٍ نَجْدًا ، وهو المكان المرتفع . وذكره الحريري في الدرّة ^(١) . ختم : أ ك م ل .

* * *

ثم قام وقال : الحمد لله المدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء ، المدعو لحسن اللاؤاء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السماج والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أذكر كل سير عظمه ، ووسع كل مصير حلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهذ كل مارد حوله . أحمده حمد موحّد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رداء معه ولا مساعد . أرسل محمداً للإسلام مُمهداً ، وللملة موطّداً ، ولإدلة الرسل مؤكّداً ، وللأمنود والأنهر مسدداً .

. . .

قوله : الآلاء ، أى النعم الواسعة الكثيرة . حسم الآواء : قطع الشدة .
 الرتم : العظام البالية . مصورها : منشأ صورها ، وأراد قوله تعالى : ﴿ قُلْ
 يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ^(١) ، عاد وإرم : أمتان قديمتان ، وقيل : إرم قبيلة
 من عاد فيها مملكة عاد . وقيل إرم : اسم لقبائل كثيرة ، كالعاليق وطسّم
 وجديس هلكوا ، وهم من ولد إرم بن سام بن نوح ، ومن لم يصرف إرم جملة
 اسماً للقبيلة . وقال سابق البربري في ذهاب الأمم :

وكيف يَأْمَنُ رَيْبَ الدَّهْرِ مَرَّتَيْنِ بعدوة الدهر إن الدهر عدّاه ^(٢)
 ألقى على الجيل من عادٍ كلاكه وقوم هود فهم هامٌ وأصداء
 وقال أيضاً :

أين الملوك التي عن خطبها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقبها
 غرت زمانا بملك لادوام له جهلا كما غرّ نفساً من يمتبها
 وصبت قوم عاد في ديارهم بمقطع يوم عادتهم عوادبها
 وتبعاً ونمود الحِجرِ غادرهم ريب المنون ريمًا في مغانيها
 فكيف يبقى على الأحداث غابنا كأننا قد أظلمت دواهيها
 وقال الألبيري :

أين الملوك وأين ماجعوا وما ذخروه من ذهب المتاع الذاهب
 ومن السوابغ والصوارم والقنا ومن الصواهل : بُدُنٍ وشواذب
 كانت سوابقها تحمل منهم أقمار أندية وأسد كتائب
 كانوا ليوث خفيّة لكتهم سكنوا غياض أسنة وقواضب
 قصفتهم ربح ارتدى ورمتهم كف المنون بكل سهم صائب

(١) سورة الأنعام ٦ .

(٢) النواذب : الضامرة .

قوله : مصرّ ، أى مقيم على الذنب . والعالم : كل مخلوق ، وأراد به الحيوان .
 علوّه : فضله . هدّ : أذلّ وأهلك ، وهدّ البناء : كسره وهدمه . والمارد : العاقب .
 وهو المبالغ في الطغيان والفساد ، والكثير الشرّ . حوله : قوته ، مؤمّل : راجٍ .
 مسلمٌ : مفوّض . الصمد ، من أسماء الله تعالى والسيد المطاع ، والصمد : الذى لا يولد
 له ، وقيل : الصمد الذى لا جوف له .

وقال ابن الأنباريّ : أجمع أهل اللغة بلا خلاف على أنّ الصمد الذى ليس
 فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى أمورهم ، وأنشد لورقة بن نوفل :

سبحان ذى العرش سبحانا يدوم له ربّ البرية فردّ واحد صمدٌ

وأنشد : * بمعرو بن مسعود وبالسيد الصمد ^(١) *

وأنشد : * ولا رهينة إلا سيّد صمدٌ *

وأنشد : * خذها حذيف فانت السيّد الصمد ^(١) *

قوله : رده : معين ، وأردأتك على الأمر : أعتكت . مساعد : موافق لمراذه .
 ممدداً : باسطاً . والملة : الدين . الأحمر ، أراد به الأبيض وأراد لكلّ الناس ،
 وقيل : الأحمر العجم مثل الروم والفرس ، لأنهم بيض تعلوهم حمرة ، والأسود
 العرب ، لأنهم لسكناهم الصحارى تغلب السمرة على ألوانهم .

* * *

وَصَلِّ الْأَرْحَامَ ، وَعَلِّمِ الْأَحْكَامَ ، وَوَسِّمِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ،
 وَرَسِّمِ الْإِحْلَالَ وَالْإِحْرَامَ ، كَرَّمَ اللَّهُ تَحَلُّهُ ، وَكَمَّلَ الصَّلَاةَ
 وَالسَّلَامَ لَهُ ، وَرَحِمَ آلَهُ الْكَرَمَاءَ ، وَأَهْلَهُ الرِّحْمَاءَ ، مَا هَمَّرَ

(١) السان - صمد .

رُكَّامٌ ، وَهَدَرَ حَمَامٌ ، وَسَرَحَ سَوَامٌ ، وَسَطَا حُسَامٌ . انْعَمَلُوا رَحِمَكُمُ
 اللَّهُ عَمَلِ الصُّلَحَاءِ ، وَاكْدَحُوا لِمَعَادِكُمْ كَدَحَ الْأَصِحَّاءِ ، وَازْدَعُوا
 أَهْوَاءَكُمْ رَدَعَ الْأَعْدَاءِ ، وَأَعِدُّوا لِلزَّحَلَةِ إِعْدَادَ السَّعْدَاءِ ، وَإِدْرَعُوا
 حُلَلَ الْوَرَعِ ، وَدَاوُوا عِلَلَ الطَّمَعِ ، وَسَوُّوا أَوْدَ الْعَمَلِ ، وَعَاصُوا
 وَسَاوِسَ الْأَمَلِ ، وَصَوَّرُوا لَأَوْهَامِكُمْ حُثُولَ الْأُخْوَالِ ،
 وَحُلُولَ الْأَهْوَالِ ، وَمُسَاوِرَةَ الْأَعْلَالِ ، وَمُصَارِمَةَ الْمَالَ
 وَالْآلِ .

. . .

الأرحام في الأصل: الفروج ، ثم يكتفى بها عن القربات للذين بينهم رَحِمٌ .
 وسم : بين ، وجعل له علامة ، والسَّمة : العلامة . رسم : كتب وبين وأصل
 الرسم الأثر ، ورسمت الشيء : أثرت به أثرا . الإحلال : الدخول في الحل .
 الإحرام : الدخول في الحرم ، وأراد أنه علم موضع الحل والحرم . آله : أهله .
 هَمَرُ رُكَّامٍ : انصب سحاب . هَدَرَ : صَوَّت . وسرح : تفرَّق في الرعى ، سوام
 إبل راعية . سطا : اهتزَّ ليقطع . اكْدَحُوا : اعملوا ، والكدح عمل الإنسان
 من خير وشر ، واكتسابه للدنيا والآخرة . لمعادكم ، أى ليوم بعثكم ، والمعاد
 المرجع . الأصِحَّاء : جمع صحيح . ارددعوا : كَبُفُوا . اِدْرَعُوا : البسوا الخوف .
 أَوْدَ : اعوجاج . وسواوس الأمل : أحاديث الطمع والرجاء . أوهامكم : نفوسكم .
 حثول : تغير . حُلُول : نزول . الأهوال : المخاوف . مساورة : مواثبة . الإعلال :
 الإصابة بعلّة ، مصارمة : مقاطعة . الآل : الأهل والقرابة .

* * *

وَإِدْرِكُوا الْحِمَامَ وَسَكْرَةَ مَضْرِعِهِ ، وَالرَّمْسَ وَهَوْلَ

مَطْلَعِهِ ، وَاللَّحْدَ وَوَحْدَةَ مُودَعِهِ ، وَالْمَلَكَ وَرَوْعَةَ سُؤَالِهِ
وَمَطْلَعِهِ . وَالْمَحْوَا الدَّهْرَ وَلَوْثَمَ كَرَّهُ ، وَسُوءَ حِمَالِهِ وَمَكْرِهِ .
كَمْ طَمَسَ مَغْلَمًا ، وَأَمَرَ مَطْعَمًا ، وَطَخَطَحَ عَرْمَرَمًا ، وَدَمَّرَ
مَلِكًا مُكْرَمًا .

• • •

اذْكُرُوا الْجَمَامَ : اذْكُرُوا الْمَوْتَ . الرَّمْسُ : تراب القبر . هول مَطْلَعِهِ :
خوف ما يراه الإنسان فيه . اللَّحْدُ : الحفيرة في جانب القبر . مُودَعُهُ : المجهول
فيه ، كأنه وديعة فيه . الْمَلَكُ : منكر ونكير ، اللذان يفتنن الناس في قبورهم
روعة : تزيين وتخويف . المطلع : الماتى .

قال الجوهري ، رحمه الله تعالى : يقال : أين مطلع هذا الأمر ؟ أى مآتاه ،
وهو موضع الاطلاع من إشراف إلى المحدار ، وجاء هول المطلاع في الحديث ،
حَدَّثَ وَائِلَةُ بْنُ الْأَسْقَمِ وَغَيْرُهُ قَالُوا : خُطِبْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا الْمَوْتَ وَهَوْلَ مَطْلَعِهِ وَمَاتَقْدَمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَإِنَّمَا
أَنْتُمْ عَابِرُونَ سَبِيلًا إِلَى دَارِ الْخُلُودِ . ازْهَدُوا فِي دُنْيَانَا قِصَّةَ غَيْرِ زَائِدَةٍ ، مَفْرَقَةَ غَيْرِ مَجْمُوعَةٍ ،
وَارْغَبُوا فِي دَارٍ لَا تَخْرَبُ قُصُورُهَا وَلَا يَبْلَى سُرُورُهَا ، وَلَا يَمُوتُ سَاكِنُهَا . أَعْمَارُ
أَهْلِ الْجَنَّةِ : أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، مَكْحَلُونَ بِأَكْلُونِ وَبَشْرَبُونَ ، لَا يُخْرَجُ
مِنْ أَجْوَاهِمُ شَيْءٌ إِلَّا يَعْرِقُونَ ، عَرَقَهُمْ ذَلِكَ مَسْكٌ ، فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْجَنَّةِ ، نَامَ طَالِبُهَا ،
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ النَّارِ ، نَامَ هَارِبُهَا » .

وقال ابن سكرة :

تَحَمَّدُ مَا أَعْدَدْتَ لِلتَّرَبِّ وَالْبَلَى وَلِلْمَلَائِكِينَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْقَبْرِ (١)

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٤

وأنت مصرٌّ لا تراجع توبةً ولا ترعوى عما يُذمُّ من الأمر^(١)
 سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعه فقدم له زاداً إلى البعث والحشر
 وتقدم البابُ موافقاً حقه في الحادية عشر .

[مما قيل في الأمل والطمع من الشعر]

نذكرُ هنا بعض ما قيل في الأمل والطمع المانعين للناس من أعمال البر :-
 قال أبو العتاهية : ١

نعمتُ بآمال	طوالِ أيّ آمال ^(٢)
فأقبلت على الدهر	ملحاً أيّ إقبال
أيا هذا تجهز لـ	فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت	على حالٍ من الحال

وقال أبو تمام :

أناؤل في الدنيا تجدد وتعمُر	وأنت غداً فيها تموت وتُقبَر
تُلَقِّحُ آمالاً وترجو نتائجها	وعمرُك مما قد تُرجِيه أقصر ^(٣)
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه	وليلته تنعاك لو كنت تشعرُ
تحوم على إدراك ما قد كفيته	وتقبل بالآمال فيها وتدبرُ

(١) بعده في البيتة :

تَبَيَّتْ على خمرٍ تعاقرُ دَنَها وتصبح مخموراً مريضاً من الخمر
 (٢) ديوانه ٢١٣ ، وفيه :

تمسكت بآمالٍ طوالِ أيّ آمالٍ

(٣) ديوانه ٤٨٢ .

رزقك لا يعدرك إماماً معجلاً على حاله يوماً وإماماً مؤخراً
وقال محمود الوراق :

علام يسعى الحريص في طلب الرزق بطول الرواح والدَّلَجِ
يا قارع الباب ربّ مجتهد قد أدمن القرع ثم لم يَلَجِ
فاطوِر على الهم كَفَّ مصطبر فآخِرُ الهمم أوّل الفرجِ

وقال عبد الصمد بن المعذل :

وأعلم أن بنات الرجا تحلّ العزيز محلّ الدليل
وأن ليس مستغنيا بالكثرة - ير من ليس مستغنيا بالقليل

قوله : الحوا : انظروا . كرهه : رجوعه . محاله : شدته ومعاداته وخداعه .
طمس : محا وأذهب . معلما : موضعاً مرتفعاً ، تعلم به الجهة التي هو فيها . طحطح :
أهلك وفرّق . عرمرم : جيشاً كبيراً . دمر : أهلك ، والدمار : الهلاك .

[ذم الدهر وما قيل فيه من الشعر والحكايات]

ونذكر بعض من ذم الدهر من ملوك الإسلام .

من ذلك أن سليمان بن عبد الملك لبس في يوم الجمعة لباساً شهريه ، ودعا
بفتحت فيه عمام ، وبيده امرأة ، فلم يزل يعمّ بواحدة بعد أخرى ، وأرخى سدولها ،
وأخذ بيده منحصرة ، واعتلى منبره ناظراً في عطفية ، وجمع حشمه ، وقال : أنا
الملك الشاب ، السيد الجعاج ، الكريم الوهاب . فتمثلت له إحدى جواريه ،
فقال : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ فقالت : أراه مني النفس وقرة العين ، لولا
ما قال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خلوت من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فاني

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من صلاته رجع ودعا الجارية ، وقال لها : ما حملك على ما قلت؟ قالت : والله ما رأيتك ولادخلت عليك . فأكبر ذلك ، ودعا بقية جواريه فصدّقنّها على ذلك ، فراعه ذلك ولم يبق إلا مُدبّدة حتى مات ^(١) .

الفضل بن الربيع ، قال : كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه ، فنزلنا بعض المنازل ، فدعا بي وهو في قُبّته إلى حائط ، وقال : ألم أنهمكم أن تدعوا الهامة تدخل هذه المنازل : فيسكتبون فيها ما لا خير فيه ، قلت : وما هو ؟ قال : ألا ترى ما على الحائط مكتوباً :

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضت سنوك ، وأمر الله لا بدّ نازل
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم يردّ قضاء الله أم أنت جاهل ؟

قلت : والله ما على الحائط شيء ، وإنه لنتى أبيض ، قال : والله ، قلت : والله . قال : إنها والله نفسى نعت إلى الرحيل ، بادربى إلى حرم الله وأمنه هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى ، فرحلنا ، وثقل حتى بلغ بئر ميمون ، قلت له : قد دخلت الحرم ، قال : الحمد لله ، وقُبض من يومه ، ولما حضرته الوفاة ، قال : هذا هو السلطان ، لاسلطان من يموت ^(٢) .

على بن يقطين ، قال : لما كنّا مع المهديّ بما سبذان ، قال لى : أصبحت جائعاً فأتيت بأرغفة ولحم بارد ، فأكل ونام في البهو ، فما استيقظ إلا لبيكائه ، فبادرنا فقال : أما رأيتم ما رأيتم ، وقف على رجل لو كان في ألف ما خفى على ، فقال :

(١) الخبر والشعر في العقد ٤ : ٣٧٥ . (٢) الخبر والشعر في المسعودى ٣ : ٣١٧

كأني بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ربعةً ومنازلهُ
وصار عميد الملك من بعد بهجةٍ إلى قبره تُحشى عليه جنادهُ
فلم يبقَ إلا ذكره وحديثه ينادى عليه معولاتٌ حلالهُ
فما أنت عليه عشرة أيام حتى توفي.

قال الأصمعي : دخلت على الرشيد يوماً ، وهو ينظر في كتاب ، ودموعه
تندد على خده ، فالتفت وقال : اجلس ، أرايت ما كان مني ؟ قلت : نعم ،
قال : أما إنه لو كان من أمر الدنيا مارأيت هذا ، ثم رمى إلى به ، فإذا فيه مكتوب
لأبي العتاهية :

يا مؤثر الدنيا بلذتها والمستعد لمن يفاخره^(١)
نل ما بدالك أن تنال من الدنيا فإن الموت آخره
هل أنت معتبر بمن خربت منه غداة قضى عساكره^(٢)
وبمن خلت منه أسرته وبمن خلت منه منابرهُ
أين الملوك وأين غيرهم صاروا مصيراً أنت صائرهُ

ثم قال : كأني أخطب بهذا دون كل الناس ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات.
ولما رجع الأمون من غزونه التي انتفع فيها أربعة عشر حصناً نزل على
عين تعرف بالعشيرة ، ينتظر رجوع رسله من الحصون ، فأعجبه برؤ ماها
وصفاؤه ، وحسن بياضه وكثرة الخضرة والخصب بالموضع ، وجلس على خشب
بسط له على الماء ، وطرح فيه درهم ، فقرأ كتابته في قرار الماء لصفائه ، ولم يقدر
أحدٌ يدخل الماء لشدة برده ، فلاحتمسكة نحو الذراع ، كأنها سبيكة فضة ، فنزل
بعض الفراءشين فأخذها ، فاضطربت في يده وتململت ، ووقعت في الماء ، فنضج
منه على صدر الأمون ، ثم أخذها ووضعها بين يديه في مندبل ، تضطرب ، فأمر

(١) ديوانه ١٢٣ والمسدودي ٣ : ٣٧٦ . (٢) الديوان : « دساكره » .

بأن تُقَلَى الساعة ، فأخذته رعدة من ساعته ، ولم يقدرْ يتحرك ، فغَطَّى بالحف ، وهو يرتعد ، ويصيح : البرد ، فأَتَى بالسمة فلم يقدر عليها ، وسال على جسمه عرق كالرَب لم يعرفه الأطباء ، فلما ثقل قال : أخرجوني أنظر إلى عسكري ، وأنظر إلى مالي وملكي ، وذلك ليلاً ، فأشرف على الجيش وانتشاره ونيرانه . فقال : يا مَنْ لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ، فلما ثقل رنا بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعاً ، فقال : يا مَنْ لا يموت ارحم مَنْ يموت ، وقَضِيَ عليه من ساعته ^(١) .

وكان كثيراً ما ينشد:

وَمَنْ لَمْ يَزَلْ غَرْضاً لَلْمَوِّ ن تَرَكُهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَمِيداً ^(٢)
وإن أخطأت مرة نفسه فيوشك مخطئها أن يعوداً
فينا يحيد وتخطئنه قصدن فأعجلنه أن يحيداً

وذكر أبو المواريث قاضي نصيبين ، أنه رأى في المنام ليلة قاتلاً ، يقول :
يا نائم الليل في جثمان يقظان ما بال عينيك لا تبكي بتهتان ^(٣)
إن الليل لم تحسن إلى أحدٍ إلا أساءت إليه بعد إحسانٍ
هلا رأيت صروف الدهر ما فعلت بالهاشمي وبالفتح بن خاقان
- يعني المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان - قال : فأتى البريد بقتلهما في تلك الليلة .

وقال سابق البربري :

وربّ أعيدَ ساجي الطرف معتصبٍ بالناج نيرانه للحرب تستعمرُ
يظلّ مفترش الديباج محتجباً إليه تبنى قباب الملك والحجرُ
قد غادرته المنايا فهو مستلبٌ مجنّدل ترب الخدين منعفرُ

* * *

(١) المسعودي ٤ : ٤٥ -

(٢) الأبيات للحسين بن الضحاك ، ديوانه ١١٣ .

هَمْه سَكُ الْمَسَامِعِ ، وَسَحَّ الْمَدَامِعِ ، وَإِكْدَاءُ الْمَطَاعِ ،
وإِرْدَاءُ الْمُسْمِعِ وَالسَّامِعِ . عَمَّ حُكْمُهُ الْمُلُوكَ وَالرَّعَاعَ ، وَالْمُسُودَ
وَالْمُطَاعَ ، وَالْمَحْسُودَ وَالْحُسَادَ ، وَالْأَسَاوِدَ وَالْأَسَادَ ، مَا مَوَّلَ
إِلَّا مَالَ ، وَعَكَسَ الْأَمَالَ ، وَمَا وَصَلَ إِلَّا وَصَالَ ، وَكَلَّمَ الْأَوْصَالَ ،
وَلَا سَرَّ إِلَّا وَسَاءَ ، وَلَوْمَ وَأُسَاءَ ، وَلَا أَصَحَّ إِلَّا وَلَدَ الدَّاءَ ،
وَرَوَعَ الْأَوْدَاءَ .

اللهُ اللهُ ، رَعَاكُمْ اللهُ ! إِيَّامَ مُدَاوِمَةِ اللَّهِو ، وَمُوصَلَةِ السَّهْوِ ،
وَطُولِ الْإِضْرَارِ ، وَحَمَلِ الْأَصَارِ ، وَاطْرَاحِ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ ، وَمُعَاصَاةِ
إِلَهِ السَّمَاءِ !

* * *

هَمْه : مراده . سك المسامع : قطع الآذان ، وقد سك أذنه ، إذا استأصلها
بالقطع ، والمقطوع الأذن ، يقال له : أَسَكْتُ ، وسككت الشيء فاستك ، أى سدّدته
فانسدّ . سَحَّ : صبّ . إِكْدَاءُ : قطع ومنع . إِرْدَاءُ : إهلاك . الرعاع : سقط
الناس . المسود : مَنْ ليس بسَيِّد . المطاع : الذى يقول ما أَرَادَ فيطاع ولا يعصى ،
الأساود : الحَيَات . والأساد : جمع أسد . مَوَّلَ : أعطى مالا . مال : انحرف
وخرج عن طريقه . عكس : قلب . الآمال : جمع أمل وهو الرجاء ، وقال
مسلم بن الوليد :

الدَّهْرُ أَخَذُ مَا أُعْطِيَ مَكْدَرُ مَا أَصْفَى وَمَفْسِدُ مَا أَهْوَى لَهُ يَبِيدُ^(١)
فَلَا يَفْرَنْكَ مِنْ دَهْرٍ عَطِيَّتُهُ فَلَيْسَ يَتْرُكُ مَا أُعْطِيَ عَلَى أَحَدٍ

وقال أبو تمام :

أقول لنفسي حين مالت بصفوها إلى خطراتٍ قد نتَجَنَ أمانياً^(١)
 فهبني من الدنيا ظفرتُ بكلِّ ما تَمَنَّيتُ أو أُعْطِيتُ فوقَ مُنَانِيَا^(٢)
 أليسَ اللَّيالي غاصباتي مُهْجَتِي كما غصبتُ قبلي القرون الخوالي

قوله : صَال : صاح وهذر . كَلَم : جرح . الأوصال : المفاصل ، وهو موصل
 نظم عضو في عضو . لَوَّم : صار لثيماً . رَوَّع الأوداء : أفرغ الأحاب . السَّهْو :
 الغلط . الإصرار : الإقامة على الذنب . الآصار : الأتقال ، يريد إقبال الذنوب .
 أطراح : ترك ورمى .

° ° °

أما الهرمُ حَصَادُكُمْ ، والتمدُّرُ مِهَادُكُمْ ! أما الحمامُ
 مُدْرِكُكُمْ ، والصِّراطُ مَسْلِكُكُمْ . أما السَّاعَةُ مَوْعِدُكُمْ ،
 والسَّاهِرَةُ مَوْرِدُكُمْ ! أما أهوالُ الطَّامَةِ لَكُمْ مُرْصَدَةٌ ! أما دارُ
 النُّصَاةِ الحُطْمَةُ المؤَصَّدَةُ ، حَارِسُهُم مَالِكٌ ، وَرَوَّاهُمْ حَالِكٌ .
 وطَعَامُهُمُ السُّمُومُ ، وهَوَاؤُهُمُ السَّمُومُ . لَا مَالٌ أَسْعَدَهُمْ وَلَا وَلَدٌ ،
 وَلَا عُدَدٌ حَمَّاهُمْ وَلَا عُدَدٌ . أَلَا رَحِمَ اللهُ امرأَةً مَلَكَ هَوَاهُ ، وَأَمَّ
 مَسَالِكَ هُدَاهُ ، وَأَخَكَمَ طَاعَةَ مَوْلَاهُ ، وَكَدَّ وَكَدَحَ لِرَوْحِ
 مَأْوَاهُ ، وَعَمِلَ مَا دَامَ الْعُمُرُ مُطَاوِعًا ، وَالذَّهْرُ مُوَادِعًا ، وَالصَّحَّةُ
 كَامِلَةً ، وَالسَّلَامَةُ حَاصِلَةً ، وَإِلَّا دَهَمَهُ عَدَمُ الْمَرَامِ ، وَحَصَرُهُ

(١) ديوانه ٤٨٤ ، وفيه : « قد فتجن » .

(٢) في الديوان : « هبني ... أمانيا » .

الكَلَام ، وإِلَام الآلَام ، وَحُوم الحِمَام ، وَهُدُوء الحَوَاس ، وَمِرَاس
الأَزْمَاس .

...

مسلِككم : طريقكم . السَّاهِرَة : وجه الأرض ، وقيل الأرض البيضاء .
المورد : موضع الماء الذي يَرِدُه الناس والبهائم ، ولا غناء لأحد عن قصد الماء ،
فجعل الساهرة مورداً على هذا المعنى . أهوال الطَّامَّة : مخاوف القيامة وما فيها
من التَّهْوُل والخوف ، وأصابَت الناس طامَّة أى داهية وأمر عظيم ، وقد طَمَّ
الأمر ، إذا عظم وجاوز الحدَّ . مُؤَصَّدَة : مُعَدَّة ينتظرون بها . والحُطْمَة : التى
تخطم الناس ، أى تكسِرُهم ، يعنى جهنم أعاذنا الله منها ، وهو اسم علم من
أسماء جهنم دخلته اللام إيذاناً بالصفة . المؤَصَّدَة : المغلقة . رواؤهم : منظرهم الحسن .
حالك : أسود . السَّمُوم : جمع سَمٍّ . والسَّمُوم : الريح الحارة . أم : قصد .
أحكم : أتقن . كدح : عمل . رَوْح مأواه : راحة مسكنه . موادعا : متاركا
ومصالحاً . قال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل
يعظه « اغتصم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ،
وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك » .

دهمه : غشيه وأتاه فجأة ، ودهمه يدهمه لفة . المرام : المطلب . حصر :
حبس . إلام : نزول . الآلام : الأسقام : مُحُوم الحِمَام : دنو الموت . هدو :
سكون . الحواس : الإدراكات ، وهى التى يحسّ بها الإنسان الأشياء ويدركها
وهى خمسة : العين يدرك بها النظر ، والأنف والأذن يدرك بها الشم ، والسمع
واللسان واليد يدرك بهما الذوق ، واللمس ، فيريد أن هذه الجوارح تَسْكُنْ
بالموت ولا تتحرَّك .

[مما قيل في عجز الأطباء حين ينجى الأجل]

ونشد هنا أبياتاً لها بالموضع بعض تعلق ، ونذكر فيها الأطباء الذين لا حيلة لهم في الموت ، قال عدى بن زيد :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عادّ من بعدهم وثمود^(١)
بينما هم على الأدرّة والأنساط أفضت إلى التراب الخدود
والأطباء بعدهم لحقوهم ضلّ عنهم سعوّطهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموت ممن يعود

وقال الخليل بن أحمد :

فكن مستعداً لداعى الفناء فإن الذى هو آت قريب^(٢)
وقبلك داوى المريض الطبيب فعاش المريض ومات الطبيب

ولابن الرومى - وفصده بعض الأطباء ، فزعم أن الفصد زاد في علته ، فقال :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت مواردُه عن الإصدار^(٣)
والناس يلحون الطبيب وإنما غلطُ الطبيب إصابة المقدار

وقال غيره :

قد قلتُ لما قال لي قائلٌ قد صار نُعمان إلى رمسه
فأين ما يُذكرُ من طبه وحذقه بالماء مع جسّوا

(١) ديوانه ١٢٢ .

(٢) نزّهة الألباء ٤٧ .

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٥٢ .

هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ومنه قول الآخر :

أقول لنعمان وقد ساق طيِّبه نفوساً نفيسات إلى باطن الأرض
أبا منذرٍ أفنيت فاستبقِ بعضنا حنّاتيك بعض الشرّ أهون من بعض^(١)

ويحكى أن القاضي ابن منظور بلغه أن أبا العلاء بن زهر مرض فضحك ،
وقال : فأين طيِّبه ؟ فبلغت أبا العلاء فقال :

قالوا ابن منظور تبسّم هازئاً لما مرضت فقلت يعثر من مشى
قد كان جالينوس يمرض دائماً فمن الإمام المرتضى قبل الرشا
وقال المتنبي :

لا بدّ للإنسان من ضجّة لا تقلب الإنسان عن جنّبه^(٢)
ينسى بها ما مرّ من عَجبه وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا نبخل أدينا بأرواحنا
فبهذه الأرواح من جَوْه يموت راعي الضأن في جهله
أصيب الجرمي في عينيه فقال :

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فبعض الشيء من بعض قريب
يتمنّي الطيب شفاء عيني وما غير الإله لها طيب

* * *

قوله : مِراس ، أصله معالجة الشيء الشديد ، وكل شيء التصق بشيء

(١) هذا البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ .

(٢) ديوانه ١ : ٢١٠ .

واحتكَّ به فقد مارسه . ومرست الدواء بالماء : دلّكته . والأمراس : القبور ، واحداها رمس ، فيريد بها ما يلقاه الإنسان في قبره من الدواهي ، وتقدّمت في الحادية عشر ، ويروى : الأمراس : جمع مرس ، وهو حبل من ليف يُقتل على ثلاثة . مراسه : جريانه على البكرة ، فالبكرة تأكل قوته كل يوم فتقطعه ، كما أن الأبيام تأكل قوة ابن آدم فتقطعه ، فإذا مات أكل بدنه القبر .

* * *

واهاً لها حَسْرَةٌ أَلَمُهَا مُؤَكَّد ، وَأَمَدُهَا سَرْمَد ، وَمَمَارِسُهَا مُكَمَّد ، مَالُولِهِ حَاسِم ، وَلَا لِسَدَمِهِ رَاحِم ؛ وَلَا مِمَّا عَرَاه عَاصِم ، أَلْهَمَكُمُ اللَّهُ أَحْمَدَ الْإِلْهَام ، وَرَدَّاكُمْ رِذَاءَ الْإِكْرَام ، وَأَحْلَسَكُمْ دَارَ السَّلَام ، وَأَمَثَلُهُ الرَّحْمَةَ لَكُمْ وَلِأَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَام ، وَهُوَ أَسْنَحُ الْكِرَام ، وَالْمُسْلِمُ وَالسَّلَام .

. . .

آها : كلمة توجع . حسرة : فجعة ، والهاء في « لها » كناية عن الحسرة أضمرها بشرطة التفسير ، أى ما أعظمها من حسرة ، آها ، أى تأوَّها . أَلَمُهَا مُؤَكَّد ، أى وجعها شديد متتابع . سرمد : دائم . ممارسها : معالجها ومخالطها . مكمد : مهموم محزون . وله : حزنه . حاسم : مزيل قاطع . سدمه : حيرته ، عراه : قصده . عاصم : مانع . أَلْهَمَكُمُ : ذكركم ونبّهكم . أَحْلَسَكُمْ : أنزلكم . دار السلام : الجنة ، من دخلها سلم من العذاب وبقي في سلامة . ملة : دين . أَسْنَحُ : أكرم . السلام : الذى هو من أسماء الله سبحانه وتعالى ، ومعناه المسلم لعبده أو هو على حذف المضاف ، ومعناه ذو السلام ، أى صاحب السَّلام ، ويحتمل أن يريد به

اللفظة التي يقطع بها الكلام ، كما تقول لمن تقطع كلامه : والسلام ، أى لا زيادة عندي على هذا ، أو أردت : والسلام عليكم . فحذفت اختصاراً .

وفى تأويل « السلام عليكم » وجهان : أحدهما أنه اسم الله بمعنى « الله تعالى عليكم » ، أى على حفظكم ، أو بمعنى السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة قال ابن الأنباري : السلام في كلام العرب على أربعة أقسام : السلام التسليم ، تقول : سلمت سلاماً ، والسلام الله تعالى ، والسلام جمع سلامة ، والسلام شجر عظام واحدها سلامة قال الأخطل :

ورابية السكران فقرئوا بها لهم شبحٌ إلا سلامٌ وحرملٌ^(١)

* * *

قال الحارث بن همام : فلما رأيت الخطبة فجةً بلا سقَط ، وعروساً بغير ثَقَط ، دعاني الإعجابُ بنمطها العجيب ، إلى استجلاء وجه الخطيب ، فلخذتُ أتوسمه جدّاً ، وأقلبُ الطرف فيه مجدّاً ، إلى أن وضح لي بصدقِ العلامات ، أنه شيخنا صاحب المقامات ، ولم يكن بُدٌّ من الصمت ، في ذلك الوقت ؛ فأمسكتُ حتى تحلّل من الفرض ، وحلّ الانتشار في الأرض ، ثم واجهتُ تلقاءه ، وابتدرتُ لقاءه .

فلما لحظني خفّ في القيام ، وأخفى في الإكرام ؛ ثم استصحبني إلى داره ، وأودعني خصائص أسرارهِ ، وحين انتشر جناح الظلام ،

(١) ديوانه ٢

(٢) السكران : موضع بالهام . والحرمل : نبت .

(٢٣ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

وَحَانَ مِيقَاتُ الْأَنَامِ ، أَحْضَرَ أَبَارِيقَ الْمُدَامِ ، مَعَكُومَةً بِالْفِدَامِ .
فَقُلْتُ : أَتَحْسُوهَا أَمَامَ النَّوْمِ ؛ وَأَنْتَ إِمَامُ الْقَوْمِ ! فَقَالَ : مَهْ ؛ أَنَا
بِالنَّهَارِ خَطِيبٌ ، وَبِاللَّيْلِ أَطِيبٌ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا أَدْرَى : أَعْجَبُ مِنْ
تَسْلِيكِكَ عَنْ أَنَاسِكَ ، وَمُسْقُطِ رَأْسِكَ ، أَمْ مِنْ خَطَابَتِكَ مَعَ أَذْنَانِكَ
وَمَدَارِ كَلَامِكَ .

* * *

نَجْبة : مخْطارة . سَقَطَ : لفظ ردى . استجلاء : نظر . أتوسمه : أنظر سمته ،
أى علامته التى يعرف بها . جدًا : كثيرًا . مجدًا : مجتهدًا . وضع : تبين .
ذو المقامات : صاحب المجالس . البُدَّ : الفرار ، قال القراء رحمه الله تعالى : يقال :
لا بُدَّ اليوم من قضاء حاجتى ، أى لا فرار ، ويقال : ليس لهذا الأمر بُدٌّ ، أى لا محالة .
الصمت : السكوت والإنصات لاستماع الخطبة فرض عند الشافعى رضى الله
عنه لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ^(١) أى لاستماع
الخطبة .

وقال جماعة من المفسرين : إنه إنما نزلت الآية فى السكوت لاستماع الخطبة .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا قُلْتَ
مُصَاحِبَكَ وَالْإِمَامَ يَخْطُبُ : أَنْصِتْ فَقَدْ لَفُوتُ » .

أبو هريرة وأبو سعيد ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« مَنْ خَرَجَ إِلَى الْجُمُعَةِ وَعَلَيْهِ الْوَقَارُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، ثُمَّ أَنْصَتَ إِلَى أَنْ جَلَسَ الْإِمَامُ ،
فَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَنْزِلَ ، ثُمَّ صَلَّى الْجُمُعَةَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا » .

(١) سورة الأعراف ٢٤١

تَحَلَّل من الفرض : تَخَلَّص من الصلاة . الانتشار : انحلال الجوع من الصلاة
وانبساطهم على الأرض . ميقاته : وقته . معكومة : مشدودة ، وعكمت البعير
شدت فيه ، والوعاء : شددت رأسه . الفِدام : خرقه يشدّ بها فم الإبريق ليصنّى
ما فيه . تحسوها : تشرّبها . وأنت إمام القوم : توبيخ له على قبح فعله مع الفضل
الذى سَبَق له ، والعيب الكبير يصغر في حق أهل الريب ، كما أَنَّ الصغير يعظّم
في حق أهل المروءات ، وقال المتنبي في المعنى وإن كان من غير الباب :

وما يُوجع الحرمان من كفّ حازِمٍ كما يوجع الحرمان من كفّ رازِقٍ^(١)
وقال المخزومي :

والعيبُ في الجاهل المغمورِ مغمورٌ وعيبُ ذي الشرف المذكور مذكورٌ
كفوفة الظفر تحنّ من حقارتها ومثلها في سواد العين مشهور
وقال إبراهيم بن المهدي :

نولا الحياء وأننى مشهورٌ والعيب بالرجل الكبير كبيرٌ
لحلتُ منزلة الذي يحتله ولكان منزلنا هو المهجورُ
مه : اسكت ، ومعنى قوله : أنا بالنهار خطيب ، وبالليل أطيّب ، مما وقع في
كتاب مفتاح السرور والأفراح ، حكاية عن بعضهم أنه قال : رأيت قاصّاً يقص
غداة يوم ، ثم رأيت بالعمش في حانة والقَدَح في يده ، فقلت : ما هذا ؟ فقال :
أنا بالغداة قاصّ ، وبالعمش عاص .

ومن ذلك ما كتب به يحيى بن خالد لابنه الفضل حين بعث فيه أهلاً
خُراسان كتاباً إلى الرشيد : إنه مشغول بالصيد وإدمان اللذات ؛ فرمى به إلى يحيى
وقال : يا أبتِ اكتب إليه بما يردعه ، فكتب على ظهر الكتاب :

(١) ديوانه ٢ : ٣٤٢ .

(٢) الفوف : البياض الذي يكون في أظفار الأحداث .

حفظك الله يابني ، وأمتع بك . فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه
من التّشاغل بالصيد وإدمان اللذات ، فعاود ما هو أليق بك وأزين لك ، فإنه من
عاد إلى ما يزيّنه ، وترك ما يشينه ، لم يعرفه أهل دهره إلا به . وقد قلت أبياتاً
فالتزمها ، وإن جاوزتها عزلتك عن سخط ، ولم أكلمك حولاً ، وكتب إليه :

انصب نهاراً في طلاب العُلا	واصبر على فقد لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليل أتى مقبلاً	واستترت فيه عيون الرقيب
فباشِرِ البهّل بما تشتهي	فإنما الليلُ نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً	قد لقيَ الليلَ بأمر عجيبِ
ألقى عليه الليلُ أنوابه	فبات في لهُوٍ وعيش خصبِ
ولذة الأحق مشهورة	يرصدها كلّ حسود رقيب

فامتثل ما فيها حتى عزل عنها .

وقال الخولاني في ضده :

أنت الذي قسمَ الزمان لنفسه	قسمين بين رياسة ومَتَابِ
أعطى لمرتبة العلاء نهاره	منها وجنح الليل للحراب

وقال الفنجديهي في قوله : أنا بالنهار خطيب وبالليل أطيّب ، معناه أنا
صالح المنظر ، فاسد الخبَر ، أنظر في مرآة المراعات ، وأستبر مساواة المساءات ،
وأديم المناجاة جُلوة ، وأقيم المداجاة خلوة ، أمر الناس بالرشاد ، وأنا أتوسّد
وسادة الفساد .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حِينَ يَرَاهُ النَّاسُ ، ثُمَّ أَسَاءَهَا حِينَ يَخْلُو ، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ
يَسْتَهِنُ بِهَا رَبُّهُ » .

قوله : تسدّيك عن أناسك ، أى اشتغالك عن أهلك وبلدك ، وهو مسقط رأسه ، أى الموضع الذى سقط فيه رأسه عند ولادته . خطابتك : فصاحتك فى خطبتك . إدناسك : عيبك وتلطّيح عرضك . مدار : دورانه فى أيدي الشارين .

* * *

فأشاح بِوَجْهِهِ عَنِّي ، وقال : اسمع مِنِّي :

لَا تَبْكِ إِنْفَا نَأَى وَلَا دَارًا وَدُرُوعَ الدَّهْرِ كَيْفَمَا دَارَا
وَاتَّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمَثَلِ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارَا
وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقٍ مِّنْ تَعَاشِرِهِ وَدَارِهِ فَاللَّيْبُ مَن دَارَى
وَلَا تُضِيعْ فُرْصَةَ السُّرُورِ فَا تَذَرِي : أَيَوْمًا تَعِيشُ أَم دَارَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَنُونَ جَائِلَةٌ وَقَدْ أَدَارَتْ عَلَى الْوَرَى دَارَا
وَأَقْسَمَتْ لَا تَزَالُ قَانِصَةً مَا كَرَّرَ عَصْرُ الْحَيَا وَمَا دَارَا
فَكَيْفَ تُرْجَى النِّجَاةُ مِنْ شَرِّكَ
لَمْ يَنْجُ مِنْهُ كِسْرَى وَلَا دَارَا

* * *

أشاح : نحى معرضاً ، وأشاح فى الأمر : صمم عليه .

إِنفَا : صاحباً . نَأَى : بَعُدَ ، يقول له جواباً لِلْوَمَةِ : لا تبكى صاحباً بَعُدَ عنك ، ولا منزلاً تَقَرَّبْتَ عنه ، وتقلب مع الدهر كما يتقلب مع أهله . وَدُرُوعَ ، من الدوران . سَكَنًا : أهلاً وإلفاً تسكن إليه . وَمَثَلِ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارَا ، أى

بلداً ، والدار البلد في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ ﴾ ^(١) وتمدَّعُوا في داركم ^(٢) . داره : لا يَنْفَعُه وسائسه . اللبيب : العاقل . دارى : أحسن مخالطة الناس ، وأصلها الخداع ، تقول العرب : دريت الصيد أدريه دريكا ، وداريته أداريه مداراةً ، والدرية بعير يقعد عنده الصائد ، يستتر به فيجىء الصيد فيأنس بالبعير ، فيرميه من قرب . وكان الحسن يقول : المداراة تستحلب مودة القلوب فتخدعهم في عقولهم . وفي الحديث : « أحبُّ الناس تحبُّباً إلى الله أكثرهم تحبُّباً إلى الناس » وفيه : « إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلى الناس » .

وقال ابن عبد ربه :

وجهٌ عليه من الحياء مهابةٌ ومحبةٌ تجرى مع الأنفاس ^(٣)
وإذا أحبَّ الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس

كتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص : إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى الناس ، واعتبر منزلك من الله بمنزلك من الناس ، واعلم أن مالك من الله بمنزلة ما للناس عندك .

وقال بعضهم : أتيت الخليل فوجدته على طنفسةٍ صغيرة ، فوسَّع لى ، فكرهت أن أضيِّق عليه فتأخرت ، فأخذ بمضدى ، وقد مَنى إلى نفسه ، وقال : لا يضيِّق سمَّ الخياط بمتحابين ، ولا تسع الأرض متباغضين ، أخذه ابن عبد ربه فقال :

صِلْ مَنْ هُوَ بِكَ أَبَدَى مَبَاغُضَةً فَأَطِيبَ الْعِيشَ وَصِلْ بَيْنَ الْفَيْنِ ^(٤)
واقطع حبال خدنٍ لا تلائمه فقلماً تسع الدنيا بغيضين

(٢) سورة هود ٦٥ .

(١) سورة النكبات آية ٣٧

(٣) العقد ٢ : ٣١٦

ولأبي محمد بن أبي الوليد الملقب :

صيرَ فؤادك للمحبوب منزلةً سَمَّ الخياطَ مجالاً للمحبين
ولا تسامح بغيضا في معاشرته فقلما تسع الدنيا بغيضين
ولا بن الزقاق :

ألا أدنُ وإن ضاق الندى فإنه رحيب بودَ ضُمَّنته الأضالعُ^(١)
يضيق الفضاعن صاحبين تباغضا وسمَّ خياطٍ بالحبيبين واسع
وقال التهامي :

بين الحبين مجلسٌ واسعٌ والودَّ حال يقرب الشاسعُ^(٢)
والبيت إن ضاق عن ثمانية متسع بالوداد للتاسع
فرصة : نهزة وغنيمة . دارا : دهرأ وقال السري^(٣) .

قم فانتصف من صروف الدهر والنوب
 واجمع بكأسك بين اللهو والطرب^(٤)
واخلع عذارك واشرب قهوة مزجت بقهوة الفجاج الميسول والشنب
توَّج بكأسك قبل الحادثات يدي فالكأس تاج يد المثرى من الأدب
جائلة : دائرة .

[ذكر كسرى]

كسرى ، اسم ملك الفرس ، وكسرى ملك الملوك أنوشروان بن قباد بن

(١) ملحق ديوانه ١٤١ . (٢) لم أجدها في ديوانه

(٣) ديوانه ٢٦ (٤) بعده في الديوان

أما ترى الضبح قد قامت عساكره في الشرق تنشر أعلاما من الذهب
والجو يخنأل في حجب متمسكة كأنما البرق فيها قلب ذي رعب

فيروز بن يزدجرد بن بهرام ، الملك العادل ، ملك العرب والمعجم ، كان موصوفاً بالعدل ، معروفًا بحسن الرعاية والفضل ، وشهرته في كتب الآداب مغنية في ذكره عن الإطناب . قيل : كان مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة مضت من ملكه ، وملك تسعاً وأربعين سنة .

وكسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، كان ملكاً شديداً البطش ، نافذ الرأي ، قد بلغ من الظفر ومسالمة الدهر حدًا لم يبلغه ملك من الملوك ، كان ملكه ثمانى وثلاثين سنة .

وفي سنة ثلاثين من ملكه بُعث نبينا صلى الله عليه وسلم .

وحدث خالد بن ربوة - وكان رأساً في الجوس ، فأسلم - قال : كان كسرى إذا ركب ركب معه رجلان ، فيقولان له ساعتئذ : أنت عبدولست برب ، فيشير برأسه أن نعم ، فركب يوماً ، فقالا ذلك له فلم يُشر برأسه ، فشكواه إلى صاحب الشرطة ، فركب ليعانيه . وكان كسرى قد نام فلما وقع صوت حوافر الدواب في أذنه استيقظ ، فدخل عليه صاحب الشرطة ، فقال : أيقظتموني ، إني رأيت كأنه رُقيَ بي فوق سبع سموات ، فوقت بين يدي الله تعالى ، وإذا رجل بين يديه ، عليه إزار ورداء ، فقال لي : سلّم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا ، أأست الأمور بكذا فلم تفعل ! وإني أردت أن أقولها فاستردّها مني فأيقظتموني . وصاحب الإزار والرداء هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعث له رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس ، وكتب له : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبي إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإني

رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ،
فأسلم تسليماً ، فإن أبيت فإن إثم الجوس عليك .

فلما قرأ الكتاب شقه ، وقال : يكتب إلى بهذا وهو عبدى ! فبلغ الخبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مَزَّقَهُ مَزَّقَ اللَّهُ مَلَكَهُ » . أو قال : « اللهم
مَزَّقْهُمْ كُلَّ مَزَّقٍ » .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمين : أن ابعث إلى هذا الرجل
الذى بالحجاز رجلين جلدَيْن يأتينى به . فبعث باذان قهرمانه - وكان كاتباً حاسباً ،
وهو بابومة ، وبعث معه برجل من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبابومة : ويلاك ! انظر
من الرجل ، وكلمه ، واثنتى بخبره . فخرجا حتى قدما الطائف ، فسألا عنه فقالوا :
هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف ، وقالوا : نصب له كسرى ، كفيم الرجل ،
فخرجا حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمه بابومة وقال :
إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى باذان يأمره أن يبعث إليك من
يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق مئى ، فإن فعلت كتبت فيك إلى ملك
الملوك بكتاب ينفعك ، ويكف عنك به ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، وهو
مهلكك ومهلك قومك ، ومخرّب بلادك . فقال لهما : ارجما حتى تأتيا غداً .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر أن الله تعالى قد سلط على كسرى
ابنه شيرويه ، فقتله في ليلة كذا في شهر كذا ، بعد ماضى من الليل كذا ، سلط
الله عليه ابنه ، فقتله . فقالا : هل تدري ما تقول ؟ فإننا قد خفنا منك ما هو أيسر
من هذا ، أفنكتب به عنك ونخبر الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عني وقولا
له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما يبلغ ملك كسرى ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك
الناس تحت يدك ، ومملكتك على قومك من الأبناء . فخرجا من عنده حتى قدما
على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل

نبيًا ، فإن كان ما قال حقًا ، فهو نبي مرسل ، فإن لم يكن فسأرى فيه رأيا . فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه ، وفيه : أمّا بعد ، فإنني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبًا لفارس ، ممّا كان استحلّ من قتل أشرافهم ؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممّن قبلك ، وانظر إلى الرجل الذي كتب لك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فقال باذان : إنّ هذا الرجل لرَسُول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس .

وكسرى أنوشروان هو الذي بنى سورَ الأبواب وهو من عجائب الدنيا فلما بناء هادته الملوك وكاتبته . وهو الذي افتتح كثيرًا من بلاد الشام الرومية ، ونقل منها الرخام إلى العراق . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ولد لاثنتين وعشرين سنة من ملكه ، وقيل : إنه ولد في آخر ملكه كما قدّمنا .

ثم ولى من بعده ابنه هرمز ، وكان مضعّفًا ، غزته الملوك وطمعت فيه ، ثم خلعتهُ الفرس ، وسملت عينيه .

وعقد الملك لابنه أبرويز في حياته ، فبعد حروب شديدة اجتمع لأبرويز أمره ، وكان وزيره بُرْزُجهر أ كثر الفرس حكما ومواعظ .

وفي ملكه كانت وقعة ذى قارين بكر بن وائل ، والهرمز صاحب أبرويز ، لأربعين سنة لمولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل إنها كانت في غزوة بدر - وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نُصيرت » .

وكان على مرتبط أبرويز خمسون ألف دابة وألف فيل ، فخرج في أحد أعياده ، وقد صفّت له الجيوش وأحدثت به مائة ألف فارس دون الرجال ، ووصّفت له الفيلة ، فلما بعُثرت به سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى رفعت خراطيمها بالحاجن ، فأعلم بذلك وقال : وددت أنها فارسية ، ولم تكن هندية ، انظروا إلى

أدبها من بين سائر الدواب . ثم هدم الله تعالى هذا الملك العظيم بالإسلام ،
قال الألبيري :

فطفِ البلاد لكى ترى آثارَ مَنْ قد كان يعمُرُها من الأقبالِ
عصفت بهم ريجُ الرَّدَى فذرتهمُ ذَرَوُ الرياحِ المَوْجِ حقفِ رمالِ
فتقطعت أسسُ بابهم وتمزَّقتْ ولطالما كانوا كنظم لآلى

قيل لأبرويز - وكان حكيما : ماشهوه ساعة ؟ قال : الجماع ، قيل : فما شهوة
يوم ؟ قال : دخول الحمام ، قيل : فما شهوة جمعة ؟ قال : غسل الثياب ، قيل :
فما شهوة شهر ؟ قال : تجديد الثياب ، قيل : فما شهوة سنة ؟ قال : تزوج الأبقار .
قيل : فما شهوة الأبد ؟ قال : أمّا في الدنيا فمشاهدة الإخوان ، وأمّا في الآخرة
فنعيم الجنة .

ونظر إلى قذاة في طعام ، فدعا الطباخ فقال : ما هذا ؟ فقال : حاولته بالليل
في وقت لم يكن فيه ماء معين ، فأمر بضرب عنقه ، فغضب الطباخ ؛ وقال :
يا بن الأشتوربان - تفسيره يا بن سائس الدواب - فغفا عنه ، وقال : إنا معشر
الملوك نعاقب في الصغير ، ونعفو عن الكبير .

[ذكر دارا]

وأما دار بن دارا بن بهمن ، وهو آخر ملوك الفرس الأول ، فإنه كان ضخم
الملك ، ذا قدرة ومكانة ، وهو الذى بنى بأرض الجزيرة مدينة دارا مجرد ، وكانت
جنده ستمائة ألف ، ولقبه الإسكندر بالجزيرة ، فدارت بينهم الحروب أربعين يوما ،
وخندق دارا على عسكره خمس خنادق ، وجعل على كل خندق اثني عشر ألف
رجل ، وكانت النوبة لاتصيب الرجل إلا يوما في كل خمسة أيام ، فوجد
الإسكندر من ذلك جدّا شديداً ، فبعث إلى دارا : إنا كدنا نتفانى ، ورأيت

رأيا فيه البقاء لنا ولك ، وذلك أن تفرج لى ، فأخرق صفك خرقا إلى جانب بلادك ، وأرجع إلى بلادى ، فإننا لانرى الفرار من الزحف ، وهو عار لا يفسل . فأجابه دارا : لا سبيل إلى ذلك . فلما رأى الإسكندر ذلك وضع البرنس ، وحسر عن رأسه ، وقال : يامعشر الروم، هذا هو العجز والذلّ عن الانتصار ، هل فيكم من يحتال لى فى هذا الأمر ، وله نصف مال الروم والمعجم ، ونصف مافى بيوت الأموال ؟ فقد أدركتنى الحمية . فبلغ الخبر إلى صاحب حرس دارا فقال : أنا أنعل ذلك وأخذ مالا عظيما . فلما التحم القتال حمل على دارا فطعنه بحربة فى ظهره ، فوقع على الأرض وانهزم عسكر دارا . فجاء الإسكندر ووضع رأس دارا فى حجره ، ومسح التراب عن وجهه ، وقبّله وبكى ، وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قتلك على يدى ، ولا على يد أحد من جنديى ؛ فسل ما بدا لك أقضه ، فقال له دارا : من حاجتى عندك ألاّ تخرب بيوت النيران ، وأن تنصفنى من قاتلى قبل موتى ، فإنه إن بقى عندك سيكفر معروفك ، كما كفر معروفى . فقال له الإسكندر : حاجتى عندك أن تزوجنى بنتك ووشنك ، فقال دارا : على أن تجعل الملك من بعدك لولدك منها ، فأجابه إلى ذلك وزوجه ابنته ، وأخذ الإسكندر قاتله وقطعه أربع قطع ، واستولى على جميع مملكته .

وملك دارا أربع عشرة سنة ، وقيل : ست سنين ، وقسم الإسكندر غنائم عسكره فى ثلاثين يوما . وشاور الإسكندر معلمه أرسطاطاليس فى أن يقتل من بقى من الفرس ، فقال له : لاتفعل ، ولكن ولّ على كلّ جهة شريفاً من أهلها فيتنافسون ، فلا يجمعهم ملك أبداً ، ففعل فهم ملوك الطوائف ، حتى انتزع أردشير منهم الملك ، وقال : إن كلمة فرقنا خمسمائة سنة وتسع عشرة سنة - يعنى كلمة أرسطاطاليس - لكلمة بالغة .

وملوك الفرس الأول ستة عشر ملكا ، وملوك الفرس الثوافى اثنان وثلاثون ،

منهم امرأتان . وملك بعد أردشير سابور ، وهو من عظمائهم ، ففتح الحصون ومدن المدن ، وبنى الإيوان وهو بالجانب الشرقي من المدائن ، وهو من عجائب البنيان ، وعجائب الفرس كثيرة ، وفي هذه النبذة غنية توافق ما شرطنا .

قَالَ : فَلَمَّا اعْتَوَرْتَنَا الْكُثُوسَ ، وَطَرَبَتِ النُّفُوسَ ، جَرَّعَنِي الْيَمِينَ
الْعَمُوسَ ، عَلَى أَنْ أَحْفَظَ عَلَيْهِ النَّامُوسَ . فَاتَّبَعْتُ مَرَامَهُ ، وَرَعَيْتُ ذِمَامَهُ ،
وَنَزَلْتُهُ بَيْنَ الْمَلَأِ مَنْزِلَةَ الْفَضِيلِ ، وَسَدَلْتُ الذَّيْلَ عَلَى نَحَازِي اللَّيْلِ ،
وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابَّةً وَدَابِي ، إِلَى أَنْ تَهَيَّأَ إِيَّابِي . فَوَدَّعْتُهُ وَهُوَ مُصَرَّرٌ عَلَى
التَّدْلِيسِ ، وَمُسِرٌّ حَسَوًا الْخَنْدَرِيسَ .

قوله : اعتورتنا ، أى قصدتنا ودارت علينا .

الْعَمُوسُ : الشديدة ، وهى فى الجاهلية التى تغمس صاحبها فى العار ، وفى
الإسلام تغمس صاحبها فى الأوزار ، والْعَمُوسُ ارتباط الشيء فى ماء ، أو صبغ
حتى اللقمة فى الخل .

والْعَمُوسُ قيل إنها اليمين التى يقطع بها الرجل حق غيره . فيحلف كاذبا .
الليث رحمه الله : هى اليمين التى لا استثناء فيها ، وفى الحديث : « اليمين
الْعَمُوسُ تدع الديار بلاق » ، أى قفراً فارغة من كل رزق .

والنَّامُوسُ : إظهار فعل الخير ، وتنامس الرجل إذا ظهر بما لا يعتقد ،
وأصل النَّمَسِ السَّتر ، وكل شيء سترت به شيئاً فهو ناموس له ، وناموس الرجل
صاحب سره ، ويقال : لصاحب سرّ الخير ناموس ولصاحب سرّ الشر جاسوس .
قال أبو عبيدة : هما بمعنى .

غيره: الناموس: صاحب سر الملاك، وقد نمس ينمس نمسا، ونامسته منامسة.
مرامه: مطلبه ومراده. رعيت ذمامه: حفظت حقه، وما بيني وبينه مما يجب
أن يراعى. الملاء: الجماعة.

[ذكر الفضيل]

الفضيل: هو ابن عياض التميمي، كنيته أبو علي، وهو ممن شهر بالزهد
والخير، وهو من رجال رسالة القشيري، قال صاحبها أبو علي: خراساني من
ناحية مرو، ولد بسمرقند، ومات في الحرم سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان شاطراً يقطع الطريق، وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو ذات
يوم يرتقى الجدار إليها، إذ سمع نالياً يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ
لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١)، فقال: يارب قد آن، فرجع فأوى إلى خربة،
فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً في
الطريق فيقطع علينا، فأَمَّهم وسار معهم حتى بلغوا، وجاور الحرم.

قال الفضيل: إذا أحبَّ الله عبداً أكثر همَّه، وإذا أبغض عبداً وسَّع
عليه دنياه.

وقال: الكامل المروءة من برِّ والديه، وأصلح ماله، وأنفق ماله وأنفق
من فضله، وأكرم إخوانه، وحسن خلقه، ولزم بيته.

وقال: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت، وقلت: أخلو برِّي، وإذا أبصرت
الصبح استرجعت كراهة أن يجيء من يشغلني.

واطلع عليه بعض إخوانه من كوة ولحيته تقطر دموعاً، فقال: يا هؤلاء،

(١) سورة الحديد ١٦.

ليس هذا زمن حديث إنما هو زمن : احفظ لسانك ، وعالج قلبك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر .

وقال : لو أن الدنيا بخذا فيرها عُرِضَتْ عَلَىَّ لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثيابه .

وقال : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس هو الشرك .

قال أبو عليّ سليمان الدارانيّ : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيت ضاحكا ولا متبسّما إلا يوم مات ابنه عليّ ، فقلت له في ذلك ، فقال : إن الله تعالى إذا أحبَّ أمراً ابتلاه .

وقال : إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى .

وأخباره كثيرة ، وهذه اللمعة دالة عليها .

قوله : سدت ، أى أرخيت . مخازى : قبائح ، وما يخزى عليها فاعلها .
لو اطلع على فعله . دأبه ودأبى : عادته وعادتي . إياي : رجوعى . مصر : مقيم
التدليس : تلبيس الأمر وكتمان العيب .

ويشبهه عدل ابن همام السروجي في شرب الخمر ثم مساعدته إياه بمد لومه
وشربه معه ، قول ابن أبي ربيعة^(١) ، وهو أحسن ما قيل في المساعدة :

وخلّ كنتُ عينَ النصح منه إذا نظرتُ ومستمعا سمياً
أطاف بغيّه فنهيت عنها وقلت له : أرى أمراً شنيعاً
أردت رشاده جَهْدِي فلما أبى وعصى أتيناها جميعاً

(١) ديوانه ٤٩٥ .

وقال أعرابي :

وكنـت إذا علقت حبال قومـي صـحبـتـهمُ وشيـعـتـي الوفاء
فأحسـنُ حينَ يحسـنُ محسـنـوم وأجـتـنبُ الإساءة إن أساءوا
أشـاء سـوى مشيـتـهم فآتـي مشيـتـهم وأترك ما أشاءُ

المقامة التاسعة والعشرون وهي الواسطية

حكى الحارث بن همام قال : أَلْجَأْنِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ ، إِلَى أَنْ
أَتَجِيعَ أَرْضَ وَاسِطٍ ، فَقَصَدْتُهَا وَأَنَا لَا أَعْرِفُ بِهَا سَكَنًا ، وَلَا أُمْلِكُ
فِيهَا مَسْكَنًا . وَلَمَّا حَلَلْتُهَا حُلُولَ الْحَوْتِ بِالْبِيدَاءِ ، وَالشَّعْرَةَ الْبَيْضَاءِ
فِي اللَّمَّةِ السُّودَاءِ ، قَادَنِي الْحِظُّ التَّاقِصُ ، وَاجْتَدُ النَّاكِصُ ، إِلَى خَانٍ
يَنْزِلُهُ شُدَّاذُ الْآفَاقِ ، وَأَخْلَاطُ الرِّفَاقِ ، وَهُوَ لِنِظَافَةِ مَكَانِهِ ، وَظَرَاةِ
سُكَّانِهِ ، يَرْغَبُ الْغَرِيبَ فِي إِيطَانِهِ ، وَيُنْسِيهِ هَوَى أَوْطَانِهِ .
فَاسْتَفْرَدْتُ مِنْهُ بِحَجَرَةٍ ، وَلَمْ أَنْفَسْ فِي أُجْرَةٍ ، فَاكَانَ إِلَّا كَلْمَحٍ
طَرَفٍ ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ ؛ حَتَّى سَمِعْتُ جَارِي يَيْتَ يَيْتَ ، يَقُولُ لِنَزِيلِهِ
فِي الْبَيْتِ :

...

أَلْجَأْنِي : اضْطَرَّنِي : قَاسِطٌ : جَائِرٌ . أَتَجِيعُ : أَقْصِدُ لَطْلُبِ الرِّزْقِ .

[ذَكَرَ وَاسِطَ]

واسط : بلد معروف ببناء الحجاج وسط المسافة التي بين البصرة والكوفة ،
منها إلى كل واحدة منهما خمسون فرسخًا ، وسكنه ، ومات فيه .

قل اليعقوبي : واسط مدينتان على حافتي دجلة ، فالمدينة القديمة التي هي :
(٢٤ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

منازل الدهاقين هي الشرقية من دجلة ، وهي مدينة كَنْكَر . وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي ، وجعل بينهما جسرا من السفن ، وبنى بها قصره والقبعة الخضراء التي يقال لها خضراء واسط والمسجد الجامع ، وعليها سور ، ونزلها الولاية بعد الحجاج . وهي بين البصرة والكوفة والأهواز متوسطة ، فسميت واسط بذلك .

قال الطبري^(١) خرج الحجاج يرتاد منزلا لأهل الشام ، فأمعن حتى نزل أطراف كَنْكَر ، فبينما هو كذلك ؛ إذ هو براهب قد أقبل على أتان له ، فعبّر دِجْلَةً ، فلما كان بموضع واسط ، تفاجّت الأتان فبالت ، فنزل الراهب فاحتقر ذلك البول وحمله^(٢) حتى رمى به دجلة ، وذلك بعين الحجاج ، فقال : علىّ به ، فلما أتاه^(٣) قال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : إنا نجد في كتبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه^(٤) ما دام أحد في الأرض يوحدّه ، فاخط الحجاج مدينة واسط ، وبنى المسجد في ذلك الموضع ، وذلك سنة ثلاث وثمانين .

* * *

قوله . سكنا ، أى صاحباً يُسكن إليه ويؤنس به ، والمسكن : المنزل الذي يُسكن فيه . البيداء : الصحراء ، أراد أنه غريب ليس له صاحب ولا منزل كالخوت في الصحراء . واللّمة : الجُلمة من الشعر تُنمّ بالنكس . قاذى : ساقى . الحظ : النصيب . والجُدّ : السعد . الناكس : الراجع إلى خلفه ، يريد أن سمعه يمشى إلى جهة خلف ، ونكص ينكص : رجع القهقري . خان : فندق . والشذاذ : الغرباء الذين شذّوا عن أوطانهم ، أى فروا منها وبعدوا ، والشذاذ : التفرق ، وكلمة شاذة : مفترقة من جنسها ، وشذّ الرجل : انفرد عن أصحابه .

(٢) الطبري : « احتمله »

(٤) ط : « يوجد » تحريف

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٤

(٣) الطبري : « فأتى به »

والآفاق : النواحي . أخلط الرفاق : من لا يتخصص منهم ولا يجمعين .
إبطانه : سكناه . هوى أوطانه : حب بلاده . استفردت : سكنتها منفرداً .
والحجرة : البيت . أنافس : أغال ، من قولهم : نفستُ عليه بالشئ ، إذا ضنفتَ
به ، ولم تحب أن يصير إليه . لمح الطرف : نظر العين . بيت بيت ، أى يته ملاصق
يبتى ، وهما اسمان جعلا كاسم واحد ، وبنيا على الفتح . نزله : النازل معه .

* * *

قَمْ يَا بُنَى ، لَا قَعَدَ جَدُّكَ ، وَلَا قَامَ ضِدُّكَ ، وَاسْتَصْحَبَ ذَا الْوَجْهِ
الْبَدْرِى ، وَاللَّوْنِ الدَّرِى ، وَالْأَصْلَ النَّقَى ، وَالْجَنَمَ الشَّقَى ، الَّذِى قُبِضَ
وُشِرَ ، وَسُجِنَ وَشُهِرَ ، وَسُقِيَ وَفُطِمَ ، وَأُذْخِلَ النَّارَ بَعْدُ مَا لُطِمَ .
ثُمَّ أَرْكُضْ إِلَى السَّوْقِ ، رَكَضَ الْمَشُوقِ ، فَقَايِضْ بِهِ اللَّاحِجَ
الْمُلْقِحَ ، الْمُفْسَدَ الْمُصْلِحَ ، الْمُكَمِّدَ الْمُفْرِحَ ، الْمُعْنَى الْمُرُوحَ ، ذَا
الزَّفِيرِ الْمُحْرِقِ ، وَالْجَنِينَ الْمُشْرِقِ ، وَاللَّفْظَ الْمُقْنِعَ ، وَالنَّبْلَ الْمُتَمَتِّعَ ،
الَّذِى إِذَا طُرِقَ ، رَعَدَ وَبَرَقَ ، وَبَاحَ بِالْحَرْقِ ، وَنَفَثَ فِي الْحَرْقِ .

* * *

جَدُّكَ : سعدك . ضِدُّكَ : عدوك الخالف لك . البدرى : الأبيض المسعدير
كالبدر ، يريد الرغيف ، شبهه بالبدر فى بياضه واستدارته . وقال ابن الرومى :
مررتُ بجنَّازٍ ييسط الرقاق كأمرع من رجوع الطرف ، ما بين أن ترى السجين
فى يده كالكرة حتى يندحى فيصير كالتمر ، إلا مقدار لحظة ، فشبهت سرعة
انبساطها ، بسرعة الدائرة فى الماء يقذف فيه بالحجر فقلت :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَّازَا مَرَرْتُ بِهِ

يَدْحُو الرِّقَاقَ كَوْشَكَ اللَّحْمِ بِالْبَصْرِ^(١)
مَا بَيْنَ رُؤْيَيْهَا فِي كَفِّهِ كَرَةً وَبَيْنَ رُؤْيَيْهَا قِوَارًا كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةٌ فِي صَفْحَةِ الْمَاءِ يُرْمَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

* * *

[مما قيل من الشعر في الغلمان]

ويتعلق بهذا مما قيل من الشعر فيمن ليس له نباهة من الغلمان : كان ابن
وضاح جالسا مع جملة من الأدباء ، فرآهم غلام تغليف يبيع الخبز ، فلم يتجه
لأحدٍ فيه شيء إلا ابنُ وضاح ، فإنه قال :

خَازِرُ الْخَبْزِ ظَرِيفٌ عَذِبَتْ فِيهِ الْخُتُوفُ
خَامِلُ الْأَنْسَابِ لَكِنْ هُوَ فِي الْحَسَنِ شَرِيفٌ
خَضِرُهُ أَهْيَفُ شَخْتٍ^(٢) وَكَذَا الْفَزْلَانُ هَيْفٌ
مَنْ يَخْصِمُ مَقْلَتِيهِ حُكِّمَتْ فِيهِ السِّیُوفُ

ونظر إدريس بن اليماني إلى غلام وسيم بالحمام عليه أسمال ، فقال :

تَوْشَحٌ بِالظُّلَمَاءِ وَهُوَ صَبَاحٌ وَأَمْرُضٌ بِالْأَجْفَانِ وَهِيَ صِبْاحٌ
وِظَلٌّ فَوَادِي طَائِرًا عَنْ جَوَانِحِي وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْغَرَامُ جَنَاحٌ

(١) نقله البارودي في مختاراته ٤ : ٧١

(٢) شخت ، أى ضامر .

قَضِيبُ صَبَاحٍ فِي وَشَاحٍ دُجْنَةٍ أَلَا لَيْفِي تَحْتَ الْوَشَاحِ وَشَاحُ
وَلَا عَجَبُ أَنْ أَفْسَدْتَنِي جُفُونُهُ فَكَلَّ فُسَادٌ فِي هَوَاهُ صَلَاحُ

وقال الرّصافي :

يَقُولُونَ لِي يَوْمًا وَقَدْ مَرَّ ضَارِبًا بِمَعْوَلِهِ ضَرَبَ الْمَرْجَمَ بِالْغَيْبِ^(١)
تَعَلَّمَ صَفَّارًا فَقُلْتُ : اسْتَعَارَهَا غَدَاةَ رَنَاءٍ مِنْ صِيْفَةِ الْعَاشِقِ الصَّبِّ
يَعُودُ النِّحَاسُ الْأَحْمَرُ الْقَبْرَ عَسْجَدًا

بِكَفِّيهِ عِنْدَ السَّبْكِ وَالْمَدَّةِ وَالضَّرْبِ

فَحَمَرَتُهُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ حَيَاتِهِ وَصَفَرَتُهُ مِمَّا يَخَافُ مِنَ الْقَتْلِ

قوله الدرّي : الأبيض الذي يشبه الدرّ في لونه ، ويقال : كوكب درّي منسوب إلى الدرّ ، مشبّهًا به لصفائه وحسنه ، بضم الدال وتشديد الياء ، ودُرّي بالضم والهمز ، ودِرّي بكسر الدال مع الياء ومع الهمزة ، ودُرّي بالفتح والهمز ، فن كسر وهمز فهو فُعِيل ، من درأ الكوكب ، إذا جرى في أفق السماء ، ومن كسر بلا همز فلا جُلّ الياء بمد الراء ، ومن ضم وهمز فخطّاه الفراء ، قال : فُعِيل ليس في أبنية العرب ، وأثبتته سيبويه . قال أبو عبيدة : أصله دَرَوِي مثل سَبُوح ، فعملوا الواو ياء ، وجعلوا الضمة قبلها كسرة ، ومثله عَتُوّ وعِتَى .

قوله : الأصل النقي ، يعني القمح الذي صنع منه كان نقيًا من الزبل وغيره . وشقاء جسمه ، قد فتر في التاسعة عشر ، وهو الآن يبيّن بعض شقائه ، قبض ونشر . وقت العجن ، أو وقت الخبز ، لأنه يقطع قبضة ثم يُدَسّط للخبز . سجن :

(١) ديوانه ٤٨ عن الرّصافي

خُزن قححه في المخازن . وشُهر : أبرز منها للسوق وشُهر على الناس ، أو يكون
سجنه القُرْن ، وشهرته البيع في السوق ، أو عندما يُطاف به على الأسواق : وقال
للعرى يُلفز في القمح :

وسمراء في بيض الحسان شربتها بصُفر من العين الشبيهة بالشمس
وقد غيّبت في الخلد رءصراً مصونة محجبة عن أعين الجن والإنس
فلما بدت عنه بدت سيمَةُ النَّوى عليها ولم تجزع لحادثة الأمس
فأهلاً بأشئ لم ترد يد لامسٍ بسوء ولا أبدت نفاقاً من اللّمس

سُقَى : جُعِل الماء عليه للعجين . فُطِم : قُطِع عنه الماء . لَطِم : سُوَّى
بالكف ، وعامتنا تشدد الطاء . اركض : أسرع . المشوق : الكثير الشوق .
وشاكَك الشيء يشوقك ، إذا هاجك . قايض : عاوض ، وقايضت الرجل
فعلت معه ما يفعل معك . اللاّ قح في الأصل : الناقة يعلوها الفحل ، فتحمل منه .
ولقحت : حمت ، والملقح : الفحل يعلوها عند السفاد ، وقد بيّن أنه يريد حجر
الزند ، جُعِل لاقحاً لأنه حامل بالنار ، وملقحاً لأنّ به تخرج النار من الزند ،
فكانه ألقحه بالنار ، أى جعلها فيه . والزند أيضاً لاقح ملقح ، لأن النار لا توجد
في واحد منهما على انفراده ، والنار تُصلح في موضع وتُفسد في آخر ؛ فلذلك
وصفه بهما . والمعنى : المتعب بإحراقه . المروّج : المدخل الراحة بإصلاحه . وإن
جعله للزند ، فمعناه إذا شخ ، ومروّج إذا أورى ، ونحوه . المكيد ، أى الحزن .
المفرّج : ضده . والزفير . التنفس ، وزفرة الحجر هي النار ، وهي تحرق كلَّ
ما تعلقّت به . وهو الجنين ، أى المستور في الحجر ، فإذا ظهر أشرق وأضاء .
واللفظ : صوت الحجر في الزند ، فإذا أبدى النار أقنعك واكتفيت به . وهو
نيله ، أى عطاؤه . والمتع : الكثير وقليل النار كثير ، وقد قال الأعرابي : إنَّ
السُّقَط يحرق الدوحة ، أراد ما يسقط من الزند من النار الضعيفة يحرق الشجر

الكثير الملتف . طُرِقَ : ضُرب . رَعَدَ : صَوَّتَ . برق : لمعت ناره . باح : أظهر ما يسرّ فيه . الحَرَقَ : التهاب القلب بالهمّ ، فكأنّ به عَمّا في الحجر من النار . نفث : بزق . الحَرَقَ : التي تسقط فيها نار الزند ؛ وهذه ألفاظ كلّها متقاربة ، بعضها يفسّر بعضها ، لأنها من مליح الكلام .

* * *

قال : فلما قرّرت شِقْشِقَةَ الهادر ، ولم يبقَ إلّا صَدَزَ الصّادر ، برَزَ فتى يَمِيسُ ، وما معه أُنيس ، فرأيتها عَضَلَةً تَلْعَبُ بالعقول ، وتُغْرِى بالدّخول في الفضول ، فانطلقت في أثرِ الغلام ، لأخْبِرَ فَحْوَى الكلام ، فلم يزل يَسْمَعُ مَعَى العفّاريت ، وينفقدُ نَضَائِدَ الحوانيت ، حتّى انتهَى عِنْدَ الرّواح ، إلى حجارة القدّاح . فناولَ بائعها رَغِيفًا ، وتناولَ مِنْهُ حَجَرًا لطيفًا . فعجبت مِنْ فطانةِ المرسل والمرسل ، وعلمتُ أَنَّها سُرُوجية وإن لم أسأل ، وما كذّبتُ أن بادرت إلى الخان ؛ مُنْطَلِقَ العنان ؛ لأنظرُ كَنَهَ فِهْمِي ، وهل قرطس في التّكهن سَهْمِي ؛ فإذا أنا في الفِرَاسَةِ قَارِسٍ ، وأبو زيدٍ بَوَصِيدِ الخانِ جالسٍ . فتهادينّا بَشْرَى الالتقاء ، وتقارّضنا تحية الأصدقاء .

* * *

قرّرت : سكنت . الهادر : الفعل . وشِقْشِقته : ما يخرج من لثاته . وتقدّمت في الأولى ، ويزعمون أنها لا توجد عند نحر الفعل ، وكذلك بيضه لا يوجد ، قال : وأنشد بشر بن المعتمر :

خصيته تطلّ من حظمه عند حدوث الذبح والنحر
 ما إن يرى الراءون من بعدها شقشقة مائلة المذّر

وأراد به : سكّت المتكلم . صدر الصادر : خروج الخارج من الماء بعد
 شربه . برز : خرج . يمس : يتبختر ويثني . عضلة : داهية وأمر صعب .
 تُغرى : تحرض وتلصق . فحوى : معنى . يجرى : العفارىت : شرّ
 الشياطين وأذهاها . نضائد : ما جعل شيئاً على شيء . الرّواح : العشى .
 القدّاح : حجر الزند تقدح النار منه . ناول : أعطى . لطيفاً : دقيقاً . فطانة :
 ذكاء . وما كذّبت ، أى ما خيّبت . منطلق العنان : مسيّب حيث شاء . كفه :
 حقيقة . قرطس : أصاب الفرض مرة بعد أخرى ، والقرطاس يُجعل غرضاً ،
 فإذا توالى ضربه قيل : قرطس . والتسكهن : الحديث بما يكون . والفراصة :
 النظر بالظن . وصيد الخان : فناء الفندق ، وقيل بابه ، من أوصدت الباب ، أغلقته ،
 وقيل : عتبة بابه . تهادينا : أهديته وأهدانى . البشرى : السرور ، أى فرح
 كل واحد منا بصاحبه . قتهادينا البشرى : تقارضنا : اندفعنا بالسّلام ، يريد
 حالة الصديقين إذا التقيا بعد سفر ، فيبالغ كل واحد منهما فى سلام صاحبه
 ويتابعه . والتحية : السلام ، ومنه التحيات لله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ
 بِتَحِيَّةٍ فَخَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾^(١) ، أى سلّم عليكم . وقيل : التحية : المُلْك ، وكان
 الملك يُحيّياً بأنعم صباحا ، وأُييت اللعن ، وقيل : معناه البقاء لله ، وقال زهير
 ابن جناب :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ مِنْ إِلَهٍ قَادِرٍ
 أَى الْبَقَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : مَا الَّذِي نَابَكَ ، حَتَّى زَايَلْتَ جَنَابَكَ ؟ فَقُلْتُ : دَهْرٌ
 هَاضٌ ، وَجَوْرٌ فَاضٌ . فَقَالَ : وَالَّذِي أَنْزَلَ الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَخْرَجَ
 الشَّعِيرَ مِنَ الْأَكْلَامِ ؛ لَقَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ ، وَعَمَّ الْعُدْوَانُ ، وَعُذِمَ
 الْمَعْوَانُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ؛ فَكَيْفَ أَفْلَتَ ، وَعَلَى أَيْ وَصْفِكَ
 أَجْفَلْتُ ! فَقُلْتُ : اتَّخَذْتُ اللَّيْلَ قَيْصًا ، وَأُدْجِلْتُ فِيهِ خَيْصًا . فَأُطْرَقَ
 يَكْتُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَفْكَرُ فِي ارْتِيَادِ الْقَرْضِ وَالْفَرْضِ . ثُمَّ
 اهْتَزَّ هَزَّةً مِنْ أَكْثَبِهِ قَنْصٌ ، أَوْ بَدَتْ لَهُ فُرْصٌ ، وَقَالَ :
 قَدْ عَلِقَ بِقَلْبِي أَنْ تُصَاهِرَ مَنْ يَأْسُو جِرَاحَكَ ، وَيَرِيشُ جَنَاحَكَ ،
 فَقُلْتُ : وَكَيْفَ أَجْمَعُ بَيْنَ غُلٍّ وَقُلٍّ ، وَمَنْ الَّذِي يَرْغَبُ فِي .
 ضُلِّ ابْنِ ضُلٍّ ! فَقَالَ : أَنَا الْمَشِيرُ بِكَ وَإِلَيْكَ ، وَالْوَكِيلُ لَكَ وَعَلَيْكَ ،
 مَعَ أَنْ دِينَ الْقَوْمِ جَبْرُ الْكَسِيرِ ، وَفَكَّ الْأَسِيرِ ، وَاحْتِرَامُ الْعَشِيرِ ،
 وَاسْتِنصَاحُ الْمُشِيرِ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَوْ خَطَبَ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْنَمَ ،
 أَوْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهِمْ ؛ لَمَّا زَوَّجُوهُ إِلَّا عَلَى خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، اقْتِدَاءً
 بِمَا مَهَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْجَاتِهِ ، وَعَقَدَ بِهِ أَنْكَحَةَ
 بَنَاتِهِ ؛ عَلَى أَنَّكَ لَنْ تُطَالَبَ بِصَدَاقٍ ، وَلَا تُنْجَأَ إِلَى طَلَاقٍ . ثُمَّ
 إِنِّي سَأَخْطُبُ فِي مَوْقِفِ عَقْدِكَ ، وَجَمْعِ حَشْدِكَ ، خُطْبَةً لَمْ تَفُتِّقْ
 رَتَقَ سَمْعَ ، وَلَا خُطِبَ بِمِثْلِهَا فِي جَمْعٍ .

* * *

نَابَكَ : نَزَلَ بِكَ . جَنَابَكَ : بَلَدُكَ وَنَاحِيَتُكَ ، وَالْجَنَابُ : فَنَاءُ الدَّارِ . هَاضٌ :

كسر . فاض : كثر . الغمام : السحاب . والتمر : الثمار . وأكامها : ما يكون فيها
نمرها ، وكل ما وارى شيئاً فهو كام له . وكم . عم : شمل . العدوان : الفساد .
للعوان : ما يستعان به . وقال الشاعر :

لله دَرَأِيكَ أَيَّ زَمَانٍ أصبحت فيه وأَيَّ أَهْلِ زَمَانٍ
كلُّ يَدَانِيكَ الحَبَّةَ جَاهِلًا يَمْطِي وَيَأْخُذُ مِنْكَ بِالْمِيزَانِ
فَإِذَا رَأَى رُجْحَانَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ مَالَتْ مَوَدَّتُهُ مَعَ الرَّجْحَانِ
وقال ابن لُنتَك (١) :

نَحْنُ مَعَ الدَّهْرِ فِي أَعْجَابٍ قَنَسْنَا اللَّهَ صَبْرَ أَيُّوبَ
أَفْقَرَتِ الْأَرْضُ مِنْ مَحَاسِنِهَا فَابْكِ عَلَيْهَا بِسَاءِ يَعْقُوبِ
وَصَفَّيْكَ : حَالِيكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَهِيَ حَالَةُ السَّفَرِ . أَجْفَلْتُ : هَرَبْتُ
مُسْرِعًا ، وَالْإِجْفَالُ : الْهَرُوبُ ، ثُمَّ قَالَ : مَشَيْتُ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ، فَصَارَ لِي
كَالْقَمَيْصِ . أَدَلَّجْتُ : مَشَيْتُ فِي السَّحَرِ . خَمِيصًا : جَائِعًا . أَطْرَقَ : أَمَالَ رَأْسَهُ
سَاكِنًا . يَنْكُتُ : يَخْطُ فِي الْأَرْضِ . ارْتِيَادُ : طَلَبُ . الْفَرَضُ مِنَ الْعَطِيَةِ ؛
مَا فَرَضْتَ عَلَى نَفْسِكَ عَطَاءً ، عَلَى الْآلَا تَجَازَى عَلَيْهِ . وَالْقَرَضُ : مَا أُعْطِيَ مِنْ
غَيْرِ فَرَضٍ .

قال الحريري : الْقَرَضُ بِالْقَافِ : مَا يَسْتَعَادُ عَوَضَهُ ، وَالْفَرَضُ بِالْفَاءِ : مَا لَا
عَوَضَ فِيهِ ، وَأَنْشَدَ فِي الدَّرَةِ (٢) لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ التَّمَرِيِّ يَرْتِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ
الْأَزْدِيِّ :

مَضَى الْأَزْدِيُّ وَالتَّمَرِيُّ يَمْضِي وَبَعْضُ الشَّكْلِ مَقْرُونٌ بِبَعْضٍ
أَخِي وَالْمَجْتَنِي ثَمَرَاتِ وَدَى وَلَمْ يَجْزِنِي قَرَضِي وَبَرَضِي

(١) هو محمد بن محمد بن لُنتَك البصري ، وله ترجمة في اليتيمة ٢ : ٢٣٠ - ٢٢٤ ،
وفيها البيتان .

(٢) درة الغواص ص ٤٧ .

وكانت بيننا أبدأ هنات توفّر عرضّه فيها وعرضي
وما هانت رجال الأزدي بعدى وإن لم تدن أرضهم من ارضي

الهفات : كناية عن المنكرات ، فأراد أنه أمال رأسه إلى الأرض مفكراً ،
وجعل يخط فيها بيده أو بعود ، وهو فعل المهموم الكثير الفكر ، كما قال
اسهؤ القيس :

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدًا أَعَدَّ الْحَصَى مَا تَنْقُضِي عِبْرَاتِي^(١)

فلم يرد أنه يمدّها ليعلم كم فيها ، وحاله من البكاء والحيرة تنفي الثبات
على العدد ، وإنما أراد أنه كان يعبث فيها بيده اشتغالا ، وفي قلبه من الهمّ
ما غلب على الصبر ، وقد بالغ ذو الرمة في بيان هذا المعنى بقوله^(٢) :

عَشِيَّةً مَالِي هَمَّةٌ غَيْرُ أَزْنِي بَلَقَطَ الْحَصَى وَالْخَطَّ فِي الدَّارِ مَوْلَعٌ^(٣)
أَخْطَ وَأَحْمُو تَارَةً وَأَعِيدُهُ^(٤) بَكَفَى وَالْفَرْبَانَ فِي الدَّارِ وَقَعُ

وقال ابن جعيل في ذلك :

لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سُؤْلِهِمْ لَتَطْلُبَ الْعِلَاتُ بِالْعِيْدَانِ
بَلْ يَبْسُطُونَ وُجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهُمْ عِنْدَ السُّؤْلِ كَأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ

وقال الشريف الرضي فأحسن :

تَقْرَى أَنْامِلُهُ التُّرَابَ تَعَلَّلًا وَأُنَامِلِي فِي سَيْئِ الْقُرُوعِ^(٥)

(١) ديوانه ٧٨

(٢) ديوانه ٣٤٢ ، ٣٤٤

(٣) في الديوان : « في التراب مولى » .

(٤) في الديوان : « وأحمو الخط ثم أعيده » .

(٥) ديوانه ١ : ٤٩٧ وفيه : « تغلى أنامله » .

قوله : أ كُتِبَ ، أى دنا منه . قَنَصَ : صيد . فرص : جمع فرصة ، وهى كالغنيمة . يَأْسُو : يَطْب . يَرِيش : يجعل عليه الريش . الْغُلَّ : الزوجة هنا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنما النساء أغلال فلينظر أحدكم غلاً يجعل فى عنقه .

وتقول العرب للمرأة السيئة الخلق : غُلَّ قَمِلَ ^(١) .

وعوتب الكسبائى فى ترك التزويج فقال : وجدت معاناة العفة أيسر من معاناة العيال .

الْقُلَّ : القلة . وَضَلَ ابن ضُلَّ : مجهول لا يعرف ، وفلان ضُلَّ إذا كان مجهولاً متمكناً فى الضلال . المشير بك وإليك ، يقال : أشار به إذا رفعه وأشار النارَ وأشار بها وتشوَّرها ، أى رفعها ، فعنى أنا للمشير بك ، أى أرفعُ قدرك ، وأعظم منزلتك ، أى أثنى عليك بخيرٍ فى غيبتك عند إصهارك ، والمشير إليك إذا حضرت ، أشرت إليك أن تتزوج فيهم إذا رأيتهم أكفاءك .

والوكيل لك عليهم حتى يزوجوك ، والوكيل عليك ، لتمثل ما أمرك به من الزواج فيهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قيل فيه : الكافى هو ، قال الفراء : يكون المعنى : كافينا الله ونعم الكافى ، كقولك : رازقنا الله ونعم الرازق . ابن الأنبارى وهو أحسن فى اللفظ من قولك : كافينا الله ونعم الوكيل . دينهم : عاداتهم . جبر : إصلاح . فك : حل . احترام : إعزاز وتقريب ، وهو افتعال من الحرمة ، أى يجعلونه فى حرمتهم ، المشير : الصاحب . استنصاح المشير ، أى مَنْ أشار عليهم بشئ رأوه ناصحاً .

(١) قال فى اللسان : « أصله أنهم كانوا يقولون الأسير بالقد وعليه الشعر ، فيتقمل القد فى عنقه » .

[ترجمة إبراهيم بن أدهم]

إبراهيم بن أدهم ، هو من شيوخ الصوفية ، وهو من رجال رسالة القشيري^(١) ، قال صاحبها : فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخي من كورة بلخ ، من أبناء الملوك .

وحدث إبراهيم بن بشار ، قال : صحبت إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخي بالشام ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، خبّرني عن بدء أمرك كيف كان ؟ فقال : كان أبي من ملوك خراسان ، وكنت شاباً ، فركبت يوماً على دابة ومعى كلب ، وخرجت إلي الصيد فأثرت ثعلباً ، فبينما أنا في طلبه ، إذ هتف بي هاتف : ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل مثل ذلك ثلاث مرّات ، ثم هتف بي من قربوس السرج : لا والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فنزلت وصادفت راعياً لأبي ، فأخذت منه جبة من صوف ، فليستها وأعطيتها الفرس ، وما كان معي . ثم دخلت البادية متوجّهاً إلى مكة ، فبينما أنا يوماً في مسيري إذا برجل يسير ، وليس معه إناء ولا زاد ، فلما أمسى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لا أفهمه ، وإذا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت على ذلك معه أياماً ، وعلمني اسم الله الأعظم ، ثم غاب عني ، وبقيت وحدي أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله فإذا أنا بشخص أخذ بمحزّرتي ، فقال لي : سل تعطّ ، فراعني صوته ، فقال : لا روعة عليك ولا بأس ، أنا أخوك الخضر ، إن أخى داود علمك اسم الله الأعظم فلا تدع على أحد بينك وبينه شحنة أو قهلاصه ، ولكن ادع الله به أن يقوى ضعفك ، ويؤنس وحشتك ، وتجدد به في كلّ يوم نيتك ورغبتك ، ثم تركني وانصرف .

(١) رسالة القشيري ص ٥١ .

وصحبه سفيان الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها . وكان
يأكل من عمل يده ، مثل الحصاد وحفظ البساتين .

وكان كبير الشأن في الورع ، وقال : أطب مطعمك ولا عليك ، ألا تقوم
بالليل ولا تصوم بالنهار .

ركان عامة دعائه : اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .

وقال لرجل في الطواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز
ستّ عقبات ، وهي أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، وتغلق باب العزّ
وتفتح باب الذلّ ، وتغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، وتغلق باب النوم
وتفتح باب السهر ، وتغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر ، وتغلق باب الأمن
وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال محمد بن المبارك الصوري : كنت مع إبراهيم بن أدهم في طريق بيت
المقدس ، فنزلنا وقت القيولة تحت شجرة رمان ، فصلينا ركعات ، فسمعت
صوتا من أصل الرمان : يا أبا إسحاق ، أكرمنا بأن تأكل مناشيتنا ، فطأطأ رأسه
فقال ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : يا محمد ، كن شفيعا إلينا ليتناول مناشيتنا ،
فقلت : يا أبا إسحاق ، لقد سمعت ، فقام وأخذ رماقتين ، فأكل واحدة وناولني
الأخرى ، فأكلتها وهي حامضة ، وكانت قصيرة ، فلما رجعنا مررنا بها وهي
شجرة عالية ورؤماتها حلوة ، وهي تنمر في كل عام مرتين ، وسموها رمانة
العابدين .

وركب إبراهيم في مركب ، فهاجت ريح شديدة ، فلفت إبراهيم رأسه
بعباءة وطرح نفسه مع الناس ، فسموا صوتا من البحر يقول : لا تخافوا فتيكم

إبراهيم بن أدهم ، وصاح الناس في المركب : أين إبراهيم بن أدهم ؟ ثم سكفت الريح ، فخرج وما عرفوه .

قال له رجل : من أين كسبك ؟ فقال :

نرّق دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ، ولا ما نرّق

وأخباره في كتب التصوف كثيرة تطول .

[ذكر جبلة بن الأيهم]

وأما جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن جفنة ، وفي نسبه اختلاف .

وهو آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثني عشر شبرا ، فإذا ركب مسح الأرض بقدميه .

ولما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر ليستأذنه في القدوم عليه ، فسُرّ بذلك وكتب إليه : أن اقدم ، فلك مالنا وعليك ما علينا ، فخرج في مائة فارس من عكّ وجفنة ، فلما دنا إلى المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوجة بالذهب الأحمر والحرير الأصفر ، وجلّل الخيل بجلال الديباج ، وطوّقها أطواق الذهب والفضة ، وليس تاجه وفيه قرطامارية ، فلم يبق في المدينة إلا من خرج إليه ، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه .

ثم حضر الموسم مع عمر ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من فزارة فضله ، فالتفت إليه جبلة مغضباً ، فلطمه فهشم أذنه ، فاستعدى عليه الفزاري عمر ، فقال : ما دعاك إلى أن لطمت أخاك ؟ فقال : إنه وطىء إزارى ، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه ، فقال له عمر : أما

أنت قد أقررت ، فإما أن تُرضيه وإما أن أُقيدَه منك ، قال : أتيقده متى ، وهو رجل سوقة ! قال : قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية ، قال : قد رجوتُ أن أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية ، فقال : هو ذاك ، قال : إذا أنتصرت . قال : إن تنصرت ضربت عنقك . واجتمع وفد فزاره ووفد جبلة ، وكادت تكون فتنة ، فقال جبلة : أنظرني إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك إليك .

فأما كان في جُنْح الليل خرج في أصحابه إلى القسطنطينية فتصّر ، وأعظم هرقُلُ قدومه ومُرتبه وأقطع له الأموال والرباع ، فلما بعث عمر رضى الله عنه رسوله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة ، ثم قال للرسول : أرايت ابن عمك الذى أتانا راغباً في ديننا ؟ يعنى جبلة ، قال : لا . قال : ألقه ثم اثنى وخذ الجواب . فذهب فوجد على باب جبلة من الجمع والحجاب والبهجة مثل ما على باب قيصر .

قال : فتلطفتُ في الأذن حتى دخلتُ عليه : فرأيت رجلاً أصهب اللحية فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرّها على لحيته ، حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير . فلما عرفنى رفعتنى معه على السرير ، وجعل يسألنى عن المسلمين ، فقلت : قد أضعفوا إضعافاً على ما تعرف ، وسأل عن عمر رضى الله عنه ، فقلت : بخير حال ، فأغنمَ بسلامة عمر ، فأحدثتُ عن السرير فقال : لِمَ تأبى الكرامة ؟ فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا ، قال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك من الدّنس ولا تبالي علام قعدت ، فطمعت فيه عند صلاته على النّبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ويحك يا جبلة ألا تسلم ! وقد عرفت الإسلام وفضله ؟ قال : أبعد ما كان منى ! قلت : نعم ، قد فعل رجل من فزاره أكثر مما فعلت ، ارتدّ وضرب أوجه المسلمين

بالسيف ثم أسلم ، وقبِل منه وخَلَفَتْهُ بالمدينة مسلما .

قال : زدني من هذا ، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته وبوليتني الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام . فضمنت له التزويج ، ولم أضمن الخلافة . فأوماً إلى وصيف بين يديه ، فذهب مسرعاً فإذا موائد الذهب قد نُصبت بصحائف الفضة ، فقال لي : كُلْ ، فقبضت يدي ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نق قلبك ، وكل فيما أحببت . فأكل في الذهب والفضة ، وأكملت في الخَلَنج^(١) . ثم جىء بطشت من الذهب ، فسل يديه فيها ، وغسلت في الصُفَر . ثم أوماً إلى خادم عن يمينه ، فذهب مسرعاً ، فسمعت حساً ، فإذا خدَمٌ معهم كرامىً مرصعةً بالجواهر ، فوَضِعَ عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره . وإذا عشر جوار في الشعور ، عليهن ثياب الوشى ، مكسرات في الخَلِي ، فقعدن عن يمينه ، وقعد مثلن عن يساره ، وإذا بجارية قد خرجت كالشمس حسناً ، وعلى رأسها ناج عليه طائر ، وفي يدها اليمى جام ، وفيه مسك وعنبر فتيت ، وفي يدها اليسرى جام فيه الورد ، فصفرت للطائر ، فوقع في جام ماء الورد ، فاضطرب فيه ، ثم وقع في جام المسك ، فتمرغ فيه ، ثم طار فوق على صليب في تاج جبلة ، فرفرف حتى نفص إماماً في ريشه عليه ، وضحك جبلة من شدة السرور ثم قال للجوارى اللاتي عن يمينه : بالله أضحككننا فاندفعن يفتنين ، تحقق عيدانهن يقا—ن :

لله درّ عصابة نادمهم يوماً بحلق في الزمان الأول^(٢)

(١) الخَلَنج : شجر تتخذ منه الأواني .

(٢) ديوان حسان ص ٣٠٨ .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يَهْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)
 أَوْلَادَ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرُ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْفَضْلِ
 يُفْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَدَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمَقْبَلِ
 بِيضَ الرَّجْوِهِ نَقِيَّةً أَحْسَابُهُمْ شَمَّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
 فضحك ثم قال : أتدري من قائل هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسان بن ثابت
 شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال للاتي عن يساره : بالله أبكيننا ، فاندفعن بعيدانهن يَفْنَيْنِ :
 لِمَنِ الدَّارُ أَقْفَرَتْ بَعْمَانَ بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ وَالصَّمَّانِ^(٢)
 ذَاكَ مَعْنَى لَّالِ جَفْنَةٍ فِي الدَّهْرِ وَحَقٌّ تَعَاقُبُ الْأَزْمَانِ
 قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ دَهْرًا مَكِينًا^(٣) عِنْدَ ذِي التَّاجِ تَجَلِّسِي وَمَكَانِي
 تَكَلَّمْتُ أَمَّهُمْ وَقَدْ تَكَلَّمْتُهُمْ يَوْمَ حَلُّوا بِحَارِثِ الْجَوْلَانِ
 وَدَنَا الْفِضْحُ فَالْوَلَاثِدُ يَنْظُمُ نِ سَرَانَا أَكَلَةَ الْمَرْجَانِ
 فَبَكَى حَتَّى سَالَتِ الدَّمُوعُ عَلَى لَحْيَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : وَهَذَا لِحَسَانٍ أَيْضًا ،
 ثم أنشأ يقول :

تَنْصَرَّتِ الْأَشْرَافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرْزُ
 تَكَنَّفَنِي فِيهَا لَجَاجٌ وَنَحْوَةٌ وَبَعْتُ بِهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَزِ
 فَيَالَيْتِ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلِيَتْنِي رَجَعْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي قَالَ لِي عُمرُ
 وَيَالَيْتَنِي أَرَعَى الْخَاضَ بِقَفْرَةٍ وَكَنتُ أَسِيرًا فِي رِبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ

(١) لحسان بن ثابت ، ديوانه ٣٠٨ ، مع اختلاف في ترتيب الآيات

(٢) البريس وبردى : نهران بالشام . ويصفق يمزج .

(٣) لحسان ، ديوانه ٤١٤ ، وفيه : « أوحشت بعمان » وفيه أيضاً : « فالخام » بدل

« الصمان » قال شارحه : وهي مواضع بأكناف دمشق .

(٤) الديوان « حق مكين »

ويا ليت لي بالشأم أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
ثم سألتني عن حسان ، أحيى هو ؟ قلت : نعم . ثم أمر بمال وكسوة ونوق
موقورة برءا ، وقال : أقرئه سلامي ، وادفع له هذا إن وجدته حيا ، وإن
وجدته ميتا ، فادفعه إلى أهله ، وانحر الجمل على قبره .

قال : فلما قدمت على عمر أخبرته الخبر ، فقال : هلا ضمنت له الأمر ، فإذا أسلم
قضى الله علينا بحكمه ! ثم بعثت إلى حسان ، فأقبل وقد كُفّت بصره ، فلما دخل
قال : يا أمير المؤمنين إنني وجدت ربيع آل جفنة ، قال : نعم ، هذا رجل أقبل من
عنده قال : هات يا بن أخي ما بعث به إليّ معك ؟ قلت : وما علمك ؟ قال :
إنه كريمٌ من عصابة رجال كرام مدحهم في الجاهلية ، فحلف ألا يلقى أحدا
يعرفني إلا أهدى إلىّ معه شيئا . فدفعته إليه وأخبرته بأمره في الإبل ، فقال :
وددت أني كنت ميتا فنحرت على قبري ، ثم أخذها وانصرف وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقتة معشرٍ لم يغدّم أبائهم بالأوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربّها كلاً ولا متنصراً بالروم
يعطى الجزيل ، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
وأنيته يوما فقرب مجلسي وسقى وروائي من الخراطوم

وذكر أن رسول عمر لما أرسله إلى قيصر ، قال : وأمرني أن أضمن
لجبله ما شرط ، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته ،
فعلمت أن الشقا قد غلب عليه ^(١) .

— وحُدثت أن صاحب برطونة ^(٢) اليوم من ذريته . وذكر الثعالبي
أنه وجد للصابي فصلا من كتاب استظرفه جدّا ، يذكر صلة وصلت إليه

(١) برطونة : بليدة على الفرات مقابل رجنة مالك بن طوق — ياقوت .

(٢) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤١ .

من صاحب ، وهو : وصل أطال الله بقاء سيدنا أبو العباس أحمد بن الحسين ، وأبو محمد أحمد بن جعفر بن شعيب حاجين ، فمرّجا إلى ملهين ، وعاجا على مسلمين ، فحين عرفتهما ، وقبل أن أرد السلام عليهما مددت اليد إلى مامعهما ، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جيلة بن الأيهم ، ثقة منى بصلته ، وشوقا^(١) إلى تسكرمته ، واعتادا^(٢) لإحسانه ، وألفا للموارد لإنعامه ، وتيقنا أن الخطرة منى على باله ، مقرونة بالنصيب من ماله ، وأن ذكره ، مشفوعة بمجدواه^(٣) .

رجع ما انقطع . فبريد أنه لو خطب لهؤلاء القوم ابن أدم على زهده وفضله ، أو ابن الأيهم على ملوكيته وعزته لسووا بينهما في الصّدّاق اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

[ذكر مغالاة الصّدّقات]

وجاء في الترمذى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة أو تقوى عند الله ، لكان أولام بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وما أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئا من نسائه ، على أكثر من اثنتي عشرة أوقية .

قال ابن عيينة : والأوقية عند أهل العلم أربعون درهما ، واثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانون درهما .

وفي غير الترمذى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تياسروا في الصّدّاق » وكانت صدقات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على عظم قدره ، وعلو مرتبته

(١) البتية : « تشوقا »

(٢) البتية : « واعتادا »

(٣) بليمة الدهر ٢ : ٢٢٢

اثنتي عشرة أوقية ونشاً ، والنَّشَ عشرون درهما ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا لاتغالوا في صدقات النساء ، فإنه لا يبلغنى عن أحد أنه ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال . فعرضت له امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، كتاب الله أحق أن يُتَّبَعَ أو قولك؟ قال : كتاب الله تعالى . ثم قال : فيم ذلك؟ قالت : الله تعالى يقول ﴿ وَأَنِتُمْ إِحْدَاهُنْ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ^(١) . فقال عمر رضى الله عنه : كل أحد أقره من عمر ! ثم رجع إلى المنبر ، فقال : إني كنت نهيتكم عن أن تغالوا في صدقات النساء ، فليفعل كل رجل منكم في ماله ما أحبه .

فرجع عمر عن اجتهاده إلى ما قامت عليه الحجة فأباحه للناس واستعمله في نفسه ، فأصدق أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضى الله عنهم أربعين ألفاً . والقنطار ألف دينار وماثا دينار ؛ إلا أن الميامرة في الصداق أحب عند أهل العلم من المغالاة .

ومن الملح في صداق خمسمائة ، ما حدث به ابن أبي شيبة قال : كان حجاج جارنا ، فسمعه يقول لأبيه : تزوجت أُمى على خمسمائة درهم ، وبقيت أنا لك رجلاً ، فقال له أبوه : من سخنة عين هذا الريح أخشى .

قوله : مَهَرٌ : يقال : مَهَرُ المرأة يَمَهَرُها ، وأمهرها : عَيَّنَ لها مهرًا . لن تطالب بصداق ، أى أن القصة ليس لها حقيقة . فليس ثم من يطالبك بصداق ولا طلاق . حشدك : جمعك ، وأصله مصدر ، ثم استعمل لجماعة الناس . تَفْتُقُ : تشق . رتق : غلق . والسمع : الأذن .

قال الحارث بن همام : فازدهاني بوصف الخطبة المتلوّة ، دون
الخطبة المجلوّة ؛ حتى قلت له : قد وكتّ إليك هذا الخطب ؛
فدبره تدبير من طب لمن حبّ . فنهض مَهْرُولا ، ثم عاد مُتَهَدِّلا ،
وقال : أبشّر يا غتاب الدّهر ، واختِلاب الدّرّ ؛ فقد وُليت النّقد ،
وأكفّلت النّقد ، وكان قدّم ثم أخذ في مواعدة أهل الخان ،
وإعداد حلواء الحيوان . فلما مدّ الليل أطنّابه ، وأغلق كلّ ذى
بابٍ بابّه ، أذن في الجماعة : ألا احضروا في هذه السّاعة ؛ فلم يبقَ
فيهم إلاّ من لَبّي صوّته ، وحضّر بيته . فلما اضطفؤا لدينه ، واجتمع
الشّاهد والمشهود عليه ، جعل يرفع الاضطراب ويضعه ، ويلحظ
التّقويم ويدّعه ، إلى أن نَمَس القوم ، وغشّى النّوم ، فقلت له :
يا هذا صنع الفاس في الرّاس ، وخلّص الناس من النّعاس . فنظر
نظرة في النّجوم ، ثم انتشط من عقله الوجوم ، وأقسم بالطور ،
والكتاب المسطور ؛ ليُنْكَشِفَنَّ سِرَّ هَذَا الأَمْرِ المُسْتُور ،
وليُنْتَشِرَنَّ ذِكْرُهُ إلى يوم النّشور . ثمّ إنّهُ جثا على رُكْبَتَيْهِ ،
واستزعى الأسماع لخطبته ،

ازدهاني : دعاني إلى الزهو ، وهو العُجب والسّكر ، أى أعجبت بوصفها ،
المتلوّة : المقرّوءة . الخطبة : الزوجة الخطوبة . المجلوّة : التي كشف وجهها لينظر
إليها . وكتّ : أسندت إليك ، وجعلتك القائم . الخطب : الأمر .

طبّ : أصلح حال العليل . فيقول : دبر هذا الأمر تدبير الطبيب أمر

حبيبه إذا كان عليلا ، وطبّه أى عناه ، وقيل : معنى طبّ حذق بالشئ وجاد فيه ذهنه ، والطّبّ : الحاذق بالأمر ، فيكون معناه ، دبّر أمرى تدير المميز الحاذق أمر حبيبه .

قال ابن الأنباري : قولهم : مَنْ حَبَّ طَبَّ ، أى من أحب حَذَقَ وفطن واحتمل لمن يحب ، والطّبّ فى اللغة : الحِذْقُ والفطنة ، ورجل طيب وطبّ ، إذا كان حاذقا ، وسمّى الطّبيب لفطنته .

ومعنى حَبَّ أَحَبَّ . وقال البصريون : لا يقال : حَبَّ يُحِبُّ ، وجاء عنهم : محبوب ، على فعلٍ لا يتكلم به . الكسائي والقراء : يقال : حبيت وأحبيت ، وحبّ فى المثل يدلّ على صحته . والبصريون يقولون . حبّ إتباع لطف .

مهرولا : مسرعا . متهللا : مستبشرا . إعتاب : إرضاء . الدّرّ : اللبن . وليّت العقد ، أى أعطيت النكاح ، أى جعلنى أبو الزوجة وليّا لها . أُكْفِلْتُ النقد ، أى جعلت كفيلا على أخذه ، والكفيل : الضامن ، أو يكون معنى أُكْفِلْتُ : ضمن لى وأعطيت كفيلا . والنقد : المال الحاضر . وكان قد ، أى وكان قد أحضر المال وتيسّر النكاح . الخوان : المائدة . أذن : صاح . لى : أجاب وقال : لبيك . الأضطراب : آلة للمنجّمين يأخذون بها الأوقات . يلحظ : ينظر . التقويم : التعديل . غشيّ النوم : غطى العيون وخمرها . ضع الفاس فى الراس ، أى اقصد إلى عين الخبير ، وهى كلمة تقال عند التوكيد فى العزم على الأمر ، ومعناه : اقطع ما تريده من الأمر وافعله .

والذى نظر نظرة فى النجوم ، هو إبراهيم عليه السلام ، لأنه تفكر ما الذى يصرفهم عنه إذا كثفوه الخروج معهم ، فقال : إني سقيم . انتشط : انحلّ . والعقلة : ما ينشأ فيها الإنسان فتعقله ، ويقال : لفلان عقلة يعقل بها الناس ، وذلك إذا صارهم عقل أرجلهم . والوجوم : العبوس والحزن الشديد ، أراد

أنه كان في تقويمه طالع نحس ، فكان مغبساً حزيناً ، فلما زالت ساعته ودخلت ساعة طالع سعد ، استبشر وزال عبوسه ، وإنما عقد هذا النكاح ليلاً لأن قصده المكر ، ولأنهم كانوا يختارون نكاح آخر النهار على أوله . قال بعض العلماء : ذهبوا في ذلك إلى اتباع السنة في الغال ، فأثر الناس استقبال الليل بمقدار النكاح ، تيمناً بما فيه من الهدوء والاجتماع على صدر النهار ، لما فيه من التفرق والانتشار ، وذهبوا إلى تأويل القرآن لأن الله سَمَّى الليل في كتابه «سَكَنًا» ، وجعل النهار «نشوراً» كما يستحبون النكاح يوم الجمعة للاجتماع ، وقال الشاعر :

ويوم الجمعة التنعيم فيه وتزويج الرجال من النساء

الطور : جبل موسى عليه السلام الذي آانس من جانبه النار وكلمه الله عنده . سرّ هذا الأمر ، أراد ما أضمره لهم من الخداع ، أى أنه سينكشف ويتحدث به إلى يوم القيامة . جثا : يجثو جُثُوًّا : جلس على ركبة . استرعى : استدعى . الأسماع : الأذان ، ويقال : أرعنى سمعك ، أى اسمع منى ، وأخلِ أذنيك لاستماع حديثي .

* * *

وقال : الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصوّر كل مولود ، ومأل كل مطرود ، ساطح المهاد ، وموطد الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ، عالم الأسرار ومُدركها ، ومدبر الأملاك ومُنالكها ، ومكور الدهور ومكررها ، ومورد الأمور ومُصدرها . عمّ سماحه وكَمَل ، وهطل رُكامه وهمل ، وطأوع

السُّؤْلُ وَالْأَمَلُ . وَأَوْسَعَ الْمَرْمِلِ وَالْأَرْمِلِ . أَحْمَدُهُ حَمْدًا مَمْدُودًا مَدَاهُ ،
وَأَوْحَدَهُ كَمَا وَحَدَهُ الْأَوَاهُ ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سِوَاهُ ، وَلَا صَادِعَ
لِمَا عَدَّ لَهُ وَسِوَاهُ . أَرْسَلَ مُحَمَّدًا عَلَمًا لِلْإِسْلَامِ ، وَإِمَامًا لِلْحُكَّامِ ، وَمُسَدِّدًا
لِلرَّعَاعِ ، وَمُعْطَلًّا أَحْكَامَ وَدِّيَّ وَسُوءِ ، أَعْلَمَ وَعِلْمٌ ، وَحَكَمَ وَأَحْكَمَ ،
وَأَصَلَ الْأُصُولَ وَمَهَّدَ ، وَأَكَّدَ الْوُعُودَ وَأَوْعَدَ ؛ وَاصِلَ اللَّهِ لَهُ
الْإِكْرَامُ ، وَأَوْدَعَ رُوحَهُ دَارَ السَّلَامِ ، وَرَحِمَ آلَهُ وَأَهْلَهُ
الْكَرَامِ ؛ مَا لَمَعَ آلُ ، وَمَلَعَ رَالُ ، وَطَلَعَ هَلَالُ ، وَسُمِعَ
إِهْلَالُ .

...

قوله : مَالُ ، أَى مَاجَا . مطرود : مَنَفَى . ساطع : باسط . للمهاد : الأرض .
موطد الأطواد : مثبتت الجبال . والأوطار : الحاجات . مدمر الأملاك ، أَى
مهلك الملوك ، والأملاك : جمع ملك .

[أشعار فى التطهير من الدنيا والزهد فيها]

وهذا كما قال عدى بن زيد :

أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوِثِرْ . وَإِنْ أَمِ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ^(١)
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامِ مَلُوكِ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَازْدَجَلَهُ تَجَبَّى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ^(٢)

(١) الأغانى ٢ : ١٣٨ ، ١٣٩ من قصيدة مطلما :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيزُ بِاللَّهِ رَأَيْتَ الْمَبْرَأُ الْوَفُورُ

(٢) الخابور : اسم لنهر كبير فى أرض الجزيرة ، والحضر : قصر بتكريت .

وتفكر رب الخـورنق إذ أشرف يوما وللهدى تذكر^(١)
 لم يهينه ربُّ النـون فباد الملـك عنه فبابه مهجور
 ثم بعد القـلاع والملـك والإمـرة وارثهم هناك القبور
 ثم راحوا كأنهم قصب جفـ فآلوت به الصبـا والدبور

وقال الأسود بن يعفر :

ولقد علمتُ لو أنا على نافعـي أن السبيل سبيل ذى الأعواد^(٢)
 ماذا أوصل بعد آل محرقـي تركوا منازلهم وبعد إباد
 جرت الرياح على محلّ ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد^(٣)
 ولقد غنوا فيها بأكرم غنيـة^(٤) فى ظلّ ملك ثابت الأوتاد
 فإذا النعميم وكلّ ما يلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

الأصمعيّ: أصيب في حفير حول الحيرة تابوت ، فيه رجل عليه خُفّان ، وعند رأسه لوح فيه : « أنا عبد المسيح بن حيان بن ببيعة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى فوق المزيد
 وكأفت الأمور وكأفتني ولم أخضع لمضلة كثرود
 وكدت أنال بالشرّف الثريا ولكن لاسبيل إلى الخلود»

(١) بعده الأغاني :

شاده مرمراً وجلّه كنساً فلاطير في ذراه وكور

(٢) المفضليات ٢١٦ ، وروايته : « ولقد علمت سرى الذى نبأنى »

(٣) المفضليات : « فكأنما كانوا » .

(٤) المفضليات : « عبشة » .

دخل أرطاة بنُ سهَّية على عبد الملك ، فقال : كيف حالك ؟ - وكان قد
أسنن - فقال : ضَعُفَ حَالِي ، وَقَلَّ مَالِي ، وَكَثُرَ مَنِّي مَا كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يَقْلَ ،
وَقَلَّ مَنِّي مَا كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يَكْثُرَ ، قال : فكيف أنت في شعرك ؟ فقال :
والله ما أغضب ، ولا أطرب ، ولا أرهب ، وما الشعر إلا من تتأج هذه ، على
أنى القائل :

رَأَيْتُ الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي كَأَنَّ كُلَّ الْأَرْضِ سَاقِطَةٌ الْحَدِيدِ
وَمَا تَبْقَى الْمَنِيَّةُ حِينَ تَأْتِي عَلَى نَفْسِ ابْنِ آدَمَ مِنْ مَزِيدٍ
وَأَعْلَمُ أَنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ سَتُوفِي نَذْرَهَا بِأَبَى الْوَلِيدِ

فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل تُوفِي نَذْرَهَا بِكَ ، مَالِي وَلَكَ اِقَالَ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ لَا تُرْعَ ، فَمَا عَنَيْتُ إِلَّا نَفْسِي ، فقال : أَمَا وَاللَّهِ لَتَلْمَنَ بِي .
وَأَبُو الْوَلِيدِ كَنِيَّةُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَرْطَاةُ .

* * *

والتكوير : إدخال الليل على النهار والنهار على الليل ، وكورتُ الشيء
رددته ، ولويتَ بفضه على بعض . هطل وهمل ، معناهما صب . الركام : السحاب
المتراكم . الشؤل : المطلوب . أوسع : أغنى . المرمِل : الذي نَفِدَ زاده . الأرمِل :
الفقير ، أو الذي ماتت زوجته ، أو التي مات زوجها ، يقال لها أرمِل وأرملة ،
ومنع قوم أن يقال للفاقد زوجته : أرمِل ، وأجازوه بعضهم .

بداه : غايته . الأواه : إبراهيم عليه السلام ، وهو من التأوه ، وهو التوجع
والتحزن والنطق بأواه أوَّاه اصادع : مفسد ، والصدع : الشق في زجاجة أو
حائط . علما ، أى إماما يهتدى به . مسدداً : مصلحا . والرعا : السقاط

وَالضَّعْفَةُ مِنَ النَّاسِ . وَدَّ سُوَاعُ : ضَمَنان . حَكَمَ : قَضَى . أَتَقِنَ : أَتَصَلِّ .
ثَبَّتَ الْأَصُولَ . مَهَّدَ : سَوَّى وَوَهَّأَ . الْوَعْدُ : جَمْعُ وَعْدٍ . أَوْعَدَ : هَدَّدَ وَخَوَّفَ .
وَاصِلَ : دَاوَمَ . أَوْدَعَ رُوحَهُ دَارَ السَّلَامِ : أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ . آلَ : سَرَابٌ . مَلَعَ :
أَسْرَعَ . رَالَ : فَرَحَ النِّعَامَ . إِهْلَالَ : رَفَعَ الصَّوْتَ بِالتَّلْبِيَةِ بِمَكَّةَ .

* * *

اعْمَلُوا رِعَاكُمْ بِاللَّهِ أَصْلَحَ الْأَعْمَالِ ، واسْتَكُوا مَسَالِكَ الْحَلَالِ ،
وَاطْرَحُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ ، واسْتَمِعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَعُوه ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ
وَرَاعَوْهَا ، وَعَاصُوا الْأَهْوَاءَ وَارْذَعُوهَا ، وَصَاهَرُوا لَحِمَّ الصَّلَاحِ
وَالْوَرَعِ ؛ وَصَارُمُوا رَهْطَ اللَّهِوِ وَالطَّمَعِ . وَمُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الْأَخْرَارِ
مَوْلِدًا ، وَأَسْرَأُكُمْ سُودْدًا ، وَأَخْلَاكُمْ مَوْرِدًا ، وَأَصَحُّهُمْ مَوْعِدًا .
وَهَاهُوَ أُمَّكُمْ ، وَحَلَّ حُرْمَتُكُمْ ، مُمْلِكًا عَرُوسَكُمْ الْمَكْرَمَةَ ،
وَمَا هِرَآلَهَا كَمَا مَهَرَ الرَّسُولُ أُمَّ سَلَمَةَ ، وَهُوَ أَكْرَمُ صِبْهِ أَوْدَعِ
الْأَوْلَادِ ، وَمُلْكٌ مَا أَرَادَ ، وَمَا سَهَا مُمْلِكُهُ وَلَا وَهْمٌ ؛ وَلَا وَكَيْسَ
مُلَاجَهَةٍ وَلَا وَصِيمٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَكُمْ إِحْمَادَ وَصَالَهُ وَدَوَامَ إِسْعَادِهِ ،
وَأَلْهَمَ كَلًّا إِصْلَاحَ حَالِهِ وَالْإِعْدَادَ لِمَعَادِهِ . وَلَهُ الْحَمْدُ السَّرْمَدُ ،
وَالْمَدْحُ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ .

...

اطْرَحُوا : اَتْرَكُوا وَارْمُوا بِهِ . عُوه : احْفَظُوهُ . الْأَرْحَامَ : الْقَرَابَاتِ ،
الوَاحِدَ رَحِمٍ ، وَالْأَرْحَامَ مِنَ النِّسَاءِ الْوَاحِدَ رَحِمَ ، رَاعَوْهَا : احْفَظُوا وَحَامُوا
عَلَيْهَا . الْأَهْوَاءَ : دَوَاعِيَ النَّفْسِ . ارْذَعُوهَا : كَفَّوْهَا . صَاهَرُوا : نَا كَعُوا .

لحم : قرابات ، ولحمة النسب : التعام القرابة وانضمامها . صارموا : قاطموا .
مصاهركم : خَتَنُكُمْ المتزوج إليكم . أسراهم : أشرفهم وأكثروهم مروءة ، وقد
سَرَى فهو سرى . أمة-كم : قصدكم . حلّ : نزل حرمكم : بلدكم وموضعكم ،
الذى هو كالحرّم فى أمتة . مُملَكًا : متزوجًا ، والإملاك : التزويج الذى تُملِك
به المرأة .

قال ابن هشام : أمّ سلمة بنت أمية بن المغيرة ، تزوّج بها رسول الله صلى الله
عليه وسلم قبل وقعة بدر فى سنة اثنتين من التاريخ ، واسمها هند بنت أمية زاد
الركب بن المغيرة ، وفى حديث أنس رضى الله عنه أن النبی صلى الله عليه وسلم
تزوج أمّ سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم .

سها : أخطأ . مُملِكه : منكحه الذى أعطاه وليّته . وكس : غبن ،
وَوِم . فى الحساب : غلط فيه ، وملاحه : أى مصاهره . وُصِم : عيب ،
والوصم : العيب ، وأحد الرجل احادًا ، أى صار أمره إلى الحد ، أراد أنه من
أهل الأحساب فلا ينقص مَنْ يصاهره . الإعداد للمعاد ، أى الاستعداد لليوم
الذى يعاد فيه إلى نشأته الأولى . السرمد : الدائم . والرسول : الذى يتابع أخبار
الذى بعثه ، أخذًا من قولهم : جاءت الإبل أرسالًا ، أى متتابعة ، ويثنى
رسولان ، ويجمع رسل . ومنهم من يوحدّه فى كل حال ، قال الله تعالى :
{ أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ^(١) وحده ، لأنه فى معنى الرسالة ، وأنشد :

فأبلغ أبا بكر رسولاً سريعة فإلاك يا بن الحضرمي وماليا

قال القراء رحمه : الله وحده اكتفاء بالرسول من الرسولين ، وأنشد :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرِّسْوِ لَ أَعْلَهُمْ بَنَوَاحِي الْخُـبْرِ^(١)
أراد الرّسل ، فاكتفى بالواحد عن الجمع .

* * *

[بعض خطب النكاح]

وإذ كملت الخطبة فلنسق من خطب النكاح ما يحسن بالوضع .

ومن مشاهير الخطب فيه خطبة أبي طالب في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله عنها وهي :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ،
وجعل لنا حرمًا آمنًا وبيتنا محجوجًا ، وجعلنا الحكماء على الناس . ثم إن محمد
ابن عبد الله ابن أخى ، ممن لا يوازن فتى فى قريش إلا رجح به برًا ، وفضلاً ،
وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإنما المال ظل زائل ،
وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم
من الصّدّاق فعلى .

فهذه الخطبة من أفضل خطب الجاهلية .

وعن يحيى بن أكرم : أراد المؤمن أن يزوج ابنته من على الرضا ، فقال :
يا يحيى تكلم ، فأجللت أن أقول : أنكحت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت
الحاكم الأكبر والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :

(١) اللسان - رسل ، ونسبة إلى أبي ذؤيب .

الحمد لله الذى تصاغرت الأمور بشيئته ، ولا إله إلا الله إقرارا برؤيته ،
وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره وعترته . أما بعد ، فإن الله سبحانه قد
جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً ، وأنزله وحياً ، ليكون سبباً للمناسله وإنى قد
زوّجت ابنة المأمون من على بن موسى الرضا ، وأمهرتها أربع مائة دينار ،
اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف
الصالح ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر المأمون إماماً وهو أمير ، فسأله مَنْ حضر أن يخطب ، فقال :
الحمد لله ، والصلاة على المصطفى رسوله ، وخير ما عمل به كتاب الله : ﴿ وأنكحوا
الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾^(١) ، ولو لم يكن فى المناكحة آية منزلة
ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله فى ذلك من تأليف البعيد ، وبرّ القريب ، لَسارع
إليه الموفق المصيب ، وبادر إليه العاقل اللبيب .

وفلان قد عرفتموه فى نسب لم تجهلوه ، خطب إليكم فتانكم فلانة ، وقد
بذل لها من الصداق كذا ، فشقموا شافعنا ، وأنكحوا خاطبنا ، وقولوا خيراً
تحمّدوا عايه وتزجروا فيه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ، فقال عمر :
الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فإن الرغبة
منك دعت إلينا ، وإن الرغبة منا فىك أجابت بنا ، وقد أحسن بك ظنا مَنْ
أودعك كريمته ، واختارك ولم يختار عليك ، وقد زوّجناك على كتاب الله تعالى ،
إمساك بمعروف أو تسريع بإحسان .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في خطبة النكاح بعد الحمد والثناء .
أما بعد فإن الله تعالى جمع لهذا النكاح الأرحام المنقطعة ، والأنساب
المفترقة ، وجعل ذلك في سنة من دينه ، ومنهاج من أمره ، وقد خطب فلان
إليكم ، وعليه وعليكم من الله نعمة ، وهو يبذل من الصدق كذا ، فاستخيروا
الله ، وردوا خيرا ، يرحمكم الله !

الأصمعي رحمه الله : كانوا يستحسنون من الخاطب أن يطيل ليدل على
الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإنجاز ليدل على الإجابة .

* * *

فلما فرغ من خطبته البديعه النظم ، العريّة من الإعجام ، عقد
العقد على الخمس المثين ، وقال لى : بالرّفاء والبنين . ثمّ أحضر
الحلواء التي كان أعدّها ، وأبدي الأبدّة عندها . فأقبلت إقبال
الجماعة عليها ، وكذت أهوى يدي إليها ، فزجرني عن المؤاكلة ،
وأنهضني للمأولة ؛ فوالله ما كان بأسرع من تصافح الأجنان ، حتّى
خرّ القوم للأذقان . فلما رأيتهم كأعجاز نخل خاوية ، أو كصرعى
بنت خاية ؛ علمتُ إنّها لإحدى الكبر ، وأمّ العبر ؛ فقلتُ له :
ياعدى نفسه ، وعبيد فلسيه ، أعددت للقوم حلوى ، أم بلوى ؟
فقال : لم أعد خبيص البنج ، في صحاف الخلنج . فقلتُ : أقسم بمن
أطلعها زهراً ، وهدى بها السارين طراً ؛ لقد جئت شيئاً نكراً ، وأقيت
لك في المخزيات ذكراً !

...

قوله : البديعة النظام : أى الغريبة التأليف . العرية من الإعجام ، أى العاطلة من النقط . الرِّفاء : السكون والالتحام ، ويدعى للمتزوج ، فيقال له : بالرِّفاء والبنين ، أى بالاتفاق مع الزوجة ووجود البنين مما يكون منها ، وهو من رفأت الثوب ، إذا ضمت بعضه إلى بعض ، ومن رفوت الرجل إذا سكنته ، قال أبو زيد رحمه الله : هو من المرافاة غير مهموز ، وهى الموافقة .

تزوج عقيل بن أبى طالب فقيل له : بالرِّفاء والبنين ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رفا أحدكم أخاه فليقل : على الخير والبركة ، برك الله لك وبارك عليك » .

الآبدة : الداهية ، وجاء بآبدة ، أى بكلمة أو خصلة وحشية منكرة ، واشتقاقه من الأوابد ، وهى الوحش ، وكذلك الآبد ، يقال : أبد الشاعر ، إذا أتى بالعويص فى شعره ، فمعنى أبدى الآبدة ، أى أظهر الداهية التى يبقى ذكرها على الأبد . زجرنى : نهانى . أنهضنى : أقامنى وقدمنى . المناولة : إعطاء الطعام . تصافح الأجفان : غلقها وفتحها بسرعة ، كقولك : طرفة العيون . خرّوا للأذقان ، أى سقطوا على وجوههم ، والدّقن جمع اللّحيين يعترّ به عن الوجه ، لأن العرب تسمّى الشئ ببعض ما فيه ، وإذا خرّ على وجهه ، فأقرب شئ إلى الأرض ذقنه ، فخصّه بالذّكر لهذا ، قال الله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾^(١) أعجاز : أصول . خاوية : فارغة متأكلة ، ويقال : خاوية ساقطة بالية . صرعى : قتلى ، وأراد به السكرى ، . وبنت الخاوية : ، هى الخمر ، ومعنى الخاوية التى تخبأ فيها الأشياء ، مأخوذ من خبأت ، فُبْنيت على ترك الهمز ، ويقال : خبأت الشئ وخبأته وخبّيته ، وقرأت الشئ وقربته . إحدى الكبر : واحدة من الكبائر .

(١) سورة الإسراء آية ١٠٧ .

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

أم العبر : أى أعظم الدواهي ، وما يُعَظ به . لم أعد : لم أتجاوز . الخبيص : نوع من الحلواء . البنج : نبات يسكر منه ، وهو لبن الخشخاش البرى المعروف بالأفيون . والخلنج : ضرب من الخشب . زهرا : مضيئة ، يعنى الكواكب . السارين : الماشين بالليل . طرا : جمعا . نُكْرَأ : منكرأ . والخزيات : جمع مخزية ، وهى الخصلة الرديئة يختزى صاحبها متى ذكرت له ، والخزى الهوان .

* * *

ثم حِرتُ فِكرةً فى صيُورِ أمرِهِ ، وخيفةً من عدوى عَرِّهِ ،
حتى طارتَ نَفْسِي شَماعاً ، وأرعدتَ فَرَائِصِي ارتياعاً . فلما رأى
استِطارةَ فَرَقِي ، واستِشِاطةَ قَلْقِي ، قال : ما هذا الفِكرُ المُرِضُ ،
والرَّوعُ المُوْضِعُ ؟ فإنْ يَكُنْ فِكرُكَ فى أَجَلِي ، من أَجَلِي ؛ فأنا
الآن أرتع وأطفر ، وأقوى هذه البُقعةَ مِنِّي وأقفر ، وكَمَ مِثْلِها
فارقُها وهى تصفر ؛ وإنْ يَكُنْ نظراً لِنَفْسِكَ ، وحذراً من حَبْسِكَ ،
فتناولَ فُضالةَ الخبيصِ ؛ وطبَّ نَفْساً عن القميصِ ؛ حتى تأمنَ المُستَعْدِي
والمُعْدِي ، ويتمهدَ لَكَ المَقامُ بَعْدِي ؛ وإلا فالمرءُ المفرّ ؛ قبل أن تُسحبَ
وتُجرَّ : ثم عمَدَ لاستِخراجِ ما فى البيوت ، من الأكياس والتخوت .
وجعلَ يَسْخُلِصُ خالصةَ كلِّ مخزون ، ونجبةَ كلِّ مذرُوعٍ
وموزون ؛ حتى غادر ما أُلغاه فَنَّهُ ، كعظمِ استُخرجِ مَنَّهُ .

...

صَيُور : آمال ورجوع ، أى ما يصير إليه أمره . عدوى عَرِّهِ ، أى انتقال

ضرره ، والعمر : الجرب ، والعدوى انتقال المرض إلى الصحيح ، ومعناه عند العرب : إذا كان الجرب بواحدة من الإبل سرى في غيرها ، وفي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ولا طيرة ولا صفّر ولا هامة ، ولا بورد مُفرض على مُصح » . فقال أعرابي : يا رسول الله ، فما بال الإبل التي تكون في الرمل ، كأنها الطباء فيجىء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجر بها كلها ؟ وقال : فمن أعدى الأول . وقال النابغة :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلى به القار أجرب^(١)
فأراد أنه خاف أن يؤخذ بذنب السروجي . شعاعا : متفرقة في كل جهة ، يقال نفس شعاع ، أي تفرقت همتها ، ورأى شعاع ، أي متفرق . والفرائص : جمع فريضة ، وهي بضعة عند الكبد تُرعد عند الفزع ، قال مروء القيس :
* وتُرعدُ منهن السكلى والفريص *

ارتياحا : فزعا . استطارة فرقى : انتشار فرعى . واستشاطا : التهاب واحترق . المرض : الحرق ، وهو من لفظ الرمضاء : والرؤع : الفزع . المومض : الذي يدع صاحبه مبهوتا شاخص البصر من شدته ، وأومضت المرأة بعينها إذا برقت . الأجل ، بالتحريك : التأخير ؟ وتسكينها الجنابة يقول : إن تفكرت في تأخيري من الهرب بسبب جنائتي ، فالآن أجمع أموالهم وأفر ، قال الفجديهي : إن يكن فكرك في أجلى ، أي في جنائتي ، يقال : أجل الرجل عليهم شرًا بأجل وبأجل أي جنابة . وهيجته من أجلى أي من جرائي . أرتع : آكل أموالهم . أظفر : أفر هاربا ، وطفر : وثب وسار مسرعا . أفوى

(١) ديوانه ١٣ .

(٢) ط : « الفرائص » ، والبيت لامرئ القيس ، ديوانه ١٨٣ ، وقبلة :

* فيشر بن أنفاسا وهن خوالف *

وأقفر : ، معناهما أخلي موضعي ، وأقفر الرجل من أهله : انفرد عنهم وبني وحده والدار خات وكذلك أقوت وقويت وأقوت الأرض من الكلال ، ورأسه من الشعر ، وجسده من اللحم ، وأقوى وأقفر لا يتعديان . تصفر : تصوت ، وهذا عجزُ بيت لتأبط شراً ، وصدره :

* فأبت إلى فهمٍ وما كدت آيباً^(١) *

تصفر ، أى تنفخ ندما على فوتي ، والنادم على الشيء يتابع النفخ ، يقول : كم مثل هذه الخصلة فارقتها ، وهى تصفر فندماً على ما فاتها . تناول : خذ . فضالة : بقية . طب نفساً ، عنه ، أى لتكن نفسك طيبة على فقهه ، فإنك إذا أكلت الخبيص ، سكرت فجردت فصرت فى جملة من أكل ماله فتأمن بذلك . المستعدي : هو الشاكي . والمعدي : هو الحاكم ، ويقال : استعديت الحاكم فأعداني ، أى استمته فأعاني . يتهد : يتوطأ . المفرّ المفرّ : أى بادر الفرار ، وتُسحب ، هو تجرّ . الأكياس : أوعية الدراهم والدنانير . الثخوت : أوعية الثياب . يستخلص : يختار . خالصة : خيار ، وكذلك نخبة . مذروع : مكبل بالذراع ، يعنى الثياب . موزون : ، يعنى الجواهر وما فى معناها مما يباع بالوزن ، مثل العطريات وغيرها من شبهها . النفخ : آلة للصيد يحسن أن يكفى به عن المكيدة .

فلما همّ ما اصطفاه ورزّم ، وشمّر عن ذراعَيْهِ وتحزّم ؛ أقبل على إقبال من لبس الصفاقة ، وخلع الصداقة ، وقال : هل لك فى المصاحبة إلى البطيحة ، لأزوّجك بأخرى مليحة . فأقسمت له بالذى جعله مباركاً

(١) الأغانى ١٨ : ٢١٥ - ساسى ، وبقيته :

* وكَمْ مثلها فارقتها وهى تصفر *

أينما كان ، ولم يَجْعَلْهُ مِمَّنْ خانَ في خان ؛ إِنَّهُ لا قِبَلَ لي بِنكاحِ حُرَّتَيْنِ ،
ومُعاشرَةِ ضُرَّتَيْنِ . ثم قلت له قول المتطَلِّع بِطباعِهِ ، السكاثِلُ له بصاعِهِ :
قد كَفَتْنِي الأولى فخرًا ، فاطلبِ آخرَ للأُخرى .

فتبسَّم من كلامي ، ودَلَف لِإِثْرَامي . فلويتُ عنه عِذارى ،
وأبديت له ازورارى ، فلَمَّا بَصَرَ باقْباضِي ، وتَجَلَّى له إعراضِي
أُنشد :

• • •

همن : شدَّة بالهميان وهو نوع من التَّسْكَةِ . اصطفاه : اختاره . رَزَم : جمعه
رُزْمَةً ، والرُّزْمَةُ في كلام العرب : التي فيها ضُروب من الثياب وأخلاق يقال :
رازَم الرجل في أكله ، إذا اخلط بعضه ببعض ، ورازمت علف الدَّابة : خلطته ،
وقد يريد به ما شدَّ على وسطه من المال بهميانه . الصفاة : صلابة الوجه .
خلع : أزال

البَطِيحَةُ : قرية عامرة بقرب البصرة من جهة واسط ، وبينها وبين البصرة
وواسط جهة كبيرة ، تعرف بالبطح وتوسطها البطيحة .

معاشرَة ضرتين : مصاحبة زَوْجَيْنِ . المتطَلِّع بِطباعِهِ : المتخلِّق بِمخلقه .
السكاثِلُ له بصاعِهِ ، أى الذى أعطاه من الهزل مثل ما أعطاه . دلف : أسرع .
الترامى : معانقتي وضمي له . لوبت : عظفت ، أى أعرضت عنه بوجهي .
ازورارى : اقباضِي . تجلَّى : ظهر . إعراضِي : تركى إقبالى عليه .

* * *

يا صارفاً عني المودَّةَ والزَّمانَ لَهُ صروفٌ
ومعني في فضح مَنْ جاوزتُ تعنيفَ العسوفِ
لا تلحني فيما أتيتُ فإني بهم عروفٌ
ولقد نزلت بهم فلم أرهم يُراعون الضيوفُ
ويُلَوِّثُهم فوجدهم لما سبكتهم زُيوفُ
ما فيهم إلاَّ خيفٌ إنْ تمكَّنْ أوْ نخوفُ
لا بالصنيِّ ولا الوفيِّ ولا الحفيِّ ولا العطوفِ
فوثبتُ فيهم وثبةَ الذَّبِّ الضريِّ على الخروفِ
وتركتهم صرعى كأنهم سُقُوا كأسَ الحتوفِ
وتحكمتُ فيما اقتنَوْا هُ يدِي وهم رُغمُ الأنوفِ

...

صارفاً : منحنيًا: المودَّة: الحبَّة. صروف: دفعوع . معني: موبخى ولائمي . فضح: كشف . والعسوف : الآخذ بجهالة قبل التجربة . تلحني : تلمني . يُراعون : يحفظون حقوقهم . بلوِّثهم . خبرتهم ، ومثله سبكتهم . زُيوف : دراهم رديئة ، يريد أنهم قوم لا خير فيهم . مخيف : مضرّ مفزع . إنْ تمكَّنْ : ارتفع وكانت له مكانة . مخوف : لا يقدم عليه خوف ضرره . الصني الوفي . الصادق الود . الحفيّ : المكرم لصديقه المعنى به . العطوف : الرحيم . الضريّ : المعتاد الذي ضرى أخذ الخرفان . صرعى : مطرحون على الأرض . والحتوف : جمع حَتَف وهو الهلاك . اقتنَوْه : اكتسبوه . رغم : إذلال .

...

ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِمَنْعِهِمْ حُلُوَ الْمَجَانِي وَالْقُطُوفُ
وَلَطَّالَمَّا خَلَفْتُ مَكْلُومَ الْحَشَى خَلْفِي يَطُوفُ
وَوَتَرْتُ أَرْبَابَ الْأَرَا ئِكَ وَالْدَّرَانِكِ وَالسَّجُوفِ
وَلَكُمْ بَلِغْتُ بِحَيْلَتِي مَا لَيْسَ يُبْلَغُ بِالسَّيُوفِ
وَوَقَفْتُ فِي هَوْلٍ تَرَا عِ الْأُسْدُ فِيهِ مِنَ الْوُقُوفِ
وَلَكُمْ سَفَكْتُ وَكَمْ فَتَكْتُ وَكَمْ هَتَكْتُ حَمَى أَنْوَفِ
وَكَمْ ارْتِكَاضٍ مُوَبِقٍ
لِي فِي الذَّنُوبِ وَكَمْ خُفُوفِ
لَكِنِّي أَعْدَدْتُ حُسْنَ الظَّنِّ بِالْمَوْلَى الرَّءُوفِ

...

انثنيته ، أى رجعت . المجاني : ما يجنى من الثمار . والقُطُوف : ما يقتطف
منها ، وهى جمع قُطْف وهو العنقود . خلّفت : تركت خلفي . مكلُوم :
مجرّوح . الحشَى : إسقاط الجوف . وترت : أخذت منهم ثأرى وحقى . أرباب
الأرائك : أصحاب الأسرّة . والدرائك : البُسط . السجوف : جمع سِجْف ،
وهو السرّ ، والأرائك : جمع أريكة ، والدرائك واحدها درنوك . الهول :
الأمر المفزع . تراعى : تفزع ، وفيه : متعلقه وقوف ، يريد أن الأسد تفزع أن
تقف فى الهول الذى وقف فيه . سفكت : قتلت . فتكت : عتيت . هتكت
قطعت . رَحِمِي : ما يحمى ويمنع . أنوف : كثير الأنفة والحمية . ارتكاض : جرى
واضطراب وتحرك . موبق : مهلك . خفوف : إسراع : الرءوف : الكثير
الرفق والرحمة .

[مما قيل في الاعتراف بالذنوب والطمع في رحمة الله وعفوه]

قال ابن رشيقي في معنى هذا الخروج بعد تعدد ذنوبه :

إذا أتى الله يوم الحشر في ظُلُلٍ وجيء بالأمم الماضين والرسلي^(١)
وحاسب الخلق مَنْ أحصى بقدرته أنفاسهم وتوفاهم إلى أجلٍ
ولم أجد في كتابي غير سيئة تسوءني وعسى الإسلام يسلمُ لي
رجوتُ رحمةَ ربِّي وهي واسعة ورحمة الله أرحى لي من العملِ
ولا بن نكك: ١

إذا خفق اللواء على يوماً وقد أخذ امرؤ القيس اللواء^(٢)
رجوت الله لأرجو سواه لعل الله يرحم من أساء

وقال ابن الزقاق :

يا عالم السرّ مني اصنع بفضلِكَ عني^(٣)
منيتُ نفسي بعفو مولاي منك ومني
وكان ظني جميلاً فكن إذا عند ظني

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما يشاء » .

توفي رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مسرقاً على نفسه ، فلما حضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه ، فقال لهما : ما يبكيكما ؟ قالا : نبكي لإسرافك على نفسك ، قال : فلا تبكيا ، فوالله ما يسرنى أن الذي بيد الله من أمري بأيديكما . فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم

(١) نقله صاحب التنف صفحة ٦٢ .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٠ .

(٣) دتوانه ٢٧٤ .

فأخبره أن فتى توفّي اليوم ، فاشهده فإنه من أهل الجنة ، فاستكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه عن عمله ، فقالا : ما علمنا عنده شيئاً من خير إلا أنه قال عند الموت كذا .

قال : من هاهنا أتى حُسنُ الظنِّ بالله من أفضل العمل عنده .

وعن أنس رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يموتَنَّ أحدكم حتى يُحسن ظنه بالله تعالى ، فإن حسنَ الظنِّ ثمن الجنة » .

أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن الظنِّ مِنْ حسن العبادة » .

وكان محمد بن نافع الواعظ صديقاً لأبي نواس ، قال : فلما بلغنى موته أشفقت عليه ، فرأيتُه في النوم ، فقلت : أبا نواس ، فقال : لاتَ حينَ كِناية ! قلت : الحسن ، قال : نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر الله لى ، قلت : بأيّ شيء ؟ قال : بتوبة تبته قبل موتى ، بأبيات قلتها ، قلت : أين هى ؟ قال : عند أهلى . فسرت إلى أمه ، فلما رأتنى أجهشت بالبكاء ، فقلت : إني رأيت كذا ، فكانها سكنت ، وأخرجت إلى كتبنا مقطعة ، فوجدت بخطه كأنه قريب :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرةً فلقد علمت بأن عفوك أعظم^(١)
 إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذى يدعو ويرجو المجرم^(٢)
 أدعوك رب كما أمرت تصرّعا فإذا رددت يدي، فمن ذا يرحم !
 مان إليك وسيلة إلا الرجا وجميل ظنى ثم أنى مسلم

(١) ديوانه ١٩٩ : ٢٠٠ . (٢) الديوان « فبين يلود ويستجير المجرم » .

وإنما قال: «لات حين كفاية» لأن العرب لانكفى الميت إنما تدعوه باسمه.
قال الراجز:

وقام نسوة بجانب حُفَرَتِي بنات أختي وبنات إخوتي
* يدعون باسمي وتناسوا كنيتي *

وقال آخر:

فقد جعلت تُدْعَى كُلاب بن جعفر بأسمائها لا بالكنى لا تُجِيبُهَا

* * *

قال: فلمّا انتهى إلى هَذَا البيتِ لَجَّ في الاستِغْبارَ ، وألْظَّ بالاستِغْفارَ ، حتَّى اسْتَمَالَ هَوَى قَلْبِي المنحرفَ ، وَرَجَوْتُ لَهُ ما يُرْجَى للمُتَرَفِّعِ المُعْتَرِفِ . ثُمَّ إِنَّهُ غَيَّضَ دَمْعَهُ المُنْهَلُ ، وتَأَبَّطَ جِرَابُهُ وانْسَلَّ ، وقال لابنهِ : احْتَمِلِ الباقي ، واللهُ الواقِ .

قال المخبر بهذه الحكاية : فلمّا رأيتُ انْسِيَابَ الحَيَّةِ والحَيَّةِ ، وَاِتِّهَاءَ الدَّاءِ إلى الكَيَّةِ ، عَلِمْتُ أَنَّ تَرَيُّثِي بالخانِ ، مَجْلِبَةً للهوانِ ، فَضُمَّتُ رُحَيْلِي ، وَجَمَعْتُ للرَّحْلةِ ذَبِيلِي ، وَبَتَ لَيْلَتِي أُسْرِي إلى الطَّيِّبِ ، وأَحْدَسْتُ اللهُ عَلَى الخَطِيبِ .

. . .

قوله : لَجَّ في الاستِغْبارَ ، أى أَكْثَرَ في البكاء . أَلْظَّ : أَلَحَّ ، وألْظَّ به : دار عليه . اسْتَمَالَ : استعطف وأماله إليه . المنحرف : المائل عنه . المُتَرَفِّعِ : المُكْتَسَبِ

الإثم ، ويقال : قرَف فلان فلاناً ، إذا ألصق به عيباً وكسبه ذنباً ، واقرَف فلان ذنباً ، أى اكتسبه وألصقه بنفسه . المقرَف : المقر بذنبه .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عز وجل ملائكة يترحمون على المقرّين على أنفسهم بالذنوب » .

وروى أبو ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « ابن آدم إنك إن يبلغ ذنبك عنان السماء ، ثم تستغفرنى أغفر لك ولا أبالي » . غِيض : جَفَفَ وغَيَّب ، من غِيض الماء إذا انتقص وجفّ . المنهل : السائل . تأبَط : أى جمعه تحت إبطه . انسلّ : خرج مخفياً نفسه متحرزاً أن يراه أحد . انسياب : مشى لا يحسّ به . الحية : ، يعنى الشيخ ، سماه حية لإذايته أهل الخان بالبنج : فجعله كسم الحبة فيمن ألقته ، ويقال أيضاً فى تصغير الحية حُوَيّة ، وأصلها الواو لأنها من تحوّت أى تلوّت ، وقيل : هى من الحياة لطول عمرها . انتهاء الداء إلى الكيّة : ، مثل يضرب لانتهاه الداء إلى أقصاه ، تقول العرب : آخر الطبّ الكى ، تريد أن المريض يعالج بكلّ دواء فلا يواqqه فإذا عولج بالكى لم يبق بعده دواء ، وإلّا فهو الموت ، فيريد أنه إن أقام بعدها انتهى إلى هوان وعذاب . تريثي : تثبّطى ، وتربّث بالمكان : أطال الجلوس فيه . مجلبة ، أى سبب جلبه وسوقه رُحَيْلَه : يريد متاعه وصغره لفقره وقلة ما عنده ، ورحل الإنسان ماله ومتاعه فى السفر . أسرى : أمشى بالليل . الطيب : قرية بالعراق بمقبرة واسط بينها وبين البطيحة المتقدمة ، وسميت الطيب لطيب هوائها وخصبها .

احتسب : أدعو وأقول : حسيبه الله ، ومجازيه على قبيح أفعاله ، والاحتساب طلب الأجر ، فعنى أحسب الله على الخطيبي ، طلب إلى الله تعالى الثواب بإنكارى على الخطيب ، والله تعالى ربى عليه توكلت وإليه أئيب .

المقامة الثلاثون وهي الصورة

حكى الحارث بن همام، قال : ارتحلتُ من مدينة المنصور ، إلى بلدة صور ؛ فلمّا حصلتُ بها ذارِ فعةٍ وخَفَضَ ، ومالكٌ رفعٌ وخَفَضَ ؛ تَقَتُّ إلى مَضْرُتَوْقَانَ السَّقِيمِ إلى الأُسَاةِ ، والكريمِ إلى المِوَاَسَاةِ ؛ فَرَفَضْتُ عِلَاقِ الاسْتِقَامَةِ ، ونَفَضْتُ عِلَاقِ الإِقَامَةِ ، وَاغْرَوْرِيْتُ ظَهَرَ ابْنِ النِّعَامَةِ ، وَأَجْفَلْتُ نَحْوَهَا إِجْفَالَ النِّعَامَةِ . فَلَمَّا دَخَلْتُهَا بَعْدَ مُعَانَاةِ الْآئِنِ ، وَمَدَانَاةِ الْحَيْنِ ، كَفَتُ بِهَا كَلْفَ النَّشْوَانِ بِالْاضْطِبَاحِ ، وَالْحِيرَانِ بِتَنْفُسِ الصَّبَاحِ .

* * *

[ترجمة للمنصور]

قوله : مدينة المنصور ، هي بغداد ، والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، استُخلف بعد أخيه السفاح ، وبُيِعَ له يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة . وهو ابنُ إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر ، وكان حائجا وقت وفاة السفاح ، فعقد له البيعة عمّه موسى بن عليّ بن عبد الله بالأنبار ، وورد الخبر على المنصور في أربعة عشر يوما .

وقد بشر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونظر إلى عمه العباس ، فقال :

هذا عمى أبو الخلفاء الأربعين أجود قريش كفاً ، ومن ولده السفتاح والمنصور .
والمهدى .

وقال المنصور : رأيتُ في المنام كأنى في المسجد الحرام ، فنودى : أين عبدُ الله ؟ فقلتُ أنا وعبدُ الله بن يحيى نستبق ، حتى وصلنا إلى الدرجة العليا ، فجلس هو وأخذ بيدي ، فأصعدت ، وأدخلت الكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال . قال . فأقم دنى وأوصانى بأمتي ، هممى ، فكان كورُها ثلاثاً وعشرين كوراً ، وقال : خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة .

وقال المنصور : الخليفة لا يُصاحبه إلا التقوى ، والسلطان لا يُصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يُصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه .

وولد المنصور في سنة خمس وتسعين في اليوم الذى مات فيه الحجاج ، ومات بمكة بيئر ميمون لستَ خَلَوْنَ من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة .

* * *

[ذكر مدينة صور]

سور : مدينة بالشأم ، بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخاً .

وقال شيخنا ابن جبير^(١) : مدينة صور يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطلابها بيد طاعة ولا استكاثرة ، قد أعدتها الإفرنج مفرعاً لحادثة زمانهم ،

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ باختصار .

وجعلوها مثابةً لأمانهم . وَحَصَانَتِهَا وَمَنَاعَتُهَا^(١) أعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة إلى بابين ، أحدهما في البر والثاني في البحر ، والبحر يُحيط بها إلا من جهة واحدة ، فالبري يُفِضِي إليها^(٢) بعد ولوج ثلاث أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، والبحريّ يَدْخُلُ إليه بين بُرْجَيْنِ مشيدَيْنِ إلى مَرَسَى له ، ليس في البلاد أعجب منه وصفاً ، يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويُمدَّق به من جانب آخر جدار معتود بالحصن ، والسفن تدخل تحت السور وتُرْمَى فيه ، ويعترض من البُرْجَيْنِ المذكورين سلسلة عظيمة معقودة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، ولا مجال للمراكب إلا عند إزالتها ، وعلى الباب حُرَّاس ، لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم ، فشان هذا المرسى شأنٌ عظيم ، وعند الباب البري عين معينة ، تنحدر إليها على أدراج ، والآبار والجباب بها كثيرة ، لا تخلو دار منها ، ولا بساتين بها إنما تجلب لها القواكه من أقطارها التي بالقرب منها .

ولها أعملة^(٣) متصلة ، والجبال بالقرب منها معمورة بالضياح ، ومنها نجى الثمرات إليها ، والمسلمين الباقين بها مسجدان .
وأعلمنى أحد أسياخنا أنها أخذت من أيديهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة بعد محاصرة طويلة ، وبها كانت دار الصنعة ومنها تخرج مراكب المسلمين للفرز .

* * *

قوله : ذارفة ، أى عزّة ومكانة . خفض : طيب عيش ، ومعنى مالك رفع وخفض ، أى صاحب أحوال تُرْفَعُ على الإبل في السفر ، وتُخَفَّضُ عنها للنزول ،

(١) ابن جبير : « ومنعتها » (٢) ابن جبير : « إليه » (٣) ابن جبير : « ولها عمالة متسمة »

ويريد أنه ذو قدرة وتمكّن يخفض ويرفع من أراد . قوله : مُتَقَت ، أى اشتقت .

[ذكر مصر]

مصر : قال الهمداني : سميت بمصر بن هرمس بن هروس جد الإسكندر .
وقال أهل اللغة : المصر الحدّ فسميت مصر لأنها حد بين الشرق والمغرب .
ابن دريد كل بلد عظيم مصر ، نحو البصرة والكوفة .

طول مصر من الشجرتين اللتين بين أمج والعريش إلى أسوان ، وعرضها من برقة إلى أيلة ، فهي مسيرة أربعين ليلة . وافتتحت كلها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمي .

ولما افتتحت مصر ، أتى أهلها إلى عمرو ، فقالوا له : أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : ما ذاك ؟ فقالوا له : إذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من بثونة من أشهر المعجم ، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، ورحلنا عليها من الحلى والحلل أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأيب ومسرى . وهي أسماء ثلاثة أشهر للقبط - لا يجرى النيل فيها لا قليلا ولا كثيرا ، حتى هموا بالجللاء منها . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فكتب عمر بطاقة ، وكتب إلى عمرو : إني بعثت إليك بطاقة فألقها في النيل . فأخذ عمرو البطاقة فإذا فيها : من عبد الله همر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد ، فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار ، هو الذي يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقي البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيا أهل مصر للجللاء ، فلما ألقى البطاقة في النيل أصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه

الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، فقطع الله تعالى تلك السنة السوء من أهل مصر .

قال ابن جبير : ومدينة مصر كبيرة عامرة ، مختلفة الأسواق من المدن التي سارت بأوصافها الرقاق ، وهي على شط النيل ، وعلى النيل في مقابلتها قرية كبيرة الشأن ، كثيرة البنيان ، تعرف بالجزيرة ، وتمتد بينهما جزيرة فيها مساكن حسان وعلاى مشرفة ، وهي مجتمع لمو أهل مصر ومنزلهم ، وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل ، ولا يخرج له . وبالجزيرة جامع يُخطب فيه .

[ذكر المقياس]

ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كل سنة ، وابتدأه من شهر بثونة ، ومعظم انتهائه أغشت وآخرها أول أكتوبر .

والمقياس : عمود رخام مُثَمَّر في موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه إليه ، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، وكل ذراع مفصلة على أربعة وعشرين قسماً أقساماً متساوية تعرف بالأصابع ، فإذا استوى الماء تسع عشرة ذراعاً في الفيض ، فهي الغاية عندهم في طيب العام ، وربما كان الماء فيها كثيراً لعموم الفيض ، والمتوسط ما استوى سبع عشرة ذراعاً ، وهو أحسن مما زاد عليه . والذي يستحق به السلطان خواجه ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها تُعطى البشارة للذي يراقب الزيادة في كل يوم ، ويعلم بها مياومة ، وإن قصر عن ست عشرة فلا يجي لذلك السلطان في ذلك العام ، ولا خراج إلا ما يعول عليه ، وبقرية الجزيرة يوم الأحد سوق عظيمة يتحدث بها .

(١) رحلة ابن جبير ١٣ .

[ذكر الأهرام]

وعلى نحو سبعة أميال في الصحراء التي يفضى منها إلى الإسكندرية .
 الأهرامُ القديمة ، المعجزة البناء الغربية للنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب
 المضروبة قد قامت في جو السماء ، لا سيما الاثنان منها في سعة الواحد منها من
 ركنه إلى ركنه ثلاثمائة خطوة ، وست وستون خطوة محدّدة الأطراف في رأى
 العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع
 ما يكون من الرحاب ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، ورُكبت تركيباً
 بدیع الإلصاق ، يكاد يُعجز أهل الأرض نقض بنيانها .

[بعض معالم مصر]

وبمصر أيضاً المسجد المنسوب إلى عمرو بن العاص ، وبها الجبّانة المعروفة
 بالقرافة ، وهى من عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، وأهل
 البيت والصالحين والعلماء وذوى الكرامات من أهل الزهد .

وبها قبر آسية امرأة فرعون ، وبها مساجد معمورة بالليل والنهار ، يبيت
 بها الصالحون .

وبها قبر الشافعى محمد بن إدريس الإمام رضى الله عنه ، وهو من المشاهد
 العظيمة احتفالاً واتساعاً .

والشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة ، حيث رأسُ سيدنا الحسين بن على
 رضى الله عنهما ، هوى تابوت من فضة مدفون ، قد بُنى عليه بنيان يقصر الوصف
 عنه ، مجلّل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمود السكبار ، شهما أبيض أكثرها
 موضوع فى أتوار الفضة ، وحُفّ أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً فى مصنع شبه
 الروضة ، بهر الأبصار حسناً وجمالاً ، وفيه من أنواع الرخام المجزّع الغريب
 (٢٧ - شرح مقامات الحريري ج ٣)

الصنعة ، البديع ، التزصيع ، مالا يتخيله المتخيلون ، والمدخل إليها على مسجد على مثالها في التائق ، حيطانه كلها رخام ، وأغرب ما فيه حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية ، وتزاحم الناس على القبر وانكباهم عليه وتمسحهم به وبالكسوة التي عليه مرأى هائل .

وأخبار مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة .

* * *

الأساة : الأطباء . المواساة : أن يجعلك أسوة نفسه في ماله فيقاسمك فيه .
رفضت : تركت . علائق : أسباب تتعلق به فتحبسه . نفضت : أزلت وأطرحت ،
ونفضت ثوبى من الفبار : أزلته عنه . عوائق : موانع ، وهى ما يصرف
الإنسان عن وجهه الذى يمر فيه ويريده . اعروريت : ركبته عربا .

ابن النعامة : الطريق ، وقيل صدر القدم قال عنتره :

* وابن النعامة عند ذلك مرّ كهي^(١) *

وقيل : ابن النعامة الساق ، وقيل : عرق في الرّجل . وقيل الفرس الفارة
أجفلت : أسرع . النعامة : واحدة النعام . معاناة : مقاساة . الأين :
الفتور من التعب مداناة الحين : مقارنة الهلاك . كلفت بها ، أى أحبتها وولعت
بها . النشوان : السكران ، يريد أنه فرح فرح السكران ، إذا أصبح للشرب ،
وهو الاصطباح والمهموم بالليل إذا طلع ضوء النهار انجلى همه ، فجعل بياض
الفجر . تنفس أى انتشر في الظلام .

(١) صدره : « ويكون مركبك القلوس ورحله » وهو فى اللسان - نعم ، منسوب
لحزربن لوزان .

فبينما أنا يوماً بها أطوف ، وتحتي فرسٌ قُطوف ؛ إذ رأيت
على جُردٍ من الخيل ، عُصْبَةً كَمَصَابِيحِ اللَّيْلِ ؛ فَسَأَلْتُ لِاتِّجَاعِ
النَّزْمَةِ ، عن العُصْبَةِ والوَجْهِةِ ؛ فَقِيلَ : أَمَّا القَوْمُ فمشهود ،
وأما المقصِدُ فإملاكٌ مشهود ؛ فَحَدَّثَنِي مَنِعَةُ النَّشَاطِ ، على أَنَّ
سِرْتُ مع الفُرَّاطِ ؛ لَأَفُوزَ بِحَلَاوَةِ اللَّقْطِاطِ ، وَأُحُوزَ حَلَوَاءَ
السَّمَاطِ : فَأَفْضَيْنَا بَعْدَ مُكَابَدَةِ الْعَنَاءِ ، إِلَى دَارٍ رَفِيعَةٍ الْبِنَاءِ ،
وَسَمِيعَةِ الْفِنَاءِ ، تَشْهَدُ لِبَآئِنِهَا بِالثَّرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَلْنَا عَنْ
صَهَوَاتِ الْخَيُْولِ ، وَقَدَّمْنَا الْأَفْدَامَ لِلدَّخُولِ ، رَأَيْتُ دِهْلِيزَهَا
مُجَلَّلًا بِأَطْمَارٍ مَخْرَقَةٍ ، وَمُكَلَّلًا بِمَخَارِفٍ مُعَلَّقَةٍ ، وَهُنَاكَ شَخْصٌ
عَلَى قَطِيفَةٍ ، فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَةٍ .

* * *

قُطُوفٌ : مُتَقَارِبُ الْخَطُوفِ ، كَأَنَّهُ يَمُطِفُ خَطْوَهُ ، أَيْ يَقْطَعُهُ . جُرْدٌ :
مُلْسٌ ، وَالْأَجْرَدُ : الْقَصِيرُ الشَّعْرَ . عُصْبَةٌ : جِمَاعَةٌ . مَصَابِيحُ : مُرْجٌ ، وَيُرِيدُ
بِهَا النُّجُومَ . قَوْلُهُ : الْوَجْهِةُ كَالْجَهَةِ ، وَهُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ اسْتَقْبَلَتْهُ وَقَصَدَتْهُ
وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ . إِمْلَاكٌ : نِكَاحٌ ، وَأَمْلَاكَ الرَّجُلُ إِمْلَاكَ : تَزَوَّجَ ، وَأَمْلَكَهُ
غَيْرُهُ : زَوَّجَهُ . وَشَهِدْنَا إِمْلَاكَهُ ، أَيْ عَرَسَهُ .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ شَهِدَ
إِمْلَاكَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، فَكَأَنَّمَا صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَوْمَ بِسَبْعِمِائَةِ » . مَشْهُودٌ :
أَيُّ مُحْضُورٍ . حَدَّثَنِي . سَأَفْتَنِي . مَنِعَةُ : حَذَّةٌ وَنَشَاطٌ ، وَالْمِيعَةُ أَوَّلُ الشَّبَابِ ،
وَأَوَّلُ جَرَمِ الْفَرَسِ ، وَمِيعَةُ كُلِّ شَيْءٍ مَعْظَمُهُ . وَالْفُرَّاطُ : السَّبَاقُ الْمُتَقَدِّمُونَ ،

الواحد فارط . اللُّقَاط : ما يلتقط من العرس مما ينثر فيه للحاضرين ، نحو الكعك والتجيبص ، وما يُنثر فيه يسمى نثراً ، وكان نثار العرب في عرسهم التمر . أخوز : أحصل . السَّمَاط : السوق التي جوانبها صفتان متقابلان ، والسماط أيضاً أن يصطف العسكر صفين متقابلين ، والسماط في الطعام : أن تلتصق مائدة بأخرى ، ويجلس الناس عليها صفين متقابلين ، والسماط الصف منه ، ومنه سَمَط الجوهر ، ومنه الشَّمر للسَّمَط ، وهو الذي أبياته منفصلة على أجزاء متقابلة ، وقد نَبَهْنَا عليه في الحادية عشرة ^(١) . مكابدة : مقاساة ، وهي من الكبد كأن الكبد يتعب بها . والعناء : التعب . ربيعة البناء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده أن أفق ماله في البناء » .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بَنَى بِنَاءً فِي غَيْرِ ظَلَمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظَلَمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ ؛ فَإِنْ أَجْرُهُ جَارٍ مَا انْتَفَعَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الرَّحْمَنِ » .

وقال بعض الحكماء : إذا أيسر الرجل ابتلى بثلاثة أشياء : صديقه القديم يحفوه ، وامراته يتزوج عليها ، وداره يهدمها وبينها .

وعلى قوله : أما القوم فشهود ، جاء فيهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْرِمُوا الشُّهُودَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْرِجُ بِهِمُ الْحَقَّ ، وَيُدْفَعُ بِهِمُ الظَّالِمَ » .

قوله وسبعة ، أي واسعة ، والفناء : الساحة ، وهي ما حول الدار . الثراء : كثرة المال . السناء : الشرف والرفعة . صهوات : ظهور . دهليز : مدخل الدار ، الذي تسميه عامتنا الأسطوان ، والأسطوان عند العرب : السواري ، واحداً أسطوانة : وأنشد أبو موسى الخاض ^(٢) في نوادره وذكر الدهليز فقال :

(١) في الجزء الثاني ص ١٧ (٢) ط « الجاحظ » تحريف .

أويت في الدهليز مذ أربع ولم أكن آوى الدهاليزاً^(١)
خبزى من السوق وشعري لكم تلك لعمري قسمة ضيزى

مجللاً : مغطى . أطمار : ثياب خلقة . مكلاً : محلقاً . مخارف : قف أو
نعاليق للامراء ، يعملون فيها ما يأخذونه من الصدقة ، والمخارف عند العرب : جمع
مخرف ، وهى قفيفة تشبه الزنبيل ، يُخترَف فيها اللطاب ، أى بُجِتنى فيها .
قطيفة : نوع من البسط . دكة : هى الدكان .

* * *

فرأبني عنوان الصّحيفة ، ومرأى هذه البدعة^(٢) الطريفة ،
ودعأني التطير بتلك المناحيس ، إلى أن عمدتُ لذلك الجالس ؛ فعزمت
عليه بمصرّف الأقدار ، ليعرفنى مَنْ ربُّ هذه الدار ، فقال :
ليس لها مالكٌ مُعَيّن ، ولا صاحبٌ مُبَيّن ، إنما هى مضطبة
المقيّفين والمدروزين ، ووليجةُ المُشَقِّقين والمُجَلِّوزين . فقلت
فى نفسى : إنا لله على ضلّةِ المسعى ، وإمحالِ المرعى ؛ وهَمَمْتُ
فى الحالِ بالرجعى ، لَسَكَنِي استَهَجَنْتُ العودَ من فَوْرِي ، والقَهْقَرَةَ
دونَ غيرى ، فولجْتُ الدّارَ مُتَجَرِّعاً الغصص ، كما يلجُ العصفورُ
القَفص ، فإذا فيها أرائكٌ مَنقُوشة ، وطنافسٌ مَفْرُوشة ، ونارِقُ
مَصْفُوفة ، وسُجُوفٌ مَرْصُوفة ، وقد أقبلَ المَلِكُ يَمِيسُ فى بُرْدَتِهِ ،
وَيَدْبَهَنَسُ بَيْنَ حَفَدَتِهِ ، فحينَ جَلَسَ كَأَنَّهُ ابْنُ ماءِ السَّمَاءِ ،

(١) فى اللسان : الدهليز ، بالكسر : ما بين الدار والباب ؛ فارسى معرب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ط

نَادَى مَنَادٍ مِنْ قَبْلِ الْأَحْمَاءِ : وَحُرْمَةٍ سَاسَانَ ، أَسْتَازِ الْأَمْتَازِينَ ،
وَقُدُوءَ الشَّحَازِينَ ، لَا عَقْدَ هَذَا الْعَقْدِ الْمُبْجَلِ ، فِي هَذَا الْيَوْمِ
الْأَعْرَ الْمُحْجَلِ ، إِلَّا الَّذِي جَال وَجَابَ ، وَشَبَّ فِي الْكُدِيَّةِ
وَشَابَ .

* * *

رَابِعِي : شَكَاكِي وَخَوْفِي . عُنْوَان : دَلِيل . الصَّحِيفَةُ : الْكِتَابُ ، أَرَادَ
تَطَيَّرَتْ بِتِلْكَ الْخَارِفِ ، وَأَرَادَ أَنَّهَا دَارُ خِيَةِ وَحَرَمَانِ . وَكَانَ ابْنُ هَامٍ فِي هَذِهِ
الْقِصَّةِ طِفْلِيًّا عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ ، وَرَبَّمَا يَتَوَلَّعُ أَهْلُ الظَّرْفِ
وَالْأَدَبِ بِمِثْلِ هَذَا ، فَقَدْ حَكَيْنَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ وَإِسْحَاقَ الْمُوصَلِيِّ مِثْلَ
هَذَا فِي أَخْبَارِ الطُّفْلِيِّينَ عَلَى مَنَادَمَتِهِمَا لِلْخُلَفَاءِ وَكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمَا .

الْبَدْعَةُ : الشَّيْءُ الْمُبْدَعُ الَّذِي لَمْ يَفْعَلْ قَبْلَهُ مِثْلُهُ . وَالطَّرِيفَةُ : الْغَرِيبَةُ الْمُسْتَظَرَفَةُ .
التَّطَيَّرُ : التَّشَاؤُمُ . الْمُنَاحِسُ : جَمْعُ مَنْحُوسٍ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ الذَّنْجُسُ ، وَأَرَادَ
بِهِ الْخَارِقَ وَالْأَطْمَارَ الَّتِي قَدِمَ . مُصْرَفُ الْأَقْدَارِ : هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . رَبُّ الدَّارِ :
مَالِكُهَا أَوْ النَّازِرُ فِي إِصْلَاحِهَا مَا ذَكَرَهُ تَمَامًا لَا يَفْهَمُ لَهُ مَعْنَى فَهُوَ بَسْطَةُ
الْمُسْكِدِينَ . وَقِيلَ الْمُقَيِّفُونَ جَمْعُ مُقَيِّفٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَقِفُوا آثَارَ النَّاسِ ، أَيْ يَتَبَعُهُمْ
يَطْلُبُ لَهُمْ شَيْئًا ، وَيَدْعُو لَهُمْ . وَالْمَدْرُوزِينَ : الْمُسْكِدِينَ ، وَدُرُوزَةُ كَلِمَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ
مَعْنَاهَا الْكُدِيَّةُ . وَالْمُسْتَشْقِيُّ : الَّذِي يَحَاكِي أَصْوَاتَ الطُّيُورِ فَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَيَصْطَادُهَا .
وَالْمَجْلُوزُ وَالْمَجْلُوزُ : الشُّرْطِيُّ الَّذِي يَتَصَرَّفُ حَوْلَ السُّلْطَانِ .

قَوْلُهُ : وَلِجَعَةٍ ، أَيْ مَدْخَلٍ ، وَالْوَلِيجَةُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِيهِ ، أَيْ يَدْخُلُهُ
أَوْ كَهْفٍ يَسْتَرُّ فِيهِ . الْقَهْقَرَةُ : الرَّجُوعُ إِلَى خَلْفٍ . ضَلَّةٌ : ضَلَالَةٌ . الْمَسْمِيُّ : الْمَشْيُ

بمَجْلَةٍ ، أراد أنْ مشيه كان لغير فائدة . اِحْمال : يَبُوسَة وجَفُوف . فَوْزِي : حَتْنِي من قَبْل أنْ أَسْكَن . الْفُصَص : جَمْعُ غَصَّة ، وهى ما يَحْتَنِقُ بها ، وَتَجَرَّعَهَا صَعِب . أَرَأَيْكَ . سُرُرُ مَزِينَةٍ . طَنَافِس : بُسْط . وَنَمَارِق : مَخَاد . سَجُوف : سُتُور . مَرصُوفَة : مَضدُومَة مَلْحَصَة ، وَجَعَلَ الْبَيْتَ بِهِذِهِ الْأُمْتَعَة الْكَثِيرَة لِأَنَّهُ بَيْتُ عَرَس ، فَهِيَ تَسْتَعْمِدُ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ رَأَى فِي دَهْلِيْزِهِ مَرَقَعَاتٍ تَدَلُّ عَلَى فَقْرٍ ، فَإِنَّ الْغُرَبَاءَ فِي الْبِلَادِ يَمْلِقُونَ مَرَقَعَاتِهِمْ فِي دَهْلِيْزِ الْفُنْدُق ، وَبَيْتِهِ فِي غَايَةِ الرِّفَاقِيَةِ ، وَالدَّارِ الْمَذْكُورَةِ ، إِنَّمَا كَانَتْ فُنْدُقًا لِلْفُقَرَاءِ الْغُرَبَاءِ وَالْمُكْدِنِ . وَالْجَالِسُ فِي دَهْلِيْزِهَا : خَادِمُ الْفُنْدُق ، وَحِينَ سَأَلَهُ عَنْهَا أَخْبَرَهُ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا رَبٌّ مَعَيْنٌ ، إِنَّمَا هِيَ دَارُ الْمَكْدِنِ وَالْمَحَارِفِينَ ^(١) . وَقِيلَ لِأَحَدِ الْمَكْدِنِ : أَتَبِيعُ مَرَقَّتَكَ ؟ فَقَالَ : هَلْ رَأَيْتَ صَائِدًا يَبِيعُ شَبَكَتَهُ !

الْمُملِكُ : الْعُرُوس . يَمِيس : يَتَبَخَّرُ وَيَقْبِهِنَس ، مِثْلُهُ فِي الْعَنَى . حَفَدَتُهُ : خَدَمُهُ وَأَتْبَاعُهُ ، وَيُقَالُ : حَفَدَ الْعَبْدُ يَحْفِدُ حَفْدًا ، إِذَا خَدَمَ . وَفِي الدَّعَاءِ : «وَالَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ» ، أَيْ نَخْدُمُكَ وَنَعْمَلُ لَكَ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

حَفَدَ الْوَلَائِدُ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلَمْتُ بِأَكْفَهِنَ - أَرْقَمَةُ الْأَجْمَالِ ^(٢)

أَبُو عُبَيْدَةَ ، يُقَالُ : حَفَدَ يَحْفِدُ ، وَأَحْفَدُ يُحْفِدُ ، وَفُسِّرَ طَاوُسُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ^(٣) ، أَيْ خَدَمًا ، فَهُوَ مُطَابِقٌ لِلْفِعْلِ ، وَفُسِّرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْأَخْتَانِ ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا فِي الْمَقَامَةِ ، لِأَنَّ الْمَكْدِنِ لَا خَدَمَ لَهُمْ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْحَفْدَةُ : جَمْعُ حَافِدٍ ، كَسَامِلٍ وَكَامَلَةٍ .

[ذَكَرَ الْمُنْذِرُ الْمَلْقَبُ بِابْنِ مَاءِ السَّمَاءِ]

ابْنُ السَّمَاءِ ، الْجَوْهَرِيُّ : مَاءُ السَّمَاءِ لَقَبُ عَامِرِ بْنِ حَارِثَةَ الْأَزْدِيِّ أَبُو عَمْرٍو مُزَيْبِيَاءَ ، الَّذِي خَرَجَ مِنَ الْبَيْنِ لَمَّا أَحْسَنَ بِسَبِيلِ الْعَرَمِ ، وَسُمِّيَ مَاءَ السَّمَاءِ ،

(١) الْحَارِفُ : الْمَحْرُومُ (٢) اللِّسَانُ - حَفْدٌ ، دُونَ نَسَبَةٍ (٣) سُورَةُ النَّحْلِ ٧٢

لأنه كان إذا أجذب قومه منهم ، أى كفاهم مؤنتهم ، حتى يأتيتهم الخصب ، فحكانه خلف من ماء السماء . وقيل لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشام ، والعرب تُسمّى أيضاً بنى ماء السماء ، لأنهم يعيشون بماء السماء ، قال الأزهري رحمه الله : السّاوة ماء بالبادية ، وكان اسم أم المنذر ماء السماء ، فسَمّته العرب ابن ماء السماء .

وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى ، وأمه ماء السماء ، وهى امرأة من النّمر بن قاسط ^{هـ} سُميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى الذى اسمه قباذ بن فيروز ، خرج فى أيامه رجل يقال له مَزْدَك ، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم ، وألّا يمنع أحد أخاه ما يريد . فدعا قباذ المنذر ليدخل فى هذا المذهب ، فأئف ، وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس ، فطرده قباذ من مملكته ، وفناه عن الحيرة . ودعا الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار ، فأجابه ، وكان الحارث شديد الملك ، فشدّد له ملسكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدى قباذ يوماً ، فدخل عليه مَزْدَك ، فلما رآها قال لقباذ : ادفعها إلىّ لأقضى حاجتى منها . قال له قباذ : دونكها ، فوثب إليه أنوشروان ، فلم يزل يسأله أن يهب له أمّه حتى قبّل رجله ، فتركها له . فلما هلك قباذ وتولّى أنوشروان ، وجلس فى مجلسه أقبل المنذر إليه ، وأذن للناس ، فدخل عليه مَزْدَك ، ودخل عليه المنذر ، فقال أنوشروان : كنت أتمنى أمنيّتين ، أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لى ، فقال مَزْدَك : وما هما أيها الملك ؟ قال : تمنيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف - يعنى المنذر - وأن أقتل هؤلاء الزنادقة ، فقال له مَزْدَك : أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم ؟ فقال : إنك لها هنا يابن الزانية ! والله ما ذهب نثن ربيع جوربك من أنفى ، مذ قبلت رجلك إلى يومى هذا ، وأمر به ، فقتل وصُلب . وقتل فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف ، وصلّ بهم ، وطلب الحارث ، فخرج

حارباً بجميع مامعه ، وأخضر المنذر في طلبهم ، فأخذ من بهي آكل المرار ثمانية وأربعين رجلاً ، فضرب رقابهم وألح في طلب امرئ القيس ، فلحق بالسموول . وتمام القصة في الثالثة والعشرين^(١) .

* * *

قوله: الأحماء ، أى الأختان . ساسان : شيخ المكدين ، قال الفنجديهي : ساسان هو أستاذ المكدين ومقدمهم ، وواضع طرائقهم ومعلمهم . قال أبو الفتح إسماعيل بن الفضل بن الإخشيد السراج المكدي في كتابه : حدثنا أبو بكر البطايرني المكدي ، حدثنا محمد بن علي بن أحمد الفقيه المكدي ، حدثنا مليك ابن صالح المكدي ، قال : سمعت طرارة المكدي ، قال : قال ساسان : ألا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قلت : بلى ، قال : هي الكدية .

وقوله: أستاذ الأستاذين ، حدث أحمد بن الحسن ، قال : كنت عند أبي الحسن ابن أبي الفضل ، فدخل رجل فذكر أنه شاعر ، فقال : الشعراء ثلاثة : شاعر وشعور وشعرة ، فأما الشاعر فالفلق ، والشعور المستملح ، والشعرة المستفقل لرداءة شعره . والأستاذون ثلاثة : أستاذ في الدين كالعلماء والفضلاء ، وأستاذ في الدنيا كالوزراء والعمال والولاة ، وأستاذ لادين عنده يتعلم منه ولا دنيا ينتفع بها ، كاللججاء ، يسمى أستاذاً والبناء والملاح . وبنو ساسان : ملوك الفرس .

قدوة : مقدم . الشحاذين : المكدين والشحاذ : الملح في المسألة ، وشحذت السيف بالفت في صقالته . المبجل : المعظم ، يقال : بجلته تبجيلاً ، أى عظيمته تعظيماً ، مأخوذ من البجيل والتبجال ، وهو الرجل الضخم ، وفي الحديث : أصبتم خيراً تبجيلاً ، أى كثيراً ضخماً . الأغرة : المشهور لحسنه . الحججل : الأبيض . شب : ترعرع ونشأ .

فأعجبَ رَهْطَ الصَّهْرِ ما أَسَارُوا إِلَيْهِ ، وَأَذِنُوا فِي إِخْضَارِ
 الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ ، فَتَبَرَّزَ حِينَئِذٍ شَيْخٌ قَدْ أَمَالَ الْمُلُوكَ قَامَتَهُ ،
 وَنُورَ الْفَتَيَانِ ثَغَامَتَهُ ، فَبَاشَرَتِ الْجَمَاعَةُ بِإِقْبَالِهِ ،
 وَتَبَادَرَتِ إِلَى اسْتِقْبَالِهِ ، فَلَمَّا جَلَسَ عَلَى زُرِّيَّتِهِ ، وَسَكَنَتِ
 الضُّوْءُ لَهَيْئَتِهِ ، أَزْدَلَفَ إِلَى مَسْنَدِهِ ، وَمَسَحَ سَبْلَتَهُ بِيَدِهِ ،
 نِمَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُبْتَدِيِّ بِالْإِفْضَالِ ، الْمُبْتَدِعِ لِلتَّوَالِ ، الْمُتَقَرَّبِ
 إِلَيْهِ بِالسُّؤَالِ ، الْمُؤَمِّلِ لِتَحْقِيقِ الْأَمَالِ ، الَّذِي شَرَعَ الزَّكَاةَ فِي
 الْأُمُورِ ، وَزَجَرَ عَنْ نَهْرِ السُّؤَالِ ، وَنَدَبَ إِلَى مُوَاسَاةِ
 الْمَضْطَرِ ، وَأَمَرَ بِإِطْعَامِ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَزِّ ، وَوَصَفَ عِبَادَةَ الْمُقَرَّبِينَ ،
 فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ ، فَقَالَ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي
 أُمُورِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

أُحْمَدُهُ عَلَى مَا رَزَقَ مِنْ طُعْمَةٍ هَيَّيَّةٍ ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ اسْتِمَاعِ
 دَعْوَةِ بِلَانِيَّةٍ . وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،
 إِلَهًا يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَيَحَقُّ الرَّبُّ وَيُرْبِي
 الصَّدَقَاتِ

الْمُلُوكُ وَالْفَتَيَانُ : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . وَثَغَامَتُهُ : شَعْرَتُهُ . نُورُهَا : بَيَاضُهَا .
 وَالثَّغَامُ : نَبْتُ أَيْبُضَ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْبُهْمَى ، مُنَابِتُهُ الْجِبَالُ ، إِذَا أَيْبَسَ أَيْبُضَ
 بَيَاضًا شَدِيدًا .

أبو حنيفة : تنبت الثغامة خيوطاً طويلاً دقاقاً من أصل واحد، فإذا جفت ابيضت كلها ، وإذا أحل الثغام ، كان أشدّ بياضاً ، ويشبه به الشيب ، قال المزار الفقهسي :

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالثغام المخلص^(١)

وقال حسان رضى الله عنه :

إما نرى رأى تغير لونه شمطاً فأصبح كالثغام الحول^(٢)

والثغام : مرعى ، وتعلمه الخليل ، وقال بشر وذكر الخليل :

فبات ليلة وأديم يوم على البهيمى يجر لها الثغاما^(٣)

قوله : زُرَيْتُهُ : طِنَفْتُهُ ، والجمع الزرابى ، وقيل هى الوسائد ، وقيل الثياب الموشاة . والضوضاء : الأصوات . ازدلف : قَرُب . مسنده : موضع إسناده . سبَلْتُهُ : لحيتُهُ ، وقيل شاربه .

وهذه الخطبة التى ذكر ، ليس فيها لفظ إلا وهو يتضمن إشارة للكديّة .

قوله : المبتدِع ، أى الفاعل له قبل أن يفعل . النوال : العطاء . المؤمل : المرجو . شرع : فرض : ونهز السؤال ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾^(٤) ، وقال ابن عمران :

(١) اللسان - تنم : « المزار الأسدى »

(٢) ديوانه ٣١٠ .

(٣) لم أجده فى ديوانه .

(٤) سورة الضحى .

إِنَّ ابْنَ آدَمَ حِينَ يُلْحِفُ سَائِلًا يَنْقُدُ مِنْ حَقِّ عَلَيْهِ فَيَنْهَرُهُ
 وَاللَّهُ إِنْ يَقْصِدُهُ عَبْدٌ مُلْحِفٌ بِسْوَائِهِ يَدْنِيهِ مِنْهُ وَيَشْكُرُهُ
 فَسَلْ إِلَّا لَهُ وَلُذِّ بِهِ لَا تَنْسَهُ فَاللَّهُ يَذْكُرُ عَبْدَهُ إِذَا يَذْكُرُهُ
 وَقَالَ أَيْضًا :

سُؤَالُنَا دَعَاؤُنَا لِلْجَنَّةِ لَهِمْ عَلَيْنَا بِالْقَبُولِ مِنْهُ
 مَنْ سَأَلَ مِنْهُمْ وَهَكَذَا أَعْطَيْنَاهُ وَلَوْ بِتَمَرَةٍ فَوَاسِيَتُهُ
 أَوْ أَجَلِ الرَّدِّ لَا تَنْهَرَنَّهُ وَإِنْ يَكُنْ مُلْحِفٌ فَاعْذَرَنَّهُ
 * وَادْعَ لَهُ اللَّهُ وَصَبِّرَنَّهُ *

قوله : نَدَبَ : ، أى دَعَا وَحَرَّضَ . المضطر : الشديد الحاجة . القانع : المتذلل
 عند السؤال . والمعتَر : المتعَرِّض للمعروف . والمحروم : الذى لا يسأل أحداً
 شيئاً وهو محتاج . طُعْمَةٌ هَنِيئَةٌ : الكدية ، لأنَّ فائدتها تحصل بلا تحمل تكلف
 ولا مشقة . دعوة بلا نية : قولك للسائل : الله يعطيك ووسَّعَ اللهُ عليك
 ونحوه ، وأنشدوا فيهم :

- ورجالٌ ونساءً وبناتٌ وبنونا
 وإذا بدعَى لهم يو ما تَرامُ يفضبونا

وقال آخر :

أَلَمْ تَرْنِي أَبْغَضْتَ لَيْلِي وَذَكَرْهَا كَمَا أَبْغَضَ الْمَسْكِينُ دَعْوَةَ سَائِلِهِ

لأن السائل لا يطلب من المستول الدعاء ، إنما يطلب ما يشيع الأمعاء .
 ومما يستظرف من هذا ما حكى الأصمعي . قال : مرّ بي أعرابي سائلاً ،
 قلت له : كيف حالك ؟ قال : أسأل الناس إلخافاً فيعطوني كُرْهاً ، فلا يُؤجرون
 على ما يعطوني ، ولا يُبارك لي فيما آخذ ، والتمر بين ذلك فان ، والأجل
 قريب والأمل بعيد .

سأل أعرابي رجلاً يكنى أبا عمرو عند داره ، فقال : يرزقك الله ، فعاد إليه
 يوماً آخر فقال بمثل ما قال أمسٍ وتنحنح ، فقلتُ منه ضرورة ، فقال الأعرابي :
 إن أبا عمرو لمكبوس الوسطُ إذا سألناه تملّط وضربتُ
 * إعطاؤه : يرزقك الله قطعاً *

قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ، أي أعلم وأبين ، ومنه : شهد الله ، أي أعلم
 وبين أنه لا إله إلا هو ، ومنه : شهد الشاهد عند الحاكم ، أي بين له ما عنده
 وأعلمه الخبر . يحق : يزيل ويستأصل . الربا : الحرام وأصله الزيادة . ويربّي :
 يزيد ويكثر ، أي يضعفها له .

وأشهد أن محمداً عبدهُ الرَّحِيمِ ، ورسوله الكريم ، ابتعته
 لِيُنْصَحَ الظُّلْمَةُ بِالضَّيَاءِ ، وَيُنْتَصِفَ لِلْفُقَرَاءِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، فَرَفَقَ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُسْكِينِ ، وَخَفَضَ جَنَاحَهُ لِلْمُسْتَكَينِ ،
 وَفَرَضَ الْحَقُوقَ فِي أَمْوَالِ الْمُثْرَيْنِ ، وَبَيَّنَّ مَا يَجِبُ لِلْمُعْتَلِّينِ
 عَلَى الْمُكَثِّرِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ صَلَاةٌ تُحْظِيهِ بِالزُّلْفَةِ ، وَعَلَى أَصْفِيَاءِ
 أَهْلِ الصُّفَّةِ . أما بعد :

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ النِّكَاحَ لَتَتَعَفَّوْا ، وَسَنَ التَّنَاسُلَ لِكَي تَتَضَاعَفُوا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ . وَهَذَا أَبُو الدَّرَّاجِ ، وَلَاجِ ابْنُ خَرَّاجٍ ، ذُو الْوَجْهِ الْوَقَّاحُ ، وَالْإِفْكُ الصُّرَاحُ ، وَالتَّهْرِيرُ وَالصِّيَاحُ ، وَالْإِبْرَامُ وَالْإِلْحَاحُ ، يَخْطُبُ سَلِيطَةَ أَهْلِهَا ، وَشَرِيطَةَ بَعْلِهَا ؛ قَتَبَسَ بِنْتُ أَبِي الْعَنْبَسِ ، لِمَا بَلَغَهُ مِنَ التَّحَافِيهِ بِالْحَافِيهِ ، وَإِسْرَافِهَا فِي إِسْفَافِهَا ، وَإِنْكَامِهَا عَلَى مَعَاشِهَا ، وَاتِّعَاشِهَا عِنْدَ هِرَاشِهَا . وَقَدْ بَذَلَ مِنَ الصَّدَاقِ شِلَاقًا وَعُكَّازًا ، وَصِقَاعًا وَكَرَّازًا ، فَأَنْكَحُوهُ إِنْكَاحَ مِثْلِهِ ، وَصَلُّوا حَبْلَكُمْ بِحَبْلِهِ ، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْثَرَ فِي الْمَصَاطِبِ نَسْلَكُمْ ، وَيَحْرُسَ مِنَ الْمَعَاطِبِ شَمْلَكُمْ .

* * *

يَنْسَخُ : يَزِيلُ . الْمُسْكِينُ : الضَّعِيفُ الدَّلِيلُ . وَخَفَضَ جَنَاحَهُ : أَلَانَ جَانِبَهُ ، فَهُوَ مِثْلُ اللَّاشِقَاقِ وَالْحَنَانِ ، وَأَصْلُهُ أَنَّ الطَّائِرَ إِذَا نَحَضَ جَنَاحَهُ عَلَى فِرَاحِهِ ، وَيُلْحِفُهَا بِهِ شَفَقَةً عَلَيْهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ ^(١) . وَاسْتَعَانَ : خَضَعَ وَذَلَّ ، وَهُوَ اسْتَفْعَلَ مِنْ كَانَ ، أَصْلُهُ اسْتَكُونُ ، نَقَلْتُ حَرَكَةَ الْوَاوِ إِلَى الْكَافِ ، فَانْقَلَبَتِ الْفَاءُ لِتَحْرِكَتِهَا فِي الْحَكْمِ وَانْفِتَاحِهَا قَبْلَهَا

(١) سورة الإسراء ٢٤

فهى فى الأصل كاستقام وبابه ، أو يكون افتعل من السكون لأن الغاضع يقلل الكلام ، وأصله استكن ، فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله :

* قلت وقد جرت على الكَلَمَالِ *

أراد الكلكل ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ^(١) .

وأنشد أبو على :

* فَمَا اسْتَكَانَ لِلآلَاقِي وَلَا خَضَمًا *

قوله : المترين : الأغنياء . الزلفة : القربة ، يُقَرَّبُ بها إلى الله تعالى .
أصفيائه : أحبابه .

الضَّفَّة : تشبه : القبلة ، والصفّة كالسقيفة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغرباء يظعنون إليه من الجهات ، وليس عندهم شيء ، فيسكنون سقائف المسجد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّض الناس على الصدقة عليهم ، وكان يجلس لهم ، فيعلمهم القرآن . وخصهم الحريرى بالذكرك لأن لهم حالة يشبهون بها المُكْدِينَ ؛ من لباس المُخْلَقَانِ ، والعيش من صدقات الناس ؛ فهم يتأسَّون بأهل الضَّفَّة ، ويعملونهم حجةً على مَنْ زَجَرَهُمْ .

ومما يحسن أن ينشد فى هذا المعنى قول ابن عمران :

السائلون عيال الله والمال لله فابذله فيهم خاب من كؤُما
فجذب على ثقة بالله من خلف يا ويح من كان للرحمن متمماً !
واحذر من الرد إن الله يمقته من غير عذر وشؤم الشح قد علماً

الشعوب : جمع شعب ، وهو أكبر من القبيلة . الدراج ، كناه بذلك لكثرة حركته . ولآج : كثير ألؤلوج على الناس للكُدية . خراج : كثير الخروج في طلب رزقه ، والولآج : الخراج الذي يُحسن الدخول في أموره والخروج منها ، ويقال : فلان ولآج خراج ، إذا كان متصرفا في أموره نفّاعا لأوليائه ، ضرّارا لأعدائه . والإفك : سوء الكذب . الضراح : الظاهر البين ، يريد أنه إذا وصف حالته في كُدّيته لا يتكلم إلا بالكذب . الحرير : كثرة الصياح والشر ، وحرير الكلب : صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد . والإبرام : الإثقال والإضجار ، يريد أنه يوالى الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصّدقة حتى يفتدوا منه . والإلحاح : المداومة والإكثار من السؤال .

وقدم الخطيئة المدينة في سنة مجدبة ، فشى أشرافها بعضهم لبعض ، خوفاً من لسانه ، وقالوا : قدم علينا هذا الرجل ، وهو يأتي الشريف منا ، فإن أعطاه جُهد نفسه ، وإن حرّمه هجاه ، فجمّوا له بينهم أربعمئة دينار فأتوه ، فقالوا : هذه صلة آل فلان ، وهذه صلة آل فلان ، فأخذها ، وظنوا أنهم قد كفّوا المسألة ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول : من يحملني على بقلين كفاه الله كتيّة النار .

السليطة : الحديدية اللسان ، وقد سلطت فهي سليطة . شريطة : موافقة . بعلاها ، أى زوجها ، أى جاءت على شرط زوجها ، فهي مثله في خصامها كلها . قنبس : اسمها ، وهو من التبس ، وهي الشعلة ، كأنها لحدتها شعلة نار تحرق ما مرّت به . عنبس : من العبوس ، ونونه ونون قنبس زائدتان . التعافا : ارتدائها والتوائها فيه . إلحافا : إلحاحها في السؤال . إسفافا : تساقطها على ما تجمع من الناس ، والإسفاف : التّتبّع لمداق الأمور ، والإسفاف : الدخول في الأمر الدنيء ، وقد أسف : تعرّض للأمر الدنيء . انكماشها : انحفاؤها واجتهادها

تعايشها : قيامها وارتفاعها . هراشها : مشارتها لقرباتها ، والمهارشة أصلها للكلاب ، وهي أن يترافع الكلبان ويتناجحا ، ويمضّ كل واحد صاحبه ، فجعل مدافعتها عند الشرّ لأقرانها ومضارتها كالمراش للكلاب ، ولا تنكل عندهم نجابتها ، حتى تفوق أقرانها في الشرّ والسبّ بالقبايح وضرب الكفّ على ذلك ، وإلا فهي ناقصة . بذلّ : أعطى . شلاقاً : ثوب مرقع ، وليس بمرقى ، وقيل هو شبه المخلاة ، وقيل هو خريطة تجعل فيها كسر الخبز . عكّازاً : عصا تُقرع بها الأبواب ، وتضرب بها الكلاب . صيقاعاً : خرقة بالية تجعلها على رأسها . كرازا : إناء تعلّقه في ذراعها ، تجعل فيه الصدقة . وقيل : الكرازا إناء لشرب الماء ، وتسمّيه عامتنا الكرازة ، فكان صدق هذه المرأة ثوباً مرقعاً تلبسه للكُدْية . وخرقة بالية لرأسها وعصا تُقرع بها الأبواب ، وإناء إما أن تجعل فيه ما يدقّ من الصدقة أو تجعل فيه ماء لشربها عند طوافها للكُدْية ، والكرازا هو الخرنج ، والكرازا : كبش يحمل عليه الراعى أدواته . عيلة : فقرا . شملكم : عددكم . المعاطب : المهالك .

وخطأ أبو محمد في الدرة^(١) من يذهب من الخواصّ بالعيلة إلى العيال ، وقال : إنما العيلة الفقير ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ هَيْلَةً ﴾^(٢) وتصريف الفعل منه عال يعيل فهو عائل ، والجمع عائلة ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾^(٣) ، وفي الحديث : «لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عائلة يتكففون الناس» . وأما الذين يمالون فهم عيال ، واحدهم عيّيل كجديد وجياد ، وجمع عيال على عيائل كركاب وركائب ، وأعال فهو معيل : كثر عياله ، وعالهم يعولهم . وفي الحديث : « ابدأ بمن تعول » ، ومن كلام العرب : والله

(٢) سورة التوبة ٢٨

(١) درة الفواص ٣٩

(٣) سورة الضحى ٨

(٢٨ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

لقد عُلْتُ حتى علت أى صنت عيالى حتى افتقرت . وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ أَذُنَى أَنْ لَا تَعُولُوا ﴾ ^(١) فمعناه ألاَّ تجوروا . وقال بعض العرب لحاكم حُكِمَ عليه بما لم يوافقهُ : والله لقد عُلْتُ علىّ فى الحكم ، أى جرت ، وَمَنْ فَسَّرَ فى الآية ﴿ تَعُولُوا ﴾ بِأَنْ مَعْنَاهُ تَكَثَّرَ عِيَالُكُمْ فَقَدْ وَهَمَ .

• • •

[رسالة للصّابى فى التطفيل]

وإذ فرغنا من تفسير هذه الخطبة الهزلية ، وقد قدّمنا أن ابن همام فى هذه المقامة طفيليّ ، فنذكر هنا العهد الذى كتب الصّابى بأمر معز الدولة لحمد ابن فريعة اللطفيليّ ببغداد ، وقد استخلفه على التطفيل ؛ فإن هذا العهد يوافق خطبة المقامة فى كثير من أغراضها .

وذلك عهد عهده محمد بن عبد الرحمن إلى الفضل بن النعمان ، حين استخلفه على سنّته ، واستنابه على حياطة رسومه وسنّته ؛ من التطفيل على أهل مدينة السلام ، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، وما يجرى معها مِنْ سوادها وبياضها وأطرافها ، لما توسّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة اللضم .

وأمره أن يتوسّم اسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنجاه ، ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظه بمجهوده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، فإنّ كثيراً من الناس قد نسب صاحبه لاشّره والنّهم ، وحمله على الجشع والقرم ، فمنهم من غلط فى استدلاله ، فأساء فى مقاله ، ومنهم مَنْ شَحَّ بماله ، فدفع عنه

(١) سورة النساء ٨

باحتياله ، وكلا الفريتين مذموم ، وجميعهما مثليم ملوم ، ولا يتعلقان بعذر واضح ، ولا يتعريان من لباس فاضح . وقد عُرِفَت يا أخى بالتطفيل ، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل ، لأن التطفيل مشتق من الطَّفْل ، وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كَثُرَ استُعمل في صدر النهار وعجزه ، وأوله وآخره ، كما قيل : القمران للشمس والقمر ، وكما قيل العمران لأبى بكر وعمر .

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعطاء بعراياه ، ويسقط الأمر بسرياه ، فإنه يظفر من إرادته بالغنيمة الباردة ، ويصل بها إلى الغريبة الشاردة . فيجد بها من ظرائف الألوان ، اللذذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة في الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحَذَقِ صناعتهم وجودة أدواتهم ، وخِصْبِ ناديتهم ، وكثرة ذات أيديهم ؛ والله يوفر من ذلك حظنا ، ويُسدّد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا .

وأمره أن يحتلب التَّسْكِرَةَ ممن يحصل منهم وده ، ويستدعى بالتلطف نائله ورِفْدَه ، وكثيراً ما يتفق ذلك للمداخلين ، ويتيسر للتوصلين .

وأمره أن يصادق قَهَّارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطابخ ومدبريها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم وشاربهم .

وأمره أن يتعهد أسواق المتسوقين ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، أو أطمعة قد احتشد منها ، أتبعها إلى القصد بها ، وشيئها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعمل ميقات الدعوة ، ومن يحضرها من أهل اليسار والثروة .

وأمره أن يختب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرّعاة المقترين ، وألا ينقل إليها قدما ، ولا يغفر لآكلها فماً ، فإنها عصابة تجتمع على مضض النفوس والأحوال . وقلة الأحلام والأموال ، وفي التطفيل عليها إحجاف بها يؤلم . وإزراء بمروءة التطفيل يثلم .

وأمره أن يحوز الخوان إذا حصل، والطعام إذا نُقل، حتى يعرف بالخدم والتخمين عدد الألوان في الكثرة والقلة، واقتنائها في الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، فلا يفوته نصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقتها وجليلها. ومتى أحسن بتقلة الطعام وحجره، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه، والرشيد في أمره، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون طرفاً، ويقفلون نادباً، ويظنون أن المائدة تبليغهم إلى آخر حاجتهم، وتنتهي بهم إلى حد غايتهم، فلا يلبثون أن ينجلوا خجلة الوامق الراغب، وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب.

وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً، ويطوى دونه كشحاً، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، ويغض عن اللقمة الخشنة، وإن أته الوكزة في حلقه، صبر عليها لأجل الوصول إلى حقه، وإن وقعت الصفة في راسه، عض عليها بمواقع أضراره، وإن لقيه لاق بالهفاء، قابله بالطف والصفاء، إذا كان ولج الأبواب، وخالط الأصحاب، وجلس مع الحضور، واختلط بالجمهور، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب لوجهه، فإن كان حراً حسناً أمسك وتذم، وإن كان فقطاً غليظاً همهم وتكلم. وأن يستعمل مع المخاطب له الملاينة، وأن يحتنب عند ذلك الخاشنة. ليرد غيظه ويقل حده، ويكف غرّبه ويأمن سعيه. وأمره أن يتعهد الجوارشات المدة للعدد، والمقوية للعد، المشهية للطعام، المسهلة لسبيل الانهضام، وأن يكون في اتخاذها كالكتاب الذي يخط أعلامه، والفارس الذي يصقل حسامه.

وأمره إذا غشى أبواب الملوك وأهل السلطان، أن يصانع البواب والحجاب، ويخدم القواد والكتّاب، فإذا دخل السواد الأعظم، توسط الجمع لا يتأخر

ولا يتقدّم ، بعد أن يحمل ثيابه ، ويحسن كلامه وجوابه ، فطعام الأمراء
تُدعى إليه الحفلاء احتفالاً ، ويُتكمّل بالوفود على العدوم اكتفالا .

فهذا المهد مطابق لأحوال هذه المقامة .

[بعض الخطب الهزلية]

ومما يتصل بخطبة المقامة من الخطب الهزلية ما حدثوا :

أن رجلاً خطب إلى قوم ، وجاء يخطب ، فاستفتح خطبة النكاح بحمد
الله فأطال ، ثم ذكر خلق السموات والأرض واقتصر ، ثم ذكر القرون حتى
ضجر من حضر ، ثم التفت إلى الخاطب فقال : ما اسمك أعزك الله ؟ فقال :
والله قد نسيت اسمي من طول خطبتك ، وهى طالق ثلاثاً إن تزوجتها بهذه
الخطبة . فضحك القوم وعقدوا له في مجلس آخر .

أنكح خالد بن صفوان عبده أمتّه ، فقال له العبد : لو دعوت الناس
فخطبت . قال : ادعهم أنت ، فدعاهم ، فلما اجتمعوا تكلم خالد ، فقال : إن
الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين ، وأنا أشهدكم أني
قد زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية .

خطب مضعب بن حيان خطبة نكاح ، فحصر فقال : لقنوا موتاكم « لا إله
إلا الله » . فقالت له الجارية : عجل الله موتك ، ألمذا دعوناك !

خطب ثقيف في تزويج فأطال ، فقام واحد من القوم ، وقال : إذا فرغ
الثقيف ، بارك الله لكم ، فإن على شغلا أريد المبادرة فيه .

وخطب رجل امرأة، فجعل يخطب ويُنْعِظ، فضرب رأس ذكره بيده وقال:
مه ! إليك يساق الحديث .

فلما فرغ الشيخ من خطبته ، وأبْرَمَ لِلخَتَنِ عَقْدَ خِطْبَتِهِ ،
تَسَاقَطَ مِنَ النَّشَارِ مَا اسْتَعْرِقَ حَدَّ الْإِكْثَارِ ، وَأَغْرَى الشَّحِيحَ
بِالْإِثَارِ . ثم نهض الشيخ يَسْحَبُ ذِلَّالَهُ ، وَيَقْدُمُ أَرَاذِلَهُ .

قال الحارث بن همام : فتبعته لأنظر عُرْجَةَ القوم ، وَأَكْمَلَ
بَهْجَةَ اليوم . فعاج بهم إلى سِمَاطِ زَيْنَتِهِ طُهَاثِهِ ، وَتَنَاصَفَتْ فِي
الْحُسْنِ جِهَاتِهِ . فحين رُبِعَ كُلُّ شَخْصٍ فِي رِبْضَتِهِ ، وَطَفِقَ
يَرْتَعُ فِي رَوْضَتِهِ ، انْسَلَّتْ مِنَ الصَّفِّ ؛ وَفَرَّتْ مِنَ الزَّحْفِ .
فحانت من الشيخ لَفْتَةٌ إِلَى ، وَنَظَرَةٌ هَجَمَ بِهَا طَرْفُهُ عَلَى ، فقال:
إِلَى أَيْنَ يَا بُرْمَ ؟ هَلَّا عَاشَرْتَ مَعَاشِرَةً مِنْ فِيهِ كَرَمَ ! فقلت :
وَالَّذِي خَلَقَهَا طِبَاقًا ، وَطَبَّقَهَا إِشْرَاقًا ، لَازَقْتُ لِمَاقًا ، وَلَا لُسْتُ
رُقَاقًا ، أَوْ تَخْبَرَنِي : أَيْنَ مَدَبُّ صَبَاكَ ، وَمِنْ أَيْنَ مَهَبُّ
صَبَاكَ ؟ فَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ مَرَارًا ، وَأَرْسَلَ الْبُكَاءُ مِذْرَارًا ، حَتَّى
إِذَا اسْتَنْزَفَ الدَّمْعُ ، اسْتَنْصَتَ الْجَمْعُ ، وَقَالَ لِي : أُرْعِنِي السَّمْعَ .

...

قوله: أبرم، أى أحكم وسدّد. والختن: ولّى الزوجة مثل الأب والأخ وابن العم، فهم الأختان، وكل شيء من قبل الزوج، فهم الأحباء، واحدهم حمًا مثل قفّا، وحمو مثل أبو، وحمّ مهموز، والأصهار تجمعهم.

والخطبة: مراسلة المرأة للزواج. والنثار: ما نُثر عليه من الدراهم، وقد نثرت الشيء نثرًا إذا رميت به متفرقًا، وأصحابُ الزوج تدخلهم حمية عند ذلك فينثر كل واحد منهم من الدراهم ما أمكنه، فتجتمع ويشتري منها أنواع الأطعمة، ولذلك قال: أغرى الشيخ بالإيثار: أى حرّضه على أن يتكزّم. واستغرق: جاوز. وحدث ابن قتيبة عن أبي عثمان، قال: مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثير، فسألت بعضهم: ما جمعهم؟ قال: هذا سيّد الحى تزوج منّا فتاة، فتكلّم الشيخ فقال: الحمد لله وصلى الله على رسول الله، أما بعد؛ فإن الله جعل المناكحة - التى رضىها فعلا، وأنزلها وحيا - سببًا للمناسلة، وإن فلانا ذكر فلانة، وبذل لها من الصّدّاق كذا، وقد زوجته إياها، وأوصيته بوصية الله فيها، ثم قال: هاتوا نثاركم، فقلبت على رءوسنا غرائر القم.

قوله: ذلاذله، أى أطراف ثوبه، والذلل: ما يلى الأرض من أسفل القميص، أراذله: جمع أرذل، وهو الدنى، والرّذل والمرذل والزّذيل: الدّون. والعُرْجة: التعريج، ويقال: ما عليه عُرْجة ولا تعريج، أى إقامة. وبهجة الشيء: حسنه ونضارته. وعاج: مال. والسّماط: كلّ مُستَوٍ على نسق، وصفّ الناس سماط وأراد به المائدة. والطّهاء: الطّباخون من الناس. تناصفت: اعتدلت، وأنصف كلّ جزء منها صاحبه، والتناصف: اعتدال الحسن. ربيع: جلس، يقال: ربعت بالمكان: أقمت به، وربعت الحجر: رفعتة باليد، لأنظر شدتى. وربيع: وقف وتحبّس. ربضته: موضعه الذى يقعد فيه، والربضة: القطعة

الغليظة من الثريد . يرتع : يأكل ، وفلان يرتع ، أى هو مخصب لا يعدم شيئاً يريد . الروضة : موضع العشب ، وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام . الزحف : الضرب والوثوب إلى الشر ، وأراد أنه لما جلس كل إنسان أن يأكل خشى هو إن جلس للأكل أن يغرم ويشتهر بأنه طفيل ، فيحتاج أن يتدافع ، وأن يتوائب مع صاحب الحانوت في ثمن ما أكل ، فقر من ذلك . والزحف : مشى الأعمى . لفته : نظرة بالتواء ، كأنه يلوى عنقه فينظر ، ولقت إليه لفتاً والتفت : صَرف وجهه إليه . وهجم : دَخَلَ عليه بغتة . برَم : بخيل ، وهو الذى لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المَرَم . والمعاشرة : ترك المخالفة في الصحبة . طباقاً : جمع طبق ، أى هى طبق فوق طبق ، يعنى السماء . وطبقها : ملأها وعمها ، يقال : طبّق الغيمُ تطبيقاً إذا أصاب بمطره جميع الأرض . إشراقاً : نوراً وضوءاً . كَنَاقاً ، الأصمى رحمه الله : هو ما يشرب ، فإن أردت نفيه ، قلت : ما دقت لَمَاقاً ، وأنشد :

كبرقٍ لاح يُعجب مَنْ رآه ولا يشفى الحوائم من لَمَاقٍ^(١)

الحوائم : العطاش ، وحكى يعقوب أن اللماق يصلح في الأكل والشرب ، قال ابن كيسان : هو الشيء اليسير من الطعام والشراب .

لُست رُقاقاً : أكلت خبزاً مرققاً ، واللّوس : تتبع بقية الشيء الخلو في فك . ابن سيده : لاس لوساً : تتبّع الخلاوة ، فأكلها ، وماذاق لوساً ولا لواساً ، أى ذواقاً ، ولا يلوس كذا ، أى لا يتناوله .

أو تخبرنى : حتى تخبرنى . أين مدب صباك ، يريد أين ولدت فديت صغيراً . مهب صباك : مجيء ريحك ، وأراد أين بلدك . الصعداء : التنفس بتوَجُّع .

(١) اللسان - لَمَق ، ونسبه إلى نهشل بن حرى .

وهى من فعل المهموم . استنزف الدمع : استفرغه بالبكاء حتى انقطع ، ونزف
وأنزفه : أفناه بالبكاء ، واستنصت : أمرهم بالسكوت .

* * *

مَسْقَطُ الرَّأْسِ سَرُوجٌ وَهِيَ كُنْتُ أَمْوَجُ
بَلَدَةٌ يَوْجَدُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ وَيُرُوجُ
وَرُدُّهَا مِنْ سَلْسَبِيلٍ وَصَحَارِهَا مُرُوجُ
وَبَنُوها وَمَفَانِيهِمْ بَحْرُومٌ وَبُرُوجُ
حَبْذَا نَفْحَةٌ رِيًّا هَا وَمَرَاها الْبَهِيحُ
وَأَزَاهِيرُ رُبَاهَا حِينَ تَنْجَبُ الْغُلُوجُ
مَنْ رَأَاهَا قَالَ مَرَسَى جَنَّةِ الدُّنْيَا سَرُوجُ
وَلَمَنْ يَنْزَاحَ عَنْهَا زَفَرَاتٌ وَنَشِيحُ
مِثْلُ مَا لَاقَيْتُ مُذْخَرِ حَنِي عَنْهَا الْغُلُوجُ
عَبْرَةٌ تَهْمِي وَشَجْوٌ كَلَّمَا قَرَّ يَهْيِيحُ
وَهَمُومٌ كُلُّ يَوْمٍ خَطْبُهَا خَطْبُ مَرِيحُ
وَمَسَاحٌ فِي التَّرَجَّى قَاصِرَاتُ الْخَطُوعُ
لَيْتَ يَوْمِي حُمٌّ لَمَّا حُمَّ لِي مِنْهَا الْخُرُوجُ

مَسْقَطُ الرَّأْسِ ، يريد الموضع الذى سقط فيه رأسه عندما ولد . أموج :
أنصرف وأتمحوك ، والمائج : المضطرب . يروج : يتعجل . وردها : ماؤها .
السلسبيل . عين في الجنة ، والسلسبيل الخمر . المروج : الموضع الخصبة . مفانيهم :

منازلهم . والبروج : منازل القمر، وأراد أنهم في الحسن والرفعة كالنجوم ، وأن دورهم في العلوّ والاستواء كالبروج .

[مما قيل في الحنين إلى الأوطان]

وسبقه الحلواني القيرواني إلى هذا التشبيه ، فقال يتشوّق إلى القيروان بعد خرابها :

ليت شعري وليت حرف تَمِنَ رُبَمَا عَلِلَ الْفُؤَادَ السَّقِيمَا ^(١)
 كيف يَا قَيْرَوَانُ حَالُكَ لَمَّا نثر البين سِلْكَكَ المنظوما
 كنتِ أُمّ البلادِ شَرْقًا وَغَرْبًا فحما الدهر وشَيْكَ المرقوما
 نحن أولادها وَلَكِنْ عَقَقْنَا ^(٢) بعد أن لم نُنْقِ بِهَا أن نقيما
 دِمْنٌ كانت البروج وكُنَّا أُمًّا رَأَى قِبَابَهَا ونُجُومًا

وقال السريّ يتشوق إلى الموصل وكان مجلب :

أَحْلَى صَبُوتِنَا دَعَاءَ مَشُوقٍ يَرْتَاحُ مِنْكَ إِلَى الْهَوَى الْمَوْمُوقِ ^(٣)
 فَتَى أَزُورُ قَبَابَ مَشْرِقَةِ الذَّرَا فَأَدُورُ بَيْنَ النَّسْرِ وَالْعَيُوقِ
 وَأَرَى الصَّوَامِعَ فِي غَوَارِبِ أَكْهَمَا مِثْلَ الْهَوَادِجِ فِي غَوَارِبِ نُوقِ
 عَمْرَةَ الْجُذُرَانِ يَذْبَحُ طَبِيبُهَا فَكَانَتْهَا مَبْنِيَّةً بِخَلُوقِ
 مُخْمَرًا تَلُوحُ خِلَالَهَا بَيْضُ كَمَا فَصَّلَتْ بِالْكَافُورِ بَيْنَ ^(٤) عَفِيقِ
 كَلَفَ تَذَكَّرَ قَبْلَ نَاهِيَةِ النِّهَى ظَلَيْنَ : ظَلَّ هَوَى وَظَلَّ حَدِيقِ
 فَتَفَرَّقَتْ عِبْرَاتِهِ فِي خَدِّهِ إِذْ لَا مَجْرَى لَهْ مِنَ التَّفْرِيقِ

(١) الذخيرة ٢٢٥/١/٤ . (٢) الذخيرة : « نحن أبناؤها ولكن غنيّا » .

(٣) ديوانه ١٨٦ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

(٤) الديوان : « سمط عقيق » .

وقال الثعالبي : ما نظرت إلى الصوامع مذ برزت من نيسابور إلا ذكرت بيته ، فأرى الصوامع ، واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبراعته .

قوله : نفحة رباها ، أى حركة رانحتها الطيبة . مرآها البهيج : منظرها الحسن . وأزاهير رباها : أنوار كدائها ، وهى جمع أزهار ، وأزهار جمع زهر ، وهو النور . تنجيب : تزول .

ثم قال : مروج هى الموضع الذى أرسى به جنة الدنيا ، أى ثبتت فيه فكانه قال : جنة الدنيا هى مروج . ومروج هذه بلد بقرى وعمارات ، وهى من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة ، والجزيرة انقسمت قسمين : ديار ربيعة وديار مضر ، ومروج من كور ديار مضر ، وهى ثغرية إذا كان للمسلمين قوة يملكونها ، وإذا ضعف اغلبهم الروم ، عليها وهى كثيرة الثلج والبرد .

قوله : ينزاح : يبعد . النشيج : البكاء . والزفرة : تنفس المهموم . زحزحنى : نَحَّانى . تهيمى : تسيل . شَجُو : حزن . قر : سكن . يهيج : يتحرك . خطبها : أمرها مَرَّيج : مختلط . مساع : مواضع تصرفه ، ويكون المسمى مصدراً بمعنى السعى . قاصرات ، أى قصيرة ، وكذا استعمالها لأن فعلها قصر ، واسم فاعلها فاعيل مثل ظرف فهو ظريف . اَلْخَطُو : جمع خطوة . عوج : معوجة . يومى حم ، أى يوم موتى قدر ، أراد : ليت أئى مت ولا أرى خروجى منها .

أنس رضى الله عنه قال : النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به ، فإن كان لا بدَ فاعلا ، فليقل : اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى : وتوفى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

جابر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ، وأن يرزقه الله الإنابة » .

وفي معنى وصفه سروج وبكائه عليها، قال الحضرمي^(١) الأعمى يتشوق إلى القيروان:

أيا سقى الله أرض القيروان حياً كأنه عبراني المستهلآت^(٢)
فإنما لذة الجنات تربتها مسكية وحصاها جوهريات
أرض أريضة، أقطار مباركة^٣ الله فيها براهمين وآيات

وحدثني الفقيه أبو عبد الله بن زرقون في بستانه بطريانة، أيام قراءتي عليه
التوادر والسكامل، وكان رحمه الله ذا كراً بالطريقة الأدبية، مع تميزه بالطريقة
الفقهية، فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات أنواع من المذاكرات في فنون
أدبيات، فاهتز رحمه الله، وهش، وأظهر السرور بي - وأنا يومئذ غلام ما بقل
عذارى - فقال: لقد علمت أن بيني وبينك أخوة، قلت: وكيف ذاك يا سيدي؟
قال: إني ولدت ببلدك شريش؛ فزدت بالحديث غبطة، واستزدت منه،
فقال لي: ومع ذلك فتم قصة مستظرفة:

اعلم أني كنت اجتزت بشرش قافلاً من العدو، مع الفقيه أبي بكر
عبد الله بن العربي رحمه الله. فلما صرنا في بطاحها، وبين كرماتها وجنائها،
أخذ الفقيه أبو بكر يثنى عليها بكل لسان، على كثرة مارأى من البلدان،
ويقول: إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة، من كثرة الزرع
والضرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أني ولدت بها؟
فقال لي أبو بكر: أقول أنت الآن:

* مسقط الرأس شريش *

قلت له مجيزاً :

* وبها كنت أعيشُ *

قال أبو بكر :

* بلدة يوجد فيها *

قلت :

* كل شيء ويريش *

قال أبو بكر :

* وزدها من سلسيل *

قلت :

* وصحاريها عريش *

ثم سرنا في طريقنا على قوافي التسروجية ، فرددناها شريشية ، وقطعنا بها للطريق ونحن لانشعر ، فكانت أسرّ عشية رأيت ، بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنه قد نيف على الثمانين بسنتين ، يحدثني عن ابن عربي وابن عبدون الكاتب ونظرائهم ، في رياض كلّها نزهة على نهر إشبيلية ، وهي أماننا على بهجتها وجمالها ، مادحاً لي ولبلدي ، ليدخل على ذلك السرّة ، نسأل الله أن يبلغه غاية السرور في دار البقاء .

* * *

قال : فَلَمَّا بَيْنَ بَلَدَهُ ، وَوَعَيْتُ مَا أَنْشَدَهُ . أَيْتَنْتُ أَنَّهُ عَلَّامَتُنَا
أَبُوزَيْدٍ ، وَإِنْ كَانَ الْهَرَمُ قَدْ أَوْثَقَهُ بِقَيْدٍ . فَبَادَرْتُ إِلَى مُصَاحَّتِهِ ،
وَاعْتَنَمْتُ مَوْأَاكِلَتَهُ مِنْ صَفْحَتِهِ ، وَظَلْتُ مُدَّةَ مَقَامِي بِعَصْرِ
أَعْشُو إِلَى شَوَاطِئِهِ ، وَأَخْشَوْ صَدَفَتِي مِنْ دُرِّ أَلْفَاظِهِ ، إِلَى أَنْ
نَعَبَ يَدِنَا غُرَابَ الْبَيْنِ ، فَفَارَقْتُهُ مَفَارِقَةَ الْجَفَنِ لِلْعَيْنِ .

• * •

قوله : وَوَعَيْتُ ، أَيْ حَفِظْتُ . عَلَّامَتُنَا : عَلَامَتُنَا الْمَشْهُور بِالْعِلْمِ . أَوْثَقَهُ : رَبَطَهُ
وَشَدَّهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْقَبِيلُ مِنَ الْهَرَمِ فِي أَخْبَارٍ وَأَشْعَارٍ حَسَنَةٍ . مُصَاحَّتُهُ :
مَعَانِقَتُهُ وَوَضْعُ كَفِّي عَلَى كَفِّهِ .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا
أَمْرٍ يُصَافِحُ أَخَاهُ لَيْسَ فِي صَدْرٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى أَخِيهِ إِحْنَةٌ لَمْ تَنْفَرَقْ أَيْدِيهِمَا
حَتَّى يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمَا مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِمَا » .
الإِحْنَةُ : الْحَقْدُ .

اغْتَنَمْتُ : حَسِبْتُهَا غَنِيمَةً . مَوْأَاكِلَتُهُ : الْأَكْلُ مَعَهُ .
ابن عمر رضى الله عنهما : طَعَامُ السَّخَى دِمَاءٌ ، وَطَعَامُ الشَّعِيقِ دَاءٌ .

ظَلْتُ ، أَيْ دُمْتُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي ظَلَّتْ عَائِيهِ عَاكِفًا ﴾ (١) ،
أَيْ دُمْتُ عَلَيْهِ مَقِيمًا . قَالَ سَيَبُويْه رَحِمَهُ اللَّهُ : أَصْلُهُ : ظَلِمْتُ . اللَّيْثُ : يَقَالُ :
ظَلَّ نَهَارَهُ صَائِمًا . وَلَا تَقُولُ الْعَرَبُ : ظَلَّ إِلَّا لِكُلِّ عَمَلٍ بِالنَّهَارِ ، كَمَا لَا يَقُولُ :

بات إلا للعمل بالليل . أعشُو : أنظر ببصر ضعيف . شواظه . ناره ، والشواظ
 لهب النار الذي لا دخان فيه . صدّقتى : أذنى . نعب : صاح . البين : الفراق ،
 والفراق إذا صاح عندهم تشاءموا به ، وقد تقدّم ذلك . مفارقة الجفن للعين ،
 أى مسرعا بقدر ما تفتح عينك .

تم الجزء الثالث من كتاب شرح المقامات للشربشي وبلية الجزء الرابع
 وأوله شرح المقامة الحادية والثلاثين .

فهرس المقامات

صفحة

- المقامة الحادية والعشرون الرازية ، تتضمن كون أبي زيد
واعظا وتعريضه بالأمير ينهاء عن الظلم ٣ - ٣٧
- المقامة الثانية والعشرون القراتية ، تتضمن تفضيل أبي زيد
لموضوعي الإنشاء والحساب ٣٨ - ٧٥
- المقامة الثالثة والعشرون الشعرية ، تتضمن كون أبي زيد
مدعيا على ابنه أنه سرق شعره ٧٦ - ١٧٣
- المقامة الرابعة والعشرون النحوية ، تتضمن إلقاء أبي زيد
على جلسائه مسائل في النحو ، على سبيل الإلغاز ١٧٤ - ٢٣٢
- المقامة الخامسة والعشرون الكرجية ، تتضمن كافات الشتاء ،
وطلب أبي زيد ثيابا يكتسى بها ٢٣٣ - ٢٥٩
- المقامة السادسة والعشرون الرقطاء ؛ تتضمن الرسالة
التي حروفها على نوعين ، نوع فيها منقوط ، والآخر من
غير نقط ٢٦٠ - ٢٩٦
- المقامة السابعة والعشرون الوبرية ، وتتضمن طلب الحارث
ابن همام ناقته الضالة ، وما حصل من أبي زيد معه في ذلك ٢٩٧ - ٣٢٩
- المقامة الثامنة والعشرون السمرقندية ، تتضمن وقوف أبي
زيد بربوة يخطب خطبة عارية من الإعجام ٢٣٠ - ٣٦٨

المقامة التاسعة والعشرون ؛ تتضمن اجتماع الحارث بأبي
زيد في الخان ، وكبف صرع أبوزيد أهل الخان بإطعامهم الحلواء
وأخذه ما لهم

٣٦٩ - ٤١١

المقامة الثلاثون ؛ تتضمن كون أبي زيد خطيباً في تزويج
مكديه لثلاثها

٤١٢ - ٤٤٧

فهرس الموضوعات (*)

صفحة	
٥٤٤	الطبع والتطبع
٦٤٥	الرعد
٨٤٧	ابن مسمون
١٣ - ١١	نبذ من الأقوال الحكيمة
١٤	نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا
٢٠ - ١٧	الموت
٢٧ - ٢٣	ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة
٢٩ ، ٢٨	مما قيل في اللثغ من الشعر
٣٣ ، ٣٢	ذكر سام وحام ويافث
٣٦ - ٣٣	أخبار عمرو بن عبيد
٤١ - ٣٨	سقى الفرات
٤٢ ، ٤١	ذكر بنى الفرات
٤٣ - ٤٢	القنقاع بن شور
٤٤ ، ٤٣	أشعار في وصف الجليس
٤٥ ، ٤٤	الحور والكور
٤٧ - ٤٥	في وصف السفن
٥٢ - ٤٩	ذكر القلاء
٥٣ ، ٥٢	ما جاء في البارد
٥٤ ، ٥٣	ما جاء في تسميت العاطس
٥٧ ، ٥٦	أصل المثل : عند جهينة الخبر اليقين

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

صفحة

٦٥ - ٦٢	حائك الكلام
٨٥ - ٨١	السرقاا الشمرى وأنواعها
٩٥ - ٨٥	السرقاا المذمومة
١٠١ - ٩٧	ذكر التحذير من الدنيا وغرورها
١٠٩ - ١٠٤	نبذ فى توارا الخواطر
١١٤ - ١١٠	المساجلة ومثل منها
١٢٣ - ١١٧	أشعار فى وصف الفلما
١٢٣	أنواع البلاغة فى صناعة الشعر
١٢٧ - ١٢٣	التجنيس
١٣٠ - ١٢٨	التشبيه
١٣١ ، ١٣٠	الاستعارة
١٣٢ ، ١٣١	الإشارة
١٣٣ ، ١٣٢	الإيماء
١٣٣	التلويح
١٣٣	التعريض
١٣٤	التفخيم
١٣٦ ، ١٣٥	المطابقة
١٣٧ ، ١٣٦	التقسيم
١٣٨	التسليم
١٣٩ ، ١٣٨	التتميم
١٣٩	الترديد
١٤١ ، ١٤٠	التجريد
١٤١	التبعية

ضلحة

التبليغ	١٤٢، ١٤١
التصدير	١٣٢
الاستثناء	١٤٣
الالتفات	١٤٤
الأعتراف	١٤٧ - ١٤٤
الاستطراد	١٤٩ - ١٤٧
حكاية فرسى الرشيد والمأمون	١٥٠، ١٤٩
مراتب الخيل في الحلبة	١٥١، ١٥٠
أشعار في وصف الخيل	١٥٥ - ١٥١
فصل في كفران الصنيع	١٥٧، ١٥٦
مختار من الشعر في إشارة اللحظ	١٦٥ - ١٦٣
قصة السموم	١٧٣، ١٧٢
جذيمة ونديما	١٨٠ - ١٧٦
الزباء	١٨٥ - ١٨٠
فصل في الرياض والبساتين وما ورد فيها من الشعر	١٩٧ - ١٨٥
مما قيل في الشيب والشباب	٢٠١ - ١٩٧
ترجمة سيبويه	٢٠٩ - ٢٠٦
بعض حكايات النحويين	٢١٢ - ٢٠٩
السكرج	٢٣٤، ٢٣٣
من مقامات البديع البخارية	٢٤١ - ٢٤٠
ذكر طيبة	٢٥٢ - ٢٥٠
ترجمة ابن سكرة	٢٥٧ - ٢٥٤
قصص في الفرج بعد الشدة	٢٦٨ - ٢٦٥
مما قيل في الحجج	٢٨٥ - ٢٨٢

صفحة

٢٨٩ - ٢٨٧	. . .	منافرة بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة
٣٠٤ - ٢٩٩		أخبار ذى الرمة ومي
٣١٦ - ٢١٤		ذكر أشعوب وبعض نوادره
٣٢٠ ، ٣١٩		مما قيل من الشعر في الذباب والبعوض
٣٣١ ، ٢٣٠		ذكر سترقند
٣٣٢ ، ٣٣١		يوم عروبة
٢٣٥ - ٣٣٣		ذكر الحمام وما ورد فيه من الشعر والحكايات
٣٤٣ - ٣٣٢		مما قيل في الأمل والطمع من الشعر
٣٤٦ - ٣٤٣		ذم الدهر ومما قيل فيه من الشعر والحكايات
٣٥١ - ٣٥٠		مما قيل في عجز الأطباء حين يحىء الأجل
٢٦٣ - ٣٥٩		ذكر كسرى
٣٦٥ - ٣٦٣		ذكر دارا
٣٦٧ - ٣٦٦		ذكر الفضيل
٢٧٠ - ٣٦٩		ذكر واسط
٣٧٣ - ٣٧٢		مما قيل من الشعر في الغلمان
٣٨٣ - ٣٨١		ترجمة إبراهيم بن أدهم
٣٨٨ - ٣٨٣		ذكر جبلة بن الأيهم
٣٨٩ ، ٣٨٨		ذكر المغالاة في الصدقات
٢٩٥ - ٣٩٣		أشعار في التطير من الدنيا والزهد فيها
٣٩٩ - ٢٩٨		بعض خطب النكاح
٤٠٨		مما قيل في الاعتراف بالذنوب والطمع في رحمة الله وعفوه
٤١٢		ترجمة المنصور

صفحة

٤١٣		ذكر مدينة صور
٤١٥		ذكر مصر
٥١٦		ذكر المقياس
٤١٧		ذكر الأهرام
٤١٧		بعض معالم مصر
٤٢٣		أخبار المنذر الملقب بابن ماء السماء
٤٣٧ - ٤٣٨		رسالة للصابي في التطييل
٤٣٧		بعض الخطب الهزلية
٤٤٢		مما قيل في الحنين إلى الأوطان